المجلس البلدي لمدينة
تيزنيت

الشيخ ماء العينين
فكر وجهاد

تقديم : د. اليزيد الراضي

تنسيق : النعمة علي ماء العينين



الشيخ ماء العينين
فكر وجهاد

المجلس البلدي لمدينة
تيزنيت

الشيخ ماء العينين
فكر وجهاد

تقديم : النزيه الراضي

تنسيق : النعمة علي ماء العينين

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتــــاب : الشيخ ماء العينين؛ فكر وجهاد

تقديـــم : اليزيد الراضي

تنسيـــق : النعمة علي ماء العينين

التصـفيـف : محمد رايس - إنزكان

الخطـــوط : أحمد معتصم - تارودانت

الغـــلاف : عمر أفا - الرباط

الطـبــع : النجاح الجديدة - الدار البيضاء

رقم الإيـداع : 2000 / 1269

ردمـــك : 9954-0-1444-6

الطبعة الأولى : 1421هـ-2001م

طبع هذا الكتاب على نفقة المجلس البلدي لمدينة تيزنيت

تصدير

يضم هذا الكتاب عروض الندوة العلمية التي نظمها المجلس البلدي لمدينة تيزنيت يومي 28 و29 أبريل 2000 حول شخصية العالم والمربي والمجاهد الشيخ ماء العينين، والتي شارك فيها ثلة من الأساتذة الباحثين من مختلف المدن المغربية، وتناولوا بالدرس والتحليل جوانب من شخصية هذا العالم المتعدد المشارب والاهتمامات، فجاءت عروضهم متعددة ومتنوعة المحاور:

محور تاريخي، ومحور أدبي، ومحور ديني.

وتبين من خلال هذه الدراسات المستوى العلمي العالي والفكري والجهادي عند الشيخ ماء العينين، ومكانته في مجتمعه باعتباره رائدا من رواد الحضارة العربية الإسلامية في المغرب.

ولا يسعنا بمناسبة إصدار هذا العمل إلا أن نشكر جميع المساهمين في إنجاحه، وخاصة المجلس البلدي لمدينة تيزنيت وعلى رأسه السيد الرئيس الأستاذ المحترم أحمد إديعز، كما لا يفوتنا أن نوجه الشكر والتقدير للأستاذ المحترم اليزيد الراضي الذي قدم لهذا العمل وسط اهتماماته وانشغالاته الكثيرة، وكل من بذل مجهودا في إخراجه وخاصة السادة الأساتذة: محمد الحاتمي، والمهدي السعيدي، ومحمد ناجي بن عمر، وأحمد أبو القاسم، وأحمد بومزكو.

والله ولي التوفيق

النعمة علي ماء العينين

تقديم

يعتمد الفكر العربي الإسلامي على مبدإ أساسي يشكل عموده الفقري الذي يحفظ له تماسكه وتوازنه، ويمنحه القوة والمناعة، والقدرة على التحدي والصمود، وهذا المبدأ هو تعارف الأجيال وتلاقحها وتكاملها، واستفادة اللاحق منها من علم السابق وتجربته.

وإذا كانت بعض النظريات البشرية الوهمية تصور الإنسان عدوا لأخيه الإنسان، وتشعل بتصويرها الخاطئ نار العداوة بين طبقات المجتمع من جهة، وبين الأجيال المتلاحقة من جهة ثانية، وتصور الحياة البشرية سلسلة متنافرة الحلقات من التناقضات والصراعات، فإن التصور الإسلامي للعلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وبين الجيل اللاحق والجيل السابق، لا ينبني على مثل هذه الآراء الشاذة، والتصورات الغريبة، وإنما ينبني على مبدإ عام، هو الأخوة الإنسانية، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم من بني آدم، وآدم خلق من تراب»[2]، ويستمد مكوناته ومقوماته مما ترشح به تلك الأخوة من معاني الرحمة والعطف والتقارب والمحبة والإيثار، ويضع التعارف والتفاهم والتعاون والتكافل والتكامل مكان ما تسميه تلك النظريات البشرية بالصراع الطبقي، وبالصراع بين الأجيال.

وما من شك في أن الجيل الذي يضيف إلى رصيده الفكري والمعرفي أفكار من سبقوه ومعارفهم، ويضيف إلى التجارب التي يكتسبها في الحياة تجارب من سبقوه، يثري حضارته، ويغني معارفه، ويوسع مداركه وآفاقه، ويختصر الطريق، ويتجنب الأخطاء والمزالق، ويتغلب بسهولة على الصعوبات والعراقيل، لأنه لا ينطلق من الفراغ، ولا يبدأ

---

(1) الآية: 13 من سورة الحجرات.

(2) رواه البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه كما في تفسير ابن كثير: 4/217.

من الصفر، وإنما ينطلق من مكاسب ثمينة حققها السابقون، ويبدأ حيث انتهى بهم المسير، ويبني على الأساس المتين الذي وضعوه.

أما الجيل الذي يعادي من سبقوه، ويتجاهل ما حققوه، ويضع بينه وبينهم حجابا كثيفا يمنعه من التعرف على ما عندهم، والاستفادة منهم، فإنه يحرم نفسه من معارفهم وخبرتهم، ويفوت على نفسه فرصة ثمينة هو بحاجة ماسة إلى استغلالها، لتجنب العثار، وتوقي السقوط، وطي المراحل، والسرعة في الإنماء والتطوير.

وتكريم الأشخاص المرموقين الذين يمثلون نماذج إنسانية رفيعة، وقمما عالية في الفكر والاستقامة والتنوير، يدخل في إطار التواصل المحمود بين الأجيال، ويشكل مظهرا مشرقا من مظاهر نضج الفكر، ووضوح الرؤية، وبعد النظر، وسلامة استعمال الجهازين العقلي والوجداني.

وفي هذا الإطار تدخل هذه الندوة العلمية التي وفق المجلس البلدي لمدينة تيزنيت في تنظيمها ورعايتها، كما وفق في اختيار شخصية الشيخ الرباني العلامة ماء العينين موضوعا لها، ذلك أن هذا الشيخ الفاضل ليس شخصية عادية، بل هو شخصية فذة متميزة من نواح عدة:

1-من ناحية سعة معارفه، وموسوعية ثقافته، وتضلعه في جل العلوم الرائجة في عصره كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة التي تناول فيها حقولا معرفية كثيرة.

2-ومن ناحية تصوفه، وإقباله على ربه بصدق وإخلاص، وتمسكه في عصر المطامع والأهواء بأذيال الزهد والورع كما يشهد بذلك الخاص والعام.

3-ومن ناحية وطنيته وغيرته على بلده المغرب، ووقوفه سدا منيعا، في شموخ وثبات، أمام المؤامرات الاستعمارية، والمكايد التوسعية كما يشهد بذلك نضاله ضد الأجانب، واتصاله المستمر بالسلطة المركزية المغربية.

4-ومن ناحية جوده وكرمه، ونفعه المتنوع للعباد، إيواء وإطعاما، وتلقينا وإرشادا كما يشهد بذلك كثرة العفاة والتلاميذ والمريدين الملتفين حوله أينما حل وارتحل.

5-ومن ناحية فكره الوحدوي النابذ للانقسام والتعصب والانغلاق، على

المستويين: السياسي والطرقي.

وإن شخصية فذة متميزة كهذه، لا ينبغي أن يسدل الستار على وجهها المشرق وتنسى، وإنما ينبغي أن تبعث وتخلد، لتبقى حية في ذاكرة الجيل الحاضر، والأجيال اللاحقة، لأنها تشكل -بفكرها النير، وعلمها الغزير، وسلوكها الممتاز- معلما مهما جدا من معالم الطريق، ما أحوج الناس في كل عصر، وفي كل مصر، إلى الاهتداء به، فإحياؤها إحياء للمثل العليا الرفيعة، وبعثها بعث للثقة والأمل في النفوس، والحديث عن مزاياها المتنوعة يشكل درسا تربويا مهما للغاية، يشعر الخلف بما كان عليه السلف من جد وجهاد، ويوضح للأبناء والأحفاد ما بذله الآباء والأجداد في سبيل العلم والدين والأخلاق من جهود سخية مشكورة، وتضحيات ضخمة غالية، ليتحملوا بثقة وتفاؤل وشجاعة مسؤوليتهم، ويرتفعوا علميا ودينيا واجتماعيا إلى المستوى الذي يؤهلهم لتسلم الراية، والحفاظ على الأمانة.

ولقد وفق السادة الأساتذة الباحثون الذين شاركوا في هذه الندوة، وأغنوا ببحوثهم القيمة محاورها، في تسليط الضوء على جوانب مشرقة من شخصية الشيخ ماء العينين، فواجهنا في بحوثهم الأصيلة الرصينة بوقاره الفقهي، وأريحيته الأدبية، وتسامحه الصوفي، وفكره الوحدوي.

ونحن إذ نشكر هؤلاء السادة الباحثين على ما اتسموا به في بحوثهم من عمق في التناول، ومن الإجادة والإفادة، ونشكر المجلس البلدي لمدينة تيزنيت على تنظيم هذه الندوة، وعلى طبع أعمالها، نهيب بالمجالس البلدية في كل المدن المغربية أن يسيروا في هذا الدرب القاصد، وأن يعطوا للثقافة من عنايتهم ما هي جديرة به، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

اليزيد الراضي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير



السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت

وعن يمينه الشيخ ماء العينين لارباس رئيس المجلس العلمي للأقاليم الصحراوية

وعن يساره الدكتور تقي الله ماء العينين عضو المجلس الدستوري

الكلماتُ الافتتاحيّة



رئيس المجلس البلدي لمدينة تيزنيت يلقي الكلمة الافتتاحية

كلمة الأستاذ أحمد اديعز
رئيس المجلس البلدي

سيادة عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت.

أيها السادة الأفاضل.

أيها الحضور الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله.

يشرفني أن أتناول الكلمة باسم المجلس البلدي لمدينة تيزنيت، في هذا الجمع الكريم المحترم، ونحن نفتتح أشغال هذه الندوة المباركة بوقار موضوعها الذي يسلط الضوء حول شخصية أحد الأقطاب الفاضلة التي استطاعت أن ترسخ مكانتها الجهادية والعلمية والدينية بجدارة في التاريخ المغربي، كما يسعدني غاية السعادة أن أعبر في هذا المقام باسم المجلس البلدي وباسم كافة سكان هذه المدينة العزيزة عن عميق الترحاب الأصيل بضيوف تيزنيت القادمين للمشاركة في أشغال هذا اللقاء التاريخي الهام، وإن كانت مدينة تيزنيت تُعْتَبرُ أهل الشيخ ماء العينين وأحباءه وأقرباءه ومريديه هم أهلها وليسوا ضيوفا.

لقد برمج المجلس البلدي في إطار أنشطته الثقافية تنظيم هذه الندوة العلمية الوطنية، وهو يدرك أنها تختلف عن كل الندوات السابقة التي نظمها، وإن موضوعها عميق للغاية بمضمونه وأبعاده، وكبير جدا لارتباطه بشخصية العالم المجاهد الشيخ ماء العينين، هذا الشيخ الجليل والولي الصالح الذي تتشرف تيزنيت باحتضان ضريحه،

وبلرتباط صفحاته الخالدة من تاريخها بجزء من حياته التي كرسها لتوطيد أواصر الوحدة الوطنية وخدمة قضايا الشريعة والأدب والجهاد تحت راية العرش العلوي المجيد.

ونظرا لتقدير المجلس البلدي لجسامة الموضوع ومضمونه إلى درجة أن أحاسيسنا تتملكها هالة التخوف من أن لا تكون إمكانيات المدينة قادرة على تحدي الصعاب والإحاطة بكل ما يلزم للوفاء بالشروط الضرورية وكل ما يتطلبه الأمر لتنظيم وإنجاح ندوة وطنية؛ فإننا الآن قد تنفسنا الصعداء بحضور هذه الشخصيات المحترمة التي نعبر لها عن جزيل الشكر والتقدير لتلبيتها الدعوة وتكبد مشاق السفر وعناء التنقل من أجل الحضور في هذه الندوة القيمة.

كما نغتنم هذه المناسبة السعيدة لنعبر عن خالص الشكر والعرفان للسيد عامل صاحب الجلالة على الإقليم الذي مهد لنا الطريق بكل التشجيعات والتسهيلات، وعلى الدعم المادي الذي قدمه للمجلس لتنظيم هذه الندوة، وكذا للجنة المنظمة التي سهرت بجدية على تنظيم هذه التظاهرة العلمية، ولكل الفعاليات والطاقات التي ساهمت من قريب أو بعيد في دعمها وإنجاحها.

وفي هذا النطاق نشير إلى أن المجلس البلدي منذ انتدابه قد أخذ على عاتقه نهج الاهتمام بأعلام الثقافة الوطنية والشخصيات التي لها آثارها في جميع المشارب الفكرية، وسيستمر بعد هذه الندوة في نهجه، حيث سينظم ندوة أخرى إن شاء الله في السنة المقبلة حول: "تيزنيت ورهانات التنمية المحلية"، وذلك في ظل المتغيرات التي تشهدها المدينة من حيث نسيجها العمراني والاقتصادي والسكاني، وندوة حول قطب من أقطاب المنطقة هو العلامة محمد المختار السوسي.

حضرات السيدات والسادة:

لابد من التذكير أن حلم تنظيم هذه الندوة كان يلازم فكر المجلس منذ تنظيم "ندوة سوس والصحراء المغربية: تواصل حضاري وثقافي" في يوليوز سنة 1998، وكنا قد برمجناها لتكون في شهر غشت الماضي، ولكن الفترة تزامنت مع الفاجعة الكبرى التي ألمت بالمغرب والعالم العربي والإسلامي بفقدان الملك العظيم والأب الرحيم المغفور

له جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه. وخلال سنة ألفية 2000 وبزوغ العهد الجديد، عهد صاحب الجلالة سيدي محمد السادس نصره الله، وعلى ضوء التجديد الشامل الذي تشهده المملكة الشريفة في جميع المجالات، تجدد العزم في نفوسنا لاستدراك تنفيذ هذا العمل، وذلك بدعم مادي ومعنوي مشكورين من مختلف الفاعلين، وبالحماس الخالص من آل الشيخ ماء العينين، في حق شخصية ميزت تاريخ مدينة تيزنيت في بداية القرن العشرين، حيث إن هذا الشيخ الجليل الغيور على عقيدته وأمته ووحدة وطنه دخل مدينة تيزنيت، وبها انتقل إلى عفو ربه، ودفن بها سنة 1910م، وتمكن من ربط علاقات بصفة خاصة مع أعيان المدينة وسوس بصفة عامة، حيث أصبحت تيزنيت محجا للعلماء والفقهاء والأدباء من جميع المناطق والجهات، يستفيدون من معين غزارة علمه طيلة مدة إقامته بها..

حضرات السيدات والسادة:

عندما يكون الإنسان أمام مثل هذه النخبة العالية المتميزة من الأساتذة والباحثين من ذوي العلم والإلمام والاختصاص، يتردد لسانه عند كل كلمة، وإن المحاور التي تشكل العروض المبرمجة لهذا اللقاء دقيقة وشاملة للتفرعات المعرفية بشخصية الشيخ الجليل ماء العينين، الوطني الغيور، والإمام المجاهد الذي اختار مدينة تيزنيت دون سائر المدن بحكم ما يربطه بها وبأهلها وبمنطقة سوس عامة من علاقات ووشائج في مستويات متعددة معرفية وصوفية وأدبية واجتماعية واجتهادية.

إننا حضرات السيدات والسادة نتطلع بشغف كبير إلى عروض ومداخلات السادة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة العلمية، وما ستسفر عنه من حقائق موضوعية ومعرفية، وما ستتضمنه من تنوير فكري لتقريب واستجلاء حقائق فكر أحد الأعلام البارزين في الثقافة والعلم والتصوف.

إن المجلس البلدي سيسعى جاهدا لتوسيع وتنويع أنشطته الثقافية والعلمية، ودعمها ومساندتها، وستبقى الإرادة معقودة على خلق تعاون وشراكة مع جميع الفعاليات الثقافية من جمعيات وجامعات بمختلف تخصصاتها، إيمانا منه بضرورة تحقيق

هدف خدمة الثقافة والمعرفة في وطننا الكبير الموحد، باعتبارها عنصرا أساسيا من عناصر التنمية.

مرة أخرى أجدد الشكر والتقدير لكل من ساهم في الإعداد لهذا اللقاء العلمي الهام، وأخص بالذكر السيد العامل المحترم، والسادة الفاعلين الاقتصاديين، وأعيان المدينة، على مساهماتهم المادية والمعنوية في الإعداد والتنظيم.

كما أتقدم بخالص التحية إلى السادة الأساتذة على الحضور لتشريف المدينة بالمشاركة.

وفي الختام أهنئ أسرة الشيخ ماء العينين ومعها سكان مدينة تيزنيت السلطانية على هذا الإنجاز الرائع المتميز، الذي يغذي في نفوسنا عميق الاعتزاز والافتخار، متمنيا لأشغال هذه الندوة كامل التوفيق والنجاح، وللضيوف فائق الترحاب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الدكتور ماء العينين حمداتي شبيهنا
عضو الديوان الملكي

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين.

-السيد رئيس المجلس الإقليمي.

-السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت.

-السيد رئيس المجلس البلدي لهذه المدينة التي شاء لها الله أن تجمع كثيرا من القيم الإسلامية والعلمية بما ضمته في رحابها من رفات الأولياء والعلماء والصالحين.

السيد رئيس المجلس الإقليمي.

-السادة العلماء والمنتخبين والمثقفين.

إنني إذ أشكر للمجلس البلدي ولرئيسه باسمي الخاص واسم آل الشيخ ماء العينين هذه المبادرة الطيبة، التي بقدر ما تذكرنا بفضائل أحد أعلام الوطن البارزين، فإنها تشد الأجيال الصاعدة إلى ضرورة التحلي بشيمهم الفاضلة، والسير على محجتهم المثلى، كما أن هذه المناسبة بالذات ترسم أمامنا جميعا ذلك الدور الطلائعي الذي لعبته تيزنيت المدينة والإقليم في تاريخ هذا الوطن علما ونضالا وأدبا.

فهذا الإقليم أرى من حقه أن يفتخر، ومن واجبنا نحن تجاهه أن نذكر بدوره في صنع الملاحم الوطنية، وإنجابه لأعظم إنسان أسس أكبر الدول التي يفتخر بها التاريخ

الإسلامي، وإنني أدرك بعض التساؤلات التي سترقى إلى ذهن السامع والقارئ عن مدى صدق هذا القول المهمول من قبل المؤرخين، فأسارع إلى التذكير بأن عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية انطلق إلى رباطه في شواطئ الدولة الشقيقة العظيمة بتراثها وقيمها وعلمائها وإشعاعها العلمي موريتانيا التي برهنت أنها أهل لكل احترام وتقدير، أذكر بأن عبد الله بن ياسين مسقط رأسه في هذا الإقليم، ودراسته كانت فيه، وأستاذه هو شيخ الجماعة وكاك بن زلو، وهو الذي وجهه إلى هنالك بطلب من شيخ هذا الأخير أبو عمران الفاسي. فمن ذلك لم تتوقف تيزنيت إقليما أو مدينة عن العطاء العلمي، الذي بوأها مكانة سامية في نفوس كل المطلعين على تاريخ وطننا الحبيب.

إن تاريخ شعراء إليغ، وما كتب عنهم العلامة الشاعر الوطني الغيور المرحوم الشيخ المختار السوسي، سيبقى نبراسا يضيء طريق المهتمين بالأدب العربي الرفيع والمغربي منه بصفة خاصة، وكذلك ما تفضلت بعرضه كليات الآداب التابعة لجامعة محمد الخامس وجامعة ابن زهر من كتب قيمة على هامش هذه الندوة، ليكرس مدى المكانة الرفيعة التي احتلتها تيزنيت ضمن لائحة الحواضر ذات التاريخ المضيء.

وتشاء الأقدار أن تتوج مدينة تيزنيت مسيرتها العلمية والأدبية بانطلاقة جهادية ستبقى درة وضاءة تمد تاريخ نضال المدن وأبنائها بروافد لا ينضب معينها، فلما تكالب الاستعمار على المغرب، وتتابعت جهوده ومؤامراته، وأحبكت وسائل تحكمه عبر زخم من المؤتمرات والاتفاقيات، والاستطلاعات، كانت الصحراء المغربية تشكل هدفها الأول رغبة في التطويق الاستراتيجي، إذ في الشمال إسبانيا تتوقع الانقضاض على هذه المنطقة انطلاقا من المدينتين السليبتين سبتة ومليلية، ومن الشرق فرنسا في الجزائر أصبحت مدركة أن وضعها الجديد سيمكنها من استعمار المغرب في أقرب وقت ممكن، ثم وضعها في السينغال ضاعف من اهتمامها باستعمار الشقيقة موريتانيا.

إذًا بقية الأطراف الجنوبية تشكل هاجس الدولتين الفرنسية والإسبانية، ويكون تحرك أبناء سوس مصدر قلق دائم لهم، وشعورا من ملوك الدوحة العلوية صان الله

ملكهم بهذا الوضع المتداخل بين الاهتمام والمواجهة، عين جلالة المغفور له السلطان مولاي عبد الرحمن جدنا الشيخ ماء العينين نائبا عنه في الصحراء، ثم تتابع الملوك المنعمون مولاي محمد ومولاي الحسن ومولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ على تجديد هذه الثقة، ولاشك أن عمله بحكم ذلك المنصب سيتناوله أحد الباحثين المحترمين خلال هذه الندوة.

ثم إن الشيخ ماء العينين أمره السلطان مولاي عبد الحفيظ رضي الله عنه بالذهاب من السمارة إلى تيزنيت، التي أصبحت آنذاك حاضرة الجهاد ومدينة الوحدة الصامدة، حتى إن إقليم تيزنيت احتضن عمليات الجهاد التي قادها أبناء الشيخ ماء العينين، والتحم فيها أبناء الصحراء وأبناء سوس لأكثر من ثلاثين سنة، لم تنقطع خلالها المواجهات التي ظل المجاهدون فيها يلجمون المد الاستعماري، وسيبقى التاريخ يمجد أبناء هذا الإقليم الذين مولوا تلك الحركة الجهادية وانخرطوا فيها بأنفسهم.

ثم لما استقل المغرب ظل أبناء هذا الإقليم من أخلص رعايا صاحب الجلالة، ولعل العطف والأبوة والحنان التي شملهم بها المنعمان جلالة الملك محمد الخامس ووارث سره أمير المومنين عظيم الإنسانية الحسن الثاني لخير مكافأة لأبنائه على نضالهم وإخلاصهم وصلابة شكيمتهم.

وإنما يتطلع إليه إقليم تيزنيت في ظل القيادة الرشيدة لأمير المؤمنين وارث سر أمجاد الدوحة النبوية محمد السادس أيده الله ونصره، سيكون منقذا لتيزنيت، وسيرجع إليها إشعاعها، وسيكون عاملا على رقيها وازدهارها، وإن بشائر ذلك بدأت تظهر بإعلان قرب زيارته أيده الله ونصره لها.

أشكركم مرة أخرى أيها العامل ورئيس المجلس البلدي وأعضائه على هذه المبادرة القيمة، أمد الله في عمر أمير المؤمنين محمد السادس، وأقر عينه بصنوه الرشيد المولى رشيد، وباقي أفراد أسرته الشريفة، إنه حميد مجيد.

كلمة الأستاذ ماء العينين ماء العينين
الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف بالعيون

بسم الله الرحمن الرحيم. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت.

السيد رئيس المجلس البلدي.

السيد رئيس المجلس الإقليمي.

السادة رؤساء المصالح.

السادة النواب.

السادة أعضاء المجلس البلدي.

زملائي الأساتذة.

كثيرا ما عن لي أنه في حياة الأفراد لحظات من الغبطة والفرح والسرور، يقف المرء أمامها مزهوا في نشوة وخيلاء، يحتسي دخان المعنويات حتى الثمالة، وكأني به في تمايله وتمايحه يسجل للتاريخ، تلك اللحظات التي يعيشها كي تكون شاهدة على أنها أصبحت وشمة في الذاكرة، وجزءا من الذات. ولعل أروعها أيها السادة والسيدات حين تقدم الأقدار لشخص ما هدية تعادل هذه التي قدمت لي حين طلب مني الإخوة المشرفون على هذه الندوة المشاركة في الجلسة الافتتاحية لها.

فالشخص والمكان والحضور، هذا الثلاثي الفريد هو الذي جعلني أومن أن ضمير وفكر التاريخ سيقفان وقفة إجلال واحترام وتقدير، وهما يجتران ذكريات

البطولة والشهامة والأمجاد التي أصبحت وشمة في جبين التاريخ، وعلامة بارزة من علاماته الشاهقة في كبرياء وشموخ وأنفة وإباء. إنه التاريخ المشترك الذي نتقاسمه نحن حفدة الشيخ ماء العينين وأنتم أبناء تيزنيت الغالية، تاريخ يكتنز دلالاتٍ ثرية، وينضح بما يضن الزمان بمثله.

إن من يكتب عن هذا التاريخ المشترك كمن يمخُر بحورا عديدة لا سواحل لها ولا شطآن، فأين نحن الآن من بحور تاريخنا المشترك الذي هو في الوقت نفسه جزء من تاريخنا الوطني العام إن لم يكن من أهم روافده وأغناها؟

لقد احتمع السلف في خنادق الدفاع غير مهادن ولا ملاين، في وقت آثر الغير أن يتمترس في الخنادق المضادة، سابحا من حيث يعي أو لا يعي ضد تيار التاريخ، وخاض معارك ضارية ضد الغزاة لم يَشُبْ حلالها تردد ولا نكوص، وكانوا كرجل واحد رغم اتساع الأمصار وتنائي الديار. لقد كانت حياتُهم مترعة بالمزايا والعظائم، كما كانت تملأ سماء الوطن ألقا وعظمة.

من منا أيها السادة والسيدات لا تستجيشه ذكريات الأيام الماضية المجيدة، ومن منا يمكن له أن يتنكر لمكاسبها ولمنجزاتها التي لا يزال صداها عالقا بالآذان، وآخذا بالألباب والأذهان، ومسيطرا على مجامع القلوب إلى الآن.

لقد اختلط العطاء الوطني والجهاد بكنوز العلم والمعرفة، كما اختلط معا بتلك النفحة الدينية والسلفية السمحة الصافية، كما اختلط البرنس والعمامة البيضاء بالدراعة واللثام الأسود، و لم يشُب سواد هذا وبياض تلك، إلا بتلك الدماء الزكية التي كانت تنزف من هذا الشهيد أو ذاك، حيث ضمخت رائحتُها الزكية الأنوف، ورسمت الأقدار من تلك الألوان المختلفة الزاهية لوحةً يعجز بيكاسو وغيره من عمالقة الفن محاكاتها أو مجاراة معانيها ورموزها، وكأنني بجبال أيت عبد الله وولتيتة ووجان وأيت الرخاء وغيرها من الجبال، وكذلك سهول أزغار وشتوكة تردد جنباتُها ووهادُها وتلاعُها وتلالُها أصداء زغاريد خرد سوس وظباء الصحراء، وهن يباهين في زهو وخيلاء باستشهاد هذا الغريب أو ذاك في معركة الشرف والكرامة والعظمة والكبرياء،

بل وكأني بهن أيضا وهن يتسامرن على ضوء القمر ينشدن قصيدة شعرية أو مساجلات بين شاعر سوسي وآخر معيني، أو يتناقشن في فنون شرعية صادرة من هذا لذاك.

إن للتاريخ وقفات يقف فيها مطأطئ الرأس متأسفا على ما لحق كبرياءه وعزته وكرامته، على يد هذا الطرف أو ذاك. ولكن له أيضا أياما حفيلة بالمجد والعطاء، ومترعة بالمزايا والعظائم، عجزت بقية الأيام عن ارتياض مراعيها الخصبة، والامتياح من معينها الصافي العذب.

الآن أيها الحضور الكرام، وفي هذه اللحظات بالذات، كأني بالتاريخ، ودونما تحيف أو تحيز يرقص على نغمات وأوتار الخلود والإباءة والشموخ، وكأني باليومين 28 و29 من هذا الشهر يتباهيان على غيرهما من الأيام، و لم لا وهما يتشرفان بهذا الثلاثي الفريد: الشيخ ماء العينين، وتيزنيت، والحضور الكريم.

فالشيخ ماء العينين من خلال ما هو مقرر في الأبحاث والعروض، أكاديمية متحركة، ومدرسة متنقلة للتربية والتصوف، وحيوشٌ حرارةٌ للهجوم والتصدي للعدو الغاشم، ولعمري هكذا تكون العظمة والمجد والخلود.

أما المدينة تيزنيت والمدن كما يقال تشبه النساء، حيث تتزين وتتحلين وتتجملن لإبداء محاسنهن ومفاتينهن للطرف الآخر، فحق لها أن تتيه على غيرها من مدن الجنوب بتاريخها المشرف والمشرق، وبرجالاتها الأفذاذ، وبما أعطته للوطن، إن على الصعيد العلمي أو الوطني أو الديني، ويكفيها فخرا -أو إن شئنا تحريا للدقة- أن نواحيها تعتبر آخر منطقة استطاع الاستعمار بسط نفوذه عليها. وأما الحضور فهو الصفوة المثقفة من أبنائنا الوافدين عليها.

إننا أيها السادة والسيدات حين ننظر نحن أبناء مدينة تيزنيت إلى أمسنا البعيد، نقف إجلالا وتقديرا لعطاء السلف، سيما في هذه المنطقة العزيزة. لكن حين ننظر الآن إلى راهننا المثخن بالجراح والندوب الناتجة عن تلك المعاويل الحادة التي يُهدم بها تاريخنا المشترك على يد هذا الطرف أو ذاك، لا نملك إلا أن نرسل دمعا مدرارا على ذلك الفردوس المفقود ولسان حالنا يردد مع الشاعر طرفة:

إنـي لأفتـح العـين حـين أفتحـها　　　علـى كثـير ولكـن لا أرى أحـدا

ولكن ونحن في هـذه النـدوة المباركـة الـتي أبـى المجلـس البلـدي بتـيزنيت رئيسـا وأعضاء مشكورين إلا أن يسـتنطقوا بـها التـاريخ، ويستنهضوا الهـم، أصبحنـا نـرى خلف كتل الرماد قبسا من الماضي يطـل علينـا حـاملا معـه تلـك الوطنيـة المتأججـة في الدواخل مصحوبة بلغة مشرقة ومتينة، معجما وتركيبا وإيقاعا، وينـابيع مـن التصـوف الصافية العذبة الغنية. فهل سيسـتمر البحـث والغـوص في ماضينـا المشـترك وإبـرازه إلى الوجود نثرا وشعرا ووطنية وسلفية؟

هذا هو السؤال الذي بادهنا ونحـن نتـهيأ للمشـاركة في هـذه النـدوة، وهـذا مـا نعتقد أنه ليس بعزيز علـى أبنـاء تـيزنيت الذيـن نكـن لهـم ونحـن منـهم وإليـهم منتـهى الحميمية والمودة والتقدير، سيما إذا علمنا أيـها الحضـور الكريـم أن أرواح الشـيخ مـاء العينين والشيخ الحاج الحبيب الملكي الهشتوكي والشيخ الحاج الحسين الإفراني وسيدي الحاج علي الإلغي وسيدي عمر بن مسعود والشيخ سعيد التناني والعلامة محمد المختار السوسي والعلامة عبد العزيز الأدوزي والعلامة أحمد بن مسعود البونعماني ومن صـار على شاكلتهم -وهم كثير- من الأبناء البررة لهذه الربوع الخالدة، ترفـرف علـى هـذه الندوة المباركة.

شكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور أحمد صابر
نائب قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير

سيادة عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت.

سيادة رئيس المجلس البلدي لمدينة تيزنيت.

سيادة رئيس المجلس الإقليمي.

السادة النواب البرلمانيون.

السادة رؤساء المؤسسات والمصالح.

زملائي السادة الأساتذة الباحثون.

أيها الحضور الكرام.

سلام الله عليكم ورحمة منه تعالى وبركاته.

أستسمحكم بأن ألقي على سيادتكم كلمة موجزة باسم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير.

إن الموضوع الذي يتشرف المجلس البلدي لمدينة تيزنيت بتنظيم ندوة وطنية حوله، وهو الشيخ العلامة المجاهد ماء العينين، يعتبر وبكل جلاء من جملة المواضيع التي تشغل بال السادة الأساتذة الباحثين عموما وبكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير على الخصوص، وذلك في إطار انشغالهم بتاريخ الجنوب المغربي، بل وبكل الميادين الأخرى المرتبطة بالإنسان من ظواهر ثقافية ولغوية ومجتمعية الخ.

وإن لهذا الهاجس العلمي الذي ما لبث يحرك الباحثين بخصوص الجنوب المغربي مبررات عدة، نكتفي بذكر إحداها وهي الشعور الملح بضرورة كتابة وتدوين هذا التاريخ وهذه الثقافة اللذين مازال شق لا يستهان به منهما بين شفاه المسنين من المواطنين، مع ما قد يعني هذا من تعرض هذه الذاكرة الغنية للإتلاف والنسيان بمجرد فقدان أصحابها، بل وإتلاف الوثائق التي يمتلكها هؤلاء في غياب تحقيقها ونشرها لما فيه فائدة البحث العلمي.

وإن ما ينطبق على التاريخ والذاكرة بهذا الصدد ينطبق كذلك على الأدب، شعره ونثره، وعلى العادات المجتمعية وباقي الظواهر الثقافية بصفتها عناصر هوية وطنية لن تقوى على الصمود في زمن سرعة الاتصال والتواصل وعولمة المعلومات، إن نحن لم نسارع إلى تدوينها ونشرها.

وإن اختيار المجلس البلدي لمدينة تيزنيت لموضوع الشيخ العلامة المجاهد ماء العينين ليس بمحض الصدفة، بل إن هذا العلم، يعتبر بفضل ترحاله عبر جهات الوطن عنوانا لا يقبل الجدل لوحدة المغرب من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله.

وإذا قامت مدينة تيزنيت اليوم تحتفي به فإنما تقوم في الحقيقة بإنصاف التاريخ وهو مسعى حميد يجدر بالمحطات الأخرى التي حل بها الشيخ وأقام فيها إما عالما أو مجاهدا أو هما معا أن تحذو حذوها. وهكذا تكون مدينة تيزنيت قد ساهمت في إحياء وتدوين هذا الشطر من الذاكرة المغربية الذي يدور حول هذه الشخصية الفذة، شخصية الشيخ العلامة المجاهد ماء العينين.

وإن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير التي يشرفها أن تشارك المجلس البلدي لمدينة تيزنيت في هذه التظاهرة العلمية ببعض أساتذتها المشاركين، إلى جوار زملائهم من باحثين آخرين، لتحضر كذلك لعرض حصاد من منشوراتها، تتوخى منه إتاحة الفرصة للباحثين والمهتمين للاطلاع على ما نُشر من أبحاث وأعمال ندوات. وهناك بالطبع أعمال أخرى مقبلة أيضا على النشر سيرى بعضها النور بحول الله في المستقبل القريب.

كل هذه المنشورات تجسد بجلاء انكباب الباحثين وحرصهم على صياغة الموروث التاريخي والثقافي للجنوب المغربي وحفظه للأجيال المقبلة.

وإن أحسن دليل على ما ذُكر هو اعتياد الباحثين بهذه الموسسة على مغادرة أسوار الحرم الجامعي بغية الاقتراب والاحتكاك بالميدان كما كان الشأن في ندوة تيزنيت وباديتها قبل سنوات، وكذا ندوات تارودانت والداخلة واشتوكة أيت باها والعيون والصويرة وزاكورة وغيرها... وكما حصل أيضا قبل وقت وجيز بالنسبة لندوة السمارة حاضرة الصحراء الروحية التي سترى أعمالها النور منشورة في نهاية الموسم الجامعي الحالي بحول الله.

هكذا يتبين بكل وضوح أننا جميعا مطالبون بتكثيف الجهود للبحث في تاريخ الجنوب المغربي ومختلف مظاهر ثقافته، وكلها مضامين أضحت من واجب الباحثين والمختصين، وذلك بهدف سد الثغرات التي ما لبثنا نلمسها عند تصفحنا لما هو متوفر حاليا من معلومات منشورة. بل إن بعض هذه المعلومات نفسها، وبالأخص تلك التي خلفها الاستعمار الإسباني أو الفرنسي، تشوبها نواقص في كثير من الحالات، وذلك بحكم المنظور المتبنى في الوصف أو في التحري والذي غالبا ما كان يخضع لأهداف معلومة ندركها جميعا.

ومن أجل كل ما سبق لن يفوتني أن أبادر بتهنئة اللجنة المنظمة لهذا الملتقى العلمي على توفيقها في جمع هذه الثلة الطيبة من الباحثين قصد محاولة الإحاطة بخبايا موضوع شخصية فذة كشخصية الشيخ العلامة ماء العينين بعروض في مختلف التخصصات من تاريخ وفكر وأدب وتصوف ولغة وجهاد بل ورحلة أيضا.

نتمنى لأعمالكم التوفيق والنجاح كما نتمنى أن نراها منشورة قريبا إن شاء الله لما فيه فائدة البحث العلمي ومصلحة البلاد.

وفقنا الله لما فيه خير بلادنا وازدهارها في ظل جلالة الملك محمد السادس المنصور بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة اللجنة التنظيمية

الأستاذ أحمد بومزكو

نائب رئيس المجلس البلدي

السيد العامل المحترم.

السيد رئيس المجلس البلدي.

السيد رئيس المجلس الإقليمي.

السادة النواب المحترمون.

السادة آل الشيخ ماء العينين.

السادة الأساتذة الباحثون.

أيها الحضور الكرام.

يشرفني باسم اللجنة المنظمة أن أرحب بضيوفنا الكرام في هذا اللقاء العلمي الهام الذي يتشرف المجلس البلدي لمدينة تيزنيت بتنظيمه حول شخصية تاريخية عزيزة على سكان هذه المدينة السلطانية المجاهدة، فالشيخ ماء العينين بإسهاماته العلمية وجهاده العملي، ميز مرحلة مهمة من تاريخ المغرب، وكان لمواقفه الصدى الكبير في أوساط المخزن وعموم المهتمين بالمغرب آنذاك.

وكان الهدف من طرح شخصية الشيخ ماء العينين للبحث والدراسة هو:

-تقريب عامة المهتمين والباحثين على السواء من مزايا هذه الشخصية المغربية الفذة، والوقوف عند تجربته في جميع تجلياتها.

-السعي الدائم في إطار المجلس البلدي، من خلال اللقاءات العلمية التي ينظمها، إلى الإحاطة بجوانب من محيطنا الحضاري.

-استكمال سلسلة من الندوات واللقاءات العلمية التي دأب المجلس البلدي على تنظيمها حول مجموعة من القضايا التي تهم المدينة والإقليم، وسينكب ثلة من الأساتذة الباحثين مشكورين، الذين جاؤوا من عدة نقط بالمملكة، على إبراز مكونات هذه الشخصية العلمية والعملية في إطار ثلاثة محاور:

-المحور التاريخي: تسع عروض.

-المحور الأدبي: اثنا عشر عرضا.

-المحور الديني: سبع عروض.

وفي هذا الصدد، نتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تيزنيت على رعايته لهذا اللقاء العلمي الهام، والذي ما فتئ يساعد ويشجع على مثل هذه اللقاءات، كما نبدي نفس الشكر إلى السيد رئيس المجلس البلدي الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتشجيعاته ومساعداته من أجل تنظيم هذه الندوة، كما لا يفوتنا أن نتقدم بخالص الشكر لكل الفاعلين الاقتصاديين الذين عودونا دائما بدعمهم في مثل هذه المناسبات.

كما نشكر الطاقم الساهر على إعداد وثائق الندوة من الدارسين وأعضاء مستشارين بالمجلس البلدي، واسمحوا لي في الأخير أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر والامتنان للأساتذة الباحثين وضيوف المجلس البلدي الذين استجابوا لدعوتنا، وتحملوا مشاق السفر للحضور في فعاليات هذه الندوة.

وبموازاة مع أعمال هذه الندوة، عملت اللجنة المنظمة بتعاون مع نيابة وزارة التربية الوطنية ومندوبية وزارة الثقافة على تنظيم معرض متنوع يتضمن:

-لوحات فنية خاصة بتلاميذ وطلبة المدينة في موضوع البيئة.

-معرض المنشورات الجامعية بمشاركة كل من كلية الآداب بالرباط وكلية الآداب بأكادير.

-معرض المخطوطات.

نرجو أن تتكلل أعمال هذه الندوة بالنجاح والتوفيق، آملين أن تكرر مثل هذه اللقاءات لما فيه مصلحة الجميع، وسنحرص إن شاء الله على أن تخرج أعمال هذه الندوة إلى حيز الوجود حتى تكون مرجعا لكل المهتمين والباحثين.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



عامل صاحب الجلالة يتفقد معرض الكتاب المنظم على هامش الندوة

اَلمِحْوَرُ التَّارِيخِيّ

قبسات من حياة الشيخ ماء العينين

د. شبيهنا حمداتي ماء العينين
الديوان الملكي-الرباط

يشرفني بادئ ذي بدء أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى السيد عامل إقليم تيزنيت والسيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تيزنيت التي ظلت منبتا للعلماء، ومنطلقا للجهاد ومقاما للأولياء والصالحين، ومركز إشعاع يشكل حلقة وصل بين عطاء شمال المملكة وجنوبها، واستمرت معبرا لفيالق المجاهدين خلال بداية هذا القرن وآخر الماضي، الحاملين مشعل كفاح ألجم مد المستعمر لأكثر من قرنين من الزمن، وها هي اليوم تستعيد بفضل جهودكم توهجها العلمي في ظل التطلعات الواعدة التي لمعت جذوتها في أفق الوطن بفضل السياسة الحكيمة التي وضع توجهها وقاد مسيرتها بجدارة وكفاءة أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره، استمرارا لعهد التخطيط والنماء والتجديد، الذي اضطلع به ملك البناء والتجدي والتجديد جلالة المرحوم الحسن الثاني رضي الله عنه.

إنني إذ أقدم إليكم هذا التدخل المتواضع، فإنما يضفي عليه الأهمية الكبرى هو كونه يتناول قبسات من سجل جهاد وعلم وتربية ودينية، تلك المعالم التي طبعت حياة جدنا الشيخ ماء العينين، حتى أصبح الحديث عنه يخرج عن حساسية الانتماء السلالي ليجسد التذكير بمرحلة هامة من حياة الوطن كله، ولمزيد من الإيضاح سأتناول الموضوع من خلال المباحث الآتية:

1- لمحة عن شخصية الشيخ ماء العينين.

2- الإطار الذي وظف فيه الشيخ ماء العينين معارفه.

3- كيف استخدم الشيخ ماء العينين قدراته لصالح العرش ووحدة الدولة المغربية.

لمحة عن شخصية الشيخ ماء العينين

ليس من السهل أن تشفي غليل الباحث في مجموعة من المعطيات شكلت مع بعضها صرحا من الإنجازات، يكاد يوهم القارئ أنك تتكلم عن إبداعات خيالية يستحيل أن تكون جسدت على أرض الواقع ملموسة، ثم احتلت مكانتها في سجل الخالدين، لذا فإن جمعها في عجالة أو جمل لابد أن يكون قاصرا عن إبراز كل مضامينها.

هذا ما جرى لي وأنا أحاول أن أقدم شخصية شخص عظيم حير كل الذين كتبوا عنه لتنوع الاختصاص وسعة المعارف وضخامة الإنجاز، قبس من نور أضفت عليه القدرة أشعة من إلهامها، فتحرك بإرادتها في ساحة أكبر من قدرة أهل زمنه وأوسع من أي حيز ملأه غيره، وأعمق من معرفة أترع بها أي عالم قبله، إنسان خصه الله بسرعة الاستيعاب، وحسن الاختيار، وجودة الإنتاج، وقوة الدليل، وشمولية التحصيل، فأعطى أفواجا من العلماء امتلكوا المؤهلات، وتوفرت لهم الوسائل وساعدهم الحظ، كما حقق في الذب عن وطنه أسمى ما حققته جيوش المجاهدين قبله فألجم مد الاستعمار، واستل فتيل الخلافات من بين كثير من أبناء وطنه، وأسس المرافق وبنى المنشآت، وخطط المناهج التعليمية وطبقها حتى بلغ إنشاء مدرج جامعي يعطي عبره دروسا عليا كونت نخبة من أفذاذ العلماء في أوجز فترة ممكنة.

كما استطاع بمجهود فردي يكاد يكون أسطوريا أن يسن منهجا مبتكرا للتربية الروحية أرجع فيه منسجم الممارسات الإسلامية إلى اقتفاء سلوك السلف الصالح، ودون أن يضيع أي موروث حضاري وعقدي خلفته جهود العلماء العاملين المطيعين، فقد سن سبيلا وسطا جمع فيه بين سنية عمل السلفية المعتدلة مع ممارسات الصوفية

النقية، ودون أن يستميله أو يزعزع مبدأه إغراء ولا مواجهة، إلىأن أقنعهم بأن طريق الحق لا تضيق عنهم جميعا، حينئذ قال لكلهم:

إنـي مخـاو لجميـع الطـرق أخـوة الإيمـان عنـد المتقـي

إضافة إلى هذه المجالات المعرفية الواسعة بتكوين مجتمع مغربي إسلامي ينبذ البدع والعنصرية والتعصب والانحراف في ضواحي السمارة بلغ عدده أكثر من ثلاثين ألف ساكن.

فمن هم يا ترى هؤلاء الأعلام الذين سطر بجهودهم وأقلامهم وتدبيرهم ومهاراتهم هذا العطاء الضخم وهذا البناء الشامخ وهذه الملامح الجهادية الرائعة؟ إنه جيش من الأفذاذ سكن شخص جسم واحد، ثم حرروا إلينا أعمالهم من خلاله، وإلا لما صدقنا أن شخصية استطاعت أو تستطيع أن تمد الإنسانية بهذا التراث الضخم، ولكن الله فاعل في ملكه ما يشاء، قد من على عبده الملهم الشيخ ماء العينين بتحقيق هذا وأكثر منه، بتوفيقه وعنايته واختياره، فشعور من لم يؤمن بسعة فضله معارضة لإرادته.

ولذا فإننا نقدم إليكم شخصية الشيخ ماء العينين بنفس الانبهار الذي سيتلقاها به من لم يسبق له أن تعرف عليها من شبابنا، فنحن الذين عشنا في مدرسته، وشحنت نفوسنا بمخلفاته كتابيا وشفويا، لا زلنا مندهشين من ضخامة عطائه وتنوع اختصاصاته، وقد يزيدنا إعجابا وتقديرا توفيق الله له وإعانته له، هو أنه لم يمل كتابا من كتبه التي بلغت زهاء أربعمائة كتاب، بل كلها سطرها بخط يده، ولم ينب عنه أحدا في تسيير شؤون مجتمعه، ولا في التدريس لتلاميذه، ولا في إمامة مسجده، وحتى رحلاته، فكل هذه الأنشطة التي أعطتنا هذا الفيض الحضاري، كانت ثمرة مباشرة لممارساته الشخصية، فمن هو يا ترى الشيخ ماء العينين هذا الذي أدهش كل الذين كتبوا عنه أعداء أو أصدقاء مسلمين وغير مسلمين؟

المبحث الأول: حياة الشيخ ماء العينين وبعض أعماله

هو محمد المصطفى الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، وينتهي نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأمه "مَنَّ" بنت المعلوم من أسرة علم واحترام عند سكان موطن مسقط رأس المترجم له، ومنها شيخ المترجم محمد المصطفى الذي سمى عليه الشيخ محمد فاضل ولده الملقب الشيخ ماء العينين.

ولد الشيخ ماء العينين يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر شعبان الأبرك عام ستة وأربعين بعد المائتين والألف، سماه والده محمد المصطفى على شيخه ولقبه بماء العينين.

وقد توفي رحمه الله في منتصف ليلة الثلاثاء الحادية والعشرين من شوال عام ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف موافق 10 أكتوبر سنة 1910 بتيزنيت هذه التي تقع وسط المملكة المغربية.

نشأ الشيخ ماء العينين وتربى في حضانة والديه وبين إخوته ووسط عشيرته، ومما يستغربه كل من ترجم له هو أنه لم يبارح مكان والده لطلب تربية ولا علم، وهذا يعطي انطباعا صادقا عن المكانة العلمية والتربوية التي كان عليها والده الشيخ محمد فاضل الذي استطاع أن يصدر علماء بهذا المستوى من التبحر في شتى الفنون وتنوع الاختصاص.

وقد تميز الشيخ محمد فاضل حسب الرواية المتواترة بأنه ما كان يعرف علاقة العاطفة في تعامله مع أبنائه، حيث كان يطلب من ربه أن من لم يحفظ كتاب الله وما يجب عليه أن لا يمد في عمره، ثم إنه ما كان يتساهل مع أحدهم في البرنامج الدراسي، الذي تميزت به مدرسته طيلة حياته، وكان يخص الشيخ ماء العينين برعاية خاصة تنمية للمواهب التي بدت علاماتها فيه مبكرة وبسبب الرعاية الدائمة والتربية الصارمة ما بلغ الشيخ سن الرشد حتى كان متضلعا من شتى المعارف، مؤهلا للإفتاء متصدرا للدرس، متمكنا من القيام بأعباء عظماء زمنه، وقد مكنه من ذلك نبوغ يكاد يكون خارقا وإذا كانت الأدلة عليه كثيرة، فإن الطريقة التي كان يستوعب بها دروسه ويحفظ بها لهي

خير دليل على ذلك، وسأتعرض لبعضها هنا.

وليس قصدي من هذه الدراسة إطراء بمديح لجدي ولا تعصبا لنهج وسلوك معين، ولكن أريد إبراز بعض الحقائق التي أشاد بها معاصروه، وهم على أي حال أدرى هنا بحقيقة أمره، ودرجة علمه، وكنه فهمه، وأسرار حياته، وتتبع حركاته، وترجمة تطلعاته، فنترك لأقوالهم فسحة من حيز هذه الدراسة لنخرج من عهدة أقوالهم لأن درجة القرابة تنفي عني عيب تسجيل النقول حتى يكون ما أكتب أقرب إلى الواقع المتجرد من أي تحيز، وبناء على ذلك فهذه بعض أقوالهم حسب رواية ابن العتيق في كتابه "سحر البيان" عنهم.

قال فيه العالم الجهبذ المربي الكبير الشيخ محمد عبد الله بن مختار بن تكرور اليعقوبي بعد أن استعرض أحاديث رواها السيوطي وغيره تجعل كرامات الأولياء ثابتة ولكنها كلها معجزات للرسول صلى الله عليه وسلم، لأن أي كرامة ما كانت لتحصل للولي لولا اتباعه لما أمر الله به واجتنابه لما نهى عنه.

وبعد هذه النظرة عن تبريره لإمكانية حصول الكرامة شرعا، قال في الشيخ ماء العينين بالحرف: «فلما كان القرن الرابع عشر الهجري بعث الله على رأسه شيخنا الشيخ ماء العينين بن الشيخ المجدد الشيخ محمد فاضل بن مامين، فكان مجدد الدين. وما قلت ذلك انتصارا أو تعصبا مني ولا تشيعا بخطبة عشواء، لأن العلم لا يثبت بذلك، وإنما يثبت بالتحري والصدق، فلعنة الله على الكاذبين، وأعوذ بالله من الإطراء بالكذب، بل إنما قلت إنه مجدد بتبصر وإمعان طويل وصحبة كاشفة لا لبس فيها، ومطالعة ما نقله الأئمة في أمر المجدد. ثم تعرض لكثير من الآثار التي تكلمت عن المجدد حسب الروايات التي تتبعها ورجحها حسب رأيه».

ثم قال فيه أحد مسادر والده وهو الشيخ محمد فاضل بن الحبيب في كتابه "الضياء المستبين في حياة الشيخ محمد فاضل بن مامين" ما نصه: كان الشيخ ماء العينين قبل ذهابه من عند والده إلى الحج فوتح وكوشف بعلم التفسير من معرفة ناسخه ومنسوخه وفي علوم الحديث رواية ودراية، وعلم الأصول والقواعد والفروع، وأنواع

العلوم العربية وأشعارها وآدابها ولغتها ونحوها، وفي المنطق والبيان، وسائر الفنون العقلية والنقلية.

وتابع الشيخ محمد فاضل بن الحبيب على هذه الشهادة الشيخ محمد العاقب بن الشيخ سيدي عبد الله بن مايابا في كتابه المسمى "مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين" قال ما ملخصه: لقد فتح الله على هذا الشيخ من فتوحاته الربانية وعلومه اللدنية وأسراره الوهبية، ما يعجز اللسان عن وصفه والقلم عن حصره، فالعلوم التي تفيض عليه، والفهوم التي تجيش عليه جعلته فريد عصره، وأعجب شيء أنه لم يتغرب إليها و لم يغادر مدرسة والده لطلبها، بل تلقى كل علومه على يد والده الشيخ محمد فاضل رضي الله عنهما، فاستكمل عليه العلوم النقلية والعقلية من تجويد قرآن وكتابته وتفسيره وأصول فقه وقواعد، وفروع وتصريف ومنطق وبيان وبديع، ومعان وتوحيد وتصوف وأسرار حروف وعروض، وحساب، إلى غير ذلك من أبحر العلوم ودررها.

ومضى ابن مايابا فيما رواه عنه ابن العتيق يعدد دلائل النبوغ العلمي التي يجسدها نشاط الشيخ ماء العينين في شتى المعارف والآثار التي خلد فيها تراثا ضخما، إذ جمع شتاتها وقرب كثيرا من أبعادها، وابتكر واجتهد من خلال تبحره في جميع العلوم الإسلامية في كثير من الأحكام فجرد بذلك مقتبسا أحكامها من معاني الكتاب والسنة، ملتزما في كل ذلك بالتقوى واتباع ظاهر نصوص الشريعة، وأضاف قائلا بالحرف: «فاسمه هو الذي طابق مسماه، فهو ذو المعارف والمواهب والعوارف فأقام أركان الشريعة وحافظ على طودها المنيع»، إلى أن قال: «ويكفي من ذلك قيامه بحقوق الله، ومحافظته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقتداؤه بأفعاله وأقواله». هذه أقواله بتصرف في الألفاظ والحفاظ على المعاني.

وقد تسوق هذه الأقوال التي يبدو أن أصحابها انبهروا بالدرجة العلمية العالية التي حصل عليها الشيخ ماء العينين رضي الله عنه إلى طرح السؤال الآتي:

ما هي المناهج الدراسية التي حصل بها الشيخ ماء العينين علومه؟ وما هي المدة التي قضاها في تحصيل هذه المعارف المتنوعة والتي بوأته هذه الدرجة العلمية والتي يقال إنها لم تحصل لأحد من أهل زمانه؟

يجيبنا على هذا السؤال ابنه الشيخ محمد تقي الله بن الشيخ ماء العينين العالم الجليل الذي تميزت معارفه بشمولية وسعة اطلاع، وحسن أداء وتجرد، حتى إنه كان لا يقبل مما يحكى عن أبيه من خصال إلا ما تواتر عليه الخبر، وشهد به الثقات من العلماء، ولذا فإن شهادة الشيخ محمد تقي الله تعتبر شهادة من أعدل ما كتب عن الشيخ ماء العينين، قال هذا العالم عن كيفية تحصيل والده نظما ما نصه:

وقد تعلّم العلوم في الصِّغرْ ... باطنها الخفي وما منها ظَهَرْ
فكان يحفظ من المختصر ... عشرين قِفًّا بين كل البشَر
والخلاصةِ ابن مالكٍ قرَا ... بأربعينَ دائمًّا وفسَّرا
ثمَّ مراقِيِّ السعود وهوا ... ألفُ قرا يومين فيما يُرْوى
ومعه نور الأقاحِ وكِتا ... بان جليلانِ كما قد ثبتا
وما سوى هذا من العلومِ ... درسهُ في اليوم أو كاليوم

وقال ابنه العالم الشاعر المؤلف الشيخ مربيه ربه أنه سمعه يقول إنه لم يزدَدْ بعد والده بشيء من العلوم، لأنه حسب هذا القول صرح لهم بأنه حفظ جميع المتون المعروفة في المذهب المالكي، والمتداول من غيره من بقية المذاهب، وقد قل تكراره لها بعد والده، وقل عن ذلك نقصا حسب رواية الشيخ مربيه ربه. والحقيقة أنه اشتغل بالتأليف والتفهم والاستيعاب، الشيء الذي لم يكن مألوفا لدى علماء جهته، الذين تميزت مدرستهم بحفظ النصوص.

المبحث الثاني: تأليفه وبعض أعماله

إن الذين عايشوه وكتبوا عنه اتفقوا على أنه لم يبق فن إلا وألف فيه، وتمتاز تآليفه بوحدة الموضوع، وبمنهجية متطورة على زمنه، وبالنزاهة في الاستشهاد بأقوال غيره من العلماء.

قال ابنه العالم الشيخ مربيه ربه عند ذكر تآليفه ما نصه: «وقد ألف كثيرا من الكتب في ريعان شبابه وأثناء جولانه، وربما بقي بعضها في المكان الذي ألفت فيه، وبعضها يأخذه بعض من رافقه من تلاميذه، فكان هذان من بين الأسباب التي ضاع عن طريقها جل تآليفه».

وقال الشيخ محمد العاقب بن مايابا في كتابه"مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين": «وكان شيخنا رضي الله عنه مع ما أعطاه الله من الحفظ والتفنن في العلوم، متعلق الخاطر بالكتب، باحثا عنها، ساعيا في جمعها، يشتري منها الأحمال الكثيرة حتى جمع من صحاح الكتب ما لا يكاد يحويه أحد في ملكه حتى ملكه، ولا يدخل مدينة ولا قرية، إلا وجمع ما فيها من الكتب»، ثم قال: «لم يترك فنا من سائر فنون العلم، إلا وألف فيه تأليفا كافيا، وقد طبع كثير منها بالمطبعة الحجرية بفاس وبعضها طبع بمصر حياة المؤلف نفسه».

ومن أسماء تآليفه التي ذكرها ابن العتيق عن العالمين محمد العاقب والشيخ مربيه ربه ما يأتي:

1-كتاب في "تفسير الفاتحة".

2-كتاب في قول الله عز وجل: ﴿ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

3-كتاب في قوله جل وعلا: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

4-"اللؤلؤ المحوز الجامع ما في الجامع الصغير والراموز"، جمع فيه أحاديث الكتابين، ونبه على ما اتفقا عليه من الأحاديث وعلى ما اختلفا عليه وما اختص به كل واحد منهما.

5-"صلة المترحم على صلة الرحم"، جمع زهاء خمسمائة حديث في الحث على صلة الرحم والرفق بالضعفاء ومواساة الأقرباء والمحتاجين، وهو كتاب لا نظير في الحث على التكافل الاجتماعي في الإسلام.

6- "منيل البش فيمن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظل العرش"، جمع فيه كثيرا من أحاديث الفضائل والحث على الطاعة.

7- منظومة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة بناته.

8- منظومة في أسمائه صلى الله عليه وسلم ومنها في التوحيد والأصول والفقه.

9- منظومة في العقائد الست والستين الواجبة، ورغم اختصارها فإنها أفادت وكفت في موضوعها.

10- منظومة فيما يطلب من معرفة الذات والمعاني والأفعال، اختصر فيها النظم المسمى نور الأفهام في حكم الثلاث الأقسام.

11- منظومة اختصر فيها كتاب الموافقات للشاطبي في علم الأصول.

12- "المرافق على الموافق" شرح فيه نظمه المرافق في الأصول، وهذا الكتاب عرف به حفيد الشيخ العالم الجليل الشاب النابغة الشيخ الطالب أخيار بن الشيخ مامينا بن الشيخ سدات بن الشيخ ماء العينين في بحث متميز لا يزال مخطوطا.

13- نظمه لورقات إمام الحرمين المسمى بالأنفس.

14- شرحه المسمى "الأقلس" جمع فيه كثيرا من علم الأصول.

15- "تنوير السعيد"، لخص فيه كثيرا أيضا من علم الأصول.

16- نظم قواعد أبي عطية.

17- نظم حول حكم التقليد من عهد الصحابة إلى عهده رحمه الله.

18- "دليل الرفاق".

19- شمس الاتفاق، بين فيه الأحكام المتفق عليها بين الأئمة الأربعة على غرار كتاب "بداية المجتهد".

20- "كفاية النبيه في فرض العين".

21- "مفيد السامع والمتكلم في أحكام التيمم والمتيمم".

22- نظم حول أوقات الصلاة.

23- "كتاب الصلات في فضائل الصلوات"، ضمنه جميع الفضائل الواردة في ملازمة بعض الصلوات، وهو مجلد وسط.

24- "نظم في مفسدات الصوم".

25- "نظم في اللغز الفقهية"، جمع فيه كثيرا من المشكلات التي عرفت عبر التاريخ والأجوبة الصائبة التي أعطيت لها، سماه "تبيان الحق الذي للباطل سحق"

26- "مظهر الدلالات المقصودة من ألفاظ التحيات"، جمع روايات التحيات، وشرح كل ذلك شرحا وافيا.

27- "المناضل في كل فج"، جمع فيه الأقوال الواردة في اشتراط الزوجة على زوجها عند العقد شرطا لا يخالف ظاهر الشريعة.

28- "مزيل العتب فيمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب"، جمع فيه النصوص التي يمكن أن تسند إليها الزوجة لتطلب من القاضي أن يطلقها على زوجها بسبب تكرار سبه لها أو لأهلها.

29- "هداية من حارا في أمر النصارى".

30- نقلة في أحكام للأيمان نظما ونثرا.

31- "جواز الدعاء للأشياخ والأئمة وما في ذلك من الأحكام والأقوال".

32- أجوبة في معاملة الزوجة.

33- رسالة في أحكام الطلاق.

34- كتاب في أمور النكاح المحمودة والمذمومة وأحكامه وحكمه.

35- "هداية المبتدئين في النحو".

36- "نظم مفتاح الأفعال الثلاثة".

37- "مفيد النساء والرجال فيما يجوز من الأبدال".

38- منظومة في صور الحروف الهجائية ومخارجها ومعانيها.

39- "ثمار المزهر" نظما، ضمنه كثيرا من قواعد المزهر مبينا فيه كثيرا من أوزان العربية.

40- نظمه على الأفعال التي تصاغ من حرف واحد.

41- "سراج الفتيان"، شرحه على نظمه "ياقوتة الولدان في فن المعاني والبديع والبيان".

42- "تبيين الغموض"، شرحه لنظمه نعت العروض.

43- كتاب "مفيد الحاضرة والبادية في شرح الأبيات الثمانية".

44- "فاتق الرتق" ، شرحه لنظمه راتق الفتق.

45- نظم في التوكل والتكسب.

46- "إنعام الرحمن" شرح مرهم الزمان لمن حال ويريد الجولان.

47- "ضبط الإخوان والأخوات لمن لا يعرفهم من البنين والبنات".

48- رحلة ألف فيها سفره إلى الحج، جمع فيها كثيرا من شتى العلوم.

49- "وصف الصالحات من النساء وعكسهن".

50- كتاب "النصيحات فيمن تردع من المسلمات".

51- منظومة في وصف المروءة.

52- ديوان في المحامد الربانية والمدائح النبوية.

53- ديوان كبير في الأدعية والأذكار.

54- منظومة في علم الطب.

55- "شفاء الأنفاس فيما ينفع الأضراس".

56- كتابه "ضوء الدهور في علم الفلك".

57- "القطر في أقطار الحروف، بين فيه السعد والنحس من المنازل".

58- نظمه في معرفة دخول شهور العرب.

59- كتاب في معرفة الأقاليم السبعة.

60- "الحكم والأسرار".

61- "منتخب التصوف"، اشتمل على موقفه من التصوف والطرق وما إلى ذلك.

62- "نعت البدايات وتوصيف النهايات".

63- "إظهار الطريق المشتهر على قصيدته اسمع ولا تغترر"، بين فيها أن طريقه هي مستحسن الشرع.

64- "مفيد الراوي" على شرح نظمه إني مخاوي.

65- "السيف والموسى في قصة الخضر وموسى".

66- "الخلاص في حقيقة الإخلاص".

67- نظمه المسمى "أدب المريد".

68- "سهل المرتقى في الحث على التقى".

69- "جامع الاستفادة نظم شامل على الفوائد".

70- نقلة على معنى لا إله إلا الله وكيفية التعبد بها.

71- "المنيل"، شرح نظمه لحكم ابن عطاء الله.

72- "التوصيل"، مجلد صغير على الانتفاع ببعض الأقوال المأثورة.

73- "المقاصد النورانية في ذكر من ذاته وصفاته متعالية".

74- "مفيد المواريد".

75- أجوبته للشيخ محمد العاقب بن مايابا.

76- كتاب "الأسئلة والأجوبة" ضمنه كثيرا من الأجوبة للأسئلة التي وردت عليه من بعض معاصريه.

77- "الإيضاح فيما عليه القوم من الاصطلاح".

78- "منهب المخوف على دعوات الحروف".

79- "جواهر الأسرار".

80- "نظم الأنماط" وشرح عليها.

81- "سيف نصر الأولياء"، نظم وشرح.

82- "قواعد اللطائف المعلومة من أسمائه تعالى".

83- نظم توسل فيه بأجداده إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

84- "مزيل النكد فيمن لا يحب الحسد".

إن هذه التآليف الكثيرة ليست وحدها هي كل نشاط الشيخ ماء العينين، فهناك الجهاد والأسفار، وتدبير شؤون أكبر حاضرة عرفتها الصحراء عبر التاريخ حتى أيام حياة الشيخ ماء العينين وتأسيس حاضرة السمارة فيها، ثم الرحلات إلى الملوك كل سنة لينقل إليهم ما يراه حسب مشاهداته اليومية، وما ينجم عنها من اقتراحات، ولتنظيم خطط الجهاد، واستجلاب المؤن والذخائر إضافة إلى التدريس الذي لم ينقطع عنه لتلاميذه ولو يوما واحدا.

ولقد قلت في مكان غير هذا إن نشاطه لا يمكن أن يحققه إلا جيش من الأكفاء المخلصين، إلا أن الشيخ ماء العينين حققه منفردا بسبب ضبط الوقت ودقة البرنامج وعدم التساهل في تطبيقه سواء كان مقيما أو مسافرا، فلنترك حفيده العالم الشاعر أستاذنا ماء العينين ابن العتيق يسجل لنا نشاط اليوم والليلة عند الشيخ ماء العينين إذ قال:

«كان شيخنا رضي الله عنه معلق القلب بالمسجد، لا يُصَلّي إلا فيه في الحضر، أو في السفر ولا يقبل لأحد أن يصلي إلا بالطهارة المائية، فكان يغتسل كل يوم سواء وجب عليه أم لم يجب عليه، وكان يقول: إن من داوم على ذلك الاغتسال لا يرى مكروها في بدنه. ومن عجيب أمره أنه لم يصل صلاة مكتوبة من أيام صباه إلى أن لقي الله، إلا في جماعة، فكان رضي الله عنه يأتي إلى المسجد وقت الغروب في أول صلاة المغرب، فقلما يؤذن المغرب إلا وهو جالس في المسجد، فيأمر المؤذن بإقامة الصلاة ثم يصلي بالناس، وبعدها مباشرة ينحرف عن مصلاه يسيرا، ثم يجلس مقبلا على الله تعالى متوجها إلى القبلة لا ينحرف عنها، وينشغل بتلاوة القرآن والذكر، ثم يصلي ما شاء الله من النوافل ثم يقرأ الحزب[1] مع تلاميذه، و لم يزل جالسا في محله مستقبلا القبلة مشتغلا في العبادة، لا يتكلم في شيء إلا تلاوة القرآن وصلاة النوافل، وتكرار أسماء الله الحسنى، فلا يجيب أي سائل في هذه الفترة إلا إذا سأل أحد عن شيء من

(1) سحر البيان كتاب ماء العينين بن العتيق.

أمور الدين، فإنه يجيبه، وبعد إتمام نوافله التي لا تقل فيما بين العشائين عن عشرين ركعة.

وعندما يصل وقت العشاء يأمر بالأذان وإقامة الصلاة فيصلي ثم يلبث يسيرا في التوجه إلى الله، فيقرأ الحزب حسب الطريقة المألوفة في تلك الجهة من المملكة ثم ينصرف إلى بيته، فيشرف بنفسه على أمور ضيوفه حتى يذهب إليهم إكرامه رغم كثرتهم، ثم يسأل عن حال كل فرد من عياله تأدية للواجب، ثم ينصرف إلى بيت خلوته، فيمكث فيه قدرا معلوما وبعد ذلك يأوي إلى بيته، ثم يقدم على المسجد عند طلوع الفجر، ويصلي بالناس، ثم يجلس في محل صلاته لا يكلم أحدا حتى تشرق الشمس فيصلي ركعتي الضحى أو أربعا.

وبعد القيام بوظيفة العبادة المتبعة باستمرار عنده في هذا الوقت يرد وجهه على الحاضرين، فيشتغل بتعليمهم على كثرتهم، واختلاف مستوياتهم وطلباتهم في التفسير، والحديث، والأصول، والفقه، والقواعد، والنحو، والبيان، والمنطق، ومنهم من يتعلم اللغة، والعروض، والشعر، إلى غير ذلك من سائر العلوم من تأليفه رضي الله عنه وغيرها، ثم يقوم فيأتي بيته المعد للكتب، وفيه ما ينيف على المائة من الصناديق الكبيرة جدا المملوءة من الكتب، إضافة إلى الرفوف العامرة بكتب من شتى أنواع المعارف، ثم يمكث برهة يعلم بناته وزوجاته وأسرته الخاصة.

وبعد حين من الراحة يرجع لتعليم أولاده وبناته، ثم يباشر مع أهل الرأي تدبير الشؤون العامة، كإجابة الرسائل، وتنفيذ تعليمات المخزن، وإرسال المجاهدين لمواجهة التسلل الأجنبي، ثم ينظر في الأخبار التي ترد عليه من شتى الجهات التي بقي لأكثر من ثلاثين سنة بضواحي المكان الذي بنيت فيه السمارة لا يلبث يوما إلا وتأتي قافلة، أو دورية ثم يودعهم ويشتغل بالتأليف، فيؤلف ما شاء الله من نظم ونثر، وأكثرها إملاء من صدره إلى أن يحين وقت الظهر، وبعد صلاة الظهر يشتغل بتدريس الحديث الشريف لتلاميذه، وكثيرا ما يسرد كثيرا من شمائله صلى الله عليه وسلم وكلما سأل أحد عن شيء من ذلك يجيبه وعند الانتهاء يشير إلى المقرئ الذي تولى سرد الحديث

بأن يدعو الله للإسلام والمسلمين، فيؤمن هو والحاضرون[1].

وبعد صلاة العصر يشتغل أيضا بالتأليف، وإجابة الرسائل والمطالعة الخاصة، وهكذا بقي مدة حياته ساهرا على تنظيم الوقت في سفره وحضره، مما مكنه من تحقيق أضخم المكاسب الفكرية.

وسيرا على هدي الكتاب والسنة، واتباع السلوك الصالح كوّن الشيخ ماء العينين أتباعا وصل عددهم حسب رواية محمد الأمين العلوي في كتاب "الوسيط" إلى عشرة آلاف نسمة، فأصبحت السمارة بفضل ذلك النشاط الذي التزم به مؤسسها الشيخ ماء العينين مركز إشعاع أسس على تقوى من الله ورضوان ورباط جهاد، وحاضرة لتلقين العلوم الإسلامية على مختلف شعبها، وصلة وصل بين شمال المغرب وجنوبه، شعارها ذكر الله وحلية جيدها تدريس العلوم، ورسالة أبنائها إحياء السنة وقتل البدعة وصد المحاولات الكنسية، التي أخذت في حبك كل المؤامرات لتبلغ غايتها القصوى وهي السيطرة على هذا الجناح من الأمة الإسلامية، فتواكب تشييد القصور الشامخة وواحات النخيل الباسق، مع تكوين فيالق المجاهدين الأكفاء، تواكب كل ذلك مع تأسيس أفضل جامعة علمية صدرت أفواجا كثيرة من العلماء والمبرزين في شتى التخصصات.

وبهذا تميز الشيخ ماء العينين عن كثير من علماء وزعماء زمنه، بتعدد الأنشطة، فإذا ذكر العلم فهو دائرته المتحركة، وإذا ذكر الجهاد فهو فارسه المغوار وبطله المجرب، وإذا طرح التدبير السياسي فهو داهيته المحنك، وإذا ذكرت التربية الإسلامية فهو شمس السلفية في وقته، وإذا ذكر الزهد فهو شيخ المتصوفة السنيين، وإذا طرحت الوطنية فهو الموحد الذي وضع كل قدراته لصالح وطنه، ملتزما بالحدود التي تفرضها عليه بيعته وبيعة أسلافه للسلالة العلوية الشريفة أبقاها الله ذخرا لهذا البلد، ورمزا التقاء لكل تطلعات أبنائه.

---

(1) سحر البيان في مناقب شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان، لماء العينين بن العتيق حفيد الشيخ ماء العينين، مخطوط بخزانة الكاتب.

بالرغم من هذه الأعباء كلها فقد أجمع الذين عاصروا الشيخ ماء العينين على أنه ألف أزيد من ثلاثمائة كتاب، وقد ارتكب غلاة الاستعمار بعض ضباط الجيش الفرنسي جريمة إحراق جلها داخل مكتبته التي أشعلوا فيها النيران خلال هجمتهم على مدينته السمارة سنة 1913م.

لقد كتبت جماعة من العلماء من أبناء وتلامذة الشيخ على هذا النشاط العلمي الخارق ومنهم: ابنه العالم الشيخ محمد بويا الذي تبحر في جميع المعارف وألف فيها كتبا شاملة ودقيقة، وهو الذي سبق إلى الكتابة عن والده الشيخ ماء العينين، وابنه العالم الجليل والمؤلف الكبير الشيخ محمد تقي الله بن الشيخ ماء العينين، الذي دوّن حياة والده في نظم ستأتي نماذج منه، ثم تكلم عن كتبه وبيّن عددها.

ثم أتى بعده العالم الشاعر المؤلف الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين في كتابه "قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين".

ومن بعدهما ألف الولي الكامل والعالم الشيخ محمد الغيث بن الشيخ ماء العينين كتابه "الأبحر المعينية في المدائح المعينية".

والعالم الواصل الشيخ أحمد بن الشمس في كتابه "النفحة الأحمدية".

والعالم الأديب محمد الأمين العلوي في كتابه "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط".

والولي الصالح المؤلف الكبير الشيخ محمد فاضل بن حبيب في كتاب ألفه على حياة الشيخ محمد فاضل بن مامين سماه "الضياء المستبين".

والعالم البحر الأستاذ الماهر الشيخ محمد العاقب بن الشيخ عبد الله مايابا في كتابه "مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء العينين".

وماء العينين بن العتيق في كتابه "سحر البيان في ذكر مناقب الشيخ ماء العينين الحسان".

وقد كتب المرحوم الزعيم علال الفاسي دراسة تعرض فيها لأهم المميزات العلمية والسلوكية والجهادية التي تميز بها الشيخ ماء العينين ومن قبله والده الشيخ محمد فاضل.

ثم ألفت أخيرا بحوث جامعية عرفت بكثير من الجوانب الأدبية والعلمية لمدرسة السمارة وبمؤسسها وعالمها وأستاذها الشيخ ماء العينين رحمه الله، مثل الدكتور العالم الباحث مفدي أحمد، والدكتور العالم الباحث محمد الظريف، وغيرهم من الشباب الذي أخذ يهتم بالموضوع تحت إشرافهما. وفي البحوث الجامعية ستبقى تلك المدرسة ممتنة للأستاذ الجليل والمؤلف الموفق رئيس المجلس العلمي للعدوتين الرباط وسلا الشيخ الدكتور عباس الجراري، الذي أشرف على عدة دراسات جامعية في هذا الشأن.

هذه البحوث والكتب والمقالات كلها أجمعت أن هذا الرحل ألف أزيد من ثلاثمائة كتاب.

هذا التراث الضخم لم يصد صاحبه عن تنظيم أكبر حملة للجهاد عرفتها القارة الإفريقية عبر التاريخ الحديث، إضافة إلى تدبير شؤون الدولة والرحلة كل سنة تقريبا إلى سلطان البلاد لينقل إليه المستجدات وينظم معه منهج العمل.

وستكون الأجيال المعرفية القادمة ممنونة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة ابن زهر بأكادير، وبلدية مدينة تيزنيت، إذا تعاونتا مع أبناء الشيخ والجمعيات التي تكونت مؤخرا لجمع وإخراج ما ترك هذا العالم من تراث يشكل مدخرا عظيما من مدخرات هذا البلد الحضارية.

أشكر المجلس البلدي لمدينة تيزنيت على هذه المبادرة، وأنوه بمجهوداتكم المتواصلة، وأمد الله في عمر أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، وزاده توفيقا ونصرا وعزا ورفعة، وأقر عينه بصنوه السعيد المولى رشيد.

والسلام عليكم ورحمة الله.

حضور الشيخ ماء العينين
في المصادر والمراجع العربية

ذ. زهرة المعتصم
كتابة الدولة المكلفة بالبيئة-الرباط

ترنو هذه المداخلة إلى استجلاء الحضور المكثف للشيخ ماء العينين في الكتابات العربية، باعتباره شخصية نمطية متكاملة، اضطلعت بأدوار حيوية شملت ميادين ثقافية واجتماعية وسياسية ، وحملت مشعل النهضة والتنوير في الإبداع الفكري والإبلاغ الأدبي، وحققت نتائج حميدة في مجال الحفاظ على الوحدة الترابية، ومناهضة المد الأجنبي، وإعطاء نفس جديد للزاوية المعينية التي أخذت طفرتها الحاسمة، وحققت مكتسباتها الحيوية في عصره وزمنه.

إن شخصية من هذا الحجم فرضت نفسها بقوة على الكتابة، والتأليف، وأضحت محور دراسات توثيقية، ومقاربات علمية، الأمر الذي يفرض على الباحث أن يضع تصورا شاملا للإطار البيبلوغرافي الذي في مُكنته أن يسلط الأنوار على مختلف جوانب ومعالم سيرة الشيخ ماء العينين الذي حرك الأقلام من حوله، محققا تراكما ثقافيا يهمه، ويخصه لازال في أمس الحاجة إلى التنقيب.

أولا: الكتابات المباشرة

تبحث الكتابة المباشرة بشكل مستقل في شخصية الشيخ ماء العينين، فيُضحي هاجسَها الأكبر، وشغلَها الشاغل. إن الشيخ هو بطل الخطاب ونقطة دائرة النص، وعليه المعول في الكتابة، سواء أكانت ذاتيةً صادرة من الشيخ نفسِه، أو غيْرية اضطلع

بها علماء جهابذة، اعتبروا الرجل من الشخصيات المرموقة التي يحق لها أن تستقطب اهتمام الكتابة التاريخية والتوثيقية.

وتتنوع الكتابات المباشرة إلى ما يأتي:

1- مؤلفات الشيخ ماء العينين

إن مؤلفات الشيخ ماء العينين، ذاتِه، تُبرز معالم أساسية من سيرته، وتعتبر مفتاحا جوهريا لفهم شخصيته، ونفسيته، وهذا واضح في ديوانه الشعري، وفي كتبه النثرية الكثيرة، كما هو الحال في رحلته التي ألفها في سفره إلى الحج وهي عبارة عن منظومة شعرية مطولة.

إن مؤلفاته الفلكية والفقهية والصوفية تتوفر على ذخيرة هائلة من المعلومات حول هذا الرجل الذي قلما يجود الزمان بمثله، "كإبراز اللئالئ المكنونات، من الأسماء الظاهرات والمضمرات" و"الأقدس على الأنفس" و"الإيضاح لبعض الاصطلاح" وتبيان الحق الذي للباطل سَحَق".

2- كتب السيرة والمناقب

لهذه الكتب أهمية خاصة، وإن كان جلها لا يزال مخطوطا، والسبب في ذلك يُعْزَى إلى أن هذا الضرب من الكتابة تتوسع دائرةُ اهتمامِه فيوثّق لسيرة الشيخ بطريقة تُراعَى فيها تتبع التفاصيل والدقائق، والوقوف عند الجزئيات، كالحديث عن النسب، والأسرة، والولادة، والنشأة، والدراسة، والرحلة، والعلاقات مع الدولة العلوية، والدور النضالي والجهادي، والأنشطة العلمية، تدريسا وتأليفا، وما قيل فيه من المدح والرثاء.

وتؤول القيمة العلمية لهذه الكتابات في كونها صادرةً عن أفراد من عائلة المترجَم له الذين يعرفون عنه حقائق كثيرة، ومن نماذجها كتاب "سحر البيان في مناقب شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان" لماء العينين بن العتيق، و"قرة العينين في كرامات شيخنا الشيخ ماء العينين" للشيخ مربيه ربه، و"مذكر الموارد بسيرة الشيخ ماء العينين ذي الفوائد" للشيخ محمد تقي الله، و"مجمع البحرين في مناقب الشيخ ماء

العينين" للشيخ محمد العاقب بن الشيخ سيدي عبد الله بن مايابا، وهي كتب لا تزال مخطوطة.

3-الدواوين الشعرية

إن جمع الشعر الذي قيل في مدحه أو رثائه من شأنه أن يستجلي جوانب مركزية من حياته المتألقة، وسيرته العطرة المشرقة، خصوصا إذا علمنا أن الشعر الذي قيل فيه يُعَدُّ بالعشرات مدحا ورثاء، ووصفا للخصال، وثناءً على الشمائل، وتذكيرا بكريم المحامد، والشموخ الحضاري الذي ضرب فيه المحتفَى به بسهم وافر، وهذا ما نلمسه في "ديوان في الأمداح المعينية" لجامع مجهول يوجد مخطوطا بالخزانة العامة تحت رقم 1866 د، ونسخة أخرى منه تحت رقم 1609د، و"الأبحر المعينية في الأمداح المعينية" للشيخ النعمة المخطوط بالخزانة تحت رقم 1376د، وقد حقق منه الدكتور أحمد مفدي الجزء الأول، وحقق المختار محمد المداح الجزء الثاني.

4-الكتابات التاريخية المعاصرة

احتفى المؤرخون والدارسون المعاصرون بالشيخ ماء العينين، فألّفوا حوله الكتب، ووضعوا المؤلفات المهمة ذاتَ القيمة العلمية المتميزة، هكذا نجد الأستاذ شْبيهنَّا حمداتي ماء العينين يؤلف كتابه "الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني" تناول فيه جوانب مختلفة من حياته وجهاده وأفكاره وأنشطته الدينامية المختلفة، وقد طبع بمطبعة المعارف الجديدة بالرباط عام 1995م.

5-الأعمال الأدبية

لعل من نافلة القول التأكيد على ذلكم التميُّز الذي طبع النشاط الثقافي للزاوية المعينية، وهو تميز فريد يتجلى في العطاء الجمالي الذي جعل أي دارس للتراكم الأدبي بالجنوب تستوقفه محطة الأدب المعيني، الذي له أُفُقُه الإبلاغي، ورونقه البلاغي، ودلالتُه المعنوية، وجمالياته الأسلوبية، لذا فإن مجموعة من الكتابات التي أرخت لظاهرة الأدب الصحراوي عرَّجت على الشيخ ماء العينين فعرَّفت به وأوردت نماذج من شعره، كما هو الحال في كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" لأحمد بن الأمين الشنقيطي،

و"الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري" للأستاذ أحمد ولد الحسن، يضاف إلى هذا، الرسائل الجامعية التي اهتبلت بهذا الإبداع فأولته عنايتها الفائقة، كالرسالة الجامعية التي حضرها الأستاذ محمد الظريف لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت عنوان: "الحياة الأدبية في الزاوية المعينة: من التأسيس إلى قيام المسيرة الخضراء"، و "الشعر العربي في الصحراء المغربية" لأحمد مفدي، و"الصورة الفنية في شعر الصحراء المغربية" لبوبكر أولياس، ولا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أنوه بكتاب أستاذنا الدكتور عباس الجراري، "ثقافة الصحراء" الذي كشف فيه جانبا مهما من الحقيقة الأدبية المعينية.

ثانيا: الكتابات غير المباشرة

ونعني بها تلكم الكتابات الغزيرةَ الفائدة، العظيمةَ القدر التي تناولت الشيخ ماء العينين مندرجا في إطار ثقافي أوسع، حيث إن هاجسَ الكتابة لا ينصرف إلى الشيخ وحده، كما رأينا في القسم الأول، وإنما يُسْلَكُ الحديث عن الشيخ في سياق ثقافي مطبوع بالتعدد وتباين الهموم المعرفية المختلفة، فهذا النوع من الكتابة ينصرف إلى تناول طائفة من الشعراء والأدباء والعلماء، من بينهم الشيخ ماء العينين، أو مجموعة من الأحداث والمؤلفات التاريخية التي بعض منها له صلة بالشيخ، وهذا ما سنحاول استجلاءه من خلال:

- الأعمال البيبلوغرافية.
- كتب الفهارس والبرامج.
- كتب التراجم والتاريخ.
- الكتب البلدانية.
- الأعمال الأدبية.

1- الأعمال البيبلوغرافية

تشكل الأعمال البيبلوغرافية رافدا خصبا في مجال إنتاج معرفةٍ شاملة للإنتاجات العلمية للشيخ ماء العينين، لاسيما إذا علمنا أن الشيخ قد أنفق وقتا طويلا في الكتابة

ومارسها أينما حل وارتحل، والأعمالُ البيبلوغرافية لا توثق فحسب للإنجازات العلمية للشيخ، وإنما توسع دائرة اهتماماتها لتسجل في قوائمهما ما كُتب حول الرحل من تآليف ومصنفات نفيسة، وفي هذا السياق نستحضر فهرس مخطوط بالخزانة الحسنية للعربي الخطابي، وفهرس مخطوطات الخزانة العامة لعلوش، وفهرس الخزانة الصبيحية لحجي، ودليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة، ومعجم المطبوعات لإلياس سركيس، وفيما يخص مؤلفاته المطبوعة على الحجر أشار إليها فوزي عبد الرزاق في كتابه "فهرس المطبوعات الحجرية"، كما تناول مؤلفاتِه المطبوعة على الحجر والسِّلك العلامة إدريس بن الماحي القيطوني في كتابه "فهرس المطبوعات المغربية".

ويحتفظ الراحل الأستاذ محمد المنوني بكثير من الإفادات حول مؤلفات الشيخ وما كتب عنه في كتابه النفيس "المصادر العربية لتاريخ المغرب" الجزء الثاني.

2- كتب الفهارس والبرامج

حظي الشيخ ماء العينين بعناية فائقة من لدن فهارس وبرامج الشيوخ، ويكتسي هذا الضرب من الكتابة أهمية خاصة في مجال التوثيق للنشاط الثقافي للشخصية، وإلقاء مزيد من الضوء على العلاقات التي نسجها مع أعلام عصره، وفي هذا الإطار نجد للشيخ ذكرا في فهرس أحمد بن الخياط الزكاري الحسني المخطوطة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 1427ك، وذكرا في فهرس "إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية" لمحمد بن قاسم القادري (ت. 1913) المطبوع على الحجر عام 1320هـ، وإشارة مهمة في فهرس سيدي المهدي الوزاني الذي يورد نص الإجازة التي نالها من الشيخ.

وللشيخ ماء العينين ترجمة في فهرسة العلامة أحمد سكيرج المسماة بـ"قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ" المرقونة بالخزانة العامة للوثائق (قيد التحقيق) تحت رقم 3844د، وتوجد نسخة أخرى منه مصورة على الشريط رقمها 1708د.

والجدير بالذكر أن حضور الشيخ في كتب الفهارس المغربية يحتاج إلى دراسة خاصة، نظرا لكثرتها، ونظرا لاحتوائها على نصوص الإجازات التي منحها الشيخ ماء العينين لمن طلبها منه، من نجباء ونبهاء عصره كلما حل بفاس أو مكناس أو مراكش، أو بأي حاضرة مغربية، وهذا يعكس بوضوح وجلاء ذلكم التواصل الثقافي العميق بين الشمال والجنوب.

3- كتب التراجم والتاريخ

تحفل كتب التراجم بمعلومات ثمينة عن شخصية الشيخ ماء العينين في مختلف أطوارها وتعدد مساراتها ومشاربها، إن أي كتابة تهتم بأعلام المغرب في القرن التاسع عشر، أو بأعلام الصحراء المغربية، إلا وتنبري لترجمته والتعريف به على سبيل الإيجاز أو التفصيل، معتبرة إياه من كبار الشخصيات المرموقة التي يحق للمغرب أن يعتز بها ويفخر ويباهي بها الأقطار الإسلامية في نفاذ العزيمة، وغزارةِ التأليف، وتعددِ الأدوار، والوظائف.

وتماشيا مع ذلك، ترجم له ابن مخلوف في كتابه "شجرة النور الزكية" وترجم له الزِّركلي في كتابه "الأعلام"، وترجم له عبد العزيز بن عبد الله في كتابه "موسوعة الأعلام البشرية والجغرافية".

لقد كان للشيخ ماء العينين حضور أكيد، وخير متميز في نسيج الكتابة التاريخية العامة والخاصة، كما هو الشأن مثلا في كتاب "الاستقصا" للناصري، و"الساقية الحمراء ووادي الذهب" لمحمد الغربي، و"السيادة المغربية من خلال الوثائق المخزنية" لمحمد بن عزوز حكيم، و "المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية" لمصطفى العلوي، خاصة في الجزء الثاني الذي تناول فيه تفاصيل دقيقة حول نشاطه النضالي، والرسائل المتبادلة بينه وبين السلطان مولاي عبد العزيز.

4- الكتب البلدانية

نقصد بالكتب البلدانية تلكم الكتابات التاريخية التي اختصت بدراسة مدينة من المدن المغربية في إطارها المونوغرافي الشمولي، وقد قدمت هذه الكتب خدمة جليلة

للتاريخ المغربي لأنها استطاعت أن تُلامس جوانب خفيةً، وترتاد معالمَ كانت مجهولة في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

وللشيخ ماء العينين حضور في الكتب البلدانية، لاسيما تلك التي لها علاقةٌ وطيدة بالحواضر المغربية الكبري كفاس ومكناس ومراكش، وهكذا فقد أشار للشيخ ماء العينين محمد بن جعفر الكتاني في كتابه "سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس" المطبوع على الحجر في ثلاثة أجزاء، وعبد الرحمان بن زيدان في كتابه "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" المطبوع في خمسة أجزاء، والعباس بن إبراهيم التعارجي في كتابه "الإعلام فيمن حل بأغمات ومراكش من الأعلام"، وفي هذا السياق يندرج كتاب "المعسول" للمختار السوسي الذي خص الأسرة المعينية ونشاطَها الوطني والثقافي بموضوع مستقل يكاد يشمل الجزء الرابع بأتمه، حيث تَرِدُترجمة موسعة للشيخ ماء العينين تستغرق عدة صفحات. ولعلال الفاسي مقال في الموضوع تناول فيه دور الشيخ في النضال والجهاد.

5–الوثائق التاريخية

تشمل إجازات الشيخ لعلماء وقته، ومراسلاتِه معهم وظهائر التوقير والاحترام التي خلعها عليه السلاطين العلويون. ومعظم هذه الوثائق يوجد بالخزانة الملكية، والخزانة العامة للوثائق، والخزانة الصبيحية، والخزائن الخاصة، ونمثل لذلك برسالة الشيخ ماء العينين للوزير أحمد بن موسى عام 1900 و "إجازة الشيخ ماء العينين للباشا محمد الصبيحي عام 1905 الموجودة بالخزانة الصبيحية بسلا، و "إجازة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ" الموجودة بالخزانة العامة للوثائق بالرباط تحت رقم 1597د.

وللإشارة فإن بعض هذه الوثائق تم نشرها في دراسات مختلفة، ككتاب "السيادة المغربية من خلال الوثائق المخزنية"، و "الشيخ ماء العينين ومعركة الداخلة"، و"الشيخ ماء العينين وجهادُه العلمي والوطني"، و "الحياة الأدبية في الزاوية المعينية".

وصفوة القول إن مقاربة الإطار البيبلوغرافي يشكل مفتاحا لمعرفة كنه وأغوار وحجم سيرة الرجل الصالح والمجاهد والمؤلف النفاعة، الشيخ النموذجي ماء العينين، بيد أن البحث العلمي إذا واصل مسيرته، من شأنه أن يكشف عن مصادر، ووثائق جديدة لازالت خبيئة في الخزانات الخاصة، ولهذا أصبح من الضروري جمع إجازات الشيخ وطبعها في كتاب مستقل، والعمل بجدية على طبع المؤلفات المخطوطة التي تهم سيرته العطرة، حتى تتمكن الأجيال من الاطلاع على حياة أعظم رجل أنجبته أقاليمنا الصحراوية المغربية العتيدة.

صورة الشيخ ماء العينين من خلال الكتابات الأنجلوساكسونية
نموذج: طوني هودجز "Tony Hodges"

ذ. سميرة الفرودي
باحثة-الرباط

يطيب لي أيها الحضور الكرام أن أعرب لكم عن سعادتي الكبيرة بأن أكون من بين الباحثين المشاركين في أشغال هذه الندوة العلمية التي يدور موضوعها حول: "شخصية العالم المجاهد الشيخ ماء العينين". وإني أغتنم هذه الفرصة لكي أتوجه بعميق شكري وتقديري للمجلس البلدي للمدينة في شخص رئيسه السيد أحمد اديعز وإلى الزميل والأخ ماء العينين النعمة علي.

أيها الحضور:

إن الكتاب الذي اخترته محورا لهذا العرض هو نموذج للكتابات الأنجلوساكسونية التي اهتمت بتاريخ الصحراء المغربية عموما وتاريخ رحالاتها على الخصوص وهو للمؤلف الإنجليزي Tony Hodges، أما عنوان الكتاب فهو كالآتي:

"Western Sahara: Roots of a desert war"(1)

يثير هذا العنوان إشكالية الصراع الذي احتدم بين دول المنطقة حول الصحراء المغربية، كما يثير أيضا مفهوم الصحراء كفضاء لا يزال شاهدا على تشابك مختلف التواريخ المتداخلة فيما بينها. وكواقع له خصوصياته الجغرافية ومميزاته البشرية.

---

(1) Western Sahara. The roots of a desert war, Tony Hodges, Lawrence Hill, Westport, connectient and groom Helm, London, 1984.

ولا يخفى على كل متتبع لتاريخ الصحراء المغربية أنها كانت على مدى حقب طويلة مجالا خصبا للأبحاث والبعثات العلمية الاستكشافية ذات الطابع الكولونيالي/الاستعماري.

هذه الدراسات كانت توظف أصالة لصالح الدوائر الامبريالية، يحفزها في ذلك الرغبة الأبدية في امتلاك وإعادة امتلاك تواريخ الأمم والشعوب التي ذاقت مرارة الاحتلال.

لقد اعتمدت الدوائر الاستعمارية في الماضي كما نعلم -عندما كانت الامبريالية في قمة أوجها ونجاحها تكتسح العالم غير الغربي- على العديد من التقارير والدراسات التي اختصت بها البعثات العلمية والتي أخذت على عاتقها هاجس معرفة وتفكيك نمط تفكير وعيش المجتمعات المدروسة والمراقبة. وتماشيا مع هذا الطرح يقول الباحث والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد وهو يتحدث عن علاقة الثقافة بالامبريالية: «أن ثمة ميلا في علم الإنسان "الأنتروبولوجيا"، والتاريخ والدراسات الثقافية في أوروبا والولايات المتحدة إلى اعتبار تاريخ العالم بأكمله قابلا للمعاينة من قبل ذات غربية فائقة تنتزع صرامتُها المؤرخية... تعيد التاريخ لشعوب وثقافات "دونما تاريخ"» (1).

والآن وعلى الرغم من نمو الوعي والفكر النقديين في ثلة من مراكز الدراسات الغربية، فإن هاجس بقاء الهيمنة والسيطرة على تواريخ وخيرات الأمم والشعوب غير الغربية تجعل من مجمل الأطروحات والسرديات الكبرى "Les grandes narrations" على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي جون فرانسوا ليوطار Jean François Lyotard (2) تفقد الكثير من بريقها ورصانتها.

وإذا كان الاستعمار قد ساعد من حيث لا يدري الشعوب بمختلف مكوناتها على تكثيف وتطوير أساليب المقاومة وتحصين الذات، وإذا كانت الصحراء المغربية

---

(1) الثقافة والامبريالية، تأليف: إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص: 104.

(2) هو فيلسوف فرنسي توفي في الثمانينيات من القرن الماضي، له عدة مؤلفات أشهرها: La condition post-moderne, Edition Gallimard ، ويلقب بشيخ ما بعد الحداثيين.

نموذجا جيا لهذه الظاهرة، فإن تاريخ الشيخ ماء العينين يقف شامخا أمام أهداف الاستعمار مجسدا بامتياز الوجه المشرق للمقاومة الوطنية باعتبارها شكلا من أشكال حضور الذات المغربية في مواجهتها مع الآخر/ المستعمر.

ويتيح لنا الفصل الخامس من هذا المؤلّف -وهو الفصل الذي خصصه المؤلّف للحديث عن مقاومة الشيخ ماء العينين للاستعمار الفرنسي- فرصة ثرة من أجل أن نترسم معالم صورة هذا المجاهد الكبير، ولكن بعيون غربية.

ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية، واستجابة للضرورة المنهجية التي يقتضيها هذا النوع من الدراسة سنقدم في البداية ترجمة موجزة للكاتب ولكتابه.

المؤلف كما سبقت الإشارة إلى ذلك إنجليزي الجنسية، درس بجامعة أكسفورد وهو يعد من الدارسين المتخصصين في الشؤون الإفريقية منذ سنة 1983، وله العديد من المؤلفات والدراسات نذكر منها:

-Western Sahara: The Roots of a desert war, 1984, London.

-Historical dictionnary of western Sahara, Metachen New Jersy, 1982.

-The western Sahara, London, 1984..

-Angola to the 1990's: The potential for recovery, 1987.

وهو يُسَيِّر بموازاة مع مهنته كصحفي متخصص في الشؤون الإفريقية بـ: "L'International reporting Information systems" بواشنطن د.س الشعبة المتخصصة في الشؤون الإفريقية بـ"The economiste publication" بلندن.

وقد قام المؤلف بزيارة للصحراء المغربية، والجزائر ومخيمات الحمادة وموريطانيا، وللفائدة نعلم أن هذه الزيارة وما نتج عنها من دراسات ميدانية وتقارير ونشرات إخبارية كلها كانت ممولة من لدن مؤسسة فورد Ford بين سنتي 1978 و 1982.

بعد هذه الورقة التعريفية عن الكاتب، نعرج على الحديث عن مؤلفه الذي ترجمت عنوانه إلى: "الصحراء الغربية: أسباب أو جذور حرب الرمال"، وقد جاء في

مقدمة الترجمة الفرنسية للكتاب أنه محاولة من المؤلف لفهم الجذور التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي غذت(1) مسلسل الصراع والصدام الدائرين بين الدول المعنية بالقضية، ويقدم الكتاب مواد تحليلية جديدة من أجل تلمس أكثر لجوهر وحقيقة الصراع، وهو أيضا يحلل مختلف وجهات نظر الأطراف المتصادمة فيما بينها، ويربط هذا التوتر الحاصل في الصحراء المغربية بمختلف المتغيرات الجهوية والدولية ومدى انعكاس ذلك على أمن واستقرار دول المنطقة.

بعد هذا التقديم نباشر الدخول إلى الفصل الخامس من الكتاب، وهو الفصل الذي خصصه المؤلف للحديث عن الشيخ ماء العينين. وسنعمل على تفكيك بنية هذا الفصل من أجل الوقوف على المحاور الكبرى التي أثثت فضاءه، ولهذه الغاية واستنادا على إجراء منهجي بحث سيساعدنا على تمثل تلك المحاور اِرتأينا أن نقسم هذا الفصل إلى ثلاث لبنات أساسية شكلت معمارية صورة الشيخ ماء العينين وهي كالآتي:

1- اللبنة الأولى: الأصل والنشأة.

2- اللبنة الثانية: علاقة الشيخ ماء العينين بالمخزن المغربي.

3- اللبنة الثالثة: مقاومة الشيخ ماء العينين للاستعمار.

اللبنة الأولى: الأصل والنشأة

أول ما يستهل به المؤلف حديثة عن أصل ونشأة الشيخ ماء العينين، وعلى غرار الكتابات التاريخية التي تعنى بالسير الذاتية. هو نسب ومكان وتاريخ مولد الشيخ. يقول في الصفحة 80 من الكتاب: هو محمد المصطفى بن محمد فاضل بن مامين، الملقب منذ صغره بماء العينين. ولد بمنطقة الحوض سنة 1830 أو 1831. نشأ في حضانة والده الشيخ محمد فاضل، الذي كان من الأعلام البارزة في مجال التصوف، وحظي باهتمام خاص من طرفه. وقد شب على طريقته التي كانت تسمى بالطريقة الفاضلية نسبة إليه، وهي الطريقة التي كان لها أكبر الأثر في توحيد القبائل الصحراوية

---

(1) عنوان الترجمة الفرنسية للكتاب هو:

Sahara occidental: Origines et enjeux d'une guerre du désert, par: **Dominique Kugler**, Editions: L'Harmattan, Paris, 1987.

ضد الاستعمار[1].

ويتحدث هودجز على المكانة الرفيعة التي انفرد بها شيخنا سواء في أسرته بين إخوته أو بين سكان الصحراء، ويعزو المؤلف هذه الرفعة وهذا التميز إلى أن الشيخ ماء العينين حفظ القرآن وهو ابن الثامنة، وظهرت له كرامات عديدة ظاهرة، بالإضافة إلى قيامه بفريضة الحج وهو أمر لم يكن ليتيسر بسهولة لكل من أراد القيام بها، ولقد قضى الشطر الأول من حياته في التحصيل والأخذ والتلقي.

توفرت في الشيخ ماء العينين شروط الزعامة والروح القيادية، جعلته يتمتع بقدر كبير من التبجيل والتقدير من طرف الزعامات القبلية، ليصبح أشهر وأعظم رائد على المستوى الديني والفكري في الصحراء.

وهذا ما يفسر -يقول هودجز- العدد الغفير والهائل من الطلبة والتلاميذ الذين شدوا الرحال نحوه لأخذ المعارف والعلوم عنه فهو رائد إسلامي بامتياز لا يشق له غبار في شتى مجالات العلوم، خلف ما يربو عن 314 كتابا تهم حياة الإنسان الدينية والدنيوية[2].

استنادا على ما سبق يمكن أن نستشف من حديث هودجز أننا بحضرة شيخ عالم ومربي جليل القدر، مهاب ومحترم، ذي أخلاق رفيعة ومتميزة تألق اسمه في دنيا العلم والمعرفة.

بعد ذلك يتوقف هودجز عند اللبنة الثانية من الصورة ليتحدث عن علاقة الشيخ ماء العينين بالمخزن المغربي.

يؤرخ هودجز لبداية اتصال الشيخ بملوك الدولة العلوية بعام 1858 حيث إن الشيخ ماء العينين رافق بعض أبناء المولى عبد الرحمان إلى الحج، غير أن المؤلف يؤكد أن العهد الزاهر الذي تميزت فيه العلاقة بالقوة والمتانة كان هو عهد المولى الحسن، يقول: «إن الشيخ ماء العينين وكرهه الشديد للمستعمر أكبر حليف للمخزن المغربي

---

(1) Sahara occidental: Origines et enjeux d'une guerre du désert, Tony Hodges, Traduit par Dominique Kugler, P. 80.

(2) المرجع نفسه، ص: 80.

باعتباره سيشكل الدرع الجنوبي الواقي الـذي يقـف في وجـه الزحـف الفرنسـي على المغرب». وفي سنة 1887 عينه خليفة له على الصحراء المغربية وزوده بالأسـلحة، وقـد بلغت عدد زيارات الشيخ ماء العينين للمولى عبد العزيز سبع مـرات، ويؤكـد هودجـز على مدى تأثير ماء العينين على هذا السلطان العلوي الذي كان يبلغ 14 سـنة آنـذاك حيث كان بمثابة عم له كما كان يحظى عنده بكل مشاعر التبجيل والتقدير والإكبار.

وفي عهده تمكن الشيخ ماء العينين من تحقيق حلمه الكبير المتمثل في بنائـه لمدينـة السمارة حيث أمـده بـالحرفيين والتقنيـين والأدوات وكـل مسـتلزمات البنـاء والتشـييد شرع في بنائها سنة 1898، وتم الفراغ من بناء الجزء الكبير منها سنة 1902. وتم زرع أشجار النخيل وحفر الآبار، وتمكن الشيخ ماء العينين من الاستقرار بعاصمته السـمارة بالساقية الحمراء، وبها كـان يصلـه الدعـم العسـكري والسياسـي مـن لـدن السـلاطين العلويين الذين كانوا يكنون له الكثير من التقدير والاحـترام نتيجـة للنفـوذ الـذي كـان يتمتع به بين قبائل الصحراء. ومن هنـاك أيضـا -أي مـن السـمارة- انطلقـت المقاومـة الوطنية التي شنها الشيخ ماء العينين ضد الاستعمار الفرنسي[1].

وبهذا نمر إلى اللبنة الثالثة ألا وهي موقف الشيخ من الوجود الفرنسي بـالصحراء المغربية: يسهب المؤلف في الحديث عن الدور الكبير الذي اضطلع به الشيخ ماء العينين في جهاده ضد الوجود الفرنسي والإسـباني علـى حـد سـواء. غـير أن مـا كـان يقـض مضجع الشيخ المجاهد -كما يقول هودجز- ليس هو الخطـر الإسـباني، الـذي اكتفـى بالانزواء في بعض النقط الساحلية بالداخلة، بـل هـو الاسـتعمار الفرنسـي الـذي كـان أكثر شراسة وكثافة، خصوصا وأن فرنسا كانت قد وضعت يدها على كل من الجزائر وتونـس سـنة 1903 أمـا كبولانـي فقـد تمكـن مـن السـيطرة علـى منطقـتي البراكنـة والترارزة.

بـدأ الشـيخ مـاء العينـين مشـروعه السياسـي بإصلاح ذات البـين بـين القبـائل الصحراوية المتنـاحرة فيمـا بينـها، وتوجيـه بأسـها وقوتـها صـوب الوجـود الأجنـبي،

---

(1) المرجع السابق، ص: 81.

خصوصا وأن فرنسا كانت تتعمد إشعال نار الفتنة والاضطرابات بين القبائل وذلك بضرب بعض الأمراء ببعض، وبعض الزعماء ببعض منطلقة من مبدأ "فرق تسد" خدمة لمصالحها في إضعاف شوكة المقاومين وتحقيقا لأهدافها التوسعية.

ولقد تحققت رغبة القبائل الصحراوية في الانضواء تحت زعامة روحية دينية توحد كلمتها وتلم شتاتها، ولا غرو إذا احتار الطرف الفرنسي بشأن المجاهد والزعيم الشيخ ماء العينين فقد كان كبولاني يقدم تقريرات متتالية عن «دور المرابط الكبير الشيخ ماء العينين الموجود بالساقية الحمراء بحيث يتمتع بمكان مرموق» بين القبائل الصحراوية. أما التقارير التي كانت ترسل إلى الحاكم العام الفرنسي للشؤون الصحراوية بخصوص تحركات الشيخ المجاهد فقد ثبت فيها بالتواتر أن «الشيخ أو شيخ الساقية الحمراء أرسل نداء عاما للثورة إلى بعض القبائل الصحراوية التي قبلت الدخول تحت إمرتنا عن طواعية والأكثر من هذا فإن ذلك يتم بالتواطؤ مع المخزن المغربي الذي يمده بالسلاح بأدرار»[1].

لقد كانت دعوة الشيخ ماء العينين للحرب المقدسة تحمل طابعا إسلاميا حيث اعتبر مقاومة النصارى جهادا في سبيل الله وأن الحرب ضدهم هي حرب مقدسة، وبنى الشيخ مواقفه هذه على جملة اعتبارات من أهمها أن النصارى هم غزاة محتلون كفرة، وأن استيطانهم لبلاد المسلمين لا يجوز شرعا إلا بسيادة المسلمين عليهم.

ولقد شجعت هذه الاعتبارات الحافز الديني لدى السكان لأنه الوحيد الذي كان بإمكانه أن يوحد كل الصفوف ويثير الغيرة والشعور باعتبار هذا الحافز مصدر كراهية للمستعمر من منظار ديني بحت، وقد تحقق بعض ما توخاه الشيخ ماء العينين ألا وهو سيادة الوحدة والالتحام، إذ تحولت فوهات البنادق إلى المستعمر، وأصبح الاستعمار هاجس الجميع، فانشغل الناس بالعدو المشترك الجديد عن الصراعات المحلية.

---

(1) المرجع السابق، 84، نقلا عن:
Ajjaires du Maroc, Documents diplomatiques français, Vol. III, P. 5, 1906-1907.

ولا غرو إن وصفته التقارير والرسائل الإخبارية بأنه العدو اللدود للوجود الفرنسي بالصحراء المغربية فقد عانى منه الأمرين. ويشير هودجز إلى بعض المعارك والهجومات المنظمة[1] التي كان الشيخ من ورائها والتي ألحقت الكثير من الأضرار بجيش الاستعمار أهمها معركة أنميلات الواقعة على بعد 25 كلم جنوب غرب تجكجة سنة 1906، وذلك أثناء رحلة مولاي إدريس إلى جنوب آدرار الذي أوفده السلطان من أجل التنسيق مع الشيخ حسنة ابن الشيخ ماء العينين شؤون المقاومة والجهاد، هذا بالإضافة إلى الهجوم والحصار على المركز الفرنسي بتجكجة، ومساعدة أهل الساحل في مهاجمتهم على أحد المراكز الإسبانية بالداخلة.وبموازاة مع عملياته الجهادية لإيقاف الزحف الأجنبي قام الشيخ بعدة أنشطة سياسية لدعم هذه العمليات منها:

1- إرسال عدة رسائل إلى كل الشخصيات الدينية والسياسية الصحراوية المعروفة آنذاك يدعوهم فيها إلى عدم التعامل مع الأجانب من أمثال:

Julio Cervero - Baviero, Fransisco Quirogo , Filipe Rizzo.

2- استقباله بالسمارة للبعثة السلطانية التي توجهت إلى الصحراء لاستلام طرفاية من الإنجليز حيث أصبح خليفة للمولى عبد العزيز عليها سنة 1895.

3- استقباله للبعثة السلطانية سنة 1906 متألفة من عم السلطان وخليفته مولاي إدريس وبعض الوزراء والكتاب وذلك من أجل دعم المقاومة الوطنية بالصحراء المغربية، ومدها بالسلاح والعتاد والمؤن.

وقد لعب أبناء الشيخ ماء العينين أدوارا مهمة في الحملة المعادية للاستعمار من خلال تأطيرهم للجهاد والمشاركة فيه، فعلى سبيل المثال فقد انتدب الشيخ المجاهد ابنه الشيخ حسنة لمساعدة أمير تكانت بكار ولد اسويد أحمد في معركة بوكادوم وحمل أبناؤه الآخرين السلاح مقاتلين في صفوف جيش المقاومة.

ويعتبر هودجز حادث مقتل رئيس البعثة الاستعمارية الفرنسية كبولاني انتعاشة

(1) المرجع السابق، ص: 79.

حقيقية للمقاومة الصحراوية بالجنوب ويسرد باقتضاب هذا الحادث إذ إنه[1] ليلة 12 مايو من سنة 1905 تمكنت فرقة من المقاومين بقيادة سيدي ولد مولاي الزين من التسلل إلى معسكره في تجكجة وقتله. وقد أثبتت التحقيقات التي قام بها الإداريون الفرنسيون حول الحادث أنه كان بإيعاز من الشيخ ماء العينين، ومما لاشك فيه أن موت كبولاني كان من شأنه أن يؤدي إلى انهيار معنويات فرنسا في الوقت الذي يرفع فيه من معنويات المقاومة الوطنية ويعمل على تدعيمها.

غير أن التفوق العسكري الواضح -يقول هودجز- للجانب الفرنسي، وانشغال المخزن بالمشاكل الداخلية التي أزمت وضعية المغرب، وضغط المستعمر المستمر على الحكومة المغربية من أجل الكف عن تزويد الشيخ ماء العينين بالسلاح، بالإضافة إلى اجتياح حملة كورو العسكرية لآدرار وما تلاها من حملات أخرى، شكلت في حائط المقاومة الوطنية ثغرة مرق منها السهم فأصاب مقتلا.

حيث تزامن ذلك مع احتلال فرنسا لوجدة في مارس 1907 ودخول ما يقارب 3000 جندي فرنسي وإسباني إلى الدار البيضاء وإرغام مولاي عبد الحفيظ على توقيع معاهدة الجزيراس في 5 يناير 1909. ومعاهدة أخرى في 4 مارس 1910 بخصوص الشيخ ماء العينين وأعداء فرنسا بالصحراء، وقد جاء في بعض بنود تلك الاتفاقية «أن على السلطان أن يمنع هؤلاء المغربين، وأن يمنع وصول الإمدادات العسكرية من سلاح ومؤن إليهم» [2].

(1) ولد كزافيي كبولاني سنة 1866 بقرية مارنيا بكورسيكا، وانتقل مع أسرته إلى الجزائر، حيث استقر والده كمستوطن فرنسي، وأثناء إقامته في الجزائر تعلم اللغة العربية في المدرسة العامة بقسطنطينة. وعندما أتم دراسته عين موظفا في مركز إدارة البلدة، ثم عين سكرتيرا في المجلس المختلط لمديرية وادي شرق في 15 أبريل 1889، وفي سنة 1894 عين في الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر، ويعتبر من كبار المنظرين الاستعماريين.

(2) Sahara occidental. Origines et enjeux d'une guerre du désert

نقلا عن:

Le Sahara occidental devant la cour internationale de justice, Mémoire présenté par le Royaume du Maroc, Rabat, 1975, P. 59.

ومع ازدياد أطماع فرنسا وإسبانيا على المغرب قرر الشيخ ماء العينين القيام بمحاولة أخيرة لإنقاذ وفك الحصار على خليفة المسلمين، حيث انطلق من تيزنيت يقول هودجز وهو يقود جموع المقاومين لكن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال موانيي جعلته يثني عن عزمه هذا ويرجع حزينا إلى تيزنيت حيث وافته المنية هناك في 28 أكتوبر سنة 1910، فخلفه ابنه الشيخ أحمد الهيبة في رئاسة القبائل وحاول بدوره استخلاص مدينة مراكش من أيدي الفرنسيين. لكنه انهزم أما قوات الجنرال Mangin في معركة سيدي بوعثمان في 6 شتنبر 1912. وعلى الرغم من فرض معاهدة الحماية على المغرب في 30 مارس 1912 فقد ظلت المقاومة الصحراوية مشتعلة و لم يستسلم أبناء الصحراء إلا بعد أن نفذت ذخيرتهم وتم تطويق مناطقهم من طرف المستعمر سنة 1934.

وإلى هنا ينتهي حديث المؤلف طوني هودجز عن الشيخ ماء العينين ويمكن انطلاقا مما تقدم ذكره أن نتبين معالم الصورة التي رسمها المؤلف لشيخنا الجليل:

1- صورة الشيخ العالم المربي الصوفي: هنا إشارة إلى الطريقة القادرية الفاضلية التي شكلت حجر الزاوية في دعوته لتوحيد القبائل الصحراوية والتأليف بين مختلف الطرق المنتشرة في الصحراء، حيث استقطبت طريقته آلاف المريدين والطلبة الذين انضووا تحت لوائها مشكلين بذلك جموع المجاهدين والمقاومين ضد الوجود الاستعماري.

2- صورة المجاهد والموحد: لقد كان الشيخ ماء العينين العدو اللدود للوجود الفرنسي على أرضه والموحد لصفوف المجاهدين والمؤطر العسكري والسياسي لكل تحركاتهم.

3- صورة الديبلوماسي المحنك: لقد كان الشيخ يتمتع بنفوذ قوي ومكانة مرموقة بين قبائل الصحراء المغربية، حيث نجح في إقناع معظم الشيوخ برفض التعامل مع المستعمر الأجنبي.

4- صورة الممثل الشرعي للمخزن المغربي بالصحراء وإن كان المؤلف لا يركز

كثيرا على هذه الصورة، و عند تقييمنا لعمل هودجز سنقف عند الخلفية الذهنية والفكرية التي كانت من وراء هذا التجاهل.

ولعل الخطوة الموالية التي علينا القيام بها من أجل تقييم عمل هودجز في الفصل الخامس من الكتاب هي الوقوف عند ثلاثيته وهي: أولا طريقة التناول، ثانيا أسلوب العرض، ثالثا غائية البحث.

نبدأ بالعنصر الأول، نحاول فيه تخطي دائرة النقد الإيديولوجي إلى فضاء النقد الابستمولوجي. وهنا إشارة واضحة إلى طبيعة المصادر التي استقى منها هودجز معلوماته، ذلك أن نظرة من عين فاحصة إلى طبيعة تلك المصادر لا تدع مجالا للشك في أنه اعتمد على المصادر الإسبانية والفرنسية والإنجليزية، والتي اعتكف أصحابها على تدوين ونقل مختلف الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية (المحلية) التي شهدتها الصحراء المغربية، وهكذا نلفي الكاتب يرجع إلى كل من:

Julio Caro Baroja, Paul Marty, Odette de puigaudeau, Ferdinand de la-cha-pelle, Robert Rezette, Desire Veuillemin.

والطابع المشترك بين كل هذه المؤلفات هي أنها ذات طابع تاريخي (كرونولوجي) تحقيبي وسوسيولوجي في معظم الأحيان، كما يتضح أيضا أن الكثير من التواريخ المسماة محلية إنما هي إنتاج عقول غير محلية، حيث اعتمد في بعض الأحيان على المنهج الأنتربولوجي (الإتنوغرافي) ذي الملامح التاريخية والسياسية.

إن المؤلف لا يعدو أن يكون ناسخا وناقلا أمينا للترجمات العديدة الأجنبية التي تناولت السيرة العطرة للشيخ ماء العينين فهو ينتقل بين المصادر المختلفة موظفا بعض نصوصها ومتغافلا عن أخرى، في محاولة منه لخلق صورة أجنبية تستجيب لميوله ولأهدافه المعلنة منها والخفية.

ثانيا: أسلوب العرض

إن أسلوب الكاتب هو أقرب إلى أسلوب السير الذاتية منه إلى الكتابات التاريخية فهو عرض يتأرجح بين التعميم والتخصيص، بين التثبت من المعلومة والرجوع

إلى أكثر من مصدر في التحقق من المعلومات وبين الانسياق وراء نوازع ذاتية هي أقرب إلى الانطباعات الشخصية منها إلى الأسلوب العلمي المحايد. والأمثلة الشاهدة على ذلك كثيرة نذكر منها ذكر اختلاف المصادر الأجنبية حول تاريخ ولادة الشيخ ماء العينين، وذكر اختلافهم حول تاريخ بناء مدينة السمارة، وسرد أكثر من مصدر بخصوص معلومة جزئية.

غائية البحث

إن الصورة التي أسفر عنها الفصل الخامس من كتاب هودجز عن الشيخ ماء العينين تكشف عن احترام وإعجاب من لدن هودجز بالشيخ الجليل. فهو إذا كان أقرب إلى الصواب منه إلى الضلال هذا إذا تجاوزنا بعض المزالق والهنات التاريخية والسياسية التي وقع فيها أثناء حديثه عن أهداف الحركة التحررية الوطنية التي قادها الشيخ المجاهد في الصحراء المغربية فهو في الصفحة 83 وأثناء تناوله لنص الرسالة[1] التي بعثها ابنه الشيخ حسن إلى الشيخ سيدي بابا يفصح عن احتهاد شخصي وتعسف واضح في تأويل نصها.

بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعمد إلى إفراغ حركة الجهاد التي تزعمها الشيخ الجليل من أي مدلول وطني مغربي، وهذا الادعاء والتضليل الذي يصدر عن نية مبيتة لا يعتبر في حد ذاته أمرا مفاجئا أو جديدا بل هو يسير في ركاب العديد من الدراسات والأبحاث الأجنبية التي دأبت على التقليل من شأن الحركات الوطنية التي تقوم بها الأمم التي طعنت في كرامتها وتم هضم حقوقها، وبالتالي النظر بعين الريبة

(1) مضمون الرسالة: «وجه أهالي الصحراء: ولد عايده أمير أدرار وآل مشظوف وإيداوعيش من تكانت طلبا استعجاليا إلى الشيخ ماء العينين بخصوص النصارى الذين احتلوا البلاد وطلبوا منه إخبار الخليفة بذلك، وقد سارع السلطان العلوي بمجرد سماعه بالخبر إلى إرسال بعثة رسمية إلى الصحراء برئاسة ابن عمه لتقبل البيعة ولتزويد الأهالي بالسلاح والمؤن، وتم إعلان تراب البيضان جزءا من المملكة. وإن الشيخ ماء العينين يعلم بأنه إذا لم يغادر النصارى البلاد فسنعلن الجهاد، وكل من دافع عن الإسلام فهو منا، وأما من ساند النصارى فهو عدونا».
Odette de Puigaudeau: Le passé maghrébin de la Mauritanie, Rabat, 1962.

والاستصغار إلى الأهداف السامية التي كانت تغذي تلك الحركات.

وقد عمدت هذه الدراسات، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا، هو غيض من فيض وملمح من ملامح هذه الكتابات إلى محاولة نفي أي هدف وطني نبيل كان من وراء هذه الحركات الوطنية، بل ينصب المؤلف نفسه حكما وقاضيا يأمر وينهى ويوظف الشواهد التاريخية بعد أن تكون قد انتزعت من سياقها العام من أجل أن يخدم مصالحه الذاتية والموضوعية، ويتم التغاضي عن أخرى. ولهذا فكل تاريخ موظف هو في حد ذاته شاهد إثبات عن تاريخ آخر محلي مسكوت عنه لم يتم الالتفات إليه، وينطبق على هذا الموقف غير العلمي مقولة للباحث الفرنسي إريك ميشلون Eric Mecholan حيث يؤكد في مقال له بأن «إنتاج التواريخ لا يماثل زمن المعرفة بها»[1]:

Le temps de la production n'est pas le temps du savoir.

ويذهب الأستاذ عبد الله العروي إلى أن التاريخ كمفهوم لا يوجد وإنما توجد تخصصات في فحص ومعالجة الشواهد على الماضي، فليس هناك تاريخ واحد موحد بل تواريخ منفصلة حينا، ومتصلة حينا آخر حسب الملابسات والغايات، فالتاريخ بالمغرب أو بالجمع كالطبقات الجيولوجية، كل طبقة جيولوجية تخفي أخرى، كذلك كل تاريخ منجز، إنما يحضر ليطمس تاريخا أو تواريخ أخرى كانت ماثلة وحية، وحتى نتمكن من تفحص وتدقيق وفرز مختلف التواريخ الحية وغير الحية، ينبغي على المؤرخ النزيه أن يخضع لزوما لوعيه العلمي والأخلاقي، لكن هذا التعريف البسيط لمهنة المؤرخ لا يصمد كثيرا أمام إكراهات ورهانات الواقع.

ولعل هذه المفارقة هي التي سقط فيها طوني هودجز فهو وإن كان يحتفي بالسيرة العطرة للشيخ ماء العينين فإنه يفعل ذلك باعتبار الشيخ أحد رجالات الصحراء العظام، ويقلل في الوقت نفسه من قوة العلاقة الروحية والتاريخية والوطنية التي تربط الشيخ ماء العينين بالعرش العلوي. فهو هنا –الشيخ ماء العينين– لا يعتبر مجرد شاهد

(1) Surfaces V.VI, Année 96, Eric Mechoulon, Article titre: Dette, institution et histoire, P. 28-29.

فردي، بل إن الشيخ الجليل يختزن ذاكـرة وتاريخا هـائلين همـا وجـوده المـادي سـابقا والرمزي حاليا، ويختزن كذلك العديد مـن الـدلالات المحوريـة والشـاهدة علـى مغربيـة الصحراء وعلى صحراوية المغاربة على حد سواء.

وما اهتمامنا نحن بهذا الكتاب إلا لكونه سوف يعزز معرفتنا بنظـرة الآخـر لنـا، الذي ينطلق من موقع الانتماء إلى أسطورة المركزيـة الغربيـة أولا وبعدهـا إلى أسـطورة الحداثة الغربية أو ما بعد الحداثة ثانيا.

ولعل خير ما نختم به هذا العرض هو مقولة للمفكر إدوارد سعيد والتي تعضد ما وصلنا إليه من نتائج حيث يقول:

«إن ما يعنيني هو الطريقة التي تستمر بها النزاعات بعد ذلـك بأجيـال في شـكل مفتقر، لكنه لذلك أشد خطورة، بفضل تحالف لا نقدي بين المثقفين ومؤسسات القوة يعيد إنتاج نسق تاريخي إمبريالي سابق ويؤدي ذلك (...) إلى سياسات فكرية للملامـة وإلى تقليص قاس لمدى وتنوع المادة التي تقترح كموضوعات تتطلب العناية والمسـاجلة الجدالية من قبل المثقفين العموميين والمؤرخين الثقافيين»[1].

وإني أتسـاءل هنـا ولي الحـق في طـرح هـذا التسـاؤل: هـل ينطبـق هـذا الحكـم على كتاب طوني هودجز وعلى سائر الكتابات الأجنبية الغربية الـتي تنطلـق مـن موقـع الانتماء إلى المركزية الغربية في الحكم على باقي الحضـارات والثقافـات الأخـرى. هـذا الحكم الذي يتميز في الغالب بنوع من التعصب والتحيز لجهة مـا علـى حسـاب جهـة أخرى، ذنبها الوحيد أنها لا زالت تتلمس طريقها في إعادة كتابة تاريخـها الوطـني عـن طريق ملء الفراغات والثغرات وتصحيح المغالطات التاريخية التي تسببت فيها الكتابات الأجنبية التي كانت تخدم في المقام الأول أهدافها الامبريالية.

---

(1) الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، ص: 108، الطبعة الأولى، 1997.

مظاهر جهاد الشيخ ماء العينين
في ظل المخزن المغربي

ذ. نور الدين بلحداد
معهد الدراسات الإفريقية-الرباط

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من الوثائق المخزنية الرسمية المحفوظة في الخزانة الحسنية وقسم الوثائق التابع للخزانة العامة بالرباط، وعلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، والوثائق الدبلوماسية المحفوظة بمدينة نانت "Nantes".

1- تصدي المخزن لمحاولات الأجانب للاستقرار في سواحل الصحراء

خلفت المحاولات التي قام بها كل من جورج كلاص "G.. Glass" سنة 1764، وجون دفدسون "J. Davidson" سنة 1836، لبناء مركز تجاري في الجنوب المغربي، رغبة قوية في نفوس بعض التجار البريطانيين الذين حاولوا الاتصال مباشرة ببعض أعيان القبائل وشيوخها لربط علاقات تجارية، ومن هؤلاء التجار، نذكر دونالد ماكينزي "D. Machenzie" الذي أسس شركة تجارية في مدينة لندن سنة 1875. أطلق عليها اسم: "North West African Company" وبعد شحن سفينته "Volta"، بمواد تجارية متنوعة غادر ماكينزي ميناء مدينة لفلبول في 11 يونيو 1876، وتمكن من زيارة السواحل المغربية الواقعة بين مصب وادي درعة ورأس بوجدور. وبسبب عدة عوامل اختار التاجر البريطاني ساحل طرفاية لبناء وكالته التجارية. واتصل بالشيخ محمد بن بيروك التكني وقدم له بعض الهدايا وكميات هامة من المواد

الغذائية، فاستجاب له الشيخ المذكور ووعده بمنحه قطعة أرض كافية لإنجاز مشروعه.

وفي سنة 1878، أرسلت الحكومة البريطانية كميات هامة من الحديد والأخشاب لمساعدة ماكينزي على بناء المركز كما توسط لصالحه نائب القنصل البريطاني "Topebann" بجزر الكناريـاس لإقناع السلطات الإسبانية بمده بكميات من الأحجار واليد العاملة، وبعد انتهاء أشغال البناء بدأ ماكينزي يعقد صفقات تجارية مع القبائل، فكان يحصل منها على الصوف مقابل كميات من الأرز والسكر والشاي. وتمكن كذلك من لفت أنظار أصحاب القوافل التجارية نحو مركزه لعقد صفقات تجارية معهم. وقد اتخذ تاجران بريطانيان نفس الطريقة التي سلكها ماكينزي لبناء مراكز تجارية جديدة في سواحل المغرب الجنوبية فجهز الأول ويدعى دفيد كوهن "D. Cohen" السفينة "Anjou" وشحنها بمواد تجارية مختلفة وأبحر من مدينة مرسيليا الفرنسية سنة 1880. بهدف الرسو في ساحل إفني، أما التاجر الثاني ويدعى جيمس كورتيس "J. Curtis" فقد حاول بناء مركز تجاري بالقرب من مرسى أركسيس سنة 1880.

وعلى الرغم من مشاكل المخزن ومشاغله، فقد استشاط السلطان مولاي الحسن الأول غضبا، واستدعى وزير بريطانيا بطنجة ج.د.هاي. وأبلغه احتجاجه الشديد على بناء مركز تجاري في ساحل طرفاية دون الحصول على إذنه[1].

ولقطع الطريق على بعض التجار الإسبانيين الذين حاولوا الاقتداء بماكينزي، ولتعزيز كذلك سلطته في جميع أنحاء الصحراء المغربية، بادر السلطان مولاي الحسن الأول إلى تعيين الشيخ ماء العينين خليفة له بالصحراء وبعث إليه ظهير توليته الذي نقتطف منه هذه الفترة:

«... يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز قدره وجعل في الصالحات طيه ونشره أننا استولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحامله الفقيه محمد بن فضل ماء العينين الصحراوي تولية تامة شاملة على بلاد بني باعمران بسوس الأقصى ومن ورائهم بني

(1) انظر ملحق الوثائق في آخر هذا البحث.

حرار وفوقهم من الجزوليين قبيلة بعد قبيلة مع الأعرابيين بالصحراء .. »[1].

وإذا قمنا بقراءة سريعة في هذا الظهير فإننا نجد أن تاريخ إصداره هو 12 ربيع الثاني عام 1296هـ موافق 5 أبريل 1879. وهذا دليل قاطع على مشروعية الحقوق المغربية في الصحراء، لأن احتلال إسبانيا لأول منطقة في الصحراء ونعني بذلك منطقة وادي الذهب لم يكن إلا بعد سنة 1884، ثم هناك كلمة تضمنها الظهير الشريف ولها أكثر من معنى ودلالة على مغربية هذه المناطق، وهي «... إلى منتهى العمارة من إيالتنا السعيدة ... ».

وبعث السلطان مولاي الحسن الأول كذلك برسالة إلى قائد تازروالت الحسين أهاشم، أمره بعدم المتاجرة مع دفيد كوهن السالف الذكر. ونفس الشيء مع أمير أدرار الشيخ أحمد ولد عايدة، وأمره بعدم الاستجابة لمطالب التاجر ماكينزي. وأمام تعنت ماكينزي وعدم مبالاته باحتجاجات السلطان، هاجمت قبائل طرفاية مستودعه التجاري سنة 1881، وخربت منشآته. فاحتج هاي وطالب المخزن بتعويض مالي قدره 12.000 فرنك، وهذا كذلك دليل آخر، على أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. لكن مولاي الحسن الأول رفض الاستجابة لهذا الطلب، وبعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد بركاش، ومما قال فيها:

«... وإذا كانت به أمتعة لرعيتهم فإنه ليس بمفتوح للتجارة، وإن الاسترعاء على وجود الأمتعة المذكورة بذلك المحل واجب لكون وجودها به خارجا عن القانون ومخالف للحق ...»[2].

ولحسم مادة هؤلاء التجار الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة إلى سوس سنة 1882. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون نصب عددا من القواد وكلفهم بحراسة السواحل الصحراوية ومنع رسو السفن الأجنبية بها. كما أمر قائده بالجنوب أحمد العبوبي بالقبض على التاجر كورتيس إن هو حاول العودة إلى

---

(1) انظر نص الظهير الشريف في ملحق الوثائق.

(2) انظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.

مرسى أركسيس للمتاجرة مع قبائلها[1].

ولمساعدة قبائل الجنوب المغربي على الحصول على كل ما تحتاج إليه من مواد غذائية عوض اقتنائها من التجار الأجانب، قرر مولاي الحسن الأول فتح مرسى تجارية في بلادهم وبعث رسالة إلى شيوخ قبائل آيت باعمران وتكنة[2].

وإذا كان المخزن قد استطاع إفشال مشروع كرتيس وكوهن، فإنه قد عانى الشيء الكثير من محاولات ماكينزي و لم يتمكن من استرجاع ساحل طرفاية إلا في سنة 1895، بمجرد التوقيع على معاهدة مع الحكومة البريطانية التي اعترفت فيها بسلطة المغرب في طرفاية والصحراء[3].

وبسبب احتلال بريطانيا لطرفاية، فقد خشيت إسبانيا على مصالحها في جزر الكناريا‌س، لذلك جهزت حملة بقيادة إميليو بونيللي "E. Bonelli"، وكلفته باحتلال المناطق الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، وبناء مراكز تجارية لتسهيل عملية البيع والشراء مع قبائل المنطقة. وعلى الرغم من كثرة المواد التجارية والهدايا المتنوعة، فقد فشل بونيللي في إقامة علاقات تجارية مع شيوخ القبائل. كما تعرض مركزه التجاري لهجوم قوي من قبل أولاد باعمار المنتمون لقبيلة أولاد دليم في 9 مارس 1885، واستولوا على كل المواد التجارية التي كانت تقلها السفينة "Cires" وقتلوا بعض أعوان بونيللي، نذكر من بينهم "Sanchez Felui" فاحتجت الحكومة الإسبانية على هذا الهجوم وبعثت رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول تطلب فيها تعويضات مالية عن الخسائر التي لحقت منشآت المركز، وهذا دليل قاطع من قبل الحكومة الإسبانية على أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. وإلا فلماذا وجهت إليه هذا الطلب.

---

(1) انظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.

(2) انظر نص الرسالة السلطانية في ملحق الوثائق.

(3) انظر فصول هذه المعاهدة في:

عبد الهادي مكوار: وثائق وبطائق متعلقة بطرفاية، مخطوط مكروفيلم رقم: 25، ص: 4، الخزانة العامة، الرباط.

وفي نفس الوقت الذي أخذت تظهر فيه أطماع فرنسا التوسعية في الصحراء وفي بلاد شنقيط، توصل السلطان مولاي الحسن الأول برسالة من القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاطي في 12 صفر عام 1303 الموافق ليوم الجمعة 20 نونبر 1885. يعرب فيها عن تمسك كل قبائل الصحراء بهويتهم المغربية وبيعتهم لسلاطين المغرب.

تقول الرسالة: «... وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم وكمثل أهل الزوايا آل الشيخ المختار وآل الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وآل بارك الله وأهل التفخ الخطاط وتندغ جميعا وجميع الابراكن وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدوم سيدنا لهذه البلاد... والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته...»[1].

وبسبب تشوف بعض قبائل الجنوب المغربي لربط علاقات تجارية مع الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة ثانية إلى الجنوب. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون في 13 ماي 1886، وفدت عليه جموع من شيوخ القبائل لتجديد الطاعة والولاء، فنظم السلطان شؤون المنطقة وأقام حامية عسكرية في كليمين ونصب قوادا جددا وكلفهم بحراسة السواحل ومنع رسو السفن الأجنبية. وامتثالا لأوامر السلطان أغار القائد دحمان ولد بيروك على أهل الساحل سنة 1889 بسبب تعاونهم مع الأجانب، ثم نزل إلى الساقية الحمراء واستولى على خيل أولاد تيدرارين والزركيين بسبب مواصلتهم لتعاطي التجارة مع الأجانب.

وعلى الرغم من كل هذه التدابير، فقد حاولت إسبانيا استمالة بعض شيوخ القبائل لربط علاقات تجارية معها. وأرسلت بعثة بقيادة مترجم يهودي من الشام يدعى سبير "Sber" إلى ساحل طرفاية سنة 1892. وكلفته بربط علاقات تجارية مع الشيخ ماء العينين، لكن الشيخ المذكور رفض الاستجابة لطلب سبير وبعث رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول سنة 1892. ومما قال فيها:

---

(1) انظر نص الرسالة في الملحق.

«... وليكن في كريم علم أمير المؤمنين أن رجلا كان مع النصاري يقال له أصبير وهو يسمي نفسه محمد الصابر يدّعي الإسلام... وكان في براواته أنه يريد مني أن يكون خبر مرصة الطرفاية بيدي وامتنعت له أولا... وما أمرتموني به معه أفعله بحول الله وقوته... » [1].

وأمام فشل سبير في محاولاته، أمرت الحكومة الإسبانية ممثلها في ساحل وادي الذهب "J. Gonzales" بإجراء مفاوضات مباشرة مع الشيخ ماء العينين لإقناعه بربط علاقات تجارية معها، فتوصل الشيخ برسالة من ممثل إسبانيا، قال فيها:

«... وأوكد أيضا بأنني حاضر لأفعل كل ما يرضيك وتحب... ثم أخبرك وأثبت لك أن تجارة إسبانيا كلها بيدك وتحت أمرك في كل مكان وزمان... »، لكن الشيخ ماء العينين رفض كل هذه الإغراءات المادية لسبب بسيط وهو أن البيعة التي بايع بها السلطان مولاي الحسن الأول تمنعه من ذلك.

ولتعزيز سلطته في سواحل الصحراء، بعث السلطان رسالة إلى قائده بالجنوب دحمان ولد بيروك سنة 1892، قال فيها:

«... وقد بلغ علمنا الشريف جولان بعض السفن من جهة البحر لناحية الساحل وذلك مما يوجب ايقاظكم ويقضي حزمكم واستنهاضكم، فجددنا لكم ولغيركم أمرنا الشريف بهذا تحريكا لعزائمكم بمزيد الاهتمام في تصوين العسس المذكورة وتعاهد وظيفها وتجديد تأسيسها ورد الهمة لجهتها، فلتصرفوا بالكم لضبط أمرها وتقويم عددها وانتخاب رجالها والقيام على ساق الجد فيها ... ».

وبعد استخلاص المخزن لمرسى طرفاية من يد الإنجليز سنة 1895، ضاعف المخزن من علاقاته مع الشيخ ماء العينين الذي أصبح يحصل من السلطان مولاي عبد العزيز على المؤونة اللازمة والأسلحة الكافية لمواجهة المد الاستعماري، وحتى يكون المخزن على علم بكل ما يقوم به الإسبانيون في وادي الذهب، بعث الشيخ أحمد بن شمس خليفة الشيخ ماء العينين بزاوية فاس، رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز

(1) انظر نص الرسالة في الملحق.

قال فيها:

«... أما بعد فليكن في علم سيدنا أن النصارى إسبانيول اشتغلوا في البناء في الداخلة موضع يكون بينه مع الطرفاية مسيرة سبعة أيام ينبغي أن تكونوا من ذلك على بال... »[1].

وبخصوص المد الاستعماري الفرنسي في الصحراء، فإننا نجد أنه في نفس الوقت الذي كان المندوب الإسباني كاستييو يتفاوض مع نظيره الفرنسي ديلكاسي، بشأن اقتسام سواحل وادي الذهب، توصل الصدر الأعظم أحمد بن موسى "باحماد" برسالة من الشيخ ماء العينين يخبره فيها بتأهب الجيوش الفرنسية لاحتلال منطقة أدرار، ومما قال فيها:

«إن نصارى أهل أندر لعنهم الله، ثبت عندنا بالتواتر أنهم مشتغلون بشراء الجمال والقرب، ويريدون بذلك النهوض لأدرار، وبقي من في البلاد متحيرا فيمن يدخل معهم. فالبعض يقول نحن في بيعة مولاي الحسن وابنه عبد العزيز ولا نقدر على فعل شيء حتى يخلف لنا مولاي عبد العزيز فيما نفعل... »[2].

وبعدما تيقن السلطان مولاي عبد العزيز من أطماع فرنسا التوسعية في منطقة أدرار، بعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد الطريس، أمره فيها بالاحتجاج على وزير فرنسا بطنجة ومما قال فيها:

«... وعليه فنأمرك أن تتفاوض مع الخديمين ابن سعيد وغنام مفاوضة تأمل وإمعان النظر في الأسلوب الذي يناسب كتابتك به لباشدور جنس النصارى المذكورين في هذه السيرة التي تفاحش أمر تراميهم بها على الحدود من غير مراعاة شرط ولا اعتبار قانون...»[3].

---

(1) وثيقة في خزانة المرحوم ماء العينين علي مربيه ربه-تيزنيت.

(2) انظر نص الرسالة في:

محمد بن عزوز حكيم: السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية، الجزء: 1، ص: 188، الدار البيضاء، 1981.

(3) المرجع نفسه، ص: 189.

وعلى الرغم من هذا الاحتجاج، فقد استمرت الحكومة الفرنسية في سعيها لاحتلال آدرار، وحاولت إنشاء خط تجاري يربط بين عين صالح ومدينة تِنْبُكْتُو، وكلفت الشيخ سعد بوه الذي سقط في حبالها بالتوسط لصالحها عند أخيه الشيخ ماء العينين لإقناعه بربط علاقات تجارية مع مراكزها الموجودة في السينغال، فامتنع الشيخ ماء العينين عن ذلك، وبعث رسالة إلى باحماد قال فيها:

«... وليكن في كريم علمكم أنهم لعنهم الله كثيرا ما يطالبونني بالعهد معهم وأنا أمتنع من ذلك إلا إذا كان على أيديكم ... »[1].

وفي نفس الوقت الذي تصدت فيه قبائل آدرار لمشاريع فرنسا، قامت قبائل وادي الذهب بهجوم عنيف ضد المركز التجاري الذي أقامه الإسبان في شبه جزيرة وادي الذهب سنة 1901، وأرغمت الإسبان على الانكماش داخله ومنعتهم من الاتصال بباقي القبائل التي تقطن في المناطق الداخلية. فحاول الإسبانيون كسب صداقة شيوخ القبائل عن طريق خلق عدة مشاريع اقتصادية في بلادهم، مثل بناء معامل متخصصة في صناعة السمك، واستصلاح أراضيهم الزراعية، لكن كل هذه المشاريع باءت بالفشل بسبب تصدي القبائل وامتناعها عن عقد صفقات تجارية مع الأجانب.

وبمجرد توصل الحكومتان، الفرنسية والإسبانية إلى التوقيع على اتفاقية في 3 أكتوبر 1904، لإتمام تحديد مجال نفوذهما في الصحراء، كلف الشيخ ماء العينين ابنه الشيخ أحمد الهيبة بمكاتبة قواد المخزن بالجنوب عامة وشيوخ قبيلة الزركيين خاصة لحثهم على إقامة حراسة دائمة على طول السواحل لمنع السفن الأجنبية من الرسو. كما بعث السلطان مولاي عبد العزيز رسالة إلى شيوخ قبيلة العروسيين، حثهم فيها على عدم التهاون في الدفاع عن سواحل بلادهم ووعدهم بمدهم بالسلاح الكافي للتصدي للأجانب، ومما قال:

«.. أما الوسائل التي تخصكم والعون الذي تنتظرونه هنا والمصلحة التي تريدون أن نبلغها إليكم، فذلك كله من الواجبات علينا ومن الاهتمامات التي تلزمنا

---

(1) المرجع نفسه، ص: 188.

نحوكم...» [1].

وحاولت إسبانيا إغراء بعض شيوخ قبائل وادي نون عن طريق منحهم هدايا متنوعة للسماح لها ببناء مركز تجاري في بلادهم، لكن السلطان تصدى لها وقام بتعيين سليمان العروسي قائدا على قبيلة الكرح سنة 1906. وأثنى كذلك على عامل طرفاية الذي تصدى لبعض السفن الأجنبية التي حاولت الرسو هناك. ومما قال في رسالته:

«... قد بلغ علمنا الشريف ما أنت عليه هنالك من الوقوف في أمور المخزن بطرفاية ونواحيها وردك البال لصيانتها وحفظ محارمها وبذلك المجهود في استجلاب قلوب جوارها للقيام بالصلاح والإصلاح والسعي فيما يرضي جنابنا الشريف...» [2].

أما بخصوص فرنسا فقد حاولت استغلال بعض بنود المعاهدة التي وقعتها مع إسبانيا سنة 1904، لاحتلال بلاد شنقيط، فجهزت بعثة بقيادة كوبولاني سنة 1905، وكلفته بإقامة علاقات تجارية مع شيوخ القبائل، فتصدى له الطالب أخيار وبعث رسالة إلى والده الشيخ ماء العينين حثه فيها على ضرورة إبلاغ المخزن بنوايا فرنسا التوسعية وأن يطلب منه كميات هامة من السلاح لمساعدة القبائل على التصدي لمشاريعها. كما تصدى أحد أتباع الشيخ ماء العينين ويدعى الشريف ولد مولاي الزين لكوبولاني وقتله سنة 1905.

وأمام تزايد التوسع الفرنسي، شكل الشيخ ماء العينين وفدا من أعيان القبائل الصحراوية واتجه بهم نحو مدينة فاس لتجديد بيعتهم للسلطان والحصول منه على كميات هامة من السلاح. وبعد عودته إلى الصحراء أصبح الشيخ ماء العينين يحث القبائل على مقاطعة الأجانب والتصدي لهم، فاحتجت فرنسا على السلطان وطالبته بالكف عن إرسال السلاح للقبائل، وخوفا من وقوع مضاعفات خطيرة بين الدولتين، قرر مولاي عبد العزيز إرسال وفد إلى الصحراء بقيادة ابن عمه مولاي إدريس بن عبد الرحمن وحثه على الدفاع عن وحدة بلاده الترابية.

---

(1) المرجع نفسه، ص: 220.

(2) كناش مكاتب الطابع الشريف، ص: 69-79، مخطوط رقم: د 1695، قسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط.

وفي يوم 11 يونيو 1905 وصل الوفد المخزني برئاسة مولاي إدريس إلى مرسى طرفاية، حاملا معه كميات هامة من السلاح والذخيرة وظهائر تولية أربعة عشر قائدا، عينهم السلطان على رأس القبائل. ووجد في استقباله بعض أتباع الشيخ ماء العينين يرأسهم محمد الإمام بن ماء العينين، وبعد مسيره ستة أيام وصل الوفد إلى مدينة السمارة حيث ألقى الشيخ ماء العينين خطابا أمام شيوخ القبائل دعاهم فيه إلى تجديد بيعتهم للسلطان ودفع ما ترتب عليهم من زكاة للخليفة، ووجه الشيخ ماء العينين رسالة إلى قبيلة إداوعيش وأهل سويد أحمد، دعاهم فيها إلى ضرورة إرسال من ينوب عنهم إلى السمارة للتفاوض مع الخليفة السطاني حول تنظيم الجهاد ضد الأجانب. ومما قال فيها:

«.. أما بعد فليكن في كريم علمكم أن السلطان نصره الله وجه إلينا ابن عمه خليفة نائبا عنه في كل ما أهمكم الآن أو قبل من الأمور كلها لاسيما أمر النصارى دمرهم الله ... والآن لابد من إتيان ولاة الأمر منكم لتقع المشافهة مع الخليفة على أيدينا...» (1).

وبعد اجتماع كلمة شيوخ القبائل على ضرورة التصدي للجيوش الفرنسية، أرسل السلطان مولاي عبد العزيز مائة بندقية للشيخ ماء العينين سنة 1906، تمكن بفضلها مولاي إدريس من مهاجمة المركز الفرنسي المقام في تجيكجة ومحاصرة حاميته لمدة دامت من 5 نونبر إلى 1 دجنبر من نفس السنة. فاحتجت فرنسا بواسطة قنصلها بفاس هنري كيار "H. Gaillard"، على السلطان وهددته باستعمال قوة السلاح إن تمادى في إرسال السلاح للشيخ ماء العينين، وذهبت كذلك إلى حد إرسال سفينة حربية "Kleber" إلى ساحل طرفاية لمنع رسو السفن المخزنية المحملة بالسلاح.

وأمام تزايد المحاولات الفرنسية في بلاد شنقيط بعث شيوخ القبائل وأعيانها رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز يعربون فيها عن تمسكهم ببيعته وفي الدفاع عن

---

(1) انظر نص الرسالة في:

Paul Marty: Islam en Mauritanie et au Sénégal (Les Fadelia), P. 159, dans: Revue du Monde Musulman, Vol: XXXI, Ed. Erneste Leroux, Paris, 1915-1916.

بلادهم، ومما قالوا فيها: «... فمن هم في بيعتكم سلفا عن خلف أجمعون قبائل الشناحطة المتبوئون بلادا لم يكن للنصارى سبيل عليها من قبل وهذه البلاد فيها كثير من أهل الإيمان الحقيقيين فمنها آدرار بلد واسع قيم أمره خديمك سيدي أحمد بن عيّد الذي عنده طابعك... ومنها بلاد تكانت وقيم أمرها عثمان بن بكار بن سُوَيد أحمد...»[1].

وحاول الحاكم السياسي والعسكري الإسباني بمنطقة وادي الذهب، اليوتنان كولنيل بَنْسْ "Benz"، تعزيز سلطة بلاده في الصحراء وذلك عن طريق القيام بعدة زيارات استطلاعية للمناطق الداخلية مثل منطقة العركوب التي زارها سنة 1907، بهدف إقناع شيوخها بربط علاقات تجارية مع مركز فيلا سيسنيروس (الداخلة حاليا). لكنه فشل في مهمته وبذلك قرر رفع تقرير مفصل لحكومته حثها فيه على ضرورة إنشاء فرق عسكرية خاصة لتسهيل عملية احتلال هذه المناطق. كما أن حكومة مدريد لم تقتنع بالحجج التي قدمها السلطان لفرنسا لتبرير إرسال السلاح للقبائل الصحراوية، بل اتهمته بعرقلة احتلال المناطق التي منحتها لها اتفاقية 1904 التي وقعتها مع فرنسا، فأصدرت قرارا في 25 مارس 1907، منعت بموجبه سكان جزر الكناريا من تصدير السلاح لقبائل الصحراء، وحذرتهم باحتجاز سفنهم المحملة بالسلاح.

وأمام صمود السلطان ومواصلة إرسال السلاح للشيخ ماء العينين، قررت إسبانيا وفرنسا نهج سياسة موحدة، وإرسال بعض سفنها الحربية "Alvaro Bazan" و"La Lande" إلى سواحل المغرب الجنوبية لمنع وصول الأسلحة للقبائل[2].

---

(1) الشيخ محمد الإمام: الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، مخطوط ميكروفيلم رقم: 6، ص: 24، الخزانة العامة، الرباط.

(2) بعث قنصل فرنسا بالعرائش "Jeannier" رسالة إلى وزير بلاده بطنجة "Regnault" بتاريخ فبراير 1907، أخبره فيها بأن السلطان مولاي عبد العزيز قد أرسل مؤخرا حوالي 125 صندوقا من البندقيات و145 آخر من الذخيرة للشيخ ماء العينين.
Documents Diplomatiques Français, Tome 3, P. 178, Année 1906-1907, Paris.

وفي فترة حكم السلطان مولاي عبد الحفيظ توطدت العلاقات بشكل كبير بين سكان الصحراء والمخزن المغربي. وهكذا حل بمدينة مراكش وفد من قبائل الصحراء يرأسهم الشيخ ماء العينين سنة 1907، فجددوا للسلطان بيعتهم وطالبوه بكميات من الأسلحة للدفاع عن وحدة بلادهم الترابية.

وبعد عودة الوفد الصحراوي إلى بلاده، هاجم أتباع الشيخ ماء العينين المركز الفرنسي الموجود في أكجوجت سنة 1908، وقتلوا حاكمه القبطان "Repoux" وحوالي سبعة عشر جنديا آخر. وبذلك اشتدت نقمة فرنسا على السلطان وقام حاكمها العسكري بالسنغال الكولنيل "Gouraud"، بهجوم ضد قبائل شنقيط وتمكن من احتلال منطقة آدرار سنة 1909. وهكذا أصبحت وضعية الشيخ ماء العينين جد حرجة، فطلب منه مولاي عبد الحفيظ مغادرة مدينة السمارة والمجيء إلى تيزينت لكي لا يقع في أيدي أعدائه الفرنسيين. وبعث رسالة كذلك إلى أمناء الصويرة وآسفي ومراكش، أمرهم فيها بتخصيص قدر من المال عند نهاية كل شهر وإرساله للشيخ ماء العينين لمساعدته على التصدي للجيوش الفرنسية[1].

وبمجرد ما علم الشيخ ماء العينين بنوايا فرنسا التوسعية في سواحل المغرب الجنوبية، دعا قبائل سوس وتكنة والصحراء إلى تيزنيت في فبراير 1910، وحثهم على ضرورة توحيد صفوفهم والاستعداد للذهاب إلى فاس لفك الحصار المضروب على السلطان. لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، إذ تمكن الجنرال الفرنسي "Moinier" من هزم أتباع الشيخ ماء العينين بالمغرب في قصبة أولاد زيدان سنة 1910. فاضطر الشيخ ماء العينين إلى العودة إلى تيزنيت وحاول إعادة تنظيم صفوف القبائل لكن المنية وافته في منتصف شهر أكتوبر من نفس السنة، فخلفه ابنه أحمد الهيبة في رئاسة القبائل وحاول بدوره استخلاص مدينة مراكش من أيدي الفرنسيين، لكنه انهزم بدوره أمام

---

(1) انظر نص الرسالة في التقرير الذي بعثه قنصل فرنسا بالصويرة "Kouri" إلى القائم بأعمال فرنسا بطنجة "Saint-Aulaire" بتاريخ 31 دجنبر 1908.

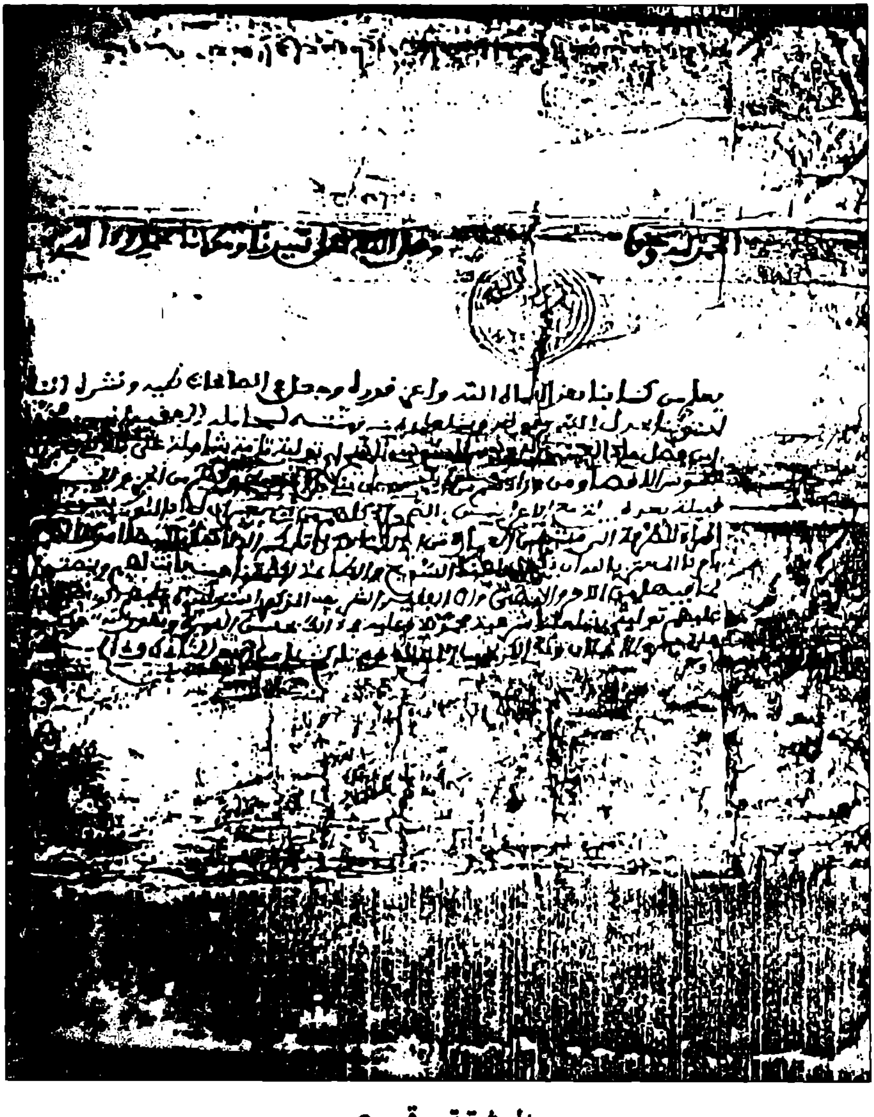
وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم: 350، مجموعة المغرب (طنجة)، نانط، فرنسا، انظر الوثيقة رقم: 9.

قوات الجنرال "Mangin"في معركة سيدي بوعثمان في 6 شتنبر 1912.

وعلى الرغم من فرض معاهدة الحماية على المغرب في 30 مارس 1912، واقتسام أجزائه بين فرنسا وإسبانيا فقد ظل أبناء الصحراء متشبثين ببيعتهم لسلاطين المغرب، وبهويتهم المغربية، فواصلوا الجهاد ضد الجيوش الفرنسية والإسبانية و لم يستسلموا إلا بعدما فقدت ذخيرتهم الحربية وتم تطويق مناطقهم من قبل المستعمر سنة 1934.



الوثيقة رقم 1



الوثيقة رقم 2

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الحسن بن محمد وليه ووفقه الله

خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله

وبعد وصل كتابك بأن منيستر النجليز كتب لك في شأن الأمر

الذي به مكينزي بماء كتبت به أني وجهت ترجمته وزيرو ولدته في أمور متعلـ

البرانية الترة بأن كلام حضرتنا الشريفة بأن عددا كثيرا من الأمتعة رعيتهم بالمحل

المذكور وتعين على المخزن الأمر والتسبب عليه وإلا فيكون وجب عليه أن

ودفع ترامي عليه بسبب الخسارة المشكورة المخزنية على المحل المذكور فأجبته

عن ذلك بما في النسخة التي وجهت من أنا نوجهنا بعض خدام المخزن إلى

جزء المذكور ليتحقق الحق فيه حيث يكون من ترابنا أيضا وإذا كانت فيه أمتعة

لرعيتهم فلأنه ليس بمفتوح للتجارة وأن الاستيلاء على وجود الأمتعة

المذكورة بذلك المحل واجب لكون وجودها به خارجا عن القانون ومخالفا

للحق وأمرت بإجابته إن قبلنا جوابك المذكور فوصل كتاب النائب

المذكور مع نسخة جوابك له عنه وبقبوله وتأمرك بالزيادة في الكلام

معهم بأن يحملوا تلك الأمتعة التي عندهم في ذلك المحل لأن ما تضمنه كتاب

النائب المذكور نوع من الاستيلاء وأنت قد صح عندهم بالاستيلاء عليها حسبما

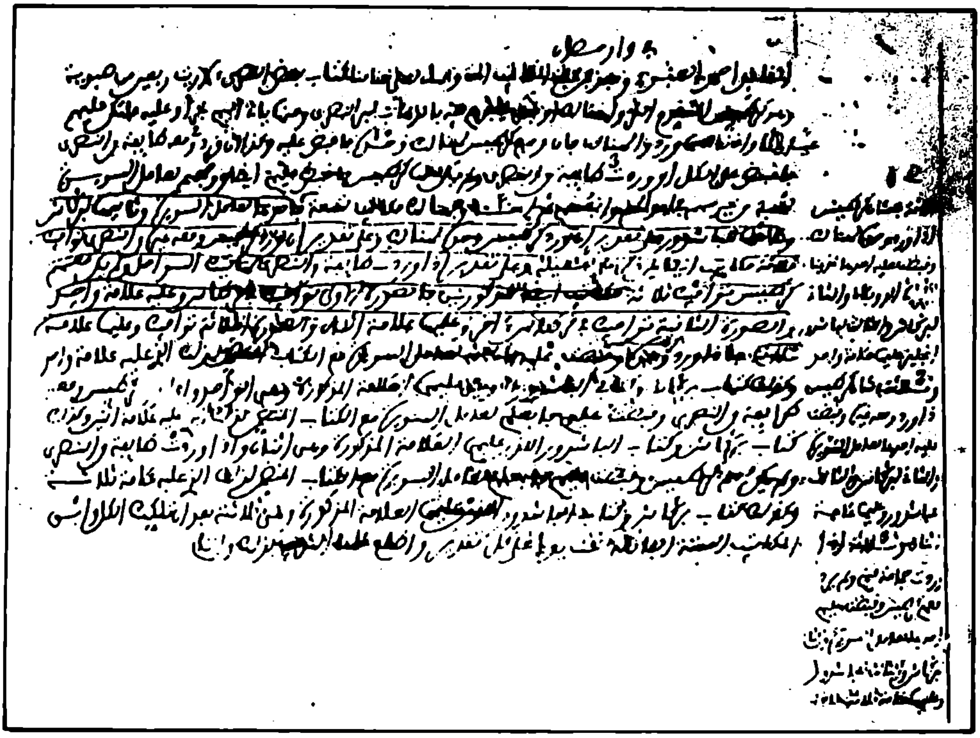
في النسخة المذكورة وصار ذلك بالبال وقد فهمنا لك الكتابة في ذلك بما في

النسخة طيه ووجهنا لك تعيين ما اجلب به مكينزي الموجه من حضرتنا

الشريفة لذلك المحل مما شكله من أمتعة فيما اشتغل به من البناء فيه وأجبناك

في غير هذا جميعه فلا تبرح به والسلام في 6 ذي القعدة عام 1296 اهـ

الوثيقة رقم 3



الوثيقة رقم 4

المصدر : مخطوط مكرفلم رقم : 21، قسم الوثائف التابع للخزانة العامة الرباط، ص : 58.

رسالة من السلطان مولاي الحسن الاول لقواد ايت باعمران وتكنة في عام 1299هـ.

بعد الحمدلة والصلاة على النبي عليه السلام وبعد فقد اقتضت المصلحة فتح مرسى بحدود بلادكم وبلاد خدامنا قبيلة تكنة سيدي بورزك أو بالمحل المسمى بآصك إن كان هو الحد بينكم وبينهم ليسهم عليكم وعليهم بقربها تعاطي البيع والشراء فيها لبعد مراسي ايا لتنا السعيدة عندكم ولحاق المشقة لكم في سفركم لها بقصد ذاك مع ما بلغ علمنا الشريف من تشوفكم ورغبتكم في فتحها وتضييع أموال لكم لها بال في الاختلاس بالبيع والشراء هنا كم مع ارتكاب أمور في تعاطيها وشراء الرخيص بأغلا ثمن و بيع الغالي مبخوسا حتى أن البعض منكم أراد أن يخلع بسبب فتحها ربقة الطاعة ويفارق الجماعة وهذا من جملة المقصود الأهم عندنا في وجهتنا السعيدة لبلادكم لاكن لما ورد على حضرتنا العالية بالله أعيان قبيلتكم ووقع معهم الكلام في شأنها وأجابوا أمرنا الشريف لهم بفتحها بأحد المحلين المذكورين بالسمع والطاعة ظهر لنا توجيه معهم طائفة من الجيش صحبة عمنا مولاي الأمين وكاتبنا الفقيه السيد علي المسفيوي وخديمنا القائد مبارك بن الشليح وبعض الخاصة من عمالنا ومهندسين بقصد معاينة أحد المحلين المشار إليهما الذي يحد بلادكم وبلاد تكنة لي نصل الاشفاع بها للجانبين وتخطيط المرسى به والاتيان لحضرتنا الشريفة بصورته والوقوف على المحل المسمى بالعجمية بسانط كروز، والاتيان بصورته. فنأمركم أن تقفوا معهم على ذالك لتنالوا حظكم من هذه المنفعة المبرورة والحسنة المدخرة بحول الله وهانحن ننتظر ما نسمعه عنكم من الوقوف مع المذكورين في ذلك، أرشدكم الله وزادكم توفيقا وهداية وصلاحا ونجاحا ءامين والسلام. في عام 1299.

*****

الوثيقة رقم 5

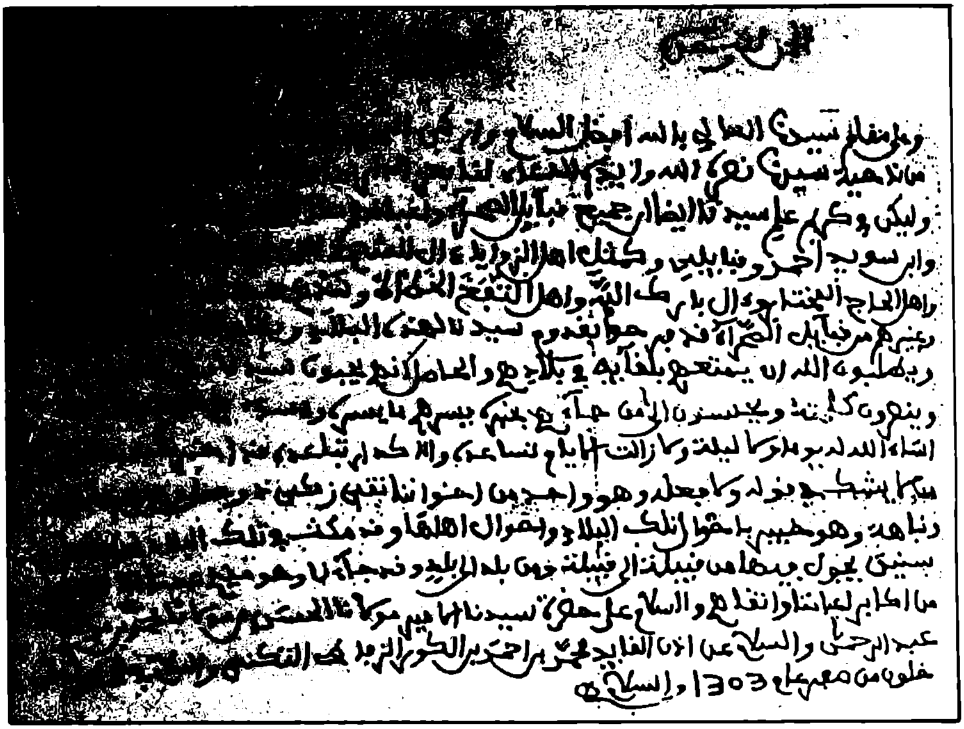
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

أمير المؤمنين أعزه الله ونصره وأدام في العالمين
تدبيره وكفره سيدنا ومولانا عبد العزيز
ابن الحسن وخلد ملكه كل حين سلام
عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد
فليكن في علم سيدنا أن النصارى اسبانيول اشتغلوا
في البناء في الداخلة موضع يكون بينه مع الكاف ولاية سبعة
سبعة أيام أو ثمانية ينبغي أن تكونوا من ذلك على بال
وسلام ما يجب به أن علاء وعلى المحبة والسلام

في ... شوال عام ... 13

عبيد ربه أحمد الشمس عن إذن شيخه الشيخ ماء العينين
كان الله له في الدارين

الوثيقة رقم 6

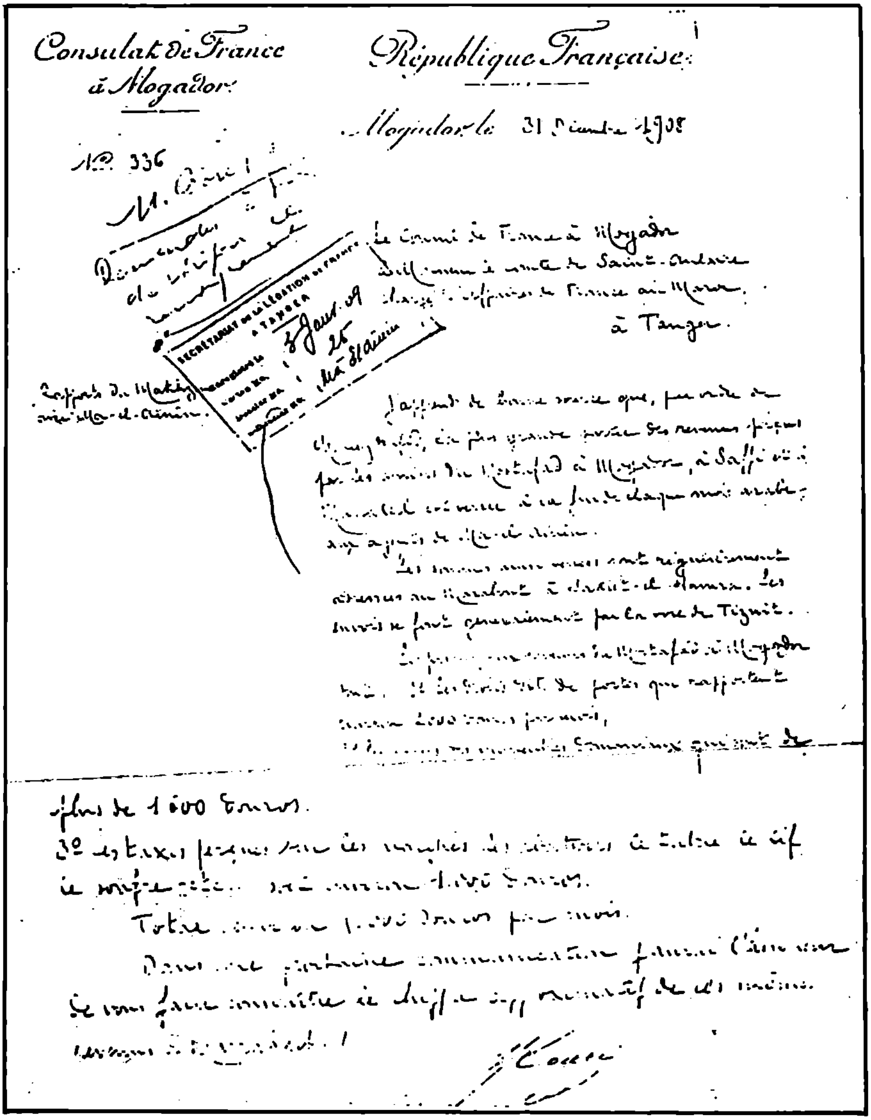


الوثيقة رقم 7


الحمد لله

الحمد لله رب العالمين على امير...
والشكر لله رب العالمين على اميرنا القايد ...
وعلى حضرة امير المومنين سكان الله ورقته و...
ما دام الكون وحرسانه وسكنانه هذا ...
في كرسي علم امير المومنين ان رجلا كان مع النصارى
لعنهم الله يقال له اصبير وهو يسمي نفسه محمد ...
بن ... الباسكال ومنذ زمن وهو يرسل الي اوراقا
بل قدم على قبل واراني الباسكال وسعادته وكان في اوانه
انه ينبغي ان يكون في مرحلة الكرفاية بيدي وامتنعت له اولا
وبعد ذلك كثرت جوابه حتى ارسل الي اوراقا ها هي مع
المكتوب على ... فلما ارسلها ارسلت له بعض الاوراق
لينظر في حرمتي بما ينبغي الخبر من عندكم وما ... نعرفه
معه لعله بحول الله وقوته ... الله عنا بما ينوبه بالله
وارسل خبر الكرفاية كي على يده الغبل والغلال ... عليه
وهو مريد نا محمد بسديت وارسلته لهلوا ... ليبين
ما ينبغي بخبر البلير واتانا به وهلا انا ارسلته لكم بعض
الخبر ان شاء الله مستنا ... وارجو الله ...
ما لم يبله غيركم في ذهركم ولعله في ... الاستشراف
... حبيبكم وحبيب ...
... الله للمسلمين امين 12 ذي القعدة عام ...

الوثيقة رقم 8



Consulat de France à Mogador

République Française

Mogador, le 31 Décembre 1908

N° 336

Le Gérant du Consulat de France à Mogador à Monsieur le Comte de Saint-Aulaire, chargé d'affaires de France au Maroc, à Tanger.

Rapports du Makhzen avec Ma-el-Aïnin.

J'apprends de bonne source que, par ordre du [illegible], la plus grande partie des revenus perçus par les [illegible] des Mostafad à Mogador, à Saffi et à [illegible] est remise à la fin de chaque mois arabe aux agents de Ma-el-Aïnin.

Les revenus ainsi versés sont régulièrement [illegible] au Marabout [illegible]. Les envois se font généralement par la voie de Tiznit.

Les [illegible] revenus des Mostafad de Mogador [illegible]: 1° [illegible] de portes qui rapportent environ 2000 douros par mois, 2° [illegible] plus de 1600 douros.

3° les taxes perçues sur les [illegible] environ 1000 douros.

Total: environ [illegible] douros par mois.

[illegible] de vous faire connaître le chiffre approximatif de ces revenus [illegible].

[illegible]

الوثيقة رقم 9

حركة المقاومة المعينية
محاولة تأسيس فعل المواجهة الشعبية
بين الضغط الاستعماري واضطراب الوضع المخزني

ذ. أحمد منكى الزاياني
مدرسة المعلمين–أكادير

مثل المغرب بامتداده الجغرافي حتى نهر السينغال جنوبا ومناطق توات في الجنوب الشرقي آخر الدول التي أسالت لعاب الاستعمار في شمال إفريقيا وشمالها الغربي خاصة.

فاشتدت حمى التنافس الدولي، والضغوط الأوروبية على مخزن لا يملك كل مقومات الصمود، في اتجاه تعميق أزمتنا وتفكيك مجتمعنا، تمهيدا لاختراقه وتصويغ مبررات احتلاله.

والبحث قراءة في الوثائق قصد المساهمة في تحليل وفهم الصراع السياسي، الاقتصادي والعسكري (صراع حضاري) الدائر في مناطقنا الجنوبية (في تفاعل مع ما يحدث في الشمال) خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بين الاستعمار الفرنسي خاصة، ومؤسسات القوى النافذة والفاعلة في الصحراء، تدعمها دولة المخزن على المستويين السياسي والحربي.

التسرب الاستعماري إلى الصحراء (نهاية القرن 19 وبداية القرن 20)

أ-الأطماع الاستعمارية الإسبانية والإنجليزية

تركزت مطالب إسبانيا، كحلقة ضعيفة في القيد الاستعماري، في البحث عن مواطن لأقدامها على الشاطئ، مستغلة وجودها في جزر الكناري، وامتيازها إلى جانب فرنسا للانفراد بنصيب الأسد من حصص "الوزيعة" الاستعمارية التي أقرتها بنود مختلف المؤتمرات والاتفاقيات، سواء بين الدول الاستعمارية أو بينها وبين المخزن (أحقية الجوار)، وخضوع المغرب لابتزازها المادي نتيجة هزيمة تطوان (1859-1860)، مما شجعها على التمادي والمطالبة باستعادة حق تاريخي (البحث عن مكان سانتاكروز دمار بيكينيا، بل اختيار المكان الذي تريد أن تخلق فيه هذا الحصن)، وتشجيع شركاتها على النزول بخليج الداخلة (فيلا سيسنيروس) مدعَّمة بالمؤتمرات الجغرافية والبعثات الاستكشافية في اختراق المناطق الداخلية.

وأخيرا استغلت موقف فرنسا بجانبها، والضغط الإنجليزي إن على فرنسا أو على المخزن لصالحها[1].

المشاريع الانجليزية: مشروع ماكينزي في طرفاية

ارتاد الساحل بين بوجدور وواد نون (1872) لإقامة محطة تجارية وإقامة خط

---

(1) لن تتمكن إسبانيا من دخول الساقية الحمراء ووادي الذهب إلا بعد تمكن فرنسا من التراب الموريتاني وسحق المقاومة المسلحة بالمغرب سنة 1934، ففرنسا هي التي مكنتها من الاحتلال.

خلقت إسبانيا حصنها التاريخي بمنطقة سيدي إفني (انظر موقعه في المقال والخرائط المرفقة له، المنشور في:

Revue du Monde musulman, Volume XV, Septembre 1911, N° IX, P. 209.

Santa Cruz de mar Pequeña et le port d'Asaka, Mechaux-Bellaire.

حول مختلف الاتفاقيات: (معاهدة مراكش 1767، معاهدة مكناس 1799، معاهدة طنجة 1856، معاهدة تطوان 1860، معاهدة مدريد 1861، المعاهدة الإنجليزية المغربية 1895). (اتفاقية باريس 1900، اتفاقية باريس السرية 1904، اتفاقية مدريد 1912).

انظر: Maurice Barbier: Le conflit du Sahara occidental, L'Harmattan, 1982.

وحول نموذج من اتفاقيات إسبانيا وبعض الزعماء المحليين. انظر الهامش 3، ص: 52 من نفس المصدر.

تجاري بحري يمتد حتى وسط إفريقيا، وليتخلص من ضرائب المخزن بميناء الصويرة، واختار "كان جوبي-طرفاية" لتأسيس **محطة** فيكتور يابورت "مرسى لبيط" (اشتراها عبد العزيز سنة 1905 بما قيمته: 50000).

-في رحلة الحسن الأول إلى سوس بلغت شاطئ أكلو خارج تيزنيت **1882** حدد الصلة بقبائل الصحراء، وحثها على مناهضة المشاريع الأجنبية لدعم احتجاجه الرسمي والحظر الذي فرضه على ميناء طرفاية، انتهى المشروع بتفاوض الطرفان، وتنازل الإنجليز مقابل التعويض المالي، بل في إطار تبادل المنافع الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا».

ب-التسرب الفرنسي ونهج سياسة القضم والظروف الداخلية والدولية التي هيأت له

تتمثل العوامل التي قوت من نفوذ فرنسا، ومن ثم مكنتها من تنفيذ مشروع امبراطوريتها الاستعماري في شمال غرب إفريقيا في:

-قوتها الاستعمارية كدولة تنافس القوى الاستعمارية الأخرى، وأساسا إنجلترا وألمانيا.

-تواجدها الفعلي سياسيا وعسكريا في مستعمرات تطوق المغرب وامتداده الجنوبي: تواجدها في الجزائر والسينغال، كقوة بحرية، مما مكنها من خنق المغرب اقتصاديا، واقتطاعه وعزله عن مناطق تنفسه (الجنوب والشرق).

-تقييد المغرب باتفاقيات مجحفة، والتشدد في تطبيقها رغم الذكاء السياسي للسلطان الحسن الأول الذي كان عرشه على صهوة جواده (عدم التنازل عن الأرض، محاولة التوازن بين القبائل، يأخذ من هذه ويعطي لتلك، عدم التقرب/الانحياز لدولة على حساب أخرى، بل سعى إلى تصادم مصالحها، اعتماد المال كحل لمجموعة من الأزمات...)، مما نتج عنه خلخلة بنيات المغرب السياسية والعسكرية (فشل سياسة الإصلاح الدستوري، توالي هزائمنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تحكم الضباط الأجانب في بناء وتطوير الجيش، التدخل في الشؤون الداخلية للدولة، تشجيع

الثورات ومراكز النفوذ الجهوية).

-العجز عن تسديد القروض التي تطلبتها الإصلاحات، مما أدى إلى وضع اليد على مداخيل الجمارك-ضعف العملة المغربية رغم سياسة الإصلاحات-ظهور مناطق التجارة الحرة وفوضى التهريب وإغراق السوق المغربية بالبضاعة الأوروبية[1].

-خلخلة البنيات الاجتماعية: ظهور فئات المحميين، تزايد نفوذ الزوايا وتفاوت توزيع نفوذها وولائها بين محاباة الدولة والإخلاص للدين والوطن والتودد للاستعمار، وتدني المستوى المعيشي لأوسع الفئات الاجتماعية[2].

-الحملات العسكرية النظامية -حركات الحسن الأول- لم تتجاوز جغرافيا منطقة واد نون[3].

-اندلاع الثورات الداخلية في القبائل، خاصة في عهد مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، جعل المخزن عاجزا عن مواجهة الاختراق الأوروبي، خاصة وأن تلك الاضطرابات كانت فرنسا وراءها.

اشتملت خطوط ومحاور التسرب الفرنسي امتداد نهر السينغال في اتجاه بلاد شنكيط، وأقاليم وواحات التوات وجنوب فكيك، لينتقل الاحتلال بعد موريتانيا إلى وادي الذهب والساقية الحمراء (الانتقام من مدينة الشيخ زعيم المقاومة السمارة). «وكان "كرافيي كوبولاني" يرمي بدون شك إلى سلك طريق المرابطين، ويحتل - خدمة لفرنسا- الامبراطورية الغنية/المغرب»[4].

---

(1) Revue du Monde musulman, Volume IV, Avril 1909, N° XI, article sur Nacer Addine... surtout P. 428.

(2) نفس المرجع.

(3) يقول الشيخ محمد الإمام في كتابه "الجأش الربيط..."، ص: 20: «جيوش الحسن الأول بلغت واد نون ودرعة وسجلماسة، وبعث سراياه إلى الضواحي حتى بلغت الساقية الحمراء (محل والدنا المقدس)، فأتته وفود القبائل العربية الشنكيطية... وجدد بأوامره الرسوم...».
وانظر كذلك: Le conflit du Sahara occidental ، مرجع سابق، ص: 41.

(4) Désert Fertile: Un nouvel état la Mauritanie, Christine Garnier et Philippe Ermont, Ed. Hachette, 1960, P. 96.

عرض مقارن لعناصر القوة داخل قبائل ومخيمات صحراوية

-يربط "كتاب الأنساب" لوليد الديماني (خزانة نصر الدين إقليم الترارزة) قوة الأسرة بثرواتها، وثرواتها بأهمية البلد اقتصاديا، ويؤكد على المجهود التنموي الذي يبذله المربون للرفع من عدد رؤوس الأبقار، وفي التنقيب على الماء، والبحث عن المراعي، وتعهد الماشية (يخصَّص لها بيطري خاص).

-أما القبائل المحاربة فتتمثل معايير القوة لديها في قوة شوكتها، وتعداد القبائل التابعة لها (حماية)، وامتداد المجال الجغرافي لتنقلاتها، وشهرة أميرها وشجاعته، من يحمل المكاحل من رجالها الأبطال أهل الحرب، وفي بطولات تاريخها الحربي (نموذج الركيبات في الورقة الموالية).

-أما القبائل الزوايا فبشهرة وصيت علمائها، ومدى اتساع مجال نفوذ طريقتها، وتعداد الأتباع والمريدين، ووزن كلمة شيخها بين القبائل، ونفوذ بعض الأسر التي تحولت إلى تنظيمات سياسية ودينية[1].

أ) نموذج زاوية الساقية الحمراء بالسمارة: الشيخ ماء العينين: عدو الفرنسيين والإسبان، وخليفة السلطان في الصحراء، والوسيط بين قبائل الصحراء والمخزن.

-صارت للشيخ أملاك طائلة بمراكش وفاس ومكناس والصويرة ودكالة وتيزنيت (زوايا، دور، بساتين، ومزارع)، وزوايا ومناديب عنه بسلا.

-ونظرا لبعد السمارة، كان يتزود من مناطق مختلفة (المؤونة والسلاح)، من: طرفاية/مرسى لبيط (مسافة 6 أيام)-بابور السلطان كل 4 أو 6 أشهر-سوق أكلميم (منها معظم مؤونته) (10 أيام)-لحنيكات (12 يوما)-أسانكال/السينغال (مسافة شهر): وهذه مؤشرات على عظمة ودور وتعداد عاصمة الساقية الحمراء (10000 نفس).

-كان أكبر إرث له الزاوية الفاضلية التي تركها والده، ثم ما ينعم به عليه من هدايا وزيارات وهبات وزكوات أثناء تحركاته إلى عواصم (مراكش-فاس-

(1) انظر: R. M. M., Volume IX, Nov. 1909, N° XI, Nacer Eddine, P. 421.

مكناس...) وأقاليم سوس وشنكيط والحوز والشاوية، وعبر مجال امتداد نفوذ الطريقة في كل إفريقيا الغربية، خاصة وأن زياراته تحظى بدعاية وصيت بثهما المخزن ورجالاته.

-كانت قوافله رائحة وغادية كل يوم لإعالة حوالي 10000 فرد يعيشون تحت رعاية الشيخ.

وقد كتب ديبون وكوبولاني عن شيخ الزاوية ما يلي:

«يداوي كل الأمراض، يزكي كل المؤسسات حتى غير المضمون منها، يمنح السعادة لمن يستحقها، يربي المستقيمين، يحمي الكبار، يحدث تدخله أيضا كل الكوارث، يخلق أو ينشئ الأوبئة، يخص غير المتقين بالخلود في العذاب، يفشل أفضل المخططات. من مقر زاويته يسمع، يرى ويعرف كل شيء، يترجم تحركه وينفذ فعله في كل مكان، وفي كل جزئيات الحياة، عبر وسائل عجيبة وخارقة»[1].

وأكسبته سياسة المؤاخاة بين الطرق نفوذا أوسع، ومكنته من توحيد وتجنيد القبائل ضد الاستعمار.

ب) نموذج زاوية الشيخ سيديا بمركز بوتلميت إقليم الترارزه[2]

قال عنه الفرنسيون: إنه شريف بثقافة عالية، يحترم الديانات الأخرى: المسيحية واليهودية، إذ كانت له علاقات صداقة مع كبار قديسي سينيكامبيا.

ولاحظ آخرون أنه كان أشد احتراما بين قومه (قبائل بني حسان)، لقومه رؤساء يطيعونهم، وقومه أحسن دينا وأخلاقا!

عند وصول الفرنسيين انحاز فورا إليهم، و«سيكون (حسب كرافيي كوبولاني) أكثر من حليف منسق ومتعاون حميم وصديق وفي». ولن يتوقف عن دعمه الفعال والمخلص لكوبولاني.

---

(1) La Mauritanie, Christine Garnier, Op. Cit., P. 114.

(2) المرجع السابق.

يهتم بالسياسة، وانخرط في الجرائد العربية، تشغله الأمور الظرفية أكثر من غيرها.

وهو في نظر من اتصلوا به: رجل حد متعلم وبذكاء ملحوظ، منفتح وفضولي حول كل ما له علاقة بالسياسة العامة، ويهتم كثيرا بتاريخ بلاده بل يعرفه جيدا.

بلغ نفوذه زاوية الساقية الحمراء ودرعة مقابل فقدان النفوذ في تكانت وأدرار (معاقل الثوار). ملك 300 جمل و580 من الأبقار و105 من العجول و4500 رأس من الغنم و20 من الخيول، واعتاد أن يخرج لقمع تجاوزات بعض الزعماء، أو ليساند قوات الاحتلال كما في أدرار.

ج) نموذج القبائل المحاربة: الركيبات[1]

وصفهم الأوروبيون بالأعداء المرعبين بسبب قيمتهم القتالية، ومن أمثلتهم الشعبية المشهورة: "إذا كنت مطرقة فاضرب، وإن كنت سندانا فانصرف"، "ألّ عضك ما عضيتو ءيڭول إنك بلا سنين"، "لي ما شاف السما لا تنعتو لو".

ينقسمون إلى ركيبات الساحل وركيبات الشرڭ، يمتد مجال ترحال الأوائل بين زمور وتكانت ونواديبو وعرق الشيش وبين وادي درعة وآدرار وبين عرق الشيش والمحيط. هذا الامتداد الجغرافي لمكان التنقل مكنهم من مباغتة العدو في كل مكان، ومن اكتشاف تحركاته وضبطها، ومن نشر الرعب أينما حلوا في صفوف الإسبان وبين الفرنسيين خاصة. والركيبات هم من حدد مياههم الإقليمية بنقطة تكوّن الموجة السابعة في المحيط، وطالبوا بحق الامتلاك والتصرف في البواخر التي يقذف بها المحيط إلى تلك الحدود.

تاريخهم تميزه الحروب والروح القتالية، وهم -باعتراف مخططي حروب الاستعمار الفرنسي- الأعداء الذين أرهبوا الجيش الفرنسي بالهجوم على تشكيلاته المربعة، بل والهجوم على مراكزه وثكناته. أرغموا الفرنسيين على إخلاء السمارة انتقاما من الذين أحرقوها، وأرغموا الإسبان -إلى جانب أولاد الدليم- سواء مفرزاتهم

(1) (م. س.)، Désert Fertile: Un nouvel état La Mauritanie, Chap. VII.

أو الحملات الاستكشافية وبعثات رواد الشركات الأفريكانيست والترانزاتلنتيك على التقوقع داخل تحصينات فيلا سيسنيروس/الداخلة، وأفشلوا كليا مخطط إسبانيا الاستعماري منذ نهاية القرن التاسع عشر.

ويقول مؤلف "La Mauritanie": «لم ينس الركيبات الزمن الذي كانوا فيه أسياد الصحراء بدون منازع، وانفردوا بتمثيل القانون، وهاجموا المكتشفين والمغامرين، وهزموا لمدة تزيد عن 20 سنة وحدات فرنسا في الصحراء»[1].

والركيبات والرحال الزرق الآخرون، تحت قيادة الشيخ وخطة المجاهدين هم الذين أبادوا سنة 1907م مفرزة جيش المهاري التابعة لمركز تكانت عن آخرها. وتحدثت فرنسا عن تراجيديا. وفي برقية العقيد كورو، المندوب العسكري، إلى باريس: «إما أن نقاتل ونستعيد مبادرة العمليات، أو ننسحب ونتراجع»، طالب الحكومة الاستعمارية بتغيير خطة التوغل بإشهار الحرب النظامية[2].

نموذجان من قوة المخيم المسلم

-مخيم بالبراكنة حسب شهادة بورّيل Bourrel: تشكل المخيم على شكل صفيحة فرس على طول 3 كلم، يتكون من 5 مجموعات غير متفرقة، تعدادها بالتوالي: 1300 خيمة-1050-67-61- ف 42 خيمة، أي ما مجموعه 2550 أسرة بحوالي 13000 نسمة، يستطيع هذا المخيم تجهيز 1000 فارس مقاتل.

-مخيم أمير الترارزة حسب شهادة فانصون Vincent: يتكون مخيمه من 150 خيمة، وبئر بعمق 4 أمتار، ارتوى منه يوم مرور هذا المغامر 15000 رأس من الغنم، و1000 جمل، وكثير من الأبقار.

هـ) نموذج استعداد القوات الفرنسية في نونبر 1908 بمودجيرية للهجوم على عطار:

اختار العقيد كورو مودجيرية كنقطة تمركز تجمّع بها 1200 جندي، خيول،

---

(1) ص: 198.

(2) (م. س.) Désert Fertile: Un nouvel état La Mauritanie, Chap. VII,

بغال، وأزيد من 1000 جمل، إن هـذه الجمـال، إلى جـانب الحمـير والثيران هـي الـتي ستنقل إلى هذه النقطة تموين وعدة وذخيرة وعتاد فيلق كـورو.

بعد شهر من الاستعداد، كان الانطلاق لاقتحام عطار، الاقتحام الـذي سـتميزه معارك قاسية: معركة ءاماتيل ومعركة حمدون، و لم يتم احتلال عطـار إلا يـوم 9 ينـاير 1909م.

هذا النموذج الأخير يمثـل شـهادة ناطقـة عمـا لقيـه جنـود منظمـون مدججـون بأنواع الأسلحة ومدعمون بالإمداد، ومما تطلبه احتـلال موقـع غـير ذي أهميـة (لأن احتلال عطار لا يعني آدرار) من إمكانيات بشرية ولوجيسـتية وتخطيـط؛ ودليـل قـاطع على أن هذا المجاهد المتطـوع حفاظـا علـى كرامـة النفـس والأرض كمـا قـال القبطـان Dupertuis أحد ضباط Gouraud:

«... Ne renonce pas si vite à la lutte... Il faut voir combattre les maures pour se rendre compte de leur valeur...»(1).

مراقبة منافذ تسرب السلاح وأثرها على المقاومة

أ–صرح الحاج المقري، مندوب السلطان عبد العزيز، في المؤتمـر الثـاني للجزيـرة الخضـراء؛ أمـام ممثلـين أوروبيـين، روس وأمريكـان قـائلا إن: «دراسـة وسـائل منـع، والقضاء على حركة التهريب عامة، ومنع استيراد أسلحة الصيد والحرب، خاصة بدون إذن شريفي... وفي المدن والموانئ يسمح بحمل سلاح الصيد فقـط لمـن يتوفـرون علـى رخصة من الجهة التي هم تابعون لها... »(2).

اضطرب موقف المخزن بين:

-الرغبة في قمع الثورات الداخلية كما في الشمال وسوس والحوز...

-توفير السلاح لمواجهة أخطار التوغل الاسـتعماري، استجابة لضغـط المطلـب

---

(1) Désert Fertile: Un nouvel état La Mauritanie, Chap. VII, P. 98.

(2) مجلة دار النيابة، السنة: 1، العدد: 4، خريف 1984.

الشعبي: وفدت قبائل الصحراء تطلب السلاح[1].

-الحد من حركة التهريب التي دمرت اقتصاد البلاد، وعجلت من تفسخ المخزن، وتراجع مداخيله.

هذا الموقف شجعته الدول الاستعمارية بسبب مخاوفها من انتشار السلاح السريع الطلقات في حالة احتلالها للبلاد[2]، لذا أثارت إلى جانب المخزن مطلب تقليص حمولات السلاح والذخيرة إلى سواحل: الريف وسوس والصحراء (ومنها يتم تموين مجاهدي الصحراء بالسلاح).

أما الدول البروتستانتية فشجعت حركة تهريب الأسلحة لارتياد الأسواق العالمية ببضاعتها ومنها الأسلحة؛ لذا وجدت الشركات الأوروبية والأمريكية والجاليات الأجنبية بالمغرب منافع وامتيازات في تزويد المغاربة بالسلاح.

ب)استغل تجار الأسلحة عدم وجود وسائل تقنية ملائمة تمكن المخزن من مراقبة مياهه الإقليمية بفعالية.

-مهارة المهربين لا في تنفيذ عملياتهم ليلا فحسب (مراسي: حجرة النكور، باديس، رأس كبدانة، رأس الماء، طنجة، المحمدية/فضالة، الصويرة، السواحل السوسية والصحراوية قبالة أيت باعمران...).

-مهارة المتواطئين والمرتزقة ورحالات القبائل في إيصال الأسلحة عبر المخازن السرية، والمتاهات إلى المناطق النائية، وقد يروجون إشاعات مفادها أن السلطان منحهم رخصة بيع الأسلحة لإخوانهم في القبائل (ويحتمل أن يكون هذا الادعاء حقيقة).

---

(1) انظر: نص الكتاب الذي أرسله الشناگطة للسلطان مولاي عبد العزيز يستنجدونه، في كتاب الجأش الربيط، مرجع سابق.

(2) يقول تقرير من رئيس البعثة الفرنسية بطنجة إلى حكومة Le Quai d'Orsay بتاريخ 1910/9/25:

«L'accumulation d'armes à tir rapide et la facilité avec laquelle les indigènes s'en procurent à prix peu élevé, constituent un danger pour notre action politique au Maroc, mais aussi en Mauritanie et dans nos territoires du Sud Algériens».

(وهذه أصلا أراضي مغربية).

-كون الأمناء والقواد، في المراسي، كانوا يغضون الطرف عن تهريب الأسلحة، إما لأنهم يستفيدون ماديا، أو لأن من بينهم من يخدم جهة ثائرة أو مجاهدة، أو مخافة خلق مشاكل للمخزن والقناصل في حالة ضبط أو اتهام محميين بالتهريب(1)، بل تم تهريب السلاح حتى من ثكنات المخزن (حالة فراغ ثكنة تازة حين احتلت وجدة).

-وأخيرا استفاد المجاهدون من جرأة خلايا وعناصر ترصد تحركات الأعداء والمغامرين وسرايا الاستطلاع بمباغتتهم ومصادرة أسلحتهم؛ ومن إقدام بعض من جندتهم فرنسا على الفرار وبيع أسلحتهم للقبائل المجاهدة.

ج)وتحت الضغوط الأوروبية، وسرعة تفسخ المخزن، التجأت الدولة إلى اتخاذ إجراءات رادعة للحد من حركة تهريب الأسلحة ووصولها إلى يد الثوار:

-تقديم الاحتجاجات للهيئات الديبلوماسية بطنجة.

-إنزال العقوبات على المتواطئين والقراصنة والقواد والأمناء المشبوهين.

-تأسيس مراكز، وثكنات للمراقبة خاصة في مناطق استفحال التهريب (تيزنيت-طرفاية).

-تجهيز بواخر لمراقبة المياه الإقليمية وملاحقة السفن المشبوهة (بوارج الحسني، سيد تركي، البشير).

وفي سنة 1887م (من تواريخ اشتداد المقاومة ضد الفرنسيين والإسبان بالصحراء، أوقفت سفينة الحسني باخرة إنجليزية "تورمي لاين" بمصب واد نون وصادرت منها 5000 بندقية، منها 3000 متعددة الطلقات وحوالي 1 مليون خرطوشة.

---

(1) في صيف 1907 كان لدى أمين مرسى الجديدة: 500 صندوق بـ: 2000 خرطوشة في الواحد، و191 صندوق بـ: 2500 خرطوشة في الواحد.

ورفض قنصل فرنسا أن يسلمها الأمين لمبعوث مولاي عبد الحفيظ مخافة أن يصل السلاح إلى يد الثوار والمجاهدين.

وجاء في كتاب "صاحب الجأش الربيط" ص: 87: «وأعانهم (مولاي عبد الحفيظ) بما أمكن من العدة والقرطاس للمحافظة على بلادهم ودفاع من يهجم عليهم، وأكثر تلك العدة 3 أنواع: ساسبو والحراية والبلجيكية».

-خُصص الباب الثاني من الميثاق العام للمؤتمر الدولي (7 أبريل 1906) بالجزيرة الخضراء للنظام الخاص بمراقبة الأسلحة والزجر على هذا النوع من التهريب[1].

ورغم هذا التشديد، نشير إلى أن المجاهدين بالشاوية (أحداث احتلال الدار البيضاء 1907) ومعهم "الرجال الزرق" محاربو الشيخ ماء العينين؛ كانوا مسلحين من أقدامهم إلى قبعاتهم، وإن مصادر الأسلحة في هذه الفترة الحاسمة كانت تتسرب إلى الصحراء تارة من العرائش (يوم 11 فبراير 1907) على ظهر الباخرة الألمانية "فارو"... وأخرى من الصويرة (يوم 22 أبريل 1907) على ظهر الباخرة الألمانية موكادور[2].

وعمد الفرنسيون إلى قنبلة فضالة الميناء الذي كان المجاهدون يتلقون منه السلاح.

-ووجه المخزن إلى قائد طرفاية سنة 1907 رسالة تأمره بحجز الأسلحة الموجهة عبرها بحرا إلى الصحراويين، وذلك تحت ضغط الفرنسيين الذين احتلوا وجدة (إيقاف دعم الصحراويين والتخلي عن أراضي البيضان).

-وطالب حاكم إفريقيا الغربية من وزير المستعمرات، أن تبحث مندوبية وقنصلية فرنسا بالصويرة وتعرف الوسائل التي يصل بها السلاح والذخائر إلى آدرار[3].

-كما طالب وزير فرنسا بالمغرب "Mr. Regnault" في 24 مارس سنة 1910، بأن تطبق على الشيخ وأبنائه مقتضيات البند الثالث من اتفاقية 10 سبتمبر 1844، وتم الاستجابة لطلبه في 31 مارس 1910[4].

---

(1) انظر بجلة تاريخ المغرب (جمعية الامتداد الثقافي)، العدد: 2، أبريل 1982.

(2) ماء العينين ماء العينين: "صاحب الجأش الربيط..."، ص: 27.

(3) انظر: رسالة الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية إلى وزير المستعمرات في: صاحب الجأش الربيط، مرجع سابق، ص: 23.

(4) Nation et nationalisme au Maroc, Jacques Cagne, Rabat, 1988, P. 203. دار نشر المعرفة.

«S.M. L'empereur du Maroc s'engage de nouveau de la manière la plus formelle et la plus absolue, à ne pas donner, ni permettre qu'il soit donné dans ses états, ni assistance, ni secours d'argent, munitions ou objets quelconques de guerre à aucun sujet rebelle où à aucun ennemi de la France».

حركة المقاومة المعينية: إعلان حرب ضد الغزاة على كل المستويات

أ-عدوان لدودان لفرنسا: الإنسان والطبيعة

«يجب أن تروا كيف يحارب ويقاتل الموريتانيون، حتى تدركوا قيمتهم... لهم سيقان عارية، بل إنهم يتجردون حتى من سراويلهم الخفيفة لئلا تعرقلهم في القتال، ولا يحتفظون إلا بعباءة مقوّرة الطوق وبدون أكمام، وليس معهم من السلاح غير البندقية ومحفظة الخراطيش وخنجرهم. نراهم بشعرهم الطويل، بعيونهم البراقة، يقفزون من صخرة لأخرى، يختفون خلف أقل حاجز، يطلقون النار، يحاصرون موقعا، إنهم أشبه بظبيان حقيقيين... » [1].

مثل المقاتل الصحراوي العدو الأول الذي أرهب الفرنسيين نظرا لقيمته القتالية ولنباهته وذكائه، ولطريقته، أي خطته الحربية. أما العدو الثاني والأكثر رعبا فكان بلاد الصحراء، بلاد الخوف، والعطش، ويصف الجنيرال ديبوك المكابدة والمعاناة التي لم يتحملها الجنود الفرنسيون ومجندوهم من التكرور، قائلا: «ينبطح بعضهم ويطلب أن يقتل ليتخلص من الآلام المبرحة التي يقاسيها، وآخرون ممن استطعنا وبصعوبة أن نساعدهم على الوقوف على أرجلهم، في مجهود كبير، يفرون يمينا ويسارا، بحثا عن شجيرات توفر لهم بعض الظل.

بلغ العياء أقصى حدود التحمل البشري: تمططت قسمات الوجه، تورمت الشفاه، زاغت العيون، لا يتعارف الرجال لدرجة أن مساعدا لازم ضابطا وخدمه 3 سنوات، لم يتعرف عليه. في هيجان وهذيان يقتل القناصة الجمال، يبقرون بطونها، يحاولون أن يجدوا قليلا من الماء في جيوب معدتها، ولكنهم يصابون بخيبة كبرى، كانت هذه الحيوانات جافة مثلهم إن لم نقل أكثر منهم.

وبحثا عن انتعاش أو رطوبة يتمرغ الرجال عراة في روث الجمال وهو يتبخر، ويُسحبون من الأردان وهم متسخون.

وفي وقت ما سيطرت حالة من الجنون والغضب على أغلبية القناصة، ابتعدوا

---

(1) Désert Fertile: Un nouvel état La Mauritanie, Christine Garnier, P. 98.

عن اتجاه خط السير حتى قابلوا الطابور وشرعوا يطلقون النار عليه، إلى أن نفذت ذخيرتهم، ثم رموا ببنادقهم التي لم تعد نافعة؛ أضف إلى ذلك أن القليل هو الذي احتفظ ببندقيته، لأن الكثير منهم تخلصوا منها، إذ كلما نال منهم العياء أكثر كانوا ينثرون على الطريق حمولة العدة، والذخيرة والتجهيز وحتى ملابسهم»[1].

ب)المكتشفون والجواسيس يقعون في كمائن المقاتلين

من سنة 1860 إلى ما بعد سنة 1900 تشكل طابور المغامرين المكتشفين من ضباط وضباط الصف يساعدهم جواسيس سنيغاليون، وزعامات صحراوية محلية متواطئة. ومن مغامري الشركات الاستغلالية المتعاونة مع مؤسسات علمية، ومن جواسيس الشوون الأهلية في الإدارة الاستعمارية.

انطلق هؤلاء من مناطق السنيغال، وتوات، والداخلة، وموكادور، والجزائر، ثم انبثّ آخرون بأهم مدن ومحاور الشمال. واتجهوا إلى عواصم ومراكز الأقاليم الصحراوية، والواحات، والمناطق الغنية بالأملاح والمعادن (سبخات إيجيل، حصن كورو، مناجم النحاس...)، والأسواق الكبرى (تومبوكتو، أكادس، كلميم)، وإلى مراكز الزوايا (بوتلميت، السمارة، الحوض)، والمخيمات (البراكنة، الترارزة، تيرس، ولاتة، آدرار...)، وإلى مراكش (مقر الخليفة وكبار قواد الجنوب)، وموكادور (المرسى الكبير، مقر القناصلة، بوارج الرحلات)، وطرق القوافل (فتحوا مرافق تجارية بمختلف الأسواق)[2].

واستهدفت حملات الجواسيس والمغامرين التعرف على الأرض والمجتمع عبر تقارير الأسفار ودراسات موفدي الشركات والمعاهد وتقارير الضباط: مواقع القبائل، مراكزها، محاور تنقلها، ثرواتها، قوتها الحربية، نقط الماء... وكل ما من شأنه أن يخدم ويمهد لسياسة التوغل...

كان رد فعل المجاهدين قاسيا وعنيفا، رغم تستر المغامرين خلف ادعاءات التمويه

---

(1) المرجع نفسه.

(2) -المرجع نفسه، ص: 108-110.

Revue du Monde Musulman, Volume IX, Nov. 1909, N° XI, P. 428. -

وانتحال[1] صفات شخصيات مسلمة:

خنقوهم وهم نيام، جردوهم من الزاد والملبس والسلاح والجمال وتركوهم تائهين في الصحراء، أبادوهم في هجومات ليلية خاطفة، دفنوهم في الرمل أحياء ليموتوا بفعل الإشعاع الشمسي، اختطفوهم وسجنوهم سنين في معازل مجهولة، صادروا مراسلاتهم السرية، وحالوا بينهم وبين مراكز إمدادهم.

ج)دعم المجاهدون المجهود الحربي باختراق خطط الاستعمار والتنسيق مع المخزن وتعبئة مختلف مكونات المجتمع.

-الاختراق

جاء في تقرير ديون وكوبولاني حول شيخ الزاوية: «... من مقر زاويته، يسمع، يرى، ويعرف كل شيء، يفشل أخطر المخططات، يحدث تدخله كل الكوارث، يُترجم تحركه ويُنفّذ فعله في كل مكان، وفي كل جزئيات الحياة، عبر وسائل عجيبة وخارقة... »[2].

من زاوية السمارة إذًا يخطط الشيخ لاحتواء الوضع وإفشال المؤامرات وتوحيد القبائل... ووضع نظام فعال للمخابرات، إذ تواجد أتباعه في كل مكان يرصدون كل تحركات الأعداء كما تعترف التقارير والمراسلات الفرنسية:

ففي رسالة من الكولونيل مونتانيه إلى مسيو رومة، يعترف بنجاح وقوة الدعاية لدى المجاهدين، ومن ثم استرجاع القبائل الضالة: «... وقد وجه (الشيخ) نداء تهديديا في هذه الأيام الأخيرة... إلى جميع القبائل الخاضعة لنفوذنا يحرضها على الثورة... ويقدم للذين يقبلون الخروج من إدارتنا كل تشجيع على التمرد»[3].

---

(1) «... وتبدت تدريجيا تقاليد وعادات أرض الحذر هذه، وسلمت المنازل أسرارها، ومنذئذ عرفنا كذلك ما يمثله الإسلام وزواياه كقوة في موريتانيا...».

Un désert fertile... م. س. P. 110.

وانظر في الملحق: تقارير كتبها جواسيس.

(2) Un désert fertile..... م. س. P. 114

(3) "صاحب الحاش الربيط"، ماء العينين ماء العينين، ص: 24، دار الفرقان للنشر والحديث، 1985.

وتمكنت عيون الزاوية المبثوثة في المخيمات والمدن وفي كل مكان من ملاحقة الجواسيس النصارى والمتواطئين معهم والإيقاع بهم، كما جاء في رسالة تأييد من الشيخ سعد بوه (أخ ماء العينين) إلى الكولونيل نائب الدولة الفرنسية في أرض البيضان: «ومما قال لي أنها إذا أرسلت إليهم في البر مزقها أعداؤنا وأعداؤك، وهذا صحيح، لأني أرسلتُ إلى الكولونيل كورو في آدرار كتابة فمُزِّقت دون وصولها في أمان، فأخذوا منه الجمل وزاده وقربة مالة، وضربوه، لأن أولئك الناس أشد كرها لي من كرههم لأفرانس»[1].

ويعترف الفرنسيون (في تقارير تقديراتهم للوضع في المغرب) بعدم فهم ما يحدث وبسوء تقدير قوة المؤسسات المغربية (الزوايا-القبائل...): «... فالزوايا -التي لم تكن قبل 18 شهرا فقط- نثيرها في حديثنا إلا للضحك، تتحرك كوكر الزنابير، والمجاهدون يتجهزون، والعلماء يصدرون فتوى بعد أخرى، والشرفاء يسهرون بورع على جمع الزكوات، والمخزن يضاعف دسائسه، والقبائل تحارب، والسلاطين يتنافسون، وتهب ريح الجهاد على هذا الوضع المضطرب»[2].

-التعبئة

ضمن المجاهدون إذًا فعالية شبكة الدعاية والتعبئة والاختراق (ونجحت فرنسا أحيانا في اكتشاف الجواسيس وضبط المراسلات)، فاكتسبوا مواقف التأييد والمناصرة والتجنيد والأسلحة والمال، وبلغ صيت الشيخ ماء العينين وحركته التحريرية أقصى تخوم الصحراء جنوبا وشرقا، مما «أحدث تفاؤلا كبيرا في مناطق الصحراء وعودة كل مناهضي الاستعمار إلى نشاطهم الحربي، وتأكد بسرعة دور ماء العينين في التحريض»[3]. و«من المحيط إلى تينبوكتو لا تسمع في المخيمات إلا الحديث عن

(1) Revue du Monde Musulman, Volume 29, Déc. 1914, Numéro Spécial (Les musulmans Français et la guerre), P. 24.

(2) Revue du Monde Musulman, Volume IV, Janvier 1908, N° 4, P. 128.

(3) Nation et nationalisme..., م. س. P. 206.

الهجوم المرتقب الذي سيحرر المسلمين من أسر الكفار»[1].

وكان أمير أدرار سيد أحمد بن أحمد بن عيدة تحت حماية الشيخ ماء العينين، وكتب إلى كوبولاني (المندوب العام لحكومة غرب إفريقيا الفرنسية بموريتانيا) ليشعره «بأن بلاده تابعة لسلطان المغرب، وأنه سيهادن الفرنسيين مادامو في سلم مع سيده».

إن الزعامات القبلية المحلية التي تودد الفرنسيون إليها (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)، واستمالوها بالوعود والإغراءات، لا تلبث أن تتغير فتُلغي الاتفاقيات التي أُبرمت معها. أو قد يقنعها المجاهدون بالتراجع فتعود لإعلان الجهاد، أو تنفر منها شعوبها الرافضة للاحتلال (فتصبح معزولة أو تُغتال)، أو يغادر الأهالي مرابعهم إلى بلدة أخرى... والدعاية الجهادية تفعل فعلها في تغيير مواقف ومواقع القبائل، مما يجعل التكتلات تتقوى خاصة حين يُهدَّد المتواطئون في موارد عيشهم، ومكانتهم الدينية والاجتماعية، أو يعدهم الشيخ المجاهد بالسلاح والعدة وتأييد السلطان.

أما الزعامات الدينية فكانت ذكية، تحسب لكل تعاون مع العدو أو مساعدة له ألف حساب، أي إنها تضع ظروفها الاجتماعية ومكانتها الروحية في الاعتبار، كما أن سياسة المؤاخاة بين الطرق والزوايا التي دعا إليها الشيخ ماء العينين لعبت دورها الوحدوي، وقللت من أسباب التنافر بين أتباع مختلف الزوايا، وأصبح الانتماء إلى طريقة شيخ ذي وزن علمي وجهادي واجتماعي سلوكا مشرفا وحافزا للانخراط في واجب الذود عن أرض الإسلام. ومن هنا نفهم الدوافع التي حدت بأبناء القبائل في مناطق نفوذ الشيخ سيديا بآدرار وتكانت وشمال نهر السينغال... إلى الارتماء في أحضان زاوية السمارة.

ونفهم لماذا أصبحت أسماء مراكز ومواقع، وأسماء قادة معارك وأسماء تحالفات قبلية ترهب فرنسا، خاصة ما بين سنة 1894 وسنة 1908: الشيخ ماء العينين

---

(1) Mahmadou Ahmadou, BA: "L'adrar dans l'anarchie".
أورده جاك كاني في ص: 210 من المرجع السابق Nation et nationalisme.

بالسمارة، بكار بن سويد أحمد من إيداويعيش، محمد الحبيب ثم سيدي محمد ولد فال الترارزة، الحاج عمر ثم أحمد ولد سيدي علي بالبراكنة، ولد عيدة بأدرار، محمد المختار بالحوض، سيدي محمد ولد مولاي الزين عن أولاد النور، عثمان ولد بكار من تكانت[1].

ومن أمثلة التحالفات القبلية التي نسقت عملياتها الجهادية مع زاوية السمارة ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي خاصة، نذكر: "الترارزة، أولاد بو السبع، أولاد اللب"، "أهل آدرار، أولاد بوالسبع"، "أولاد الدليم، والعروسيين"، "قبائل الركيبات"، "آدرار".

-التنسيق

يتفق كل الذين كتبوا عن الشيخ ماء العينين حول الحظوة الكبرى والتأثير القوي والمكانة المرموقة التي تمتع بها بين من عاصرهم من سلاطين المغرب من عهد عبد الرحمن بن هشام (1822-1859) إلى سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859-1873)، فعهد الحسن الأول (1873-1894)، ثم عهد مولاي عبد العزيز (1894-1908)، وأخيرا عهد مولاي عبد الحفيظ (1908-1912).

انتقلت هذه العلاقة على وتيرة تصاعدية من احترام الشخصية العلمية والقداسة الدينية، إلى تقدير إشعاعها الإقليمي وبعدها الاجتماعي (موروث الزاوية)، إلى الانبهار الروحي وإسداء المشورة والرأي، إلى تبادل المنافع ثم الحاجة إلى توظيف بعديها السياسي والعسكري، لتصل مع مولاي عبد العزيز إلى الشخصية القوية النفوذ وتلعب أدوارا حاسمة في تاريخ المغرب[2].

---

(1) انظر نص الكتاب الذي أرسله الشناكطة للسلطان مولاي عبد العزيز يستنجدونه، في كتاب "الجأش الربيط..." للعلامة الشيخ محمد الإمام.

(2) يشير محمد المختار السوسي في "المعسول": 83/4، مطبعة فضالة، المحمدية، 1960، إلى أن شهرة الشيخ قامت على خمسة أسس: موروث العلم والصلاح، النبوغ العلمي، الانخراط في التصوف، الاتصال بالسلاطين، طول عمره...

فما هي أهم خطوات ومراحل التنسيق وآلياته بين الشيخ ماء العينين وسلطان المغرب؟

-في سن الثامنة والعشرين خرج من منطقة الحوض، خاطبه والده: «يا بني، لم يبق لك علي حق، فاذهب إلى بلاد يحييها الله بك وينفعها على يدك».

-خرج للحج سنة 1857، وكان اللقاء الأول له مع السلطان عبد الرحمن بن هشام بمكناس الذي خاطبه بقوله: «أنت صغير السن كبير المعنى... »، أمر السلطان خليفته بطنجة بالاهتمام به نظرا لمكانته، وخليفته بمراكش أن ينفذ له زاوية.. وحظي بنفس الحفاوة لدى عامل تيندوف[1].

-أعطاه الحسن الأول الأسلحة سنة 1887 لمحاربة الإسبان، وعينه "خليفة الصحراء"، وسافر إلى مراكش للقاء السلطان سنة 1890، كما منحه زاوية سنة 1873.

-أكثر اتصالاته كانت مع مولاي عبد العزيز سواء في مراكش أو في فاس، اتخذه شيخا له، بنى أو خصص له زوايا في كثير من المدن المهمة. وموّل تنفيذ مشروع السمارة كقاعدة عسكرية في أقاليم الجنوب. أغدق عليه العطايا والهدايا، وانتظمت المؤونة والدعم المخزنيين إلى السمارة، «وراقب السوسيون قوافل موسمية تعبر بلادهم محملة بالمال والمواد الغذائية وأنواع الأثواب، يحرسها فرسان المخزن»[2].

ووصف رئيس البعثة العسكرية الفرنسية "العقيد فاربو" بفاس، الشيخ ماء العينين خلال زيارته للسلطان سنة 1904 في رسالة وجهها إلى وزير الحربية الفرنسية (في 1 يونيو سنة 1904):

«وصل الشيخ ماء العينين الشنكيطي إلى فاس يوم 26 مايو ومعه حاشية من 150 مرافقا. وكان خلال سفره كله محط عناية خاصة من المخزن. وانتقل وزير الحربية المغربي ليحيي الشيخ بالمخيم الذي نزل به عشية وصوله. ونظم الجنود استقبالا

(1) "الجأش الربيط..." للشيخ محمد الإمام: ماء العينين ماء العينين، م. س.، ص: 18.

(2) Nation et nationalisme... م. س. P. 203.

شرفيا له عند دخوله المدينة. وخصص له، كمحل لإقامته منزل المرحوم أبا حماد كبير الوزراء. وتوافدت عليه كبار الشخصيات التي حضرت بفاس لزيارته والتبرك به». و«طيلة إقامته وحد السلطان المناسبة ليعبّر له عن كبير تقديره».

خصص السلطان كل 4 أو 6 أشهر سفينة تنقل من الصويرة إلى طرفاية المؤونة والتجهيز والدعم اللازم لقاعدة السمارة، وسفينة/باخرة البشير لنقل الهدايا والهبات والمساعدات بعد كل زيارة يقوم بها الشيخ إلى الشمال.

هذه الزيارات التي تكررت 7 مرات إلى مولاي عبد العزيز (4 إلى مراكش و3 إلى فاس) كان خلالها يستقبل بكل مراسيم التشريف. استفاد أبناؤه من نفس العناية السلطانية، وصار كبار المخزن وبطانة القصر على سنة أميرهم يجزلون العطاء للشيخ ماء العينين. كذلك فعل الأعيان ورجال السلطة والعوام أينما حل موكبه.

-أهم أطوار المواجهة المسلحة

يحلو لأهل الصحراء أن يرددوا كالركيبات هذا المثل: "إذا كنت مطرقة فاضرب، وإن كنت سندانا فانصرف"، وقال الفرنسيون: "يجب أن نملي إرادتنا على الزعماء الموريتانيين". بعد فتور مغامرات المكتشفين، عادت الصحراء إلى صمتها ورعبها، و لم يعد بإمكان أحد أن يغامر، وفقدت فرنسا ثقتها فيما تخططه من أساليب التوغل. وحتى في الموالين لها: «يظهر أن الشيخ سعد بوه معاد لنا... »[(1)]، و«يحتمل أن تكون المسالك المحاذية لنا تتلقى التعليمات من المناطقة العليا التابعة للنفوذ المغربي»[(2)]، و«لن ينتهي مطافنا ما دمنا لم نقم بالضروري لانتهاج أسلوب آخر...»[(3)].

نقلت فرنسا إلى السينغال مغامرا من الجزائر اسمه كزافيي كوبولاني، تربى في القسطنطينية، مدرس قديم أصبح حاكما للجماعات، ونودي عليه سنة 1895 لإدارة الشؤون الأهلية، يتحدث جيدا "اللهجة" الجزائرية، تخصص في الأمور الدينية الإسلامية

(1) صاحب الجأش الربيط...، م. س.، ص: 23.

(2) نفسه.

(3) R. M. M., Volume IV, Janv. 1908, N° 1, P. 128.

(ألف بتعاون مع "Octave Dupont" الطرق الدينية الإسلامية) سنة 1898، تم تعيينه رئيسا لبعثة لدى الطوارق وموريتانيا. يقول: «في الصحراء من يسيطر على الواحات ويتحكم في الرحل»، إنه صاحب خطة التوغل الهادئة (سبق إليها ليوطي)[1].

بعد إقناع محاوريه من القادة العسكريين والمسوولين السياسيين، انتقل إلى سان لوي، حيث كلف بتأسيس الإدارة الخاصة للشوون الأهلية.

-سارع إلى لقاء الزعامات الدينية لأقاليم الترارزة والبراكنة (الشيخ سيديا والشيخ سعدبوه) «شريفان بثقافة عالية، سيكونان أكثر من حلفاء، منسقين ومتعاونين حميمين، وصديقين وفيين».

دخول الترارزة

-بدأ الاحتلال بتأسيس مراكز عسكرية: نواكشوط وبوتلميت (مقر سيديا). وفي إقليم البراكنة مراكز في ألـگـ، الرگـبة، مويت، مبوت. واعترف بخطورة المعارك التي واجهته (شعوب خالفت زعامتها).

-في نص الرسالة التي بعث بها الشناگطة إلى مولاي عبد العزيز، نقف على يقظة المجتمعات المحلية، ووعيها بالخطر الذي يهددها وعلى إرادة النضال، وعلى تعداد محاربي كل قبيلة وانقياد أمرائها إلى طاعة السلطان. وإلى أن الاحتلال ما يزال في بدايته، واستنجدوا بالسلطان وطالبوه بأمرين: العدة الوروارية (السلاح السريع الطلقات) لإيقاف العدو بالقوة، وممثل ينوب عن السلطان لدحض ادعاءات المحتل[2]. (اعتبار الصحراء أرض خلاء).

-بأمر من الشيخ ماء العينين حرر ابنه حسنة رسالة إلى الشيخ سيديا يخبره بأن أمراء كثير من القبائل شكت اعتداءات النصارى عليها للشيخ ماء العينين، وطالبته بالتدخل لدى السلطان لفائدتها. وتقدم الرسالة ملخصا سريعا عن تطورات الصراع المغربي الفرنسي على أحقية ملكية أراضي الصحراء، وعلى وصول بعثة السلطان إليها

(1) للتفاصيل راجع: (م. س.). Désert fertile: un nouvel état la Mauritanie.
(2) انظر نص الرسالة في كتاب الجأش الربيط...، م. س.

لإثبات شرعية المغرب، حتى تنسحب فرنسا عما احتلته. وتطلب الرسالة الشيخ سيديا بالتعاون من أجل حماية الدين قبل فوات الأوان، وأنه إن لم تتراجع فرنسا فالمسلمون سيفتحون الجهاد بدعم وسلاح السلطان[1].

-واعترفت فرنسا أنها أخطأت حين أعلنت عن استعدادها للتخلي عن أراضي موريتانيا والصحراء إذا استطاع السلطان إثبات حجج الملكية، (والألمان والإنجليز أصدقاء السلطان عبد العزيز ووالده الحسن الأول) [2].

-تمثل انشغال الشيخ ماء العينين الأساسي في الدفاع عن الأقاليم الصحراوية ضد الأطماع الأوروبية، واتخذت حركته أبعادا وأشكالا متعددة تجاوز فعلها حدود الصحراء لتشمل أراضي المغرب.

-في سنة 1904 ما يزال كوبولاني يحاول مع الشيخ سيديا لمساندة مشروعه الاستعماري (الذي حرض عليه منذ سنة 1889)، يقول: «ثق جيدا، أنه مقدَّر أن يحتل الفرنسيون شمال غرب إفريقيا، ولتعرف كذلك أن إرادة الله وهبتنا إدارة المغرب، طبعا بموافقة كل القوى الأوروبية ورضى السلطان نفسه الذي سيصبح بفعل ذلك محمينا الأول».

-في سنة 1905 بالغ المستعمرون في تمجيد نجاح خطته، وكلف بمهمة تمديد الاحتلال إلى تاكانت وآدرار، والمهمة ليست سهلة، لأن بها القلاع الحصينة التي ينسحب إليها المحاربون بعد عملياتهم، ولأن قبائلها المعادية "إيداويعيش" أصبحت متحالفة مع زاوية السمارة ومولاي إدريس ممثل السلطان بالصحراء، يمدانها بالسلاح والمال وخطط العمليات والأخبار.

هذا الدعم شجع المجاهدين على ممارسة ضغط لا يتوقف على المراكز الفرنسية التي لم تثبت بعد: غزوات تليها غزوات، نهب قطعان القبائل الموالية لفرنسا، وعزل ومهاجمة خطوط إمداداتها وأرتال الجنود الفرنسيين وتدمير خطوط الهاتف.

(1) انظر نص الرسالة في كتاب: Nation et nationalisme، م. س. ص: 230.

(2) R.M.M., Volume 8, Juillet - Août 1909, N° 7-8.

تمكن من دخول تجكجة، وخاض تحركا سياسيا في اتجاه الحوض وآدرار، رغم ما عاينه في الواقع من انحياز قبلي متزايد إلى المجاهدين (إلى من هم أقوى إلى أعداء فرنسا كما قال).

في 12 مايو 1905 انتهت مغامرة كوبولاني، حين اقتحم المجاهدون عليه ثكنة تجكجة مسلحين بالبنادق والسيوف، 20 مقاتلا يتزعمهم سيدي محمد ولد مولاي الزين، من أولاد النور ومن الزاوية الغظفية (سقط صريعا في هذا الهجوم). وانهالت التقارير، والتحريات تطلب التحقق من علاقة "رجل السمارة: الساحر الأزرق وعدو فرنسا اللدود" بمقتل ممثل فرنسا؟ (1)

-1906: التاريخ الثاني البارز في أطوار المقاومة حين قررت قبائل الصحراء بأجمعها وضع حد لتشرذمها ومواجهة الخطر الذي يحدق بها والحصار الذي يتهددها (احتلال واحات توات)، فجمعت كلمتها ووضعت نفسها تحت السلطة الموحدة للشيخ ماء العينين بالسمارة (مؤتمر السمارة)، حيث حضر ممثلو قبائل شنكيط والصحراء. وتأكدت هذه الوحدة عبر الاستقبال الحماسي الذي خصوا به مبعوث وممثل السلطان، وقرروا أن يسافروا إلى السلطان لتقديم الولاء وبحث طريقة إيفاد المحلات للدفاع عن الجنوب.

وتقدم لنا الرسالة التي وجهها مولاي عبد العزيز (29 أبريل 1905) إلى قبيلة العروسيين يخبرها بوصول ممثله، والرسالة التي وجهها الشيخ ماء العينين إلى رئيس الكونط (21 غشت 1905) يشرح فيها غاية البعثة نفسها، معلومات غنية عن سياسة المخزن في الصحراء، مستعملا نفوذ الشيخ المعترف بسلطته(2).

---

(1) انظر الرسالة / التقرير الذي بعث به مسيو رومة الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية إلى مسيو كليمانتيل وزير المستعمرات في كتاب "صاحب الجأش الربيط" م. س، ص: 23.
انظر كذلك رسالة مونتانيه إلى مسيو رومة في المرجع نفسه، ص: 24.

(2) –رسالة مولاي عبد العزيز وردت في ص: 208 من كتاب: ...N ation et nationalisme م. س.
–رسالة ماء العينين وردت في ص: 26 من كتاب "صاحب الجأش الربيط..." م. س.
–وانظر كذلك رسالة الشيخ ماء العينين إلى جماعة إيداوعيش في ص: 227 من كتاب Nation et nationalisme م. س.

إنها سياسة الدعم المتبادل بين السلطان والشيخ الأول بتأكيد سلطته على قبائل الصحراء، إذ أصبحت الصلاة تقام باسمه في مساجد شنكيط وآدرار، والثاني بحصوله على تشجيع ثمين يقوي من سلطته.

إلا أن الشيخ يشكو في رسالة إلى مريده الشيخ أحمد بن الشمس (يوليو سنة 1905) من تأخر وصول الأسلحة والذخيرة، مما أحرجه أمام القبائل (رسالة في اليوم نفسه من الشيخ إلى القائد إدريس بن يعيش) (1).

إن وصول البعثة الممثلة للسلطان إلى الصحراء، أشاع أملا وحماسا بين السكان، في التحرر والجهاد. أقام مبعوث السلطان، بشنكيط، مقر إقامته، وبمساعدة حسنة ابن الشيخ قاد "حركته" ليحرر تكانت. انتصر في معركة نايميلان، وحاصر تجكجة (بعدما أخبر حاكم الدائرة بأمر السلطان بإفراغ أراضي المغرب والتراجع إلى السينغال) من 5 نونبر إلى 1 دجنبر 1906.

أمام توالي الهزائم الفرنسية واشتداد ضغوط محاربي زاوية السمارة في كل مكان، تحركت آلة الدبلوماسية الفرنسية بالضغط على مراكز القرار المغربي، وفي المقابل طور الشيخ تحركه السياسي على مستوى الاتصال بالقصر، خاصة وأن له أقدام نفوذ ثابتة داخل المخزن، كما عمل على تفعيل نشاط المراقبين الموالين له.

-شتنبر 1907: سافرت وفود القبائل الصحراوية بقيادة الشيخ من السمارة إلى فاس لطلب دعم السلطان، إلا أن السلطان نفسه هدده دخول القوات الفرنسية إلى وجدة (منذ مارس 1907) وإلى البيضاء (منذ غشت 1907) صعوبات داخلية تعمقت بمطالبة مولاي عبد الحفيظ بالعرش (نودي عليه ملكا بمراكش 16 غشت 1907)، وتراجع الصحراويون عن مقصدهم بفاس، والتحقوا بالسلطان الجديد في مواجهة فرنسا بالشاوية إلى جانب قبائل صحراوية (استوطنت الحوز منذ قرون) (2).

---

(1) انظر الرسالتين في كتاب: "صاحب الجأش الربيط"، م. س.، ص: 29.

(2) أولاد بوسبع، أولاد دليم، تكنا، حربيل، أولاد سيدي الشيخ (ساهم الشيخ بـ: 800 مقاتل في صفوف الشاوية).

-وكان الشيخ أوعز إلى السلطان مولاي عبد العزيز أن يكتب رسائل إلى شخصيات إسلامية قصد عرقلة السياسة الفرنسية وخلق متاعب لفرنسا التي تخوفت من مساندة إسلامية لحركة الجهاد، خاصة وأن تلك الرسائل وصلت إلى مخابراتها.

-وراسل ستيفان بينوش وزير خارجية فرنسا نظيره المغربي عبد الكريم بن سليمان يطالب بـ:

*عزل الشريف مولاي إدريس رسميا من منصبه حتى لا يواصل، وباسم السلطان، إثارة التمردات المسلحة ضد فرنسا.

*اتخاذ إجراءات صارمة لقمع حرب العصابات التي يخوضها المخزن على الحدود، وضد الدعم الذي يرسله سرا إلى الشيخ ماء العينين، وهو يعرف (المخزن) أن تلك الأسلحة تستعمل في حرب ضد قوات فرنسا.

كان جواب عبد الكريم بن سليمان: «سينظر اجتماع الوزراء في الأمر». جواب فهمت منه فرنسا تلكؤا في موقف المغرب[1].

-وتعبر التقارير الفرنسية عن عدم الثقة في موقف عبد الحفيظ[2]: موقف يحد من قوة الشيخ ماء العينين، خاصة وأن السلطان الجديد اتهم أخاه بالتهاون في مواجهة الغزاة الفرنسيين، لهذا فكرت في خطة استعمارية تجمع بين الحرب وسياسة الوفاق. وراهنت على تعميق الصراع بين المطالبين بالعرش بحثا عن "شريف جديد طامع".

-نونبر 1908 استعدت فرنسا ثانية للحرب: اختارت نقطة موجيرية لتجميع قواتها (1200 جندي، خيول، بغال، وأكثر من 1000 جمل، ونقلت على الجمال والحمير والثيران المؤن والذخيرة وتجهيزات هذا الطابور الذي خطط له كورو).

---

(1) Nation et nationaliame... (م. س.)، ص: 212.

(2) R.M.M., Vol. VIII, Juillet Août 1909, N° 7-8, P: 467. (لم يعد المغرب يكفي مولاي عبد الحفيظ، إنه يمد حركته إلى أدرار حيث عثر على رسائل تحمل طابعه. ما مصير هذه الحركة؟ يستطيع مولاي عبد الحفيظ أن يفعل الكثير لتهدئة البلاد. إما بتهدئة ماء العينين أو بنزع سلاحه، إلا أن التزامه بهذا الحل أو ذاك أمر قليل الاحتمال).

بعد شهر من الاستعداد، تم الزحف على عطار المركز الذي تأخر احتلاله سنة كاملة، نظرا لضراوة وعنف معارك المجاهدين (رغم أن الفرنسيين يتحدثون عن مقاومة غير موحدة في التوجيه، ولا تقوم على تخطيط) في أماتيل وحمدون... فخلال 9 أشهر (مارس-دجنبر 1908) أحصى الجنيرال كورو (مندوب الحكومة العامة): 125 هجوما خلف 142 قتيلا و47 جريحا، وخسائر لا تحصى في الماشية.

ونظرا لخطورة الموقف الذي أصبحت فيه فرنسا منذ مقتل كوبولاني أصبحت البرقيات والتقارير العسكرية تتحدث عن تراجيديا إبادات، وعن العمل لاستعادة مبادرة العمليات، وعن انضمام القبائل إلى صفوف الشيخ المجاهد. وربما في هذا الإطار خطط كورو لاحتلال عطار[1].

هذا الاحتلال لا يعني التحكم في أدرار، لأن أتباع الشيخ ماء العينين لا يتراجعون عن الجهاد والمقاومة. اندلعت معارك أخرى في غاسيرمنت، قصر تورشان، شنكيطي، أوجفت وسبخة إيكيل. واعترف العدو برعب حرب الصحراء حتى أن قواته فقدت الصواب[2]، ومعارك أكثر ضراوة في أكجوجت، الميناء، تالمست حمدون، أماتيل (طيلة 1908-1909).

-ويقول الفرنسيون أن الشيخ حسنة، بعد هزيمته بأدرار، ولأنه يجهل تطورات الأحداث المتلاحقة بالشمال صرح بأنه سيعود لمواصلة الحرب مدعما بتعزيزات والده (الشيخ ماء العينين) والسلطان. كما هزمت القوات الاستعمارية تحالف رحل إيداويعيش بأدرار، وقتلت أميرها.

-خلال سنة 1909 أرسل الشيخ ماء العينين ابنه أحمد الهيبة إلى فاس / حوار عبد الحفيظ. وفي أواخر يونيو من نفس السنة وصل إلى فاس ابن آخر له من تافيلالت يرافقه 10 أتباع. وفي هذه السنة غادر الشيخ السمارة، وسيحاول الشيخ نفسه الالتحاق بسلطانه (فبراير 1910) بدعمه وبرضاه، إلا أن رتلين من الجنود الفرنسيين

---

(1) انظر البلاغ الذي قرأه الجينرال ويليام بونتي على أهل أدرار عند احتلال عطار في:
Nation et nationalisme، (م. س.)، ص: 240.
(2) انظر في بحثنا هذا نص "العدو الثاني كان بلاد الصحراء".

أوقفوا زحفه بنقطة سيدي صالح على الضفة اليسرى لأم الربيع، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين انتصر فيها أتباع الشيخ. وتقدم لنا رسالة ابنه الشيخ محمد الإمام إلى علال الفاسي (دون تاريخ) ظروف وأسباب انتقال الشيخ إلى فاس، ومحاصرته بتادلا، وحرج موقف السلطان وإجراءاته(1).

-في مارس 1910 وفاق مغربي فرنسي يبين بنده 10 كيف جعلت فرنسا من حركة الشيخ ماء العينين مسألة كبرى: «... يجب على المخزن الشريف، أن يمنع عن مثيري الفتن / هؤلاء المحرضين (الشيخ وكل أعداء فرنسا بالصحراء) التوصل بأي تشجيع أو دعم مالي أو أسلحة وعتاد...»(2).

كما رفض الفرنسيون عرضين مغربيين لتسوية مشكل الصحراء + تسطير حدود أراضي أدرار، تقوم به لجنة مغربية ولجنة فرنسية + بناء مراكز عسكرية على طول منطقة الحدود بها حاميات عسكرية تحت إمرة مندوب مغربي يسهر على تطبيق الأوفاق بالمنطقة.

-بعد عودته إلى تيزنيت وافته المنية رحمه الله يوم 28 أكتوبر 1910 / 1328هـ عن سن يناهز 82 سنة.

لا يجب أن ننسى الدور الذي لعبه هذا الشيخ المسن من إيداويعيش السيد بكار بن سويد أحمد في المقاومة، مساندا الشيخ ماء العينين وأبناءه، وقد قارب المئة سنة. واعتبره الأوروبيون وريث المحاربين المرابطين، واعترفوا له بقوة الشخصية وبقيمته العسكرية كقائد حرب، وبنباهته السياسية، وذكائه الخارق... لدرجة أنه أثر على تطورات المنطقة الشرقية، وهو من واجه مخططات كوبولاني، ومن تعاون مع زاوية السمارة لتوحيد إيداويعيش وأبكاك والشراطيط. كان موته رحمه الله فجر 1 أبريل 1905 خسارة فادحة للمقاتلين في تكانت، وبعده انضم ابنه عثمان وأتباعه لقوات مولاي إدريس (ممثل السلطان) وحسنة بن الشيخ ماء العينين.

---

(1) انظر: كتاب "الجأش الربيط..."، م. س.

(2) Nation et nationalisme... م. س. الهامش: 155، ص: 212.

يعترف الفرنسيون أن حروبهم في الصحراء انتهت بمأساة، فإذا كان كـورو قد تمكن من احتلال مواقع أدرار وتأسيس مراكز بشنكـيط وعطـار، فقـد كـان علـى فرنسا، يدعمها الموالون لها، أن تواجه من أطلقت عليهم "قراصنـة الرمـال والصحـراء" الذين تجلدهم جيوشها في كل كمين وفي كل غزوة. إنـهم محـاربو الركـيبات: أولاد الدليم، أولاد بوسبع، تكنا... وغيرهم. يـأتون مـن الشـمال، مـن وادي الذهـب، مـن زمور، من الأطلس... لاختطاف القطعـان، لمواجهـة المـهاريين وانـتزاع مـا هـو ثمـين: الأسلحة والذخيرة، إنها الحروب الدائمة[1].

(1) م. س. ....Désert fertile

العمران عند الشيخ ماء العينين

د. ماء العينين الجيه
طبيب-بيوكرى

يعتبر موضوع المعمار عند الشيخ ماء العينين من المواضع التي لم تنل حقها من البحث والتنقيب و لم يعرها الباحثون ما تستحقه من دراسة وتحليل، كما أن المراجع في هذا الموضوع قليلة جدا إن لم نقل منعدمة؛ والمراجع القليلة التي اعتمدتها هي غربية واستعمارية (فرنسية وإسبانية) و لم أتوصل إلى أي مرجع عند آل الشيخ ماء العينين، أو في الخزانات الوطنية.

وسأحاول من خلال هذا العرض التركيز على المعمار بسمارة الشيخ ماء العينين، آملا أن يلقى هذا الموضوع مستقبلا إقبالا من لدن الأساتذة الباحثين وذوي الاختصاص في الهندسة المعمارية.

شيدت مدينة السمارة على تل يشرف على وادي سلوان بالساقية الحمراء(1)، بمنطقة معروفة بوفرة النباتات الغذائية والطبية الصالحة للإنسان والحيوان على حد سواء، وتشتق مدينة السمارة اسمها من السمار(2)، وهو نبات ينمو بكثرة بوادي سلوان، ويستعمل في صناعة الحصير، لدى قبائل المنطقة(3).

حوالي سنة 1316 هـ الموافق لـ 1898م حل الشيخ ماء العينين بكلتة زمور،

---

(1) -L'illustration du 04/04/1931, N° 4596, P. 415.

(2) -Les populations du Sahara occidental, Attilio Gaudio, Edition Karthala, 1993, Paris.

(3) -Hommes et choses de Smara, Dr. Mustapha Akhmisse, Editions Edino, Rabat.

وقد عزم على بناء مدينة تكون عاصمة للصحراء[1] وصلة وصل بين شمال المغرب وشنقيط، وقاعدة لصد الأعداء المستعمرين من إسبان وفرنسيين. وقد كان المشروع بالنسبة لأتباع الشيخ ضربا من الخيال خاصة وأن الصحراء كانت تفتقر لمواد البناء الضرورية.

اتصل الشيخ ماء العينين بالسلطان مولاي عبد العزيز وعرض عليه فكرته، التي رحب بها وتحمس لها، وأمر بإرسال جميع المواد اللازمة والبنائين المهرة إلى الشيخ. كما أن الصدر الأعظم "باحماد" والقائد حميدة قائد طرفاية كانا من مريدي الشيخ ماء العينين، فلم يتوانيا في تزويده بكل ما يحتاجه من مؤن ومواد وحرفيين. وهكذا مرت كل مراحل البناء في ظروف حسنة لتنتهي الأشغال سنة 1902م. وقد كان ارتحال الشيخ ماء العينين لمدينته الجديدة ابتداء من سنة 1321هـ (كما ورد في كتاب "الفواكه" للشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين)[2]، «وقد دامت مدة البناء والتشييد حوالي أربع سنوات ونصف»[3].

مع انطلاقة أشغال البناء أمر الشيخ ماء العينين بحفر عدة آبار وقنوات للري، ستحتاجها بساتين وحدائق المدينة المرتقبة. وقد أكد هذا العمل صحة النظرية الهيدروغرافية القائلة بإمكانية إنشاء واحة اصطناعية في منطقة صحراوية بواسطة المياه الجوفية[4].

وهكذا تم حفر حوالي 50 بئرا قابلة للاستغلال بوادي سلوان، وكذا غرس آلاف أشجار النخيل التي استقدمت من واحات الجنوب الشرقي المغربي وكذا من

---

(1) -Ma-Elaïnin Senor de Smara, Du Meneau Lafuente A., Edition Marroquis, Tetuan, 1954.

(2) "الفواكه في كل حين من أفواه شيخنا الشيخ ماء العينين"، الشيخ النعمة محمد الغيث بن الشيخ ماء العينين، مخطوط، الورقة: 25.

(3) - "A propos de Smara: El Cheikh Aâ-El-Aînin et Smara (1898-1909)", in: L'Afrique Française, Paris, Février, 1934, P.P. 95-97, Ba Mahmadou Ahmada.

(4) -Guerres et paix au Maroc (Report âges: 1950-1990), Attilio Gaudio, Edition Karthala, 1991.

واحات آدرار وشنقيط.

المواد المستعملة في البناء واليد العاملة

يمكن تصنيف المواد المستعملة في البناء إلى صنفين: صنف المواد المحلية كالحجارة والأتربة والمياه. وصنف المواد المستوردة من شمال المغرب التي كانت تُنقل بحرا من أكادير حتى مصب وادي الساقية الحمراء ثم تنقل في قوافل ضخمة من الدواب وخاصة الجمال من طرفاية إلى السمارة، ومن هذه المواد نذكر الأخشاب، الزليج، الرخام، الياجور والجير.

كما حملت هذه السفن القادمة من أكادير والصويرة عددا كبيرا من البنائين المهرة والمعماريون والفراشون والمزينون القادمون من فاس ومراكش وتطوان. وقد أدار أعمال البناء كل من الحاج علي الوجدي(1)، والمعلم الحسين الحرطاني الواعروني(2).

المعمار بالسمارة

-قصبة مكونة من 18 بناية شيدت على الطراز المغربي التقليدي ومحاطة بسور ذو ارتفاع متوسط.

-المنزل الخاص بالشيخ ماء العينين يتوسط هذه القصبة ويتكون من عدة قاعات لها سقف منقوش وفيها يستقبل الشيخ كبار زواره. كما توجد قاعة كبرى للمآدب، وبيت للخدم ومخزن للمواد ومطبخ؛ كما كان هناك درج داخلي منزوي يؤدي لمساكن الحريم وإلى الشرفات.

-القاعة الرسمية بها درج مرتفع لجلوس الشيخ.

-الجناح الخلفي للبناية مخصص لمخازن التوابل وسكن الخدم والعبيد. كما توجد به منازل لأربعة من أبناء الشيخ هم: الشيخ سيداتي، والشيخ أحمد الهيبة، والشيخ شبيهن والشيخ الولي.

-خارج القصبة توجد حظائر للجمال والنوق الحلوب والماعز كما بنيَّ سرداب

-Les populations du Sahara occidental, Attilio Gaudio, Edition Karthala, Op. Cit. (1)

-Ibid. (2)

تحت القصبة أعد ليكون سجنا.

كان للقصبة خمسة أبواب: منها أربعة كبيرة هي:

-باب الحْجَبْ بالناحية الجنوبية وهو على شكل مقوس وجد مرتفع لتمكين الجمال المحملة بالسلع أو الهوادج من المرور بسهولة.

-باب الشَّرْك بالناحية الشرقية.

-باب السَّاحْلْ بالناحية الغربية، وهما بابان مقوسان كذلك.

-أما الباب الشمالي للقصبة فقد خصص لدخول شيوخ القبائل وزعمائها القادمين على الشيخ.

-الباب الخامس وهو أصغر حجما عن الأبواب الأخرى ويتواجد بالجزء الشمالي الشرقي للقصبة، وقد خصص لمرور المصلين والتلاميذ نحو المسجد.

بني المسجد بشمال شرق المدينة، وكان الشيخ يأمل أن يجعل منه أكبر معلمة معمارية بالصحراء المغربية، وربما يكون هذا من الأسباب التي حالت دون إتمام بنائه[1]، ويتكون المسجد من صحن مركزي معتمدا على ثمانية من القباب المحمولة على أعمدة من الحجر المصقول، وعلى يمين المحراب ذي اللون الناصع يوجد درج يودي إلى صومعة قليلة الارتفاع نسبيا.

أما بقية البنايات المكونة للمدينة فقد شيدت على مساحات شاسعة، آخذة بعين الاعتبار الاستجابة لرغبة الشيخ في إنشاء مركز إشعاع اقتصادي وثقافي. وكبقية المدن التقليدية تم تشييد الأسواق، فهناك مثلا حي للتجار، وزقاق خاص ببائعي الطيب والبخور والأعشاب الطبية[2].

من الملاحظات التي تناولها تحليلٌ للسيد هنري تيراس Henri Terrasse المدير السابق لمعهد الدراسات العليا بالرباط[3]؛ هي قلة النوافذ بمعمار السمارة. وهذه النوافذ هي عبارة عن فتحات مستطيلة الشكل وضيقة وغالبا ما تكون مغطاة بسواكف أو

-Les populations du Sahara occidental, Attilio Gaudio, Edition Karthala, Op. Cit. (1)

-Hommes et choses de Smara, Dr. Mustapha Akhmisse, Op. Cit. (2)

-Ibid.(3)

لحاف. ومن الخاصيات الملفتة للنظر، وجود فتحات صغيرة للتهوية.

و لم ينس الشيخ أن أغلبية القبائل من الرحل لـذا حـرص علـى بنـاء خـزان كبـير لتخزين الحبوب. وصهريج ضخم لتخزين المياه. كما بنى محطة للراحة بالنسبة للقوافـل المارة من المدينة وللرحل الزائرين.

كما شيدت عدة قبائل أحياء خاصة للنزول بها عند الحاجة، وكانت -أي هذه القبائل- تساهم بصفة منتظمة في ملء مخزن الحبوب الجماعي وكذا الخزان المائي(1).

جميع البنايات بالسمارة شيدت بأحجار متوسطة الحجم ومتراصة بصفة منتظمة، ويفصل فيما بينها أحجار مسطحة أصغر حجما. كما أن غالبية جدران السمارة متصلة فيما بينها بملاط سميك. أما الطِّلاَءُ فقد اقتصر علـى القبب والأبواب. كما أن بناء "اللّوْحْ" المعروف كان أيضا حاضرا خاصة بالسور الخارجي للقصبة.

إلا أن التشكيل الخارجي للبنايات يبقى شنقيطيا من حيث البساطة في الشكل والعلو المحدود والفتحات القليلة.

ملاحظة أخيرة هي وجود مربعات من الإسمنت ببهو المسجد قد تكون إسبانية المصدر، وهذا دليل ربما على استيراد مواد بناء أوربية(2).

يستخلص مما تقدم أن معمار السمارة، يمكن اعتباره "قاسيا" كطبيعة المنطقة التي شيدت عليها وأن نمط المعمار بالجنوب الشرقي المغربـي وناحيـة سـوس تـرك بصمات واضحة على معمار مدينة الشيخ ماء العينين.

حريق السمار

ستعرف مدينة السمارة بعد وفاة الشيخ بتيزنيت يوم 1910/10/26، هجوما عنيفا من قبل القوات الاستعمارية الفرنسية بقيادة الكولونيل موري Mouret(3) وذلك

---

(1) Les populations du Sahara occidental, Attilio Gaudio, Edition Karthala, Op. Cit.

(2) Hommes et choses de Smara, Dr. Mustapha Akkmisse, Op. Cit.

(3) "La colonne Mouret à Smara, in: Monde et cultures", Tome XLIV-3, Paris,

يوم 1913/2/29، حيث عمد إلى حرقها ونهبها انتقاما من هزيمة قاسية كان قد تلقاها على يد المجاهدين الصحراويين قبل ذلك.

السمارة اليوم؟

لكن ماذا عن السمارة اليوم؟

في الثلاثينيات من القرن الماضي وبالضبط في يوم 1930/11/01 زار الفرنسي ميشال فيوشنج "Michel Vieuchanges" السمارة متخفيا وقضى بها بضع ساعات دوّن خلالها ما رآه من بقايا السمارة، وعاد إلى أكادير ليموت بعد إصابته بالتهاب معوي حاد أشهرا بعد ذلك. وقد جمع شقيقه مذكراته عن السمارة وعنونها بـ"Voir Smara et Mourir" أي "أرى السمارة وأموت" وتعتبر هذه المذكرات من أهم المراجع الحافلة بدقائق التفاصيل عن هذه المدينة وخاصة قصبة الشيخ ماء العينين.

بعد ذلك بحوالي نصف قرن يجزم الكاتب والصحفي الإيطالي المعروف "أتليو كوديو" "Attilio Gaudio"[(1)]، أنه لو كتب لميشال فيوشنج أن يرى مدينة السمارة اليوم لغير قولته ولقال "أرى السمارة وأعيش فيها" "Voir Smara et y vivre" وذلك نظرا للعمران الذي حققته الوحدة، وللمجهودات الجبارة التي بذلتها الدولة في كافة الميادين. لكن الانفجار العمراني والتقدم التنموي الذي عرفته هذه المدينة، كانت له آثار سلبية على حفظ ذاكرتها التاريخية، فأعداد كبيرة من المواطنين مدنيين وعسكريين، تمر أمام القصبة التاريخية للشيخ ماء العينين بنوع من التجاهل واللامبالاة[(2)]. هذا العالم المجاهد الذي أسس هذه المدينة باسم سلطان المغرب في أواخر القرن التاسع عشر. وجعل منها أعظم معلمة للإشعاع العلمي والروحي ومركزا للمقاومة ضد المستعمر الأجنبي.

ورغم أن الزاوية تعيش في صمت رهيب والمسجد لم يبق منه إلا الأطلال؛ فإن هذه الأماكن تعتبر اليوم أهم المآثر التاريخية والسياحية بالصحراء المغربية.

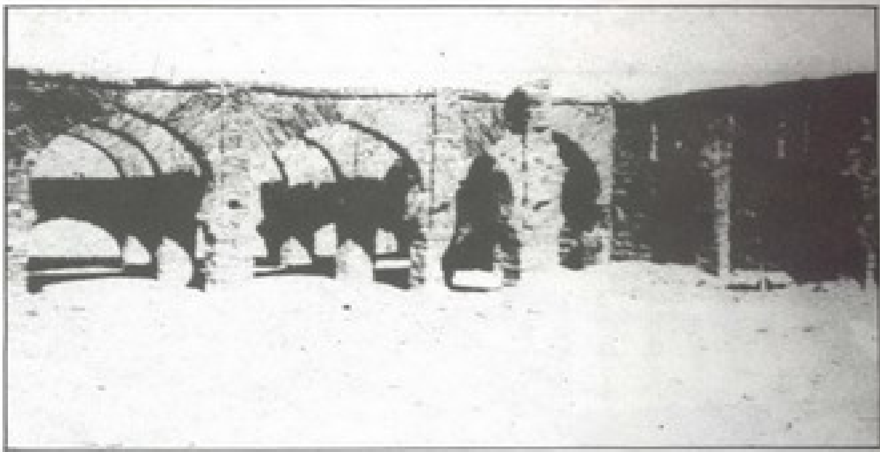
1984, Arbau Mon J.

-Les populations du Sahara occidental, Attilio Gaudio, Edition Karthala, Op. Cit. (1)

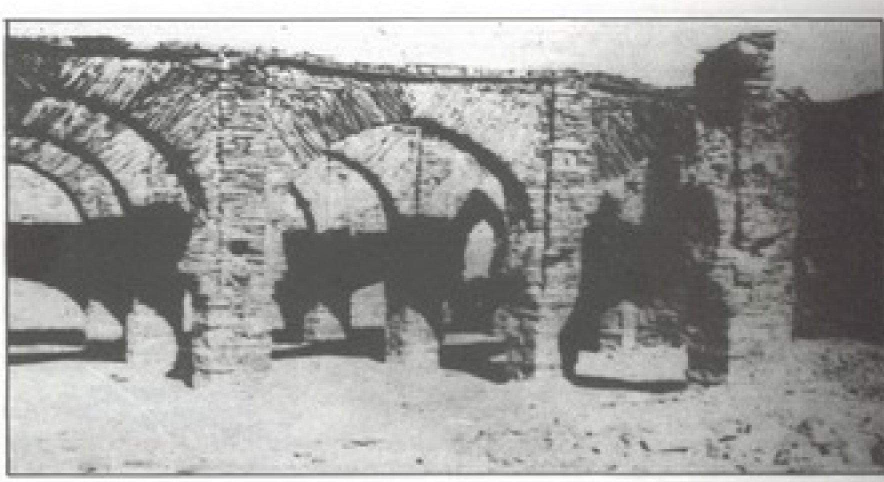
-Ibid.(2)

وإذا كانت الحملة الانتقامية للكولونيل موري Mouret، قد أدت الإشعاع الروحي والاقتصادي والعلمي للمدينة فإن عودتها للوطن الا سيمكنها من التقدم والازدهار والإشعاع من جديد.

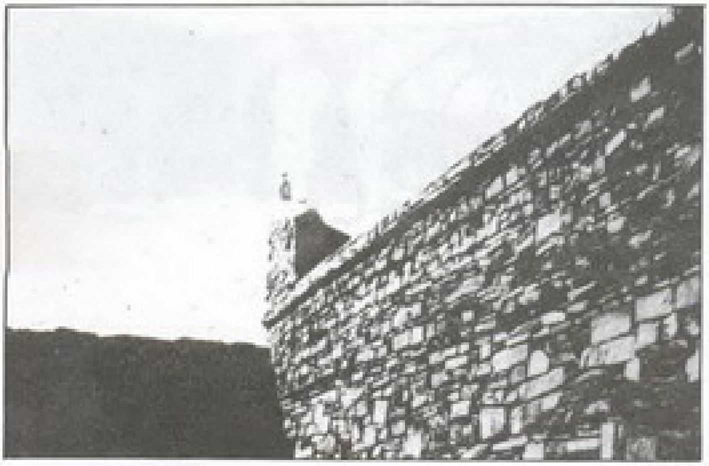
الصورة رقم 1: هذه الصورة تمثل بقايا مسجد السمارة. ونلاحظ اتساع هذه المعلمة وكذا هندستها المعمارية على النمط المغربي الأندلسي.



الصورة رقم 2: وهي نفس الصورة الأولى لكنها مكبرة، حيث نلاحظ كيفية تراص الحجارة وأحجامها، ومعظمها على شكل رقائق صخرية وقد جلبت من حجارة الوادي وصخور المنطقة. كما نلاحظ تناسق الأقواس داخل الصحن المركزي للمسجد وكذا تناسق الأعمدة ذات القاعدة المربعة.



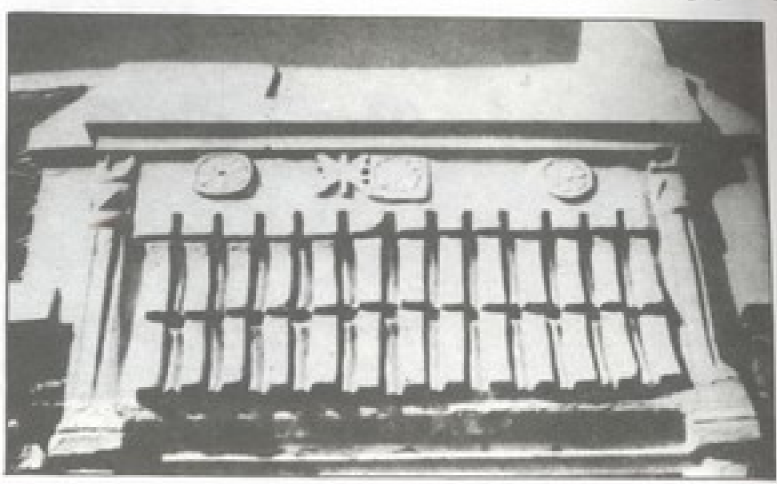
الصورة رقم 3: تمثل إحدى الزوايا الخلفية للقصبة، ونلاحظ نوعية الأحجار المستعملة وتراصها. كما نلاحظ هذه الزخرفة المثلثة الشكل التي تعلوها زخرفة كروية الشكل وصغيرة الحجم.



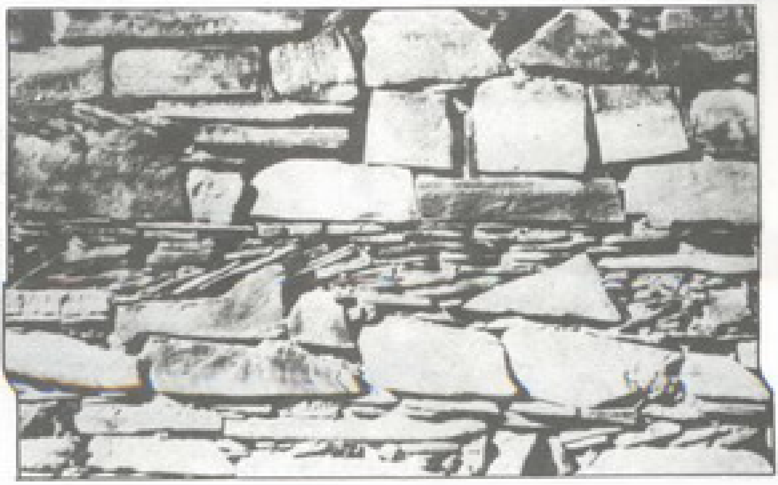
الصورة رقم 4: هذا أحد أبواب القصبة، وهو نموذج للأبواب المتواجدة بكل المدن المغربية العريقة، وأظن أن جمالية المنظر (الباب والسور) لا تحتاج إلى تعليق.



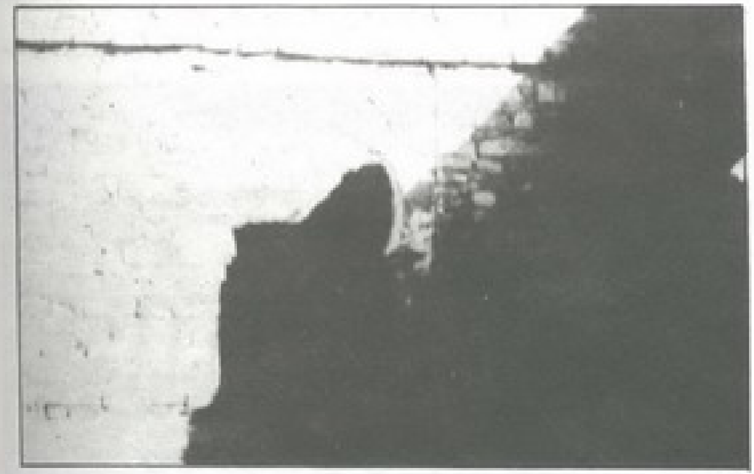
الصورة رقم 5: هذه صورة مكبرة للزخرفة المتواجدة فوق الباب الذي رأيناه في الصورة السابقة. وقد استعملت في بناء هذه الزخرفة مواد كالجبص والجير زيادة على المواد المحلية. ملاحظة أخرى هي أن التشكيل العام لهذه الزخرفة ليس دقيقا، لكنه يعتبر معمارا متميزا في هذه المنطقة خلال تلك الحقبة.



الصورة رقم 6: هذه صورة مكبرة لتموضع الأحجار التي تم بها بناء مدينة السمارة. فنلاحظ أحجارا كبيرة الحجم ذات أشكال هندسية مختلفة: مربعة، مستطيلة، مثلثة لكنها متناسقة؛ وبينها نجد أحجارا أصغر حجما، والكل مرتبط بملاط ترابي.



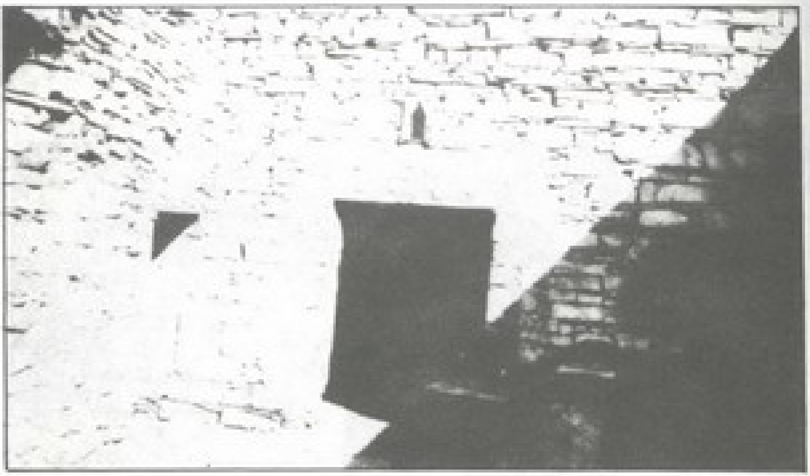
الصورة رقم 7: هذا أحد الأبواب الداخلية للقصبة، ونلاحظ من خلاله بصمات المعيار المغربي الأندلسي.



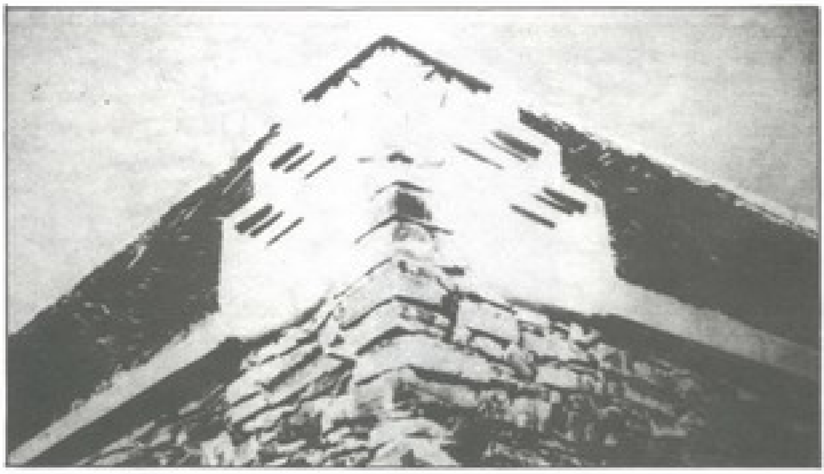
الصورة رقم 8: هذه صورة للباحة الداخلية للقصبة، ويمكننا ملاحظة الفتحات الصغيرة التي تقوم مقام النوافذ. وكذا ارتفاع البنايات.



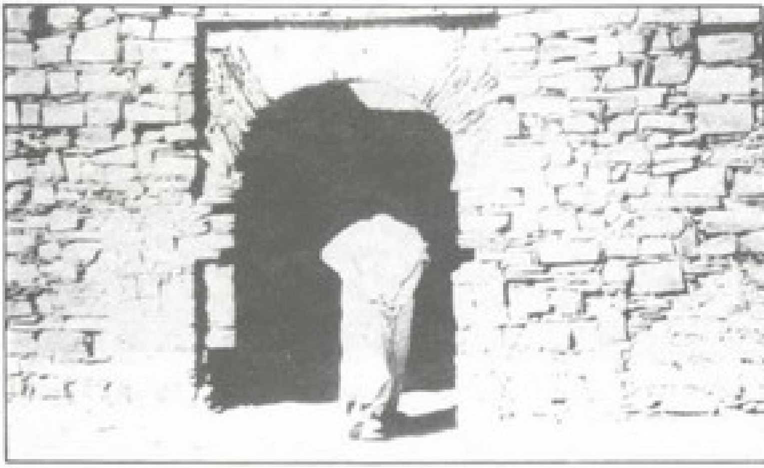
الصورة رقم 9: هذه صورة لإحدى الزوايا الداخلية للقصبة ونلاحظ هذه الفتحة الصغيرة فوق الباب، ذات الشكل المستطيل والإطار الخشبي التي تستعمل للتهوية.



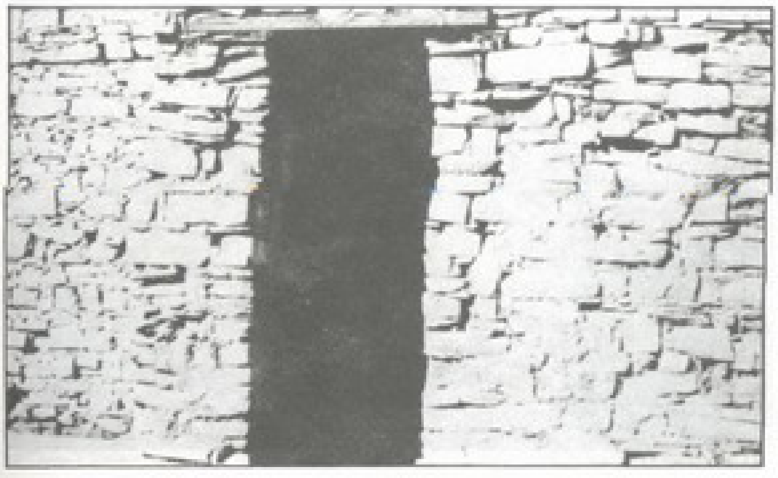
الصورة رقم 10: تمثل هذه الصورة نموذجا لخاصية المعمار بالقصبة حيث نلاحظ بالجزء العلوي تموضع الحجارة بطريقة متعمدة بفصل بين كل صف منها شريط من أحجار صغيرة متراصة في خط مستقيم. بينما الجزء السفلي من البناء مبني كما رأينا في صورة سابقة بأحجار أكبر حجما ومسطحة. كما أن زخرفة الجزء العلوي من هذا البناء اعتمدت الدقة في تناسق الخطوط وجماليتها.



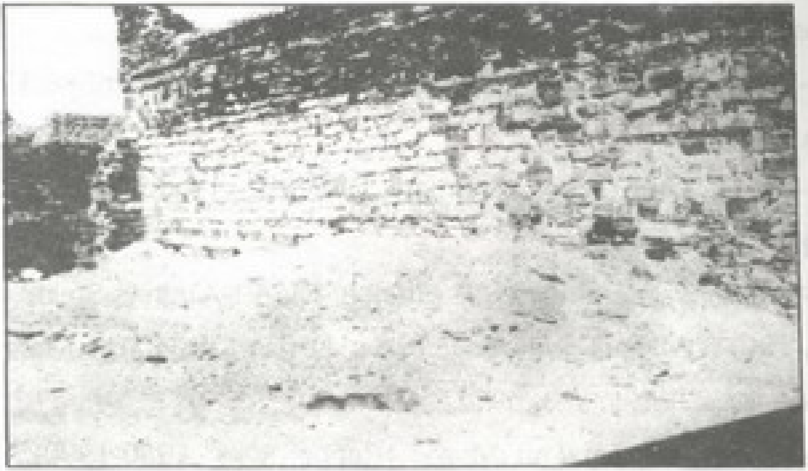
الصورة رقم 11: هذه الصورة لأحد الأبواب الداخلية، ويمكننا مقارنة هذا الباب المبني بالحجارة فقط دون استعمال الجبص أو الجير مع الأبواب التي شاهدنا في الصور الأولى. كما يمكننا ملاحظة ارتفاع هذا الباب مقارنة مع طول قامة الشخص المار منه. وربما يكون هذا الباب نموذجا للباب الذي يمر منه الشيخ وتلامذته من القصبة نحو المسجد.



الصورة رقم 12: من بين المواد المستعملة في بناء القصبة: الأخشاب، وفي هذه الصورة نرى بوضوح هذه العارضة الخشبية الأفقية، المنحورة بدقة التي استعملت كسقف لهذا المدخل.



الصورة رقم 13: هذه الصورة للجزء الخلفي من القصبة، ونرى أكواما من الأتربة والحجارة قد تكون من بقايا الدمار الذي تعرضت له هذه القصبة على يد الكولونيل الفرنسي موري "Mouret" سنة 1913 أثناء حملته الانتقامية على مدينة الشيخ ماء العينين.



المصادر والمراجع

-"كتاب الفواكه في كل حين من أفواه شيخنا الشيخ ماء العينين"، الشيخ النعمة محمد الغيث بن الشيخ ماء العينين، مخطوط.

-L'illustration du 04/04/1931, N° 4596.

-Les populations de Sahara occidental, Attilio Gaudio, Etudes Karthala, 1993, Paris.

-Hommes et choses de Smara, Dr. Mustapha Akhmisse, Editions Edino, Rabat.

-Ma El Aïnin senor de Smara, Du Meneau Lafuente A. , Edition Mrroquis, Tetuan, 1954.

-"A propos de Smara: El Cheikh Mâ-El-Aïnin et Smara (1898-1909), in: L'Afrique française, Paris, Février 1934, Ba Mahmadou Ahmada.

-Guerres et paix au Maroc (Report âges: 1950-1990), Attilio Gaudio, Edition Karthala, 1991.

-"La colonne Mouret à Smara", in: Monde et cultures, Tome XLIV, Paris, 1984.

-"Le raid de Michel Vieuchanges à Smara", Par: Louis Georges, Revue de la géographie marocaine, numéro Juillet 1931.

-L'exploration de Michel Vieuchanges de Tiznit à Smara, par: Le lieutenant colonel Maurice Bernard Bulletin du comité de l'Afrique françaises de 1931.

الزاوية والمدينة

قراءة في كتاب: "Hommes et choses de Smara"

للدكتور مصطفى أخميس

ذ. المهدي السعيدي
كلية الآداب-أكادير

مقدمة

تعتبر العناية بالتاريخ المغربي عامة والتاريخ الحديث في غاية الأهمية للحفاظ على الهوية، ولتمتين كيان الوطن ولإدراك موقعه من العالم ومن السياسة العالمية، فالمغرب منذ القديم كان دائما محل أطماع أجنبية تسعى إلى احتلاله وإخضاعه لنفوذها واستغلال ثرواته الطبيعية البرية والبحرية والبشرية واستغلال موقعه الاستراتيجي المتميز باعتباره مدخلا لأوربا وبوابة لإفريقيا، ولذلك كان هناك سعي دائب من أعدائه خاصة الأوربيين الصليبيين لإضعافه سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا لأنهم يدركون أن ضعفه قوة لهم ، ومقابل ذلك عمل المغاربة على مناوئة مخططات الأعداء بالحفاظ على الوحدة وتجنب التفرقة ، وقد استمرت هذه الحالة بين مد وجزر حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري حين عظم سلطان الفرنسيين والإسبان وعملوا على إخضاع المغرب بعد الإحاطة به من كل الجهات وعملوا على الخصوص على قطع صلاته الجنوبية بفصله عن السودان المغربي ثم اقتطاع أجزاء منه جزءا فجزءا حتى يسهل احتواءه.

في هذا الوقت الحرج لمع اسم الشيخ ماء العينين الذي عمل على منع الفرنسيين من مد نفوذهم إلى بلاد الحوض وشنقيط ثم منطقتي وادي الذهب والساقية الحمراء ، واستطاع بما كان له من نفوذ وبما توسل به من تنظيم إداري

ومعرفة حربية أن يوقف الزحف الفرنسي في مرحلة معينة ، بل أن يهزم جيوشه التي انسحبت إلى قواعدها الخلفية في السنغال ، غير أن الأزمات التي مر بها المغرب في تلك الفترة انتهت بوقوعه تحت الاستعمار الفرنسي والإسباني ، ولا شك أن هذا ليس سوى جانب واحد من شخصية الشيخ ماء العينين فهو عالم مدرس متعدد الاهتمامات متصوف وزعيم وخليفة السلطان. وهو كذلك صاحب فكرة مدينة وسط الصحراء مدينة "السمارة "

وتبعا لتعدد جوانب حياته واهتمامه اهتمت دراسات كثيرة بالإحاطة بهذه الجوانب أو بعضها خاصة عند الأجانب الذين أثار فضولهم عمل الشيخ الصحراوي في مدينته ، والقوة التي تصدى بها للفرنسيين،غير أن كتاباتهم عنه اتسمت بالتحامل وبالأحكام الجاهزة التي نجدها عند كل المهتمين منهم بتاريخ وحضارة المغرب ، ولا غرابة في ذلك ما دامت تلك الدراسات كانت كلها تمشي في ركاب المستعمر تشد أزره ، كما اهتم المغاربة بشخصيته انطلاقا مما كان له من صيت عظيم عند جميع الأوساط ، غير أن تلك الدراسات ما زالت كلها قاصرة عن الإحاطة بجوانب حياته خاصة دوره في مقاومة التدخل الفرنسي بالمغرب ، ودور مدينة السمارة في تلك المرحلة وأهميتها الاستراتيجية وسط الصحراء ، وأعمال الشيخ ماء العينين فيها ، ورؤيته التي استند عليها في توحيد القبائل الصحراوية بل اقتراح مبدأ المواخاة لتوحيد المجتمع المغربي في الجانب الطرقي [1] مثلا ، وفي ربط الصحراء بالسلطة المركزية ، وفي تنظيم الحملات الجهادية ...

ومن جملة الكتب التي اهتمت بشخصية الشيخ ماء العينين وعلى الخصوص بمدينة السمارة كتاب"أناس وأشياء السمارة" "Hommes et choses de semara" لمؤلفه الدكتور مصطفى أحميس .

(1) راجع حول ذلك كتاب الشيخ ماء العينين مفيد الراوي على أني مخاوي ، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه 1999 ، ودراسة الأستاذ أحمد أبو القاسم عنه ضمن أعمال هذه الندوة .

1 – الكتاب ومؤلفه

صدر كتاب "أناس وأشياء السمارة" " Hommes et choses de smara" لمؤلفه الطبيب الدكتور مصطفى أخميس سنة 1987 عن منشورات إيدينو بالرباط في حجم مستطيل مقياس 17x21، وفي 135 صفحة تضمنت 29 رسما وصورة تجسد معمار السمارة وسكانها وملابسهم وحليهم ومناظر صحراوية وبحرية .

والمؤلف كاتب بالفرنسية مهتم بدراسة وسائل التطبيب والاستشفاء بالمغرب، صدرت له إلى جانب كتابه عن السمارة المؤلفات التالية :

"الأولياء في حوض": درعة Les Marabouts de la Vallée de Draa

"طب بلا أطباء": Médecine sans médecines

"طقوس وأسرار أولياء الدار البيضاء":Rites et secrets des Marabouts de Casablanca

"الطب والسحر والشعوذة بالمغرب": Médecine Magie et Sorcellerie au Maroc

وكتاب السمارة عبارة عن حصيلة ملاحظات المؤلف إبان زيارته وجولاته في الصحراء المغربية خاصة بالسمارة ، فيشير في المقدمة إلى أنه كان من الأطباء الأوائل الذين عملوا بالمنطقة بعد استرجاعها عقب المسيرة الخضراء . كما أنه داوم على زيارتها حريصا على جمع المعلومات والأخبار المتعلقة بالمدينة مستغلا بالخصوص صداقته لكثير ممن عاشوا بها ،وقد دفعه إلى الاهتمام بها اطلاعه على ملاحظات المستكشف الرومانسي الفرنسي ميشال فيوشانج Michel Vieuchange الذي قطع الصحراء في العقد الرابع من القرن العشرين ،للوصول إلى تلك المدينة ووصفها والتقاط صور شمسية لمعالمها ووضع تصميم أولي لها ، وأخذ عينات من مواد بنائها،[1] وقد دفع الاطلاع على ملاحظات الرحالة الفرنسي الدكتور أخميس إلى الرغبة في زيارة المدينة ، قال في مقدمة كتابه :"منذ أن اطلعت على تلك الملاحظات ، لم أزل أحلم بهذه المدينة الغامضة راجيا الله أن يمكنني من تأملها

---

(1) ورد في الكتاب أنه اصطحب معه عينة من الإسمنت الذي بنيت به مدينة السمارة ، راجع ص: 12.

بدوري يوما ما ."[1]

قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وخمسة فصول وتذييل تناولت الموضوعات التالية :

مقدمة.

الفصل الأول: ماء العينين مؤسس السمارة .

الفصل الثاني: بيئة ومعمار السمارة .

الفصل الثالث: الحياة بالسمارة .

الفصل الرابع: ملحمة ماء العينين .

الفصل الخامس: حريق السمارة .

ملحق: أهل ماء العينين يواصلون النضال .

2 – موضوع الكتاب

يعتبر كتاب الدكتور أحميس دراسة منوغرافية لمدينة السمارة ، باعتبار المنوغرافية دراسة عميقة لحالة أو ظاهرة معينة من جميع جوانبها بناءا على علاقة معاينة واستنادا إلى معارف وعلوم متنوعة ، وهدف هذه الدراسة وصف الظاهرة وصفا دقيقا يجعلها محددة رغم ما تتصف به من تعقيد وتنوع في الواقع[2].

وقد طبق الدكتور أحميس آليات الدراسة المنوغرافية على موضوعه الذي ينقسم كما يبدو من العنوان إلى ثلاثة محاور : مدينة السمارة أناسها أشياؤها. وتتبع هذه المحاور انطلاقا من الفصول التي أشرنا إليها فيما سبق ، و تتضمن ترتيبا زمنيا للظاهرة من خلال الفصل الأول ثم الرابع فالخامس والملحق ، ويقطع المؤلف هذا التوالي الزمني بدراسة سكونية (الظاهرة خارج الزمن) للبيئة وللحياة بالسمارة في الفصل الثاني والثالث .

وكما أشرنا في ما سبق فقد وقع المؤلف في إغراء هذه المدينة منذ اطلاعه

---

(1) ص: 7.

Robert Pages - Méthodes des Cas in Encyclopaedia UNIVERSALIS 1998, 5 / 37 (2)

على ما كتبه حولها المستكشف الفرنسي فيوشانج ، وهذا ما جعله ينشر ملاحظات الرحالة الفرنسي في مقدمة كتابه ، التي تضمنت وصفا مختصرا لموقع السمارة بقصبتيها وبمسجدها ومنازلها ولبيئتها الصحراوية القاحلة إلا من أشجار النخيل على وادي سلوان ، ويتميز وصف فيوشانج بالدقة والضبط والعناية بالجوانب الجمالية ، حتى أنه يذكرنا وهو يتحدث عن المدينة بالرسامين الرومانسيين الغربيين الذين وفدوا على الشرق حالمين ومنبهرين بما فيه من جمالية الضوء والألوان [1]، قال متحدثا عن المدينة وآثار مرور القوافل بها :" إلى هناك تصل قوافلهم ، وجدت بعض الأدوات وخرقا من الملابس ، هناك في المساء في أطلالك يشعلون النيران ويعدون ولائمهم ، يطبخون قطعا من لحوم الجمال والماعز التي أرى في كل مكان عظامها وقرونها وأضلافها متناثرة على الأرض . ولكن بقدر الأمسيات التي تنير فيها النيران أسوارك ، وبقدر الأيام التي تستريح الجمال والأمتعة والرحال على ثراك،كم تظلين خالية يا مدينة القفر ، ولايبقى لأسوارك غير الشمس." [2]

أ – الفصل الأول : ماء العينين مؤسس السمارة

تعرض المؤلف في هذا الفصل للحديث بطريقة قصصية عن ميلاد الشيخ ماء العينين ، إبان إحدى تنقلات والده الشيخ محمد فاضل بن مامين على رأس قبيلته منتجعين الكلأ في منطقة الحوض يوم الثلاثاء 27 شعبان 1246 / 10 فبراير1831 ، ويقف المؤلف عند أسرته فيبين أصلها ومآخذ والده ثم يتتبع حياة الشيخ منذ صغره مشيرا إلى تميزه عن أقرانه بكونه تعلم الكلام بسرعة وحفظ القرآن كاملا وعمره سبع سنوات وأنه عندما بلغ الثامنة عشر كان قد أتم تحصيله العلمي خاصة في الفقه والحديث وغيرها من المعارف التي كانت رائجة في بيئته . وإلى جانب التكوين العلمي تلقى الشيخ من والده تربية حربية تجلت في تعلم طرق استعمال السلاح ، والتعرف على المسالك الصحراوية ، هكذا نشأ الشيخ جامعا بين إتقان العلوم

- CHRISTINE PELTRE Orientalisme (histoire de l'art) in UNIVERSALIS v 17. (1)

P. 19. (2)

الشرعية والأدبية وغيرها والتي بلغت مؤلفاته فيها 500 عنوان [1] ،ومعرفة بحال العيش وأحواله العامة والخاصة التي أهلته للزعامة الصوفية بالصحراء . فقد صار الشيخ يجول الصحراء ناشرا الطريقة الفاضلية التي تلقنها من والده داعيا إلى توحد الطرق والتآخي بينها ، كما يشير المؤلف إلى أهمية الرحلة الحجازية التي قام بها الشيخ والتي رافق فيها الأمير المولى محمد بن عبد الرحمان ولي العهد إذ ذاك من ناحيتين :

الأولى: اتصاله بالسلطة المركزية وحظوته لديها .

الثانية: اطلاع الشيخ على أحوال العالم الإسلامي والمطامع الأوربية، واكتمال رؤيته التوحيدية المبنية على المؤاخاة بين الطرق الصوفية لمحاربة المستعمر الأجنبي .

وعندما عاد الشيخ من رحلته الحجازية استقر بتندوف ورأى ما تعيشه الصحراء من فرقة واضطراب فكان أن سعي لجمع أمرها برحيله إلى مراكش وحصوله على منصب خليفة السلطان بالمنطقة ، فرجع واستقر بمسكنه بدار حمزة حيث استقر بعدما بنى منزله مخالفا بذلك عادات الصحراويين في التنقل .

في هذه المرحلة اكتملت في ذهن الشيخ فكرة الاستقرار ، وبعد تفكير عميق قرر بناء مدينة يسكنها هو وأتباعه الكثيرون تكون عاصمة الصحراء،ومنطلقا للحملات الجهادية في مواجهة المستعمرين . ولاشك أن الشيخ كان يرى في صعوبات العيش التي يعانيها الصحراويون والتي تضطرهم للانتقال الدائم بحثا عن الماء والكلأ عائقا عن التطور من الناحية الاقتصادية ، كما أنه استشعر خطورة وجود منطقة خالية لا عمران فيها بين شمال المغرب وجنوبه الممتد إذ ذاك حتى نهر السنغال ، مما سيكون في صالح المستعمرين الذين يعملون على عزل جنوب المغرب عن شماله ، فكان سعي الشيخ لبناء مدينته عملا على تقوية الصلات بين أجزاء

---

(1) عدد الدكتور مصطفى أحميس خمسا وثمانين مؤلفا من كتب الشيخ ماء العينين ، راجع ص:35 -39 .

المغرب في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه . ولا شك أن الشيخ اختار موقع السمارة بدقة حيث بناها على وادي سلوان في واحة قام باستخراج مياهها موازاة مع ابتداء أشغال البناء ، ثم اختار موقعا غير قريب من الشاطئ لكي لا يكون عرضة لغارات الأعداء ولا بعيدا منعزلا في الصحراء مثل تندوف، لذلك أسست المدينة في موقع وسط بين الشواطئ الأطلسية والصحراء المترامية ،مما يمكن من التوصل بالإمدادات عن طريق البحر وفي الوقت ذاته الاحتماء بالصحراء عند هجوم الأعداء.

ولما كانت الصحراء لا توفر موادا لبناء مدينة بأكملها فقد رحل الشيخ ماء العينين إلى مراكش عارضا مشروعه الطموح على السلطان الذي وافق عليه وقرر إرسال البنائين ومواد البناء على ظهر السفن من الصويرة وأكادير لتفرغ حمولتها في طرفاية ومن هناك تنقلها الجمال إلى موقع البناء وبذلك استطاع الشيخ ماء العينين تجاوز العوائق المادية لإنشاء مدينة السمارة ، كما أنه تمكن من تجاوز العراقيل القبلية.

وقد استغرقت أشغال البناء خمس سنوات.[1] ومن خلال ما ورد في هذا الفصل من أخبار ومعلومات نستنتج مسألة هامة تتمثل في الرؤية الحضارية للشيخ ماء العينين التي تجلت في إدراك أهمية الاستقرار في دعم الوحدة الوطنية ومواجهة المستعمرين، وفي تنمية المنطقة الصحراوية،كما تجلت كذلك في احترامه للحرفيين الذين هم عماد الحضارة حيث كان يعتبر مهاراتهم عطاء ربانيا، يخدمون به دينهم.

ب - الفصل الثاني : بيئة ومعمار السمارة

اعتنى المؤلف في هذا الفصل بوصف مدينة السمارة من خلال بيئتها الطبيعية ومعمارها الهندسي :

- بيئة السمارة : في هذا الجانب برزت المعرفة العلمية للمؤلف بالنبات والحيوان والأمراض ، فتعرض باختصار شديد لأنواع النبات المنتشر بالمنطقة محددا النباتات الطبية مشيرا إلى أن المدينة أخذت اسمها من نبات السَمَرْ الذي ينمو على

---

(1) ص:53 .

طول وادي سلوان وكان الصحراويون يصنعون منه الحصير .

- المعمـــــــار : أفـاض الكـاتب في الحديـث عـن طـرق البنـاء والأسـاليب الهندسية لمدينة السمارة ، فذكر أنها بنيت على الطراز المغربي المعروف فهناك قصبة حصينة تحيط بها البنايات من منازل وحظائر.. وللقصبة خمسة أبواب، وتضـم عـدة بنايات منها منزل الشيخ الذي يقـع في الوسـط تحيـط بـه منـازل أبنائـه ، وخـارج القصبة بنيت مآوي البهائم. وفي الشمال الشرقي بني المسجد ومنازل القواد وكبـار التلاميذ ، وحول القصبة أقيمت منازل أبنـاء القبـائل والأتبـاع الذيـن بلـغ عددهـم عشرة آلاف. إضافة إلى ذلك كانت المدينة تتوفر على سجن كبـير أسـفل القصبـة، ومخزن جماعي "حصن" وخزانات للمياه .

وقد أورد المؤلـف وصـف البـاحث الفرنسـي هـنري تـيراس لمعمـار السـمارة انطلاقا من الصور التي التقطها فيوشانج تتضمن وصفا للمعمار والبحث عن أصوله التي يعزوها إلى مؤثرات إسبانية مغربية ويقصد بـالطبع بالإسـبانية الأندلسـية ، وإذا كان لنا من تعليق على هذا الوصف فهو أنه بقدر ما كان دقيقا في الوصف وتحليـل مواد البناء وإبراز السمات العامة للبنايات فإنه كان متحاملا في تقديـر المؤثـرات في أنماط المعمار محـاولا الفصـل بـين السـمات المعماريـة المغربيـة الأندلسـية والسوسية والصحراوية التي يسميها موريطانية والحق أن هذه المؤثرات قد تآلفت وانسجمت في بناء السمارة التي عمل الحرفيون البناؤون فيها على حسن استغلال المجال والمـواد للوفاء بحاجة السكان .

ج – الفصل الثالث :الحياة بالسمارة

اختـص هـذا الفصـل بدراسـة مظـاهر الحيـاة المختلفـة بالمدينـة سـواء كـانت احتماعية أو ثقافية أو اقتصادية.

* الحياة الاجتماعية : بدأ الدكتور أحميس حديثه بعادات سكان السمارة في العقيقة والإعذار ثم تحدث عن الألعاب التي يمارسها الأطفال وعدّد أنواعـها ، كمـا أشار إلى الحفلات الفنية التي كانت تقام بالمدينة في الليـالي بمناسـبة الأفـراح خاصة

الزواج أو عند عودة القوافل واصفا الآلات الموسيقية المستعملة ، كما تحدث عن عادات الزواج وتفاصيلها المتعلقة بالصداق والولائم والاحتفال .[1] و لم تفته الإشارة إلى الحلي وأدوات الزينة والألبسة والأطعمة .[2]

* المجالات الاقتصادية : نمت في مدينة السمارة على هامش النشاط الاقتصادي الأساسي الذي هو رعي المواشي بعض الحرف أشار منها المؤلف إلى صناعة الجلود التي تختص بها النساء ،أما الحلي والأسلحة من خناجر وسيوف فقد مهر فيها السود [3] كما أشار إلى أن الشيخ ماء العينين شجع بعض السكان على العناية بزراعة الخضر وتأبير النخل.

* المجال العلمي والثقافي : تحدث المؤلف عن الحركة العلمية بالسمارة فأشار إلى أن الشيخ ماء العينين كان يقضي غالب وقته مع تلامذته يلقنهم العلوم المختلفة وينبههم على الخصوص إلى خطر التدخل الاستعماري بالمغرب . وأشار إلى أن الأطفال كانوا يوجهون منذ صغرهم كما هي العادة في المغرب منذ القديم إلى حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم ، بعد أن تلقنهم أمهاتهم الحروف الأبجدية والكتابة والحساب .[4] .كما كان إلى جانب تلك المعرفة العلمية والأدبية معرفة أخرى بالمجال يجب على الطفل الصحراوي أن يتعلمها تلك هي معرفة البيئة الصحراوية ومواقع المياه والطرق والاتجاهات والتدرب على الاعتماد على النفس أي المهارة في قراءة المجال الطبيعي للحفاظ على الحياة .[5]

وخلاصة القول إن المؤلف حاول في هذا الفصل الإحاطة بكل جوانب الحياة في مدينة الصحراء حتى في أبسط تفاصيلها ، ليبرز تنوع اهتمام السكان وسمات العيش في البيئة الصحراوية القاسية .

---

(1) ص:93-94 .
(2) ص:84 -90 .
(3) ص: 82 .
(4) ص: 78.
(5) ص: 81 .

د - الفصل الرابع : ملحمة ماء العينين

استعرض المؤلف في هذا الفصل عمل الشيخ ماء العينين في الجهاد، واستشعاره خطر التدخل الأجنبي الذي كان كوبولاني يمهد له في الجنوب ، ويمكن إجمال أعمال الشيخ في التصدي للتدخل الفرنسي في ما يلي :

1 - إخضاع المناطق الصحراوية من الساقية الحمراء حتى الحوض والترارزة للسلطة المركزية حيث رحل الشيخ إلى مراكش ليحصل من السلطان على ظهير ولايته خليفة على جميع المناطق الصحراوية، وبظهائر لرؤساء القبائل يتولون بموجبها تصريف شؤون قبائلهم ، وبهذا التفويض المخزني أمكن للشيخ إدارة الأمور المحلية، كما حرص على تجسيد الارتباط بالعرش المغربي باستقبال بعثة سلطانية بالسمارة وجمع أعشار وزكاة الصحراويين وتسليمها للنائب السلطاني[1].

2 - العمل على توحيد القبائل الصحراوية وفض ما بينها من خلافات ونزاعات ، في إطار السعي إلى مؤاخاة أبناء الملة الإسلامية للتصدي للتدخل الأجنبي المسيحي.

3-تعيين رؤساء للمجاهدين، وقد قام الشيخ بتعيين ابنه حسنّة لتزعم المقاتلين بآدرار وتكانت.

4-القيام بدور الاتصال بين السلطان بفاس والقبائل الصحراوية المجاهدة، ونقل مطالبها في التزود بالسلاح والأعوان ، وقد سافر الشيخ إلى فاس ليعبر للسلطان المولى عبد العزيز عن رغبات الصحراويين وحاجتهم الملحة للسلاح والمساعدة الحربية ، فاستجاب السلطان لطلبه فزوده بالسلاح والمال ووعده بإرسال سفينة مشحونة بالسلاح كل ستة أشهر ، وقد أثارت هذه الزيارة انتباه المراقبين الأوربيين الذين كانوا يراقبون عن كثب تحركات الشيخ ،ومن هؤلاء القنصل الإسباني مانويل أليندي سالازار ، الذي وصف دخول الشيخ إلى فاس بقوله:"وصل اليوم المرابط المشهور ماء العينين االزعيم الديني لمنطقة الصحراء ، جاء

---

(1) ص: 101-102 ، 107.

محاطا هذه السنة بكثير من الأبهة وبحاشية كبيرة ، لقد انتشر التعصب الديني اليوم ضد المسيحيين في كل القبائل جنوب الإيالة الشريفة ،والسلطان يحمي هذه الحركة، فليس غريبا أن يجد فيه ماء العينين المساعدة المطلوبة ، إن دخول ماء العينين لفاس قد اتسم بحفاوة كبيرة لأنه استقبل استقبالا رسميا وحضر كل أعضاء الحكومة للسلام عليه." (1) وقد اخبر القنصل الإسباني وزير خارجيته بتطورات الزيارة وبالمساعدات التي قدمها السلطان للشيخ لافتا انتباهه إلى ضرورة مراقبة الشواطئ المغربية الجنوبية حتى لا تكون مجالا لتهريب السلاح للمجاهدين . (2)

5 – تحميس الصحراويين لقتال الفرنسيين ووضع الخطط الحربية لذلك سواء بجماعات منظمة من المجاهدين أو بجماعات خفيفة أنجزت عمليات تسمى الآن بحرب العصابات وقد أثمرت هذه العمليات مقتل كوبولاني الذي نزل بالجنوب يوم 13 ماي 1905 كما هوجمت تجكجة وحوصرت عدة أيام وطرد الفرنسيون من أكجوجت ، وهزم وقتل عدد من الضباط الفرنسيين الكبار مثل القبطان روبو Repoux والقبطان منجان Mangin والقبطان بالو Bahlou والعقيد فيولي Violet وكان الشيخ يقوم بإدارة المعارك من مقره بالسمارة اعتمادا على جماعة منظمة من المخبرين "الرقاصين" كما تولى قيادة المعارك أبناؤه خاصة حسّنة والطالب أخيار .

لقد استطاع الشيخ ماء العينين من خلال تحركاته ومبادراته ومن خلال الحركة الجهادية المنظمة التي قامت بها القبائل الصحراوية طرد الفرنسيين من الصحراء من الساقية الحمراء حتى آدرار والترارزة وصارت السمارة رمز النصر على المسيحيين ، غير أن التطورات السياسية والعسكرية بالمغرب والجزائر جعلت المنطقة معزولة بسيطرة الفرنسيين على آدرار بالجنوب وزحف الجيش الاستعماري من الصحراء الشرقية وأخيرا بتدخل الفرنسيين بالشاوية .

---

(1) ص: 105 .

(2) ص:106 .

هـ - الفصل الخامس : حريق السمارة

تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أسباب توقف الحركة الجهادية بالصحراء وجعل لذلك أسبابا هي:

استعانة الجيش الفرنسي بالخونة ذكر منهم المؤلف رجلا يسمى بو المكداد كان مخبرا للجنرال كورو ينقل إليه أخبار المجاهدين وتنقلاتهم ، وكان ذلك سببا في ضربات موجعة للحركة الجهادية وفي فتك الفرنسيين بالصحراويين وبأطفالهم ونسائهم كذلك .

السلاح المتطور الذي استعان به المحتلون خاصة من الأسلحة الرشاشة والمدفعية المتطورة.

انقطاع المدد من السلطة المركزية بفعل ضغوط الفرنسيين على السلطان.

وقد استشعر الشيخ ماء العينين خطورة الوضع فأرسل ولده أحمد الهيبة إلى فاس لإطلاع السلطان على الحالة في الصحراء والتشاور معه حول الإجراءات الواجب اتخاذها ، وقد عاد الشيخ أحمد الهيبة من فاس بدعوة السلطان والده للانتقال إلى تيزنيت خشية حصار الجيش الفرنسي له ولأتباعه في السمارة ، وقد كان ذلك قرارا موجعا وإنهاءً قسريا للحركة الجهادية وللمشروع التحرري الذي حمله الشيخ ماء العينين وحاول جهده إنجاحه غير أنه تقبل الأمر واعتبره مرحلة من مراحل الجهاد، فلم ينتقل إلى تيزنيت بل عزم على السير إلى فاس لإعانة السلطان وقتال الفرنسيين في الشمال. وقد انتهى هذا الزحف العظيم الذي كان يضم 16 ألف جمل و800 خيمة بمعركة تادلة التي دامت شهرين واستمات فيها الصحراويون ومن التحق بهم بقيادة الشيخ أحمد الهيبة في القتال ، وانتهت بانسحاب الشيخ إلى تيزنيت حيث توفي عن اثنين وثمانين سنة وثلاث وخمسين يوما في 21شوال26/1328 أكتوبر 1910 وقد تزامنت وفاة الشيخ مع معركة بوازارات التي انهزم فيها الفرنسيون شر هزيمة ، فقرروا الزحف على السمارة للقضاء على آخر المجاهدين . وصلت الحملة الفرنسية إلى المدينة يوم 29 فبراير 1913 بقيادة

العقيد موري Mouret الذي وجدها خالية فلم يتمكن من الفتك بأي أحد من سكانها وقرر إحراقها، وفي هذا العمل يتجلى مقدار حنق الفرنسيين على الشيخ وحقدهم عليه وعلى أتباعه الذين أصلوهم بنيران الحرب ، قال الدكتور أحميس: "غضب موري غضبا شديدا وقرر إحراق السمارة ، غير أن ألسنة اللهب لم تستطع التهام المسجد الذي مازال ماثلا بأقواسه وسواريه ولا القبة الدائرية التي كان الشيخ يعتزل فيها للذكر والتأمل ، ولا المقابر التي مازالت أسماء كثير من المجاهدين منقوشة على شواهد قبورها ." [1]

و – التذييل : آل ماء العينين يواصلون النضال

انتهت حياة الشيخ ماء العينين وانتهى معها جهاده ، غير أن أبناءه تابعوا خطته ووسعوا دائرة الجهاد ليشمل الجنوب المغربي كله من سوس وحتى ولاتة ، ولذلك ذيل المؤلف كتابه بفصل تحدث فيه باختصار عن استمرار الجهاد بزعامة الشيخ أحمد الهيبة ثم أخيه الشيخ مربيه ربه وتطور الحركة الجهادية منذ وفاة الشيخ ماء العينين حتى السيطرة الفرنسية النهائية على المغرب سنة 1934 مرورا بثورة الباعمرانيين واجتماع أم الشكاك بالساقية الحمراء بزعامة الشيخ محمد الأغظف سنة 1956 الذي انتخب فيه وفد التحق بالرباط لتقديم البيعة والولاء لرمز الاستقلال والتحرر المغفور له السلطان محمد الخامس .[2]

3–منهج الكتاب

يعتبر كتاب الدكتور أحميس عن السمارة دراسة منوغرافية هدفها الإحاطة بكل ما يتعلق بالمدينة، من ثم انقسم المؤلف إلى ستة أقسام مقدمة وأربع فصول تناول كل واحد منها موضوعا محددا ثم تذييل .

وقد أشرنا من قبل إلى اختلاف فصول الكتاب من حيث المادة والمنهج حسب الفصول والمادة:

---

(1) ص:121.

(2) ص:134–135 .

- ففي الفصل الأول والرابع والخامس اتبع الكاتب منهجا تاريخيا بدراسة الأحداث حسب تواليها الزمني فنشأة الشيخ ماء العينين ونبوغه وأعماله العلمية سابقة عن أعماله الجهادية وهذه سابقة عن هجرته إلى تيزنيت ووفاته بها ، وكان همّ المؤلف إبراز تطور الحدث واستخلاص نتائجه التي تبنى عليه الأحداث التالية وقد استند على المعاينة الشخصية وعلى مجموعة من الوثائق والروايات الشفوية والمصادر التاريخية الغربية المتمثلة في دراسات الفرنسيين على الخصوص ، والتي سجلنا بصددها مجموعة من الانتقادات نعرض لها فيما بعد .

- في الفصل الثاني والثالث اعتمد المؤلف المنهج الوصفي التحليلي لأنه كان بصدد دراسة موضوعات غير مرتبطة بالزمن ارتباطا عضويا فكان من الممكن عزلها ودراستها باعتبارها ظواهر ساكنة، كدراسة بيئة السمارة وحدودها وصيرورة الحياة فيها ، اعتمد المؤلف على تكوينه العلمي في دراسة أنواع الحيوان والنبات و تعدد الأمراض المنتشرة بالمنطقة وأساليب علاجها ، غير أن وصفه للنبات والحيوان كان قاصرا فاكتفى بإشارات بسيطة لا تبرز تنوع مظاهر الحياة الطبيعية بالمنطقة[1] كما لم يوفق في دراسة الدور الاقتصادي الذي نهضت به السمارة خاصة في الميدان التجاري ، ولم يحدد بدقة الحرف والصناعات التي كانت سائدة بالمدينة وأهمية نشاطها في الوفاء بحاجيات الصحراويين ، إذ اكتفى بحديث مقتضب عن صناعة الحلي والأسلحة ، والصناعة الجلدية التي كانت تنهض بها المرأة الصحراوية، أما النشاط الثقافي فلم يبرز عنده إلا في الدراسة التي كانت متصلة في الكتاتيب وفي إشارة إلى المجالس العلمية للشيخ ماء العينين وإلى انتشار النساخة والتجليد بالمدينة[2]، فليست هناك أدنى إشارة إلى الخزانة الضخمة للشيخ ولا إلى خزائن أبنائه الحافلة، كما لم يشر إلى شغف الصحراويين بالشعر والإبداع فيه وعقدهم المجالس الكثيرة لإنشاده ونقده ، إلا ما كان من إشارة بسيطة إلى مكانة المرأة في

---

(1) إذ ذكر الفئران البرية التي تقتات على التمور دون الإشارة إلى الهوام والحيوانات الكثيرة الأخرى التي تعيش بالمنطقة كالحيات والعقارب والسحالي .. راجع ص:57

(2) ص:67 .

السمارة وحرصها على حفظ وإنشاد الأشعار .

ويمكن القول بصفة عامة أن الكتاب لم يقدم صورة عن التحول الذي تعرض له المجال والإنسان في الصحراء بتأسيس مدينة السمارة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وإنما اكتفى بدراسة الظاهرة في سكونها لا نحولها ،ومن ثم يبقى السؤال مطروحا:ما هو أثر بناء مدينة السمارة في هذه المجالات ؟

إضافة إلى ذلك لم تخضع مادة هاذين الفصلين لأي ضبط منهجي ، وإنما ترك المؤلف العنان لقلمه ليصف العادات الاجتماعية والأحوال الاقتصادية والثقافية دون ترتيب المباحث و ضبطها بعنوان ونتج عن ذلك تكرار بعض المعلومات كذكر سبب تسمية المدينة وأن ذلك راجع إلى انتشار نبات السمر بالمنطقة مرتين في الصفحتين 52و57 . وتشتت معلومات أخرى كان حقها أن تجمع في مبحث واحد فقد بدأ المؤلف الفصل الثالث الخاص بالحياة في السمارة بالعادات الاجتماعية حول العقيقة ثم أتبعه بالألعاب والفنون والاحتفالات ثم التربية والعلوم فالأطعمة والألبسة والحلي ليعود مرة أخرى إلى دراسة العادات بحديثه عن الزواج وأشكال الاحتفال به.[1] ولاشك أن الانسياق مع المنهج التاريخي هو الذي أوقع الكاتب في هذا الخلط .

4-ملاحظات حول منهج الكتاب

إن قارئ كتاب أناس وأشياء السمارة ودارسه لابد أن يسجل جملة من ملحوظات تتعلق بمنهج الكتابة والمصادر المعتمدة في الدراسة ،وطرق التعامل مع الدراسات الأجنبية حول الظاهرة ،وسبل استغلال وسائل الإيضاح من صور ورسوم ، ويمكن إجمالها في النقط التالية :

أ – **مصادر الكتاب** :اعتمد الدكتور أحميس في إنجاز كتابه على مصادر متنوعة أشار إليها في مواضع متفرقة من فصوله ، غير أن الميزة الأساسية للكتاب

(1) ص: 71 وراجع ص:93-94 .

هي ضعف توثيقه كما يظهر من تحليل هذه المصادر ،وهي :

– المعاينة الشخصية ، أشار المؤلف في مقدمة كتابه إلى زيارته للمدينة أكثر من مرة دون أن يشير إلى زمن هذه الزيارات إلا ما كان مما كتب في على صفحة الغلاف الأخير من أنه كان من أوائل من جالوا في الصحراء بعد عودتها إلى الوطن.

– الرواية الشفوية :وقد أشار إليها في مواضع متفرقة كقوله في الديباجة التي افتتح بها كتابه لشكر الذين ساهموا في إخراجه :" إن هذا العمل أنجز بفضل مساعدة رواة متعددين من السمارة فضلوا عدم ذكر أسمائهم " [1]. ثم عند حديثه عن الألعاب بالسمارة قال:" وصف لي الرواة الألعاب الأكثر انتشارا " [2] ومعلوم أن عدم ضبط الرواية الشفوية بضوابط علمية تجعلها معتمدة في البحث والتأليف مثل زمن الرواية وسن الراوي واسمه ونسبه ومكان الرواية يضعف مصداقيتها ، ويجعلها أقرب إلى التخمين ، فهذه الضوابط تمكن الباحثين من التأكد من مدى مصداقيتها ومن التعرف على الرواة وتجريحهم أو تعديلهم ، ولم يظهر لنا سبب امتناع الرواة عن الكشف عن هويتهم باعتبار الموضوع تاريخيا ليس له ارتباط بأي حساسية معينة سياسية كانت أو احتماعية .

– مصادر غير مصرح بها : اعتمد الكاتب على مصادر أخرى أمدته .بمعلومات متنوعة مثل تلك المتعلقة بنشأة الشيخ ماء العينين ودراسته ورحلاته في الصحراء والحواضر المغربية ورحلته الحجازية ومن لقيه بالبقاع المقدسة ثم تفاصيل أعماله الجهادية وأعمال أبنائه والغالب أن المؤلف اعتمد على مصادر مترجمة للشيخ، يظهر ذلك في قوله في الفصل الأول مفسرا معنى لقب الشيخ:".. يجمع بعض كتّاب المناقب على كون والده وهو في أوج فرحه يخاطبه قائلا:أملي فيك أن تكون العين التي ستروي إيمان أتباعي " [3] .

– المصادر الأجنبية : اعتمد عليها المؤلف بشكل كبير ،فنقل منها نصوصا

---

(1) ص:4 .

(2) ص: 73 .

(3) ص:29 .

تاريخية ووثائق دبلوماسية وتعاليق على معمار السمارة وبيئتها ومنها : ملاحظات الرحالة فيوشانج التي نشر نصها في المقدمة ، ثم تحليل هنري تيراس Henri Terrasse لمعمار السمارة وتعليقه على الصور التي التقطها الرحالة فيوشانج ، ثم أوديت دو بوي كوضو Odette de Puy Gaudeau في كتابها " الماضي المغربي لموريطانيا " "Le passé maghrébin de la Mauritanie" وبول مارتي . ولم يعمل الكاتب على توثيق مصادره الأجنبية وإنما اكتفى بالإشارة تارة إلى أسمائها وتارة إلى أسماء كتابها أو الاثنين معا وربما أهمل كل ذلك [1]. كما لم يصف مصادره هل هي مخطوطة أم مطبوعة والمقصود هنا ملاحظات الرحالة فيوشانج فليس هناك تعريف بهذا الرجل ولا حديث عن سبب اهتمامه بمدينة السمارة ورحيله إليها وتاريخ الرحلة [2] .

ولإبراز مقدار تأثر الدكتور أحميس بالكتابات الغربية عن المغرب نجده حتى في العنوان الذي اختاره لكتابه يحتذي كتاب إميل لاوست Mots et Choses berbères .

إضافة إلى كل ما سبق نشير إلى أن المؤلف اعتمد على المصادر الأجنبية خاصة الفرنسية وأورد مقتطفات منها دون أن يناقشها ، ودون أن يفصل فيها بين الدراسة العلمية الرصينة والأيديولوجيا الاستعمارية التي تتسم بالتحامل ، يظهر ذلك في وصف هنري تيراس لمعمار السمارة بناء على الصور التي التقطها فيوشانج حيث ركز على البحث عن أصول المعمار ،فهو تارة مغربي إسباني واستعمال الإسباني هنا بمعنى الأندلسي و تارة موريطاني وكأن هذه المنطقة ليس لها تراث معماري مذكور تمتزج فيه مؤثرات مختلفة ، وهو يصدر في حكمه هذا من نظرة تجزيئية تستهدف تمزيق أوصال المغرب وجعله حتى من الناحية الثقافية والفكرية

(1) كما في الصفحة :63-64 حيث أدرجت أرقام الهوامش في النص دون أن نجد إحالات موازية لها .

(2) طبعت ملاحظات الرحالة فيوشانج بعد وفاته في كتاب صدر بعنوان : VOIR SMARA ET MOURIR

أجزاء متنافرة متفرقة ، وهي الفكرة الـتي كـانت وراء اقتطـاع جـزء مـن الصحـراء المغربية وإنشاء دولة موريطانيا بها ، كما أنها كانت وراء إصدار الظـهير الـبربري، ويظهر موقف تيراس الذي ساقه الدكتور أحميس دون وعي بخلفيته الاسـتعمارية في الفقرات التالية من كلامه، حيث قال :

– متحدثا عن أسلوب البناء بالحجر :" إن مواد البناء منتشـرة الاستعمال في كل موريطانيا ، وتبعا لذلك فـإن آثـار السـمارة مـن هـذه الناحيـة لا تحتفـظ بـأي أصالة" (1)

– ثم تحدث تيراس عن تفاصيل البناء :" غير أن أشكال التفاصيل أكثر تعقيدا وتبرز مؤثرات خارجية ، ونعلم أن ماء العينين أحضر عمالا مـن جنـوب المغـرب ، ومن ثم فإننا نجد بالسمارة الأسلوب الإسباني المغربي المتدهور الذي تنقل بين المدن الكبرى والمساكن الغنية بجنوب المغرب "(2)

– وقال عن القبة الدائريـة " إن البنـاء الأكـثر إثـارة للفضـول بالسـمارة هـو بدون أدنى شك قبة دائرية ، وشـكلها هـذا غريـب عـن المعمـار الإسـباني المغربـي للجنوب المغربي ، غير أن المعمار البربري لسوس والأطلس الصغير يستخدم الـبرج الدائري ، فهل امتد مجال هذا الشكل إلى السمارة بشكل طبيعي ؟ أم أننـا يجـب أن نستشف منه شكلا آخر مستوردا من الجنوب المغربي؟

وخلاصة القول ليس هناك توثيق بالمعنى العلمي للكلمة سواء للرواية الشفوية أو المعاينة الشخصية أو المصادر الأجنبية ، كما أن أكبر ثغرة في هذا الكتاب كونـه أغفل الاستعانة بالمصادر العربية سواء كانت وثائق مخطوطـة موجـودة في الخزانـات العامة أو الخاصة أو كتب مطبوعة أو بحوث أكاديمية كتلك المنجـزة حـول التدخـل الاستعماري بـالمغرب وحـول شـخصية الشـيخ مـاء العينـين وجـهاده في الصحـراء

---

(1) راجع عن سمات المعمار بالجنوب المغربي خاصة جبال الأطلس الصغير :- ANDRE ADAM
LA MAISON ET LE VILLAGE. DANS QUELQUE TRIBUS DE L ANTIS ATLAS HESPERIS T37-38 . 1950

(2) أشياء ورجال السمارة ،ص:64.

وجهاد أبنائه من بعده .[1]

ب – وسائل الإيضاح: استعان الدكتور أحميس ببعض وسائل الإيضاح في كتابه فنشر بمجموعة من الصور بلغ عددها تسعا وعشرين صورة ورسما عزز بها كتابه،جسدت بيئة السمارة ومعمارها من خلال بعض البنايات كالمسجد والقصبة والأبواب والجدران ،غير أن استغلال هذه الصور كان ضعيفا فلم يشر إلى مصدرها، هل هي تلك الصور التي التقطها فيوشانج ؟ أم أنها صور التقطها المؤلف نفسه خلال زياراته للمدينة ؟ أم هما معا ؟ كما أنه لم يضع لها أرقاما تدل عليها ولا تعاليق تبرز مضامينها ، فأضحت قاصرة عن الوفاء بالمتطلب منها وهو تزويد القارئ بمناظر واقعية عن المدينة تمكنه من تكوين صورة عن الموضوع المدروس .

كما أن المؤلف تحدث في الصفحة الثالثة والعشرين بعد المائة عن شجرة نسب الشيخ ماء العينين قائلا:" لقد كان من حظي أن تسلمت من يد لويس كرانجون Louis grangeon الكاتب بإقليم تيزنيت نسخة من عمل القبطان دوباس Dupas الذي كان رئيس مكتب أراضي الحدود المغربية الجزائرية بتيزنيت، يتعلق الأمر بمؤلف على هيئة جداول للأنساب مقياسه 50 سم/ 75سم أنجز سنة 1939 ولما كانت هذه الوثيقة نادرة...حرصت على إدراجها في ملحق آخر هذا الكتاب حتى ينتفع بها الباحثون " [2] فهل الدكتور احميس هو صاحب هذا الكلام أم أنه منقول من كتاب آخر لم تتم الإشارة إليه ،ثم إننا لا نجد أثرا لهذا الملحق في الكتاب الذي بين أيدينا ، فهل الكتاب ناقص أم أن الملحق قد أغفل فلم يدرج بالكتاب أصلا ؟

ج – استعمال المصطلحات والأسماء :اختار الدكتور احميس تأليف كتابه

---

(1) من أمثلة هذه الكتب ترجمة العلامة محمد المختار السوسي للشيخ ماء العينين وبعض أبنائه ممن لهم صلة بالإلغيين بالجزء الرابع من المعسول ، ولمزيد من التوسع يراجع عرض الأستاذة زهرة المعتصم بعنوان :" المصادر العربية عن شخصية الشيخ ماء العينين "ضمن أعمال هذه الندوة .

(2) ص:123 .

عن السمارة باللغة الفرنسية، وقد أدى هذا الاختيار إلى وقوعه في هفوات تجلت في استعمال مصطلحات ذات حمولة مسيحية غربية للتعبير عن معان إسلامية و لم يوفق بالطبع في ذلك ، كما وردت في كتابه كثير من أسماء الأعلام والمناطق محرفة عن أصولها يظهر ذلك في المصطلحات التالية :

- Croisade Musulmane أن نترجمه بالحروب الصليبية، ومن المعلوم أن المؤلف أراد أن يتحدث عن الجهاد فخانه المصطلح الفرنسي [1].

- La guerre sainte الحرب المقدسة وهو مصطلح مسيحي غربي أيضا له حمولته الخاصة المخالفة لمبدأ الجهاد في الإسلام وهذا أمر أفاض فيه الباحثون ونبهوا عليه .[2]

- Croisade لحرب الصليبية استعملها المؤلف في سياق حديثه عن تصدر الشيخ أحمد الهيبة للجهاد بعد وفاة والده .[3]

- Pacifier التهدئة [4] وهو مصطلح استعماري لوصف زحف الجيوش الفرنسية والإسبانية على الأراضي المحتلة وفتكها بالمناهضين لتدخلها ، والقصد منه الإيحاء بأن المجاهدين والمقاومين إنما هم جماعة من الفوضويين الذين تعمل السلطة الشرعية على إيقافهم وتهدئة الأوضاع المتفجرة التي أثاروها .وكان على المؤلف استعمال المصطلح الدقيق المعبر وهو الاحتلال .

هذا بالنسبة للمصطلحات ، أما الأسماء فقد ورد بعضها في الكتاب مغلوطا، يبرز ذلك في الجدول التالي:

(1) ص: 25 .
(2) ص: 34.
(3) ص: 127.
(4) ص: 113.

الاسم الذي ورد في الكتاب		الصواب		الصفحة
أنكلو	Anglou	أكلو	Aglou	811
أسريف	Asserif	أسرسيف	Assersif	231
حيدة اومونيس	Haida ou Mounis	حيدة أو ميس	Hadia ou Mouis	231
أيت وادرين	Aït Ouadrin	أيت وادريم	Aït Ouadrim	231
صبوي	Sboui	إيصبويا	Issbouia	331
سينعام	Sinaam	النعمة	Anaama	331

غير أن كل ما أشرنا إليه لا يحط من قدر الكتاب ولا يقلل من جهد مؤلفه الدكتور مصطفى الحميس في جمع المعلومات والأخبار المتعلقة بمدينة السمارة سواء في التاريخ أو المجال والثقافة ودراستها باعتبارها وحدة منسجمة أنتجتها تطورات سياسية وفكرية معينة في مرحلة من أكثر مراحل التاريخ المغربي تعقيدا ، وإنما القصد في هذه الدراسة الإشارة إلى ما اعتور عمله من نقائص كان بالإمكان تجاوزها لتكون هذه الدراسة نموذجية في إحاطتها بموضوعها وفي اعتمادها تكامل المعارف والمناهج لإبراز جوانب منسية من التاريخ المغربي الحديث كما أن القصد الإشارة إلى أن الصحراء لم تنل بعد ما تستحق في ميدان الدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية بصفة عامة ، لذلك لزم التفكير في إنجاز دراسات مماثلة لعمل الدكتور أحميس تحيط بجوانب المدن والمداشر والتجمعات السكنية بالصحراء وتسجل تاريخها وعاداتها وفكرها وثقافتها التي تعتبر تجليا لتنوع الفكر المغربي الغني بعمقه واستمراره المتجاوز لكل أشكال التمييز والتجزيء منذ الفتح الإسلامي وحتى عصرنا الراهن .

لائحة المراجع والمصادر

1-الشيخ ماء العينين، مفيد الراوي على أني مخاوي، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه 1999، تحقيق: الدكتور محمد الظريف.

2-محمد المختار السوسي، المعسول الجزء الرابع مطبعة النجاح - الدار البيضاء 1960

1-MUSTAPHA AKHMISSE: Hommes et choses de Smara. EDINO – Rabat 1987 .

2-ROBERT PAGES: Méthodes des Cas in Encyclopaedia UNIVERSALIS 1998 , 5 / 37

3-CHRISTINE PELTRE: Orientalisme (Histoire de l'art) in UNIVERSALIS, V. 17.

4-ANDRE ADAM: La maison et le village, dans quelque tribus de l'anti-Atlas, HESPERIS, T. 37-38. 1950

قراءة في كتاب: "هداية من حارا في أمر النصارى" للشيخ ماء العينين

ذ. ماء العينين النعمة علي
ذ. أحمد بومزكو
باحثان – تيزنيت

مقدمة

لقد لفت انتباهنا كون أغلب البحوث المنجزة عن الجنوب المغربي تغاضت عن ذكر الإفادات التاريخية المتضمنة في كتاب "هداية من حارا في أمر النصارى"[1] للشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، خاصة ما يتعلق بحيثيات الاستقرار الإسباني بالداخلة وأشكال التعامل المحلي مع الأجانب، وموقف الشيخ ماء العينين والقبائل الصحراوية من ذلك.

للإشارة فإن هذا الكتاب وباقي كتب الشيخ بصفة عامة تعبر عن صدى

(1) توجد نسخ مخطوطة من هذا الكتاب في الخزانات الآتية:
-نسخة بخط المؤلف في خزانة الأستاذ ماء العينين محمد فاضل بن الشيخ حسنة بن الشيخ مربيه ربه بالعيون.
-نسخة بخط الشيخ أحمد بن الشمس في خزانة المرحوم ماء العينين علي بن الشيخ مربيه ربه بتيزنيت.
-نسخة في الخزانة العامة تحت رقم: 1477، قسم الوثائق-الرباط.
ونشير إلى أن هذا المخطوط حققه موخرا الأستاذ ماء العينين مربيه ربه، وصدر عن مطبعة دار المعارف الجديدة بالرباط سنة 1999، وقد اعتمدنا عليه في الإحالات والهوامش، لكن دراستنا أنجزت قبل صدور الكتاب.

انشغالاته وتحركاته وتطلعاتـه، وقـد تم الالتفـات إلى مجموعـة منـها[1]، غـير أن الكتـب التاريخية لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه. ومن اللافت للنظر في مواقفه أنه لم يرفع راية الجهاد ضد الأجانب فحسب، وإنما واكب مساره الجهادي بإسـهامات فكريـة ودينيـة وأدبية.

من هنا تأتي أهمية التعريـف بـأحد إنتاجاتـه الفقهيـة الـذي جـاء حـافلا بفوائـد تاريخية مفيدة نكاد لا نعـثر علـى أحداثـها إلا في المصـادر الإسـبانية. وسـوف يلتمـس القارئ بين ثنايا القضايا الفقهية والشرعية جملة من المواقف الجريئـة الـتي أبداهـا الشـيخ تجاه حادثة الداخلة سنة 1885 وملابسـاتها، لأنـه اقتنـع بضـرورة تـأليف كتـاب علـى شكل جواب للرد على بطلان ادعاءات زعيم منطقة آدرار أحمد ولد عايدة.

إن بسـاطة السـؤال تخفـي صعوبـة في الموضـوع المعـالج، حيـث تتبـاين المواقـف وتتشعب الآراء، لذلك قمنا بقراءة هذا الكتاب، وحاولنا ربط مضامينه بظرفية الجنوب المغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشـر، وركزنـا علـى القضايـا التاريخيـة الـتي وردت بين ثنايا الحجج الشرعية الـتي طرحـها الشـيخ. ونشـير إلى أن الإشـكال الـذي اعترضنا في هذه القراءة هو إشـكال منـهجي بالأسـاس يتعلـق بطريقـة عـزل المعطيـات التاريخية واستخراجها من النسيج الشرعي (الفتوى المساقة فيه) لمناقشتها.

---

(1) من كتب الشيخ ماء العينين التي حققت مؤخرا:

-"مزيلة النكد عمن لا يحب الحسد"، تحقيق الدكتور محمد الظريف ، الطبعة الأولى، 1998، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

-"تبيين الغموض في نعت العـروض"، تحقيـق: الأسـتاذ محمـد عنـاق، الطبعـة الأولى، 1999، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

-"دليل الرفاق علـى شمـس الاتفـاق"، تحقيـق: البلعمشـي أحمـد يكـن دكنـا، الطبعـة الأولى، 1982، مطابع فضالة، المحمدية.

-"مفيد الراوي على أني مخاوي"، تحقيق: الدكتـور محمـد الظريـف ، الطبعـة الأولى، 1999، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

-"فاتق الرتق على راتق الفتق"، حققه: مصطفى الزوتان، وحصل به علـى دبلـوم الدراسـات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999.

الإطار التاريخي لمعركة الداخلة

كثيرة هي الدوافع التي كانت وراء اهتمام إسبانيا بالسواحل الجنوبية المغربية[1]، فإذا كانت حرب تطوان (1859) تعتبر بداية الاهتمام الإسباني الفعلي بهذه المناطق، فإن تردد الإسبان على سواحل المنطقة كان قديما (مداومة صيادي جزر كناري على الصيد بمحاذاة السواحل الجنوبية إضافة إلى أصداء الأسرى الإسبان في الوثائق المخزنية)[2].

وقد كان لموقع الداخلة الاستراتيجي جاذبية خاصة في سياق هذا الاهتمام لقربها من جزر كنارياس، وغنى سواحلها بالثروة السمكية، إضافة إلى كونها بوابة للمتاجرة مع إفريقيا[3]. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كثر الاتصال بين الأجانب والسواحل المغربية الجنوبية.

وإذا كانت هناك من خصوصيات ما تحرك المغامرين والشركات التجارية بهذه المناطق[4]، فإن المخزن قد نهج سياسة التماطل[5]، واعتمد على الشيخ ماء العينين ودار إيليغ لإفشال هذا الأمر[6].

وفي هذا السياق كشفت إسبانيا عن مسعاها للانفراد بالمنطقة، مستعملة كافة الأساليب؛ منها على سبيل المثال: تفعيل نشاط بعض الجمعيات تحت مطية الانشغالات

---

(1) انظر مقالنا: "ملامح من جهاد المخزن والقبائل الصحراوية ضد الاحتلال الأجنبي، نموذج: الشيخ ماء العينين"، شاركنا به في ندوة "سوس الصحراء من خلال الوثائق والمخطوطات" التي نظمت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط يومي 9 و10 دجنبر 1998.

(2) أحمد بومزكو: وادي نون من خلال وثائق دار إيليغ، ندوة وادي نون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1995، ص: 3.

(3) Andres, Coll. Villa Cisnerus, Arcipestre de Malaga, Libreria General de Victoriano Suarez, Madrid, 1933, P. 30.

(4) "وادي نون من خلال وثائق دار إيليغ"، مرجع سابق، ص: 4.

(5) جرمان عياش: "دراسات في تاريخ المغرب"، الدار البيضاء، 1986، ص: 314.

(6) ملامح من جهاد المخزن والقبائل الصحراوية، مرجع سابق.

العلمية[1]، وتكثيف الحملة السياسية من منابر مؤثرة في السياسة الخارجية الإسبانية (البرلمان-رئاسة الحكومة) [2]. وبغض النظر عما سلف ذكره عن ممهدات الاستيطان الإسباني، فإن المصادر التاريخية تجمع بأن بونيللي تحمس لهذا الأمر، وبادر إلى الاستقرار بمنطقة الداخلة، وذلك من خلال محاولات متكررة؛ أولها كانت في شهر فبراير من سنة 1884، إلا أنها باءت بالفشل بسبب رفض القبائل الصحراوية بقيادة الشيخ ماء العينين التعامل معه[3]. أما المحاولة الثانية فكانت في 3 نوفمبر من السنة نفسها، وخلالها لم يقف بونيللي عند بناء أكواخه الخشبية فحسب، بل حدد مسعاه لدى القبائل الصحراوية للحصول على موافقتها[4]. وفي ضوء هذه التحركات وجهت إسبانيا دورية إلى القوى الأوربية الاستعمارية الأخرى تعلن فيها أنها وضعت الساحل الغربي لإفريقيا تحت حمايتها[5].

ومن المعلوم أن سياسة بونيللي بالمنطقة تأرجحت بين استخدام الدسائس والاهتمام بعملية تركيز تواجده من خلال مشروعه في إقامة بنيان محصن لتقويض الأكواخ الخشبية. وقد كان ذلك حافزا للقبائل لتشديد الخناق على الحامية الإسبانية والهجوم عليها بتاريخ 9 مارس 1885[6]. من هنا يأتي جواب الشيخ ماء العينين لتبرير ما أقدمت عليه القبائل والرد على ادعاءات ولد عايدة. فما هي معالم الصورة التي رسمها عن تلك المرحلة؟

---

(1) نور الدين بلحداد: "التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية: 1860-1934"، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1994، ص: 92-108، نسخة مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(2) Tomas Garcia Figueras: ''España en El Sur de Marruecos'', in Revita Africa occidental, N° Junior Ceuta, 1934, P. 106.

(3) انظر مقالنا: "ملامح من جهاد المخزن والقبائل الصحراوية: نموذج الشيخ ماء العينين"، مرجع سابق.

(4) "التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية"، مرجع سابق، ص: 108.

(5) المرجع نفسه، ص: 115.

(6) الشيخ محمد الغيث النعمة: "الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية"، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم: 1376، ورقة: 35-36.

طبيعة الكتاب ودوافعه

الكتاب في أصله جواب على سؤال وَرَدَ على الشيخ مـاء العينـين حـول الحكـم الشرعي في المال الذي غنمته القبائل الصحراوية أثناء هجومها على الإسبان المستوطنين بالداخلة. يقول: «وبعد، فإني سئلتُ عن حكم مال قوم من النصارى ورقابهم خرجوا علي بعض بلاد المسلمين»[1]. ويبدو أن الحافز الرئيسي لهذا الجواب حسب توطئة الشيخ هو تفنيد ادعاءات أحمد ولد عايدة الذي لم يقتصر علـى أحقيته في المـال الـذي غنمته القبائل، بل «ادعى أن النصارى كتبـوا لـه كتابـا أنـهم علـى العـهد معـه. فصـار يطالب المسلمين بذلك المال والديات... ويقول إن هذا له شرعا»[2]. وقـد استغرب الشيخ لهذا الأمر، وتصدر للإفتاء حول حكم هـذا المـال ورقـاب أهلـه مـن النصـارى، وسعى من خلال جوابه إلى تعداد الأدلـة الشـرعية مـن القـرآن الكريـم والسـنة النبويـة وآراء العلماء والحقائق التاريخية؛ لدحض ادعاءات أحمد ولد عـايدة. يقـول: «وسـأبين لك ذلك بحول الله وقوته إن كنـت مـن أهـل القـرآن فبـالقرآن، أو مـن أهـل الحديـث فبالحديث، أو من أهل الفروع فبالفروع»[3].

أما القرآن فيشير إلى «أن الله تبارك وتعالى أول ما أمر به نبيه عليه السلام بتبليـغ الرسالة، ثم أذن له في قتال من قاتله، ثم أمره بقتال من يليه من الكفار سواء قـاتلوه أو لم يقاتلوه، ثم أمره بقتال المشركين كافة»[4]، ومن أمثلة ذلك قولـه تعـالى: : ﴿يـا أيـها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشـركين كافـة كمـا يقـاتلونكم كافـة﴾[6]، وقولـه تعـالى: ﴿قـاتلوا الذيـن لا يؤمنـون بـالله ولا بـاليوم الآخر﴾[7].

---

(1) "هداية من حارا في أمر النصارى"، ص: 60.
(2) المصدر نفسه، ص: 63.
(3) المصدر نفسه، ص: 66.
(4) المصدر نفسه، ص: 67.
(5) التوبة: 123.
(6) التوبة: 36.
(7) التوبة: 29.

وأما الحديث فهو أيضا أشهر من أن ينكر وأكثر من أن يحتاج أن يشهر، من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم»[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير بر أو فاجر»[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[3].

وأما الفروع فلا يعلم «أن أحدا من أهل الفروع قال بعدم وجوبه»[4]، ويستشهد على ذلك بأقوال بعض العلماء، كقول ابن رشد: «أجمع العلماء على أنه فرض على الكفاية لا فرض عين»[5]، وقول الشيخ محمد عبد الرحمن الدمشقي: «اتفق الأئمة على أن الجهاد فرض كفاية، فإذا قام به من فيه كفاية من المسلمين سقط الحرج عن الباقين»[6]، وقول خليل: «الجهاد في أهم جهة»[7]. ويشير إلى أنه «لا علم له بجهة في هذه البلاد آكد من الداخلة لكونها جامعة للجهاد وللرباط في الثغور، أي الفرج التي تكون بين المسلمين والكفار، ومعلوم أن سدها وحياطتها -أي حفظها- واجب»[8].

ونلمس من خلال تعامله مع حادثة الداخلة أنه وثق جوابه بما يكفي من الحجج، متبعا نهجا يجمع بين التصدي للمسألة وفق الأدلة الشرعية من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الأئمة والعلماء، وبين التدخل الفعلي بواسطة أتباعه لإفشال الاستيطان الإسباني بالداخلة، وغالبا ما يحيل في سياق الاستشهادات الشرعية إلى وقائع تاريخية آنية تتعلق بالحدث الجوهري لموضوع جوابه.

---

(1) مسند أحمد بن حنبل: 124/3.
(2) السنن الكبرى، للبيهقي: 121/3.
(3) سنن ابن ماجه: 2773.
(4) هداية من حارا، ص: 73.
(5) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص: 52.
(6) رحمة الأمة في اختلاف الأئمة، محمد عبد الرحمن الدمشقي، ص: 306.
(7) مختصر خليل، خليل بن إسحاق، ص: 74.
(8) هداية من حارا، ص: 74.

إن محاولة التعرف على الدوافع التي جعلت الشيخ يتصدى لهذه النازلة هي التي ستبين الأبعاد التي تتوارى خلف هذه الحادثة، مما جعل الجواب ينطوي على أبعاد مختلفة. ومما لاشك فيه أن أصل الكتاب ودوافع تأليفه هو رغبة الشيخ في الرد على ادعاءات أمير آدرار أحمد ولد عايدة الذي احتج بقوة على تصرفات القبائل المهاجمة لمركز بونيللي بالداخلة، واعتبر هذا الهجوم خرقا وتحديا لروح الاتفاق المبرم بينه وبين الإسبان، وطالب بديات هؤلاء والغنائم التي غنمتها القبائل. ويبدو أن الشيخ تضايق من تصرفاته، مما حذا به إلى مكاتبته يدعوه إلى الامتثال للقواعد الشرعية في التعامل مع الأجانب، وأن القبائل كانت على أحقية في إفشالها لمشروع الإسبان، ملتمسا ذلك من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية واجتهادات الأئمة، إيمانا منه بأهمية الأفكار والوازع الديني في تأطير القبائل.

إن الخاصية التي ميزت نشاط الشيخ ماء العينين وتحركاته على امتداد هذه الفترة هي مسعاه لإفشال جميع أشكال التعامل مع الأجانب الذي انخرطت فيه بعض القبائل الصحراوية، وتحديه لكل أشكال الصراع والتضاد بينها، واستشارته للمخزن في كثير من المواقف[1].

قراءة في جواب الشيخ ماء العينين

أ-السياق العام للنازلة كما جاء في توطئة الجواب

يستوقفنا الشيخ ماء العينين عند الأوضاع العامة للمنطقة، وهي تسمح برسم لوحة دقيقة لما كانت عليه، وقد حاول منذ البداية أن يضع جوابه في سياقه التاريخي، مركزا على حيثيات العلاقة بين القبائل الصحراوية والإسبان.

وبعيدا عن طرح هذا الحدث في إطاره التاريخي، فإن ما يهمنا بالأساس هو ما يصوغه الشيخ ويطرحه من تصورات حول العلاقة بين القبائل المسلمة والأجانب. ومن المفيد التمييز بهذا الخصوص بين شرطين أساسيين لأي تعامل مع الأجانب:

---

(1) انظر بحثنا: ملامح من جهاد المخزن والقبائل الصحراوية، نموذج الشيخ ماء العينين، ص: 9، مرجع سابق.

أ)إذا كان خروجهم بأمر من السلطان، فلابد من احترامه شريطة إخباره بأحوال المنطقة حتى يتخذ الإجراءات اللازمة.

ب)أما إذا كان خروجهم وفق اتفاقية أو عهد أو ميثاق لدفع ضررهم عن القبائل فبها ونعمت[1].

وفي حالة انتفاء هذين الشرطين يستوقفنا الشيخ أمام تراتبية متدرجة من الاختيارات وهي مطالبتهم بالدخول في الإسلام، أو بدفع الجزية، أو يجبرون على الخروج[2].

منذ أول وهلة يتبادر إلى الذهن أن طرح هذه الإكراهات المصاحبة للاستيطان الإسباني بالداخلة يكون مفيدا لأنه يضعنا في سياق الحدث، ويلقي بعض الأضواء على طبيعة العلاقة بين المسلمين والأجانب، ثم يعرض لمختلف المراحل والخطوات التي نهجتها القبائل في تعاملها مع المستعمر الإسباني، والتي ضاقت من تجاوزاته، مما جعلها تلجأ إلى الشيخ.

إن هذا المؤلف يفتح المجال لإثارة الانتباه إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي كون الموقف الذي وقفه الشيخ تجاه الحدث يجسد مسعاه لإفشال جميع أشكال التعامل مع الأجانب، كما يعتبر اندماجا منذ بداية الأمر في سياق تأطير القبائل والنظر في مصالحها[3].

ونستطيع كذلك أن نفهم من هذا الموقف طبيعة الإجراءات التي كان يتخذها والتي تعد شكلا من أشكال تدخله للتوسط في مناطق لا تخضع لسلطة المخزن بشكل فعلي، منطلقا من مبدإ مفاده أن بعد المنطقة عن مركز القرار السياسي وغياب سلطة مخزنية فعلية يحتم عليه بصفته ممثلا للسلطان بالأصقاع الجنوبية[4] اتخاذ القرارات اللازمة

(1) هداية من حارا، ص: 60-61.

(2) المصدر نفسه، ص: 61.

(3) المصدر نفسه، ص: 59.

(4) عين السلطان الحسن الأول الشيخ ماء العينين خليفة على الجنوب المغربي بظهير سلطاني سنة 1879م. انظر التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية، بلحداد نور الدين، ملحق الوثائق، ص: 268.

لحماية الجماعة من كل دخيل.

وبالرجوع إلى سياق الأحداث يتضح أن أصل المشكل يكمن في كون الإسبان التجأوا إلى تبريرات واهية، كعدم وجود إمام حاكم، وتذرعهم بكون المنطقة لا تخضع لأي أحد[1]، مما أفضى إلى نوع من التساهل معهم، جعلهم يقترحون على القبائل دفع مبلغ شهري[2]. لكن الوضع ازداد حدة وتأزما عندما أقدموا على إقامة منشآت أخرى غير مبالين بمطالب هذه القبائل، وتماديهم في الامتناع عن دفع المبلغ المتفق عليه بدعوى انتظار وصول الأموال من بلادهم[3]. وهذا يثبت أنهم لم يلتزموا باحترام مقتضيات الاتفاق، إذ سرعان ما عمدوا إلى التملص من أي التزام مع الطرف المغربي.

للإشارة فقد تفطن الشيخ ماء العينين والقبائل الصحراوية لمكائدهم ورغبتهم في الاستقرار بالمنطقة تحت مطية التجارة، وتماطلهم في تنفيذ ما اتفق عليه ربحا للوقت للتحصن وانتظار وصول المدد والجيوش[4]. ويذهب الشيخ أبعد من ذلك معتبرا أن هذه الوضعية يتمخض عنها أمران اثنان:

أولا: مطالبتهم مجددا بتسديد ما اتفق عليه أو الخروج عن بلاد المسلمين[5].

والراجح أن الإسبان سرعان ما تجاهلوا مطالب القبائل، مما جعلها تتجه إلى تضييق الحصار على الأكواخ الخشبية التي شيدها بونيللي ومهاجمتها، لأن الجهاد في هذه الحالة أصبح واجبا مشروعا، وهو ما يؤكده الشيخ ماء العينين بقوله: «... وأنهم لما تعاهدوا معهم أولا و لم يتبين لهم صدقهم فيما قالوا، نبذوا لهم عهدهم، واشتغلوا في قتالهم، و لم يقاتلوهم إلا بعد أن قالوا لهم: لا عهد بيننا»[6].

بمعنى آخر: لم تقدم القبائل على أي إجراء عملي ضد الإسبان إلا بعد أن استنفدت جميع المساعي والشروط، بدءا بمطالبتهم الدخول في الإسلام، وانتهاء

---

(1) هداية من حارا، ص: 61

(2) المصدر نفسه، ص: 62.

(3) المصدر نفسه، ص: 62.

(4) المصدر نفسه، ص: 62.

(5) المصدر نفسه، ص: 62.

(6) المصدر نفسه، ص: 83.

بتملصهم من دفع ما اتفق عليه. وهذا ينم عن وعي القبائل الصحراوية ونضجها السياسي من خلال قدرتها التفاوضية، والتريث قبل الإقدام على أي إجراء.

وهذه من خاصيات الجهاد المنظم الذي ينفي عنه صفة العشوائية والارتجالية والتلقائية.

ومهما يكن فإن هذا الهجوم على مركز بونيللي لم يكن إلا بداية لنزاعات مستمرة اختلطت فيها المصالح وانعكست آثارها على وتيرة الأحداث.

احتجاج ولد عايدة وادعاءاته

يبدو أن ولد عايدة لم يقتنع بما آلت إليه هجومات القبائل، وحاول تقديم نفسه على أساس أنه الأولى وحده بما غنمته. وقد أثار هذا الموقف استغراب الشيخ ماء العينين، فبادر للرد عليه، ملتمسا التبرير الشرعي للأمر الواقع انطلاقا من الأدلة والحجج الدينية والتاريخية حول المسألة، يقول: «فلما كان بعد ذلك بزمن، قام بعض المتغلبين من العرب وقال إنه يريد هذا المال، وادعى أن النصارى كتبوا له كتابا أنهم على العهد معه، فصار يطالب المسلمين بذلك المال والديات، مع أن النصارى لم يخبروا من أتاهم بعهد معه ولا مع غيره، و لم يصله الخبر إلا بعد فِعْل المسلمين معهم ما فعلوا بشهر أو أكثر، وهو يدعي أنهم قد أرسلوا له قبل ما فعل»[1].

وقبل الدخول في القضايا الرئيسية التي أثارها الشيخ بين ثنايا جوابه على النازلة يمكن تسجيل ملاحظات حول خاصية هذا الجواب نوجزها فيما يلي:

إن جواب الشيخ لم يكن سريعا ومقتضبا، وإنما جاء مفصلا يتوخى الدقة والتمحيص والبحث في دلالات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأصول الفقهية لتفنيد ما يستدل به ولد عايدة من حجج باطلة وبدع مغرضة، جامعا في هذا الجواب بين الأدلة الشرعية والوقائع التاريخية. ويستشف من سياق الحجج والأدلة التي أوردها أنه كاتبه حتى يتحرى الحقائق قبل حسمه في هذه النازلة[2].

---

(1) هداية من حارا، ص: 63.

(2) انظر: رسالة الشيخ ماء العينين إلى ابنه الشيخ الشبيه في ملحق الوثائق، هداية من حارا.

ومما لاشك فيه أن خطاب الإقناع والتحاور لدى الشيخ ينبني على العناصر الأساسية التالية:

الأولى: عرض أفكار الخصم لمعرفة منطلقاته.

الثانية: الرد على أفكاره تدريجيا.

الثالثة: الخروج باستنتاجات قيمة في شكل نصائح ومواعظ.

يتبين من خلال هذا كله أن الشيخ رفض تبريرات ولد عايدة لأنها تفتقد إلى الأساس الواقعي والشرعي، ولأن رد فعله شكل الباعث الأساسي لصياغة الجواب حتى يؤكد بطلان ادعاءاته.

القضايا الواردة في جواب الشيخ ماء العينين

1) مسألة العهد

لقد احتج ولد عايدة بعد أن وصلته أخبار معركة الداخلة، وصار يطالب القبائل بالمال والديات على أساس أن له عهدا مع الإسبان. فإذا وقع الإقرار بوجود ميثاق أو اتفاق معه -كما يقول الشيخ- فعليه الإتيان بالبيان[1]. لهذه الغاية حاول تجاوز ادعاءاته وتبريراته التافهة من خلال ما يلي:

-كون القبائل الصحراوية المغيرة على معاقل الإسبان بالداخلة لم يتم إخبارها بأي عهد أو اتفاق مع أحد. وإذا كان الإسبان قد أرسلوا لها «لعلمهم بسيبتها وعدم حكم أحد من أهلها في الأغلب على أحد»[2]، فإن ذلك ليس «إلا غشا للمسلمين، وإغراء لبعضهم على بعض»[3]. وقد وقف الشيخ على ثماني كتابات يقولون فيها: «إنا على العهد، و لم يذكروا لمن أتاهم كما تقدم أنهم مع أحد على العهد»[4].

أما ما يدعيه ابن عايدة من أن كتاب الإسبان لم يصله إلا بعد أن فعل معهم

(1) هداية من حارا، ص: 83.

(2) المصدر نفسه، ص: 78.

(3) المصدر نفسه، ص: 78.

(4) المصدر نفسه، ص: 78.

المسلمون ما فعلوا[1]، فيعتبره الشيخ حجة واهية، «لأنه قبل أن يصله كتابهم وقبوله لعهودهم وعلم المسلمين بذلك كله، لا تكون للكافرين عليه حجة به ولا له على المسلمين كذلك»[2].

وقد حاول الاستشهاد بالآية القرآنية الآتية ليدعم بها موقفه وصحة ما يدعي، وهي قوله تعالى: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله﴾[3]، إلا أن الشيخ ماء العينين رد بقوة على تأويله الخاطئ لها قائلا: «إنا لله وإنا إليه راجعون من وضع الكتاب على غير موضعه ومن إيراد الكلام من غير سامعه، ألم ينظر من أول الكلام إلى آخره؟ من كل شرط ومشروط؟ والشرط الذي قال معدوم بالمشروط»[4]، لأن «هؤلاء القوم الذين أخذوا في الداخلة ليسوا بأهل ميثاق ولا عهد ولا ذمة لمسلم، وما فعل معهم إلا الحكم الذي أمر الله به»[5]. أما الاستدلال بهذه الآية على قضيتهم فإنه «من وضع الأشياء في غير محالها، وذلك لا يليق بالكتاب ولا بأهل العلم المرجو بهم الهداية من الذهاب»[6].

2) النوايا الحقيقية للإسبان

يقول الشيخ ماء العينين: «فتبين للمنصف أن ما فعل مع هؤلاء المسلمين لا يخلو من أحد هذه الوجوه، وتبين لك ما فيها أو يقول: إنه يريد أن تكون بينه للمسلمين معهم تجارة لما في ذلك من المصلحة للمسلمين عامة وله من النفع خاصة. ألم يعلم أن جلب المصلحة ودرء المفسدة إذا تعارضا يقدم درء المفسدة؟»[7].

إن أهم ما يكشف عنه هذا المقطع هو وعي الشيخ وتفطنه لنوايا المستوطنين الإسبان الذين يتخذون التجارة ذريعة ومطية لاحتلال المنطقة. وفي خضم هذا الاتصال

---

(1) هداية من حارا، ص: 83.
(2) المصدر نفسه، ص: 83.
(3) النساء: 92.
(4) هداية من حارا، ص: 101.
(5) المصدر نفسه، ص: 103.
(6) المصدر نفسه، ص: 103.
(7) المصدر نفسه، ص: 100-101.

يتولد نوع من اللاتكافؤ لفائدة النصارى، يقول: «ولعمري إن خروج النصارى على المسلمين في هذه البلاد ما فيه إلا المفسدة المحضة»[1]. لأنهم «لا يريدون إلا ملك المسلمين، بل ملك رقابهم إن أمكنهم، كما ظهر من أول أمرهم من استيلائهم على إيمراكن[2] وبنائهم مظهرين أن ذلك بعضدهم»[3]. وقد حاول تقديم أمثلة ونماذج تترجم الصعوبات التي ينطوي عليها استقرار الإسبان بالداخلة، لذلك يتعجب من موقف ولد عايدة و«ممن يدعي العقل ويشك في أنه لا ضرر على المسلمين في خروج النصارى عليهم، وليس هذا إلا من جهله لما فعله النصارى بخروجهم على المسلمين في كل الأيام كما وقع في الأندلس قديما وما وقع في ادزير[4] وسطا وما وقع في إسكندرية ومصر وإسطنبول حادثا وغيرها مما يطول بنا جلبه من كل بلاد المسلمين دخلها النصارى لعنهم الله أولا بالأمان، وبعد ذلك استولوا عليها في الزمان»[5]. والأسلوب نفسه هو ما تم تطبيقه في أقطار إسلامية أخرى «حتى قال لي بعض مواريدنا الحجاج في عامنا هذا[6] والذي قبله إن المسلمين في المشرق انعقد إجماعهم على أن الأمان في النصارى في هذا الزمن فُقد وليس بموجود، لأنهم ما أمنوا في بلد إلا استولوا عليه ونشأ من أمنهم الضرر»[7].

ومن الإفادات التاريخية التي ترد في سياق الاتصال بين النصارى والمسلمين إقراره بديمومة علاقات التضاد بينهما بالمناطق الجنوبية منذ عهد أبي بكر بن عمر اللمتوني[8]. وغالبا ما يقع بعض هؤلاء النصارى أسرى بيد القبائل فيتم افتداؤهم، كما وقع للنصراني «الذي كان بصدد البناء، فأخذه محمد بن سيد بلخير أزركني في العام الذي

(1) المصدر نفسه، ص: 101.

(2) إيمراكن: يطلق على فئة من قبائل الصحراء تحترف الصيد.

(3) هداية من حارا، ص: 101.

(4) ادزير: يقصد بها الجزائر.

(5) هداية من حارا، ص: 103.

(6) يقصد به العام الذي ألف فيه هذا الكتاب وهو عام 1302هـ الموافق 1885م.

(7) هداية من حارا، ص: 104.

(8) المصدر نفسه، ص: 78-79.

قبل فعله هذا وباعه للنصارى، وغنم منه ما غنم»[1].

3) الجهاد

جواز قتال النصارى (الإسبان)

يكتسي موضوع الجهاد أهمية كبرى ضمن انشغالات الشيخ ماء العينين، إذ كرس حياته وفكره لتعميق الشعور بهذا المبدإ، وهو بذلك يجسد فئة من العلماء الذين خصصوا حيزا كبيرا من اهتماماتهم لهذا الموضوع، وكانت واقعة الداخلة فرصة ومناسبة لتأكيده وتنوير القبائل بالحيثيات التاريخية والدينية التي تؤطر العلاقة بين النصارى والمسلمين.

فقد دافع في هذه المعركة المسلمون الصحراويون عن أرضهم، وقاموا بما هو واجب عليهم شرعا. ويستشهد على ذلك بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والعلماء، ويشير كذلك إلى أن دخول النصارى الداخلة دون إذن أهلها يفرض عليهم وعلى من بقربهم الجهاد والقتال، خاصة وأنها «ثغر من الثغور المخوفة الواجب سدها على المسلمين، ولا سبيل لسدها إلا بما فعل فيهم ومثله من قتالهم قبل التمنع والتحصن فيها»[2]، و«لكونها جامعة للجهاد والرباط في الثغور، أي الفرج التي تكون بين المسلمين والكفار»[3].

يقول: «فتبين من هذا الشرط لمن له أدنى إنصاف وبالحق أدنى اعتراف أن قتالهم إن لم يكن واجبا، فأدنى مراتبه الجواز، مع أنه لا يظهر فيه للمنصف إلا الوجوب بخروجهم على بلاد المسلمين من غير إذن أحد منهم له»[4].

ويقول: «فتبين لك أيها الناظر المنصف أن الخارجين في الداخل ليس حكمهم إلا ما فعل بهم لخروجهم من غير إذن مسلم كائن من كان، وأحرى الإمام (...). فلم يبق إلا تعيين دفع هؤلاء الكفرة بما يمكن أن يدفعوا به من قتل وأسر وأخذ مال وجواز

---

(1) هداية من حارا، ص: 78.

(2) المصدر نفسه، ص: 86.

(3) المصدر نفسه، ص: 74.

(4) المصدر نفسه، ص: 86.

ذلك لمن فعله إن لم يكن واجبا»[1].

ويقول: «فتبين للمنصف أن رقابهم حلال قتلها، وأموالهم حلال أخذها لمن قتل، وأخذ بالتمام. وأما غيرهم فهو عليه حرام إلا بطيب النفس»[2].

ويقول: «... وما فعل معهم إلا الحكم الذي أمر الله به، ومن ادعى ما ينفيه قبل وقوعه فعليه بالبينة، إذ معلوم أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر. ووالله ثم والله لا أعلم بأحد ممن حضر وقعتهم إلا ويحلف أشد أيمانه على صدق ما وقع معهم بينهم مما تقدم من الكلام، مع أنه يكفي في جواز قتالهم، بل تعينه فجوهم لبلاد المسلمين من غير علم لأحد منهم مع إرادة الملك والتملك»[3].

ويختم هذه الأقوال مشيرا إلى «أن المتكلم في هؤلاء الكفرة إما أن يحرم دماءهم وأموالهم على هؤلاء المسلمين بقوله إنهم معاهدون أو معطون للجزية أو ليسوا بكفرة أو ليس بواجب قتال الكفرة ولا حلال أموالهم، فإن قال بالأخيرتين فقد كفر لما من الأدلة قد ظهر، وإن قال بالأوليتين فعليه بالبيان، ولا يجده بحول الله وقوته في الزمان»[4].

ودون الدخول في تفاصيل العلاقات بين النصارى والمسلمين كما وردت في جواب الشيخ، يمكن اعتبار مسألة جواز قتالهم العنصر الرئيسي في سياق أحداث وملابسات غامضة، ويبقى أن هذا التصور ينسجم تماما مع ما أجمع عليه الفقهاء بضرورة تقنين وضبط العلاقة بين المسلم وغير المسلم، لذلك التمس التبريرات والحجج الشرعية لما أقدمت عليه القبائل بعدما تم استنفاد جميع الحلول السلمية بينها وبين الإسبان، وباركه واعتبره دفاعا عن النفس وصيانة للأرض وحماية للدين.

4) أنواع الجهاد

في سياق حديث الشيخ ماء العينين عن الجهاد أشار إلى أصنافه وأنواعه وحددها

---

(1) هداية من حارا، ص: 87.

(2) المصدر نفسه، ص: 95.

(3) المصدر نفسه، ص: 103.

(4) المصدر نفسه، ص: 82-83.

في أربعة هي:

أولا: جهاد القلب و«هو جهاد النفس عن السوء».

ثانيا: جهاد باللسان و«هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ثالثا: جهاد اليد و«هو إقامة الحدود والأدب على أهل الدعوات».

رابعا: جهاد بالسيف و«هو جهاد الكفار، وهو المراد في الأغلب»[1].

5) شروط الجهاد

إن الجهاد من حيث كونه حربا دينية مقدسة ضد الأعداء لابد له من شروط أساسية[2]:

-منها شروط يجب بها، وهي: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورية والاستطاعة بالنفس والمال.

-ومنها شروط يتعين بها، وهي: النذر أو تعيين الإمام أو فجإ العدو موضع قوم أو فك الأسارى إن كانوا ببلد الكفار.

-ومنها شروط أخرى: أحدها الطاعة للإمام، والثاني: ترك الغلول، والثالث: ألا يفر واحد من اثنين، والرابع: الثبات عند اللقاء، والخامس: النية.

-ومنها شروط الجزية، وهي: أن تكون عن يد وهم صاغرون، وأن يكونوا في موضع تنالهم أحكام من يأخذها منهم، وأن يكون ذلك عن إذن الإمام.

6) صفات من يدافع عن النصارى

يقول الشيخ: «وإن المتعرض للفاعلين لهم ذلك ليس إلا ظالما لهم ومتعديا عليهم ومريدا لإهانة المسلمين لا الكافرين، وهذا لا يقبله مسلم، ولا يسكت على عدم إنكاره مؤمن»[3].

ويقول: «وأعوذ بالله من جدال جاهل أو عالم متجاهل»[4].

(1) هداية من حارا، ص: 77-78.
(2) المصدر نفسه، ص: 77-78.
(3) المصدر نفسه، ص: 89.
(4) المصدر نفسه، ص: 95.

ويقول: «واعلم أنه لا يتكلم في هؤلاء الكفرة ولا يتكلم فيهم إلا مثل من قال تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾[1]»[2].

ويقول: «والعجب كل العجب من شك أحد ممن يدعي العلم في جواز ما فعل بهم، وأحرى إنكاره له»[3].

نلاحظ أن الشيخ أبدى نوعا من الامتعاظ من تصرفات أحمد ولد عايدة، واعتبر كل من يدافع عن النصارى أو يبرر فعلهم خارجا عن الجماعة.

وترد في سياق جوابه ملامح شخصية ولد عايدة من خلال الصفات التي ينعته بها، كقوله: المتغلب، المتعرض، المدعي.

وهذا يبين جرأة الشيخ وفطنته في اختيار النعوت والأوصاف، وهي لا تكتسي صبغة إحراج، ولا تتضمن ألفاظا ذميمة أو قدحية. ويبدو أن درجة قوة هذه الألفاظ ترتبط بحالة القلق التي أحس بها فور سماعه بموقف ولد عايدة. ومن خلال ذلك كان الشيخ يفضح بشكل صريح جميع القبائل التي تدخل في علاقات مع الأجانب.

7) السلطة والإمامة

تتراءى داخل مضامين الجواب على النازلة مسألة الإمامة، فرغم إقراره ببعد المنطقة عن مركز الإمام أو السلطان، فإنه يشدد على أن الحسم في حالة عدم الانضباط والفوضى التي تجتاح المنطقة هو الولاء لسلطة مخزنية قوية، لأن أمر الجماعة لا ينتظم إلا بوجود إمام. بيد أن هذا الحضور وإن كان رمزيا فإن له أكثر من دلالة، ومن أجل تأكيد هذه السلطة يوصي الشيخ بضرورة التشاور والتنسيق مع السلطان. وعن هذه الاستشارة تنبثق مختلف العمليات والقرارات التي يمكن اتخاذها، وهذا ما يفسر السرعة التي تم بها إخبار المخزن الحسني بملابسات الاستيطان الإسباني بالداخلة[4].

كان من الطبيعي أن تنال مواقف الشيخ ماء العينين وأنشطته الرضى والقبول من

---

(1) النساء: 107.

(2) هداية من حارا، ص: 97.

(3) المصدر نفسه، ص: 103.

(4) رسالة الشيخ ماء العينين إلى السلطان الحسن الأول 13 محرم سنة 1302هـ.

لدن الجميع، لذا شكل حصوله على تعيين من قبل السلطان بداية مرحلة جديدة. وبموازاة مع ذلك وجه أنظار المخزن إلى مجريات الأمور بالداخلة والقبائل المستوطنة بها خصوصا أولاد الدليم(1)، كما تمكن بعمله هذا من إثارة انتباه الكتابات الإسبانية والأجنبية عموما إلى أهمية حركته الجهادية.

8) نصائح الشيخ ماء العينين لولد عايدة ونتائجها

لم يقف الشيخ ماء العينين عند دحض وتفنيد ادعاءات ولد عايدة فقط، بل بادر إلى نصحه وتوجيهه ودعوته إلى التزام طريق الشرع(2)، فالمسلم الصالح في نظره تتوافق مواقفه مع تطلعات الجماعة. ويبدو أن هاجسه سلامة الإسلام والأمة وصيانة البلاد، وهو ما كان وراء هذا النصح الذي أصبح يمثل السلاح الوحيد لإرجاع ولد عايدة إلى طريق الصواب أو سحب المشروعية منه بواسطة الأدلة والحجج التي عددها الشيخ في جوابه. وهذا يعتبر في حد ذاته انتصارا للمخزن في شخص الشيخ ماء العينين، وبالمقابل اهتزازا لمكانة ولد عايدة.

ومهما يكن من أمر، فإن الشيخ لم ييأس من إمكانية رجوع الزعيم الشنقيطي إلى طريق الصواب وتصحيح هفواته والتراجع عما أقدم عليه من مزالق وأخطاء.

ومما يستفاد من سياق الأحداث أن ولد عايدة اقتنع بالحجج التي أفاض الشيخ في توضيحها، وسارع إلى التماس العذر منه(3)، بل أصبح أكثر وفاء وخضوعا للأوامر المخزنية، وهذا يبين شدة وقع جواب الشيخ في نفسه.

ومما يؤكد ذلك هذه الرسالة التي بعث بها إلى الشيخ يقول فيها: «... من أحمد بن سيد أحمد بن أحمد بن عيد إلى من تملأ القلوب مهابته، وتقوم بحسن تدبير الأقاليم كفايته، الشيخ الذي هو فريد الزمان وبهجة الأوان، حسنة الأيام والليالي، افتخار ذوي المعالي، صاحب القدر السامي والكرم الهامي، الشيخ الذي لازال متسنما

(1) رسالة الشيخ ماء العينين إلى قبائل أولاد الدليم 15 رجب سنة 1303هـ.
(2) رسالة الشيخ ماء العينين إلى أحمد ولد عايدة سنة 1302هـ.
(3) سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان، ماء العينين بن العتيق، ورقة: 120، مخطوط، نسخة خاصة.

غوارب المجد متنسما نسائم المدح والحمد، الشيخ الذي لازالت عناية الله به محدقة، وشموس عزه بالإسعاد مشرقة، الشيخ ماء العينين موجبه من أحمد أنه من تلاميذك وأنه لا يتملك شيئا أحب إليه من حبر خاطرك»[1].

أهمية الكتاب

تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه:

أولا: يقدم موقف الشيخ ماء العينين والقبائل الصحراوية تجاه التواجد الإسباني بالداخلة، كما يقدم لنا معطيات جديدة عن كثير مما حدث، والظروف العامة التي تم فيها الاستيطان كما شاهدها هذا الشيخ وعايشها بأسلوب فقهي ديني في طابع أخلاقي ورؤية علمية.

ثانيا: ينفرد بوصف الحدث في جميع تجلياته مما لم يقف عليه غيره، ومما يزيد من أهميته كونه يتضمن قضايا فريدة من نوعها لم ترد في أي مصنف تاريخي آخر.

ثالثا: يتجلى تميزه فيما يوفره من إمكانيات لسد بعض الثغرات التي تميز معرفتنا لتاريخ الاستيطان الإسباني بالصحراء المغربية، كما يساهم في تعميق فهمنا التاريخي لمسألة الاتصال بين القبائل الصحراوية.

رابعا: يكتسي أهمية قصوى لأنه من صميم فكر الشيخ ماء العينين.ومن المعروف أن الهم الذي ظل يحرك هذا الفكر هو مسعاه الحثيث لتحقيق الوحدة وتجاوز التفرقة.

خامسا: إن ما يضفي على هذا الكتاب قيمة تاريخية كون مؤلفه أقرب إلى ملابسات الحدث. كما أن دافعه الرئيسي يتضح من خلال سعيه الدائم للوقوف أمام كل من سولت له نفسه التماس الأعذار والتبريرات لتزكية ما أقدم عليه النصارى الإسبان بالداخلة أو الدفاع عن أطروحاتهم وادعاءاتهم.

سادسا: بالإضافة إلى هذا يدعو الكتاب من خلال معانيه إلى الوحدة ونبذ الخلاف والتمسك بالأصول، وإذا ما أمكن ملامسة هذه القيم فيما عرفته المنطقة من أحداث، فإن الشيخ ظل متميزا بما ترسخ فيه من نزعة أخلاقية وعلمية وعملية.

---

(1) هداية من حارا، ملحق الوثائق، ص: 116.

أهمية تدوين النسب
عند رجالات الزاوية المعينية

ماء العينين امربيه حامني
باحث – وجان–تيزنيت

أيها الحضور الكرام:

تغمرني سعادة فائقة، في هذه اللحظة التي نلتقي فيها مجددا لنتناول بالدرس والتحليل سيرة علم من أعلام العلم والدين في جنوب مغربنا الحبيب، ألا وهو الشيخ ماء العينين؛ هذا المنار الشامخ الذي لن تحيط بجوانب إشعاعه ندوات ولا دراسات مهما تعددت، وذلك بغض النظر عن الدور السياسي الذي أسهم به حينما عين خليفة للسلطان على عموم الصحراء، ثم ما قام به من جهد لتأخير بسط نفوذ الاحتلال على تلك الربوع، بفضل استبساله في المقاومة رفقة مريديه.

وإن في استحضار سيرة هذا العلم في هذا الظرف الدقيق، لعبرة لمن ينازعه الشك في مدى تلاحم أجزاء وطننا الغالي، وانصهاره في بوتقة واحدة، إذ إن استقراره النهائي بتيزنيت إلى حين الوفاة، ومواصلة أبنائه حمل المشعل في الكفاح لسنين طويلة، لَمِمَّا يؤكد الوحدة رغم التعدد، والاختلاف.

أيها الحضور الكرام:

لقد أسلفتُ أن الزاوية المعينية التي أسسها الشيخ ماء العينين كانت متنوعة، وغزيرة الإنتاج العلمي والأدبي، وكان ذلك موضوع أقلام عدة، خصوصا في السنوات الأخيرة، سواء في الكتب أو في المجلات أو في الندوات التي ما فتئت تعقد هنا وهناك؛ وتجنبا للخوض في مواضيع قد خاض فيها البعض ولازال يخوض، ارتأيت أن

أنصرف إلى موضوع جديد يتمثل في أهمية علم النسب في الزاوية المعينية، ذلك لأني أنفقت سنين في دراسة هذا العلم والتأليف فيه.

قد يتساءل البعض عن هذا العلم، وعن مدى الشرعية التي اكتسبها ليصير علما، فنقول:

لقد عُرِف العرب باهتمامهم الشديد بالنسب، ووجد من بينهم من اختص بالأنساب، ودراستها، والتصنيف فيها، نذكر منهم على سبيل المثال كتاب "جمهرة النسب" لهشام بن محمد الكَلْبي، وكتاب "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم الأندلسي، وكتاب "نسب قريش" لأبي عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري، وغيرهم كثير، وذلك لحرصهم الشديد على ضبط أصول القبائل والسلالات، وتحديد فروعها، إضافة إلى تمييز الأسر الشريفة المنحدرة من البيت النبوي من غيرها.

والغريب في الأمر أن اهتمام العرب بالأنساب لم يقف عند حدود الإنسان، بل تجاوزه إلى الاهتمام بأنساب الحيوان كالخيل والإبل والحمام[1]، وقد تقوى اهتمام العرب بعلم الأنساب بعد مجيئ الإسلام الذي حث على طلب هذا العلم، والاعتناء به، فقد جاء في الحديث الشريف: «تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم، وتصلون به أرحامكم». وأثر عن عمر بن الخطاب قوله: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السودان إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا». وقال عبد الله بن عمر: «تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فرب رحم قد قطعت لجهل صاحبها».

فمعرفة هذا العلم، والإلمام به سبيل إلى تمتين العلاقات الاجتماعية، وخلْقِ تآزر بين الأسر والقبائل إذا ما اكتشفت قرابة رحم تربطها بأخرى، وقد يكون الإلمام به حاجزا أمام الوقوع في خطإ الزواج من المحارم، كما قد يساعد في توزيع الإرث توزيعا عادلا حسب الشرع الإلهي.

وقد اشتدت الحاجة أكثر إلى هذا العلم خصوصا في الصحراء المغربية، حيث الأسر تنتقل باستمرار، فظهر نسابون يعرفون القبائل، وأصولها، وسلالاتها، وعلاقاتها

---

(1) راجع مجلة الدوحة، العدد: 4، 1419هـ-1988م، الأستاذ خالد بن أحمد الصقلي، ص: 25.

القائمة على الرحم أو المصاهرة أو الرضاعة. يقول الشيخ ماء العينين في الحث على طلب هذا العلم: النسب هو سبب التعارف، وسلم إلى التواصل، به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

من هذا المنطلق كان الشيخ يحث مريديه على الحرص على تدوين النسب حتى لا يظل حبيس الرواية الشفهية، و لم يكتف بالحث، بل كان السباق إلى أخذ المبادرة، فألف كتابا بعنوان: "ضبط الإخوان والأخوات لمن لا يعرفهم من البنين والبنات"، استعرض فيه إخوته جميعهم ذكورا وإناثا، وتاريخ ازديادهم، وأسماء أمهاتهم، والقبائل التي تنتمي إليها، ليطلع أبناؤه عليهم، خصوصا وأنهم لا يعرفونهم باعتبار أن الشيخ ماء العينين غادر مسقط رأسه مبكرا، و لم يعد إليه إلا مرة واحدة.

ولتبسيط الأمر أكثر، نظم أسماء إخوانه وأخواته في منظومة أوردها في ديوانه مطلعها:

رب كما أمرت بالتوسل ... لك توسلتُ بكل ما ولي
وبالذي به تفضلتَ عَلَيْ ... شيخي أبي لتُصلحَنَّ حالتَيْ
وبنيه كلهم لتُصْلِحا ... حالي وصدريَ بعلمكَ اشرحا[1]

إلى أن يقول:

واغفر لذي النظم بقطب العارفين ... والغيثِ فاكْفِه شرور العالمين
بعابد الوهاب والجيهِ وبالْـ ... ـبُشرى وبالمصْطافِ فاغفر لي الزلَلْ

وقد حذا حذوه ابنه الشيخ امربيه ربه فنظم بدوره إخوته وأخواته في منظومة تداولها بين أفراد الأسرة الذين تفرقوا في مناطق عدة من الجنوب المغربي، ليتاح لهم التعرف على أهلهم وذويهم، ولو اقتصر الأمر على السماع. يقول في مطلع أرجوزته تلك:

(1) ديوان الشيخ ماء العينين، ص: 367.

الحمد لله الذي الأرحاما قرنها مع اسمه إكراما
قال: اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام لمن يساءلون
لذاك لله توسلت بها أرجوه أن أعطى الذي يعطى بها
رب بجاه شيخنا وأصله وفرعه من بابه وفصله

إلى أن يقول:

رب اجعلني من الأفاضل بحرمة الأخ محمد فاضل[1]

وامتد هذا الاهتمام بنظم الأنساب ليشمل مريدي الشيخ أيضا، وقد تم اللجوء إلى النظم باعتبار بساطته وسهولة حفظه، وتداوله، ونذكر من هؤلاء المريدين العلامة السيد ماء العينين بن الشيخ محمد الأمين بن الشيخ أحمد السباعي الذي أدرج سلسلة نسب شيخه في كتابه "زجر العوام عن الوقوع في أهل البيت الكرام" الذي ألفه عام 1325هـ، ثم نظمه الأديب أحمد بن المولى اليملاحي الفاسي قائلا:

يقول أحمد بن عبد المولى العلمي أحسنُ قول يُتلى
به الثناء والصلاة والسلام على النبي المصطفى خير الأنام
سلسلة الشيخ المربي الكامل من ذكره يُجمّل المحافل
محمد المصطفى ما العينين ابن لقطب جامع الكونين[2]

من هؤلاء أيضا نذكر سبط الشيخ ماء العينين الأديب سيدي المحفوظ بن الشيخ الحضرمي دفين قرية "وجان" الذي نظم جدوده السباعيين الشرفاء في قصيدة مطلعها:

يا ربنا بالمصطفى محمد اغفر لنا يا ربنا في الأبد
يا ربنا بشيخنا الحضرام والدنا علامة الأعلام
وبأبيه العالم العقد الثمين المرتضى الشيخ محمد الأمين
فكن لنا ووفقن للصواب ونجنا يا ربنا من العقاب[3]

---

(1) الأرجوزتان مخطوطتان بخزانة الكاتب بـ"وجان".
(2) الأرجوزة في كتاب نعت البدايات، ص: 1.
(3) الأرجوزة مخطوطة بخزانة الكاتب بوجان.

ويضيق المجال هنا عن استعراض المزيد، ولننتقل إلى الذين أفـردوا تـآليف خاصـة بالنسـب في الزاويـة المعينيـة، وإن وجبـت الإشـارة إلى كتـب تطـرق مؤلفوهـا لنسـب الأسرة، وسيرة شيخها، لكن دون استفاضة، من هذه الكتب كتاب "الضياء المسـتبين" للعلامة محمد فاضل بن الحبيب، وكتاب "مجمع البحرين" للشيخ محمد العاقب الجكني، وكتاب "إسعاف السائل على بعض المسائل" للشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين.

غير أن أول كتاب انفرد بذكر نسب الشيخ وذريتـه وآلـه، هـو كتـاب "إفـادة الأقربين في التعريف بذرية شيخنا الشيخ ماء العينين" للمؤرخ العلامـة مـاء العينـين بـن الشيخ الحضرامي، سبط شيخنا، الذي ألفه سنة 1334هـ موافق 1915م، ثم أضاف إليه إضافات أخرى سنة 1348هـ، ويتضح من عنوانـه القصـد مـن تأليفـه، أو القصـد مـن الاهتمام بالنسب وفق ما حدده الشيخ في قولته السالفة الذكر.

والكتاب من الحجم المتوسط، ولازال مخطوطا، استهله مؤلفـه بمقدمـة بـرر فيـها تصدره للتأليف في هذا الباب، قال: «وقد صدرت لي منـه رؤيـا -يقصـد الشـيخ مـاء العينين- وهي أني كنت في إفران عـام 1334هـ عاشـر شـوال، فرأيتـه في تلـك الليلـة ثلاث مرات، وكلهم يقول لي: احفظ لي ذريتي، و لم أفهم مراده، فقلت له: نعم. فقال لي: احفظهم واجمعهم في تأليف»[1].

ثم انتقل إلى استعراض نبذة من سيرة الشيخ، وأحواله في العبادة، ومعاملـة أهلـه ومريديه، ليستعرض بعد ذلك ذريته واحدا واحدا حسب تاريخ الولادة ذكورا وإناثـا، فبدأ بالسيدة أم الفضل، وانتهى بابنه محمد مصباح الدين، على أنه كان يذكر بعد كل ولد أو بنت عقبه وعقب عقبه إن وُجد، فكان بذلك جامعـا لذريـة الشـيخ في عـهده، ومرجعا لا محيد عنه، فقد نسخ الكتاب مرات عدة، وانتشر انتشارا كبـيرا، غـير أن مـا يؤاخذ على المؤلف هو عدم اهتمامه بإيراد سلسلة نسب الشيخ، وربما يكون عـذره في ذلك انتشار ذلك النسب، وذيوعه في غير ما منظومة.

وهكـذا ظـل كتـاب "إفـادة الأقربـين" فريـد عقـده في هـذا البـاب إلى حـدود

---

(1) مقدمة كتاب إفادة الأقربين، مخطوط بخط المؤلف بوحان.

السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم، حين ضمني مجلس رفقة خالي سيدي المحفوظ السالف الذكر، والشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، فجرى ذكر كتاب السيد ماء العينين بن الشيخ الحضرامي، ومدى القصور الذي بات يعرفه خصوصا بعد أن عرفت الأسرة تضخما في العدد، وتفرقا في المساحة خلال واحد وأربعين سنة من الانتهاء من الكتاب السالف.

فحثني الشيخ الجليل على أن أتخذ حماس الشباب دافعا لأشرع في جمع ذرية شيخنا من جديد، فعقدت العزم على ذلك، واتخذت من الكتاب الأول مصدرا، غير أني لم أسر على نهجه، فبدأت الكتاب بترجمة وافية للشيخ ماء العينين ضمنتها نسبه كما حققه مريدوه، ثم استعرضت أبناءه الذكور أولا، وأبناءهم وأحفادهم، وترجمت لكل واحد من أبنائه، ساردا بعض ما توفر لي من إنتاجه الأدبي والعلمي من مؤلفات وغيرها، ثم عرجت على بناته، وسلكت معهن المسلك ذاته، وقد انشرحتُ للصدى الذي خلفه الكتاب، إذ أصبح وسيلة لتوثيق العرى والأواصر بين أفراد هذه الأسرة الشريفة، ولا أخفيكم أنني أتوق لمن يتمم العمل بعد عشرين سنة من انتهائه، خصوصا وأن الظروف مهيأة في عصر الحاسوب وثورة المعلوميات.

نسب الشيخ ماء العينين

حاول بعض المغرضين من الكتاب الأجانب النيل من نسب الشيخ حقدا وانتقاما لوقفة الشيخ الباسلة أمام أمانيهم، إلا أن الوثائق والحجج الدامغة تؤكد شرعية انتمائه وانحداره من البيت النبوي الشريف، والناس مصدقون في أنسابهم كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، خاصة إذا ذاع وانتشر، وأكدته غير ما جهة، فنسبه كما تورده المصادر هو:

سيدي محمد المصطفى ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن سيدي محمد الأمين الملقب مامين بن الطالب أخيار بن الطالب محمد أبي الأنوار بن الطالب المختار الملقب الجيه المختار بن الطالب الحبيب بن الطالب أعلِ بن سيدي محمد بن سيدي يحيى بن سيدي عالي بن شمس الدين بن سيدي يحيى الكبير القلقمي بن سيدي محمد بن سيدي

عثمان بن أبي بكر بن سيدي يحيى بن سيدي عبد الرحمن بن مولاي أران بن مولاي أتلان بن مولاي أجملان بن سيدي إبراهيم بن سيدي مسعود بن سيدي عيسى بن عثمان بن إسماعيل بن عبد الوهاب ين يوسف بن عمر بن يحيى بن عبد الله بن أحمد بن يحيى بن القاسم بن مولاي إدريس الأزهري بن مولاي إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت خاتم النبيئين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فالشيخ إذًا كما ترون ينحدر من الدوحة الإدريسية، ذلك أنه بعد سقوط دولة الأدارسة عمت الفوضى بلاد المغرب، فاختفى أبناء المولى إدريس وأحفاده في أصقاع متعددة من المغرب، وكان أن رحل أحداد الشيخ إلى بلاد أتوات، فحظوا هناك بالتبجيل والاحترام الذي يتلقى به السكان عادة أمثالهم من الشرفاء، إلى أن كان زمن الجد السادس الذي تنتسب إليه القبيلة، والشهير بالجيه المختار، إذ حباه الله بالعلم والولاية والصلاح، فذاع صيته في الآفاق، واستقر في نفسه الرحيل للدعوة، ونشر الدين، إلى أن طاب له المقام بـ"تكانت" إحدى مدن شنجيط حينها، فأسس رباطا دينيا وعلميا، وكثر أتباعه ومريدوه، وظل به إلى أن توفي.

فبدأ أبناؤه يتوارثون الزعامة الدينية والعلمية، إلى أن بلغ الأمر والد الشيخ ماء العينين الشيخ محمد فاضل بن مامين الذي امتد تأثيره الروحي إلى مجاهل إفريقيا كالسينغال والنيجر وتشاد، وأنجب من الأبناء الكثير، كل استقل برباطه، سواء في شنجيط أو البلدان الإفريقية الأخرى، بإذن من الأب والشيخ، وقد لمس الشيخ محمد فاضل بفراسته الشأو العظيم الذي سيكون لابنه الشيخ ماء العينين، ففك عنه الحجر على طريق الصوفية، وقال له: «يا بني، لم يبق لك علي حق، فاذهب إلى بلاد يحييها الله تعالى بك»[1].

وكان ذلك عام أربع وسبعين بعد مائتين وألف، فتوجه إثر ذلك لأداء فريضة الحج، ثم عاد ليستقر في الصحراء المغربية منفردا بدوره بتأسيس رباطه الخاص، ووضع

(1) إسعاف السائل على بعض المسائل، للشيخ محمد الإمام، مخطوطة بخزانة الكاتب ماء العينين امربيه بن سيدي محمد حامي-وحان.

اللبنات الأولى في صرح مجد شامخ ما لبث أن طال عنان السماء، قوامه الدين والعلم والكفاح ضد المستعمر الإسباني والفرنسي.

هذه بإيجاز لمحة عن احتفاء هذه الأسرة بعلم النسب، وتدوينه، أتبعناها بسرد نسب هذا الشيخ الجليل، ونسب أسرته العالمة المجاهدة.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أشكر منظمي هذه الندوة وعلى رأسهم المجلس البلدي لمدينة تيزنيت، سائلين الله عز وجل أن ينصر مولانا أمير المؤمنين الملك محمد السادس، وأن يشد عضده بصنوه السعيد المولى الرشيد، وأن يحفظ أسرته الشريفة، وأن يتغمد برحمته الواسعة فقيد العروبة والإسلام المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، وأن يديم نعمة الاستقرار على الشعب المغربي الوفي، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



صورة للجلسة الافتتاحية

المحور الأدبي

مرآة أهل الله
أو صورة الشيخ ماء العينين من خلال
مدح أولاده له

د. محمد بلاجي
كلية الآداب-عين الشق الدار البيضاء

الآباء والأبناء : علاقة توتر

من اللافت للنظر أن أبناء الشيخ ماء العينين: الشيخ أحمد الهيبة و الشيخ مربيه ربه والشيخ محمد الإمام، قد تسابقوا وتباروا في مدح أبيهم بقصائد كثيرة قل أن نجد نظيرا لها في شعرنا القديم، وهذا يدفع الباحث إلى التساؤل : كيف كانت علاقة الأبناء الشعراء بآبائهم قديما؟

نجد أن علاقة بعض الأبناء بآبائهم كانت متوترة تنحو إلى الثلب والذم، الأمر الذي دفع أبا عبيدة معمر بن المثنى إلى تأليف رسالة في الموضوع أسماها : "كتاب العققة والبررة"[1]، كان هجو بعض الأبناء لآبائهم مبررا بتبريرات نوهوا بها في شعرهم كما في قول أحدهم يهجو أباه[2] :

لحاك الله ثم براكَ ربي ... أبًا وبراك من عَمٍّ وخالِ
فبئس الشيخ أنت لدى التنادي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

---

(1) كتاب العققة والبررة لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ضمن: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، 1991: 2/355-397.
(2) نفسه: 2/393.

حويتَ اللؤمَ لا حياك ربي ... وأبواب المخازي والضلال

أوراى أعمش في ابنه عقيل صفات دنيئة فهجاه بقوله[1] :

وأنت إذا آنست خيرًا وغبطة ... فإنك أحيانا ألدُّ ظلومُ

وأنت إذا ما الدهر عضك عضة ... فإنك معطوف عليك رحيم

غير أن ثمة شاعرا عباسيا نعت أباه بعكس ما فيه من صفات، ذاك هو علي بن محمد بن نصر بن بسام الذي عُدَّ في العققة[2]، وقد «كان شاعرا لسِنا، مطبوعا في الهجاء، و لم يسلم منه وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير. وله هجاء في أبيه وإخوته وسائر أهل بيته»[3]، بل إنه «استفرغ شعره في هجاء أبيه محمد بن نصر وهجاء الخلفاء والوزراء وجلة الناس» [4].

ومما قاله في هجو أبيه[5] :

بنى أبو جعفر دارا فشيدها ... ومثله لخيار الدور بنّاءُ

فالجوع داخلها والذل خارجها ... وفي جوانبها بؤس وضراءُ

ما ينفع الدار من تشييد حائطها ... وليس داخلها خبز ولا ماء

لم ينصف ابن بسام أباه، وادعى عليه ضدَّ ما كان عليه كما ذكر ذلك المسعودي : «وإنما ذكرنا هذا الخبر عن محمد بن نصر ليُعلم أن علي بن محمد ابنه أخبر عنه بضد ما كان عليه، وأنه لم يسلم من لسانه إنسان»[6]، ذلك أن أباه كان غنيا كريما.

والظاهر في آخر كلام المسعودي أن ابن بسام كان يكره جميع الناس لعلة نفسية، لذلك لم يحفظ حق والده في الأبوة والمحبة والذكر الحسن.

---

(1) كتاب العققة والبررة لأبي عبيدة معمر بن المثنى: 386/2.
(2) معجم الأدباء لياقوت الحموي: 140/14.
(3) مروج الذهب للمسعودي: 297/4.
(4) معجم الشعراء للمرزباني: 294.
(5) مروج الذهب: 297/4.
(6) نفس المصدر: 304/4.

غرض جديد

إن مدح الأبناء للآباء غرض نادر في الشعر العربي، الأمر الذي يجعلنا نتساءل : لماذا شذ أبناء الشيخ ماء العينين عن القاعدة فمدحوا أباهم بعدد من القصائد البديعة؟ ألم يكفهم أن يحفظوا حق الأبوة بالطاعة والكلام الطيب في حق والدهم دون تجاوز ذلك إلى نظم الشعر؟

الظاهر أنهم لم يمدحوا والدهم باعتباره أبا لهم بقدر ما مدحوه لكونه شخصية عامة تتحلى بصفات إيجابية مثل التفوق والذكاء والصلاح وخدمة الصالح العام.

ثم إنهم أولى بمدحه من جهتين : جهة القرابة الدموية، وجهة القرابة الروحية والفكرية.

وثمة أسباب أساسية دفعتهم إلى مدحه :

1-أنه مُمدَّح من لدن شعراء كثيرين لما رأوا فيه من صلاح وكمال، يقول الشيخ أحمد الهيبة[(1)] :

تتسابق الأمداح نحو جنابه   وقرائح الشعراء بالأشعار

ويقول الشيخ مربيه ربه[(2)] :

طلق اليدين طبيعة طلق اللسا   ن ومدحه يجري بكل لسانِ

ويقول الشيخ محمد الإمام[(3)] :

كتسابق الأذهان نحو مديح مَنْ   تجري مدائحه بكل لسان

---

(1) ديوان الشيخ أحمد الهيبة، جمع وتحقيق: د. محمد الظريف، دار المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1998، ص: 131. وسنشير إلى أرقام الصفحات بجانب الشعر كلما تعلق الأمر بأحمد الهيبة.

(2) نلوة: جوانب وحلوية من ثقافة الصحراء المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1997، ص: 160. وسنشير إلى أرقام الصفحات بجانب الشعر إذا تعلق الأمر بمربيه ربه.

(3) شعر الشيخ محمد الإمام، جمع وتحقيق وتقديم: العالية ماء العينين، رسالة مرقونة توجد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، نوقشت في السنة الجامعية 1998-1999، ص: 305. وسنشير إلى أرقام الصفحات بجانب الشعر إذا تعلق الأمر بمحمد الإمام.

2-أن مدحه ليس من قبيل المجاملة وتزوير الحقائق، وإنما هو لإظهار الحق كما قال الشيخ أحمد الهيبة (ص : 131-132) :

وعلمت أن مقالتي تحصيل ما ... هو حاصل وإرادة التكرار
لكن قول الحق ليس بضائر ... تكراره عن كل ما أخبار
أو ضائر تكرارنا للذكر أو ... إدمائنا الصلوات للغفار؟

3-أنه عالم بالشعر متذوق له، وذلك قول أحمد الهيبة (ص : 129) :

وهو الخليل لدى العروض وسيـ ... ـبويه النحاة فكيف بالأنباري

وقول مربيه ربه (ص : 160) :

فالشعر أنتم أهله ومديحه ... في غيركم ضرب من الهذيانِ

كما أنه حكم في الإبداع الشعري، ولعله لهذا السبب كان أولاده حريصين على إظهار شاعريتهم له، وذلك بتوجيه نوع من الخطاب الشعري إليه كما فعل مربيه ربه (ص : 160) :

وإليكها عذراء قلدها النسيـ ... ـبُ بلؤلؤ يزداد في اللمعان
والمدح ألبسها الحريرَ مزبرجًا ... ومُوَشًّيا بشقائق النعمان

ونجد نفس المعنى في قول أحمد الهيبة (ص : 126) :

الشعر خير نتائج الأفكار ... لاسيما في المدح والتذكار

ثم نجده يفصل منهجه الشعري لأبيه فيقول (ص : 69) :

وكذا الشعر ليس إلا فصيحا ... نحتته من ذهنها البلغاء
بدؤه الذكر والديار اشتياقا ... والغواني والعيس والبيداء
فحل لفظ ونسجه بكر معنى ... محكم اللفظ أشعلته لظاء

و لم يجد أحمد الهيبة غضاضة في أن يصرح بخوفه من التقصير في إبداع المديح أمام والده (ص : 87) :

قد تطفلت بالمديح وحاشا ... بغيتي أن يخيب فيكَ رجائي

4-أنه فوق المدح وأن المادحين وشعرهم هم المستفيدون من مدحه، يقول أحمد

الهيبة (ص : 131) :

لم تبلـغ المعشـار مـن أمداحـه كـلا ولا جـزءا مـن الأعشـار

ويقول محمد الإمام (ص : 308) :

يـا من زهـا جيـد القريـض بمدحـه بـين الـورى بقلائـد المرجـان

5-أنه نسيج وحده لا يقاس بغيره، فلذلك وجب التنويه بـه، يقـول أحمـد الهيبـة (ص : 131) :

أدنـى مراتبـه العلـو عـن الـورى وإدامـة التدريـس والأذكـار

يـا قائسًـا مـاء العيـون بغـيره مـن سـائر الغيـاب والحضـار

قست السها بالشمس والنيران بالـ ـمـاء والظلمـات بـالأنوار

ونجد المعنى نفسه عند مربيه ربه (ص : 140) :

يا طالبا أن تقيس القطـب معْ بشرٍ هيهات هل من يقيـس بالسـهى القمـرا؟

6-أن في مدحه استفادة وتبركا يستوي في ذلك أبناؤه وغير أبنائه، لذلك اعتبره أحمد الهيبة عمدتَه وناصره (ص : 132) :

يـا زينـة الدنيـا وبهجـة أهلـها يـا خـير أهـل البـدو والأمصـار

يا عدتي يـا عمدتـي يـا نزهـتي يـا نصرتـي يـا زينـتي ومنـاري

وطلب منه محمد الإمام الغوثَ وتبصيره بالأسرار التي في حوزته (ص : 158) :

فيـا غوثـاه يـا أمـلاه إنـي حقـيرٌ والمنـى منكـم أريـدُ

فمنـى مـا أسـات بـه ولكـن رجـوت منـال مـا نـال العبيـد

فبصرنـي فديتـك مـن بصـير بأسـرار تفيـد ولا تبيـدُ

تجلـى نورهـا في كـل شـيء يشـاهدها القريـب كـذا البعيـدُ

أما محمد الإمام فاعتبره طبيب أدواء القلوب (ص : 265) :

يـا منبـع الحكـم الـتي أنوارهـا في القلـب سـحٌ غمامـها وانسـالا

وطبيـب أدواء القلـوب إذا اسـتبا ح حريمـها جيش النفـوس وصـالا

وبـه انشـراح صدورنـا من ضيقـها وأزاح عـن مـهجاتنا البلبـالا

انظـــر إليّ بعـــين عطفتـــك الـــتي تكفـــي الخطـــوب وتجلـــب الآمـــالاَ

صورة الشيخ ماء العينين

إن أهم صورة قدمها أولاد الشيخ له هي :

1-أنه قطب صوفي بلـغ درجـة الكمـال في الشـخصية وفي الطويـة حتـى لكأنـه الكون بأجمعه كما ذهب إلى ذلك مربيه ربه (ص : 160) :

فـاسمعْ بـه فـردًا وحيـد زمانـه مـهما يُـزار إذا هـو الثقـلان

والكـون منـدرج بـأصغره ومِـنْ عجبي انـدراج الكـون في الإنسـان

وقد استمد قطبيته من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه من بيت النبوة، يقول محمد الإمام (ص : 308) :

وبجدكـم مـدَّ الإلـه حيـاتكم صلـى عليـه الله كـل أوان

ومن ثم فهو خليفة المصطفى صلى الله عليه وسلم عند مربيه ربه (ص : 140) :

خليفـة المصطفـى سـراج أمتـه صلى الإلـه عليـه عـدّ مـا قطـرا

وكذلك عند أحمد الهيبة (ص : 131) :

مـا ظنكـم بمـن اصطفـاه الله مـن أهـل التقـرب سـادةِ الأعصـار؟

وتتردد كلمة القطب بكثرة في شعر ابناء الشيخ :

*مربيه ربه (ص : 139-140) :

-قطـب تقـي نقـي عـالم فَطِـن بمـا يريـد مـن الإلـه قـد ظفـرا

-يا طالبـا أن تقيـس القطـب مـع بشر هيهات هل من يقيـس بالسـهى القمـرا؟

*محمد الإمام (ص : 198 و274 و305 و307) :

-والله يـا نخبـة الأقطـاب بهجتـها يا مقصـد الكـل مـعْ تخـالف الوطـر

-مأوى العوالم وهـو قطـب رحاهـا ليـث الوطيـس الفـاتك المقـدام

-قطـب سمـا فـوق السـماء سمـوه وعــلا فـأدرك غايـة العرفـان

قطـب سمـا فوق الوجود بأسـره لكنـه مـع ربـه متـدان

-وثَبَـتٌ قطبـا واحـدا ومُمَلَّكـا في الخـافقيْن برغـم أنـف الشـاني

ويضفي عليه محمد الإمام لقبا آخر هو « الغوث » الذي اشتهر به الشيخ عبد القادر الجيلاني[1]، وذلك في قوله (ص : 266 و158) :

-حُييت يا غوث الأنام تحيةً كالروض صافح عارضا هطالاً

فيا غوثاه يا أملاه إنني حقير والمنى منكم أريد

و لم تُلق هذه الصفات على الشيخ جزافا، بل إن لها دلالات محددة عند الصوفية، فقد جاء في تعريف القطب : «وقد يسمى غوثًا باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضوع نظر الله في كل زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات الغير المجهولة، فهو يُفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل» [2].

أما الغوث فهو : «القطب حينما يُلتجأ إليه، ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثًا» [3].

و لم يصل الشيخ إلى القطبية إلا بعد أن سلك أشواطا من العلم ومحاربة النفس كما في قول أحمد الهيبة (ص : 83-84) :

أدرك العلمَ مشكلاً وعويصًا فجلى عويصه من خفاءِ

وتردى بالحلم بعد اتزار من تقى الله حبذا من تُقاء

فترقى إلى مقام التجلي فمقام البقاء بعد الفناءِ

والتجلي هو «ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب» [4].

---

(1) الغوثية: حلقة مجهولة في تطور النثر الصوفي، يوسف زيدان، مجلة فصول، المجلد: 12، العدد: 1993/3، ص: 58: «لكنه استتر (أي المؤلف) مرة ثانية خلف لقب "الغوث الأعظم" الذي هو واحد من ألقاب الصوفية عموما، ومن ألقاب الجيلاني بوجه خاص».

(2) كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، حققه وقدم له ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1992، ص: 127-128.

(3) نفس المصدر، ص: 209.

(4) نفس المصدر، ص: 73.

والعلم المشكل العويص الذي أدركه الشيخ لعله هو الطلسم الأعظم المذكور سابقا.

2-أنه مربّ مرشد لا يحتكر العلم اللدني لنفسه، وإنما ينشره بين تلامذته ومريديه، ونجد مصداق ذلك في قول مربيه ربه (ص : 140) :

ساقي المريدين من خمر ومن عسَلٍ … صافي الضمائر في سر وما ظهرا
كم قد سقى من عباد الله أشربة … من الشهود تنجي كفر من كفرا
وكم سقى من غليل كان ذا ظمإ … وكم قد أغنى الذي من قبله افتقرا
وكم سقى الأصدقاء كؤوس معرفة … وللعِدا كم سقى من كفه شررا
وكم سقى من قلوب شفها ظمأ … عذبًا وأمطرها من الهدى مطرا

ولذلك يتهافت الظامئون إليه ليغيثهم كما في قول مربيه ربه (ص : 160) :

والأولياء تبيت في ساحاته … وتظل تحت ظله المتداني
هو كعبة الأقطاب مجمع طرقهم … بيت القصيد يتيمة الديوان
فلك يدور من المفاخر والعلا … فوق الولاية سامي الدوران
لو تسبح الأقطاب أعواما به … لم تأت أسفل برجه النوراني
فالعالم الملكوت محكم سره … وبه قوام العالم الجسماني

ونستشف من قوله : «مجمع طرقهم» أن الشيخ ماء العينين كان يوائم بين مختلف الطرق الصوفية شريطة انبثاقها من تعاليم الإسلام : «فإن رأينا من يدعو بهذه الطريق التي أوضح القوم وبينوها فعلا وقولا التي هي طريق السلف الصالح، ورأيناه يسير أمامنا عليها ويقتحم عقباتها، ويتحمل مشقاتها، فأكرم بذلك وأنعم، فنحن نقتدي به ونسير خلفه، وإلا فلا فلا فلا» [1].

3-فضلا عن علمه بعلم الحقيقة، فإن الشيخ ملم بالثقافة الشاملة من قرآن وحديث وعروض ونحو وأدب وفقه وسائر الفنون، يدل على ذلك قول أحمد

---

(1) الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، للشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، مطبوعات دال العلم، 1376هـ/1957م، ص: 42.

الهيبة (ص : 129):

وهو ابن عباسٍ لدى القرآن لا ... كِنْ في الحديث بخاري الأخبار
وهو الخليل لدى العروض وسيبويـ ... ـه النحاة فكيف بالأنباري
أو مالكي الفقه بل هو جامع ... كل المذاهب قبل عقد إزار
أما الحقيقة فهو طلسم سرها ... لكنه كنز من الأسرار

و لم يحتكر الشيخ هذه العلوم لنفسه، بل كان يعلمها للراغبين من التلاميذ، يقول مربيه ربه (ص : 160) :

قد عمر الأوقات بالتهليل والتسـ ... ـبيح والتقديس والفرقانِ
والعلم والتعليم والآداب والإنـ ... ـفاق والمعروف والإحسان

كما كان مهتما ببناء دور العلم، يقول مربيه ربه (ص : 160) :

وبنى ديار الدين وهو حفيظها ... حصن الحصون مشيد الأركان
دورا مؤسسة على التقوى من أول ... ساعة مرصوصة البنيان

4- لم يكتف الشيخ ماء العينين بمجاهدة النفس وتعليم المريدين وبناء دور العلم، وإنما تجاوز ذلك إلى تغيير المنكر بالقوة إذا دعت الضرورة إلى ذلك، فيصبح إذ ذاك شخصا من نوع آخر يحمل السلاح ويصارع الكماة، يقول مربيه ربه (ص : 159) :

تلقى الهزبر الشيخ ماء العينين بخ ... حدِّثْ ولا حرج عن الْبُحران
كمل الليوثة والفخار مؤيدا ... بالنصر والتمكين والبرهان
ثبتا هصورا صمة صمصامةً ... ويصيح في الميدان : من يلقاني؟
حربًا حسورا فاتكًا يدع الأُسو ... دَ فرائسًا للسيد والغربان
يسطو على الأبطال والأقران لا ... يثني عن الأبطال والأقران
متوشحا سيف الإله مشجعا ... قلب الجبان مذلل الشجعان
لو في العجاجة ما انتضى بَرَّاقَه ... ما انشق في ظلمائها الفجران

5-ولكي يتجسد المعروف والعلم في العمل، فإن الشيخ ماء العينين يفتح بابه للمحتاجين والفُقراء في حالَي الرخاء والشدة، يقول مربيه ربه (ص : 140) :

إذا السما جفَّ والكرامُ أجمعها وكل شخص أتى ولم يجد وزرا
ببابه حيثما أتيت في سعة ترى المساكين والضيفان والفقرا

ويقول (ص : 159) :

إعطاؤه دهْرَ الغلاء وفي الرخا غيثان ينهملان مستويانِ
غيثان هطالان وكافان هتا نان ثجاجان مسكوبان

صورة شخصية

اهتم أبناء الشيخ بإبراز صفاته العامة، ولم يهتموا بإبراز بعض صفاته الشخصي إلا لماما، نذكر من ذلك :

أ-التركيز على الاسم : وجدوا في اسمه صفات الغيث والعطاء والغوث، فتفننو في اشتقاقاته لتوليد الدلالة المطلوبة، فهو ماء العينين وماء العين وماء العيون وإنسا العيون. يقول مربيه ربه (ص : 140) :

-ماء العيون الكريم من كرامته قد سهل الصعب في المناهج الوعرا
-ماء العيون ترى بصفوه كدرا وصفو ماء العيون قط ما كدرا
-ماء العيون جليل القدر منفردا بالمكرمات سواء غاب أو حضرا
-ماء العيون وإنسان العيون فكم لله من ساعة عن غيره انبترا

ويقول أحمد الهيبة (ص : 87 و83) :

-يا بني الوحي والنبوة يا من باسم ماء العين قد سما في السماء
-من جفائي والحزنِ بعد التنائي ماءُ عيني كَديمةٍ وطفاء
بالعطا والسخاء ماء عيوني عم للخلق بالعطا والسخاء

ويقول محمد الإمام (ص : 305) :

شيخ المشايخ وهو ماء عيوننا بحر العلوم الدائم الهطلان

ب-الجمال : وأما قسمات الوجه فلمّحوا إليها بكلمات : « النور » « الأنوار »-« الهيبة » كما في قول مربيه ربه (ص : 140) :

ترى على وجهه الأنوارَ ساطعة كما تراها تصير خلفه قمرا

وقول محمد الإمام (ص : 305) :

وكساه من نور الجلال بهيبَةٍ تعنو لها الأملاك والثقلانِ

وقول أحمد الهيبة (ص : 130) :

ذو نِعمة ذو نَعمةٍ ذو رأفة ذو رتبة في هيبةٍ ووقار

ج-الذكاء والنباهة : يقول أحمد الهيبة (ص : 84 و130) :

-وذكاءٌ في العقل ناهيك عقلاً أعجِز القائمين أهل الذكاءِ

-وبذهنه إياس ألفي مرة والشافعي في جودة الأفكار

ويتصل بهذه الصفة أنه كان محدثا بارعا طلق اللسان كما ذكر ذلك مربيه ربه (ص : 160) :

طلق اليدين طبيعةً طلق اللسا نِ ومدحه يجري بكل لسانِ

خصائص هذا الشعر

يظهر للوهلة الأولى أن هذا الشعر يسير على هدى قصيدة المدح التقليدية، غير أن المتفحص سيجد أن فيه ابتكارا يحتاج إلى بعض التدبر للوقوف عليه، من ذلك :

1-الافتتاح والقفل : افتتح الشعراء بعض قصائدهم بصَدْر جعلوه عجز البيت الأخير من القصيدة :

قال أحمد الهيبة في أول قصيدته (ص : 126) :

الشعر خير نتائج الأفكار لاسيما في المدح والتذكار

وقال في خاتمتها :

ما قال تذكرةٌ غريمٌ مُنشِد : الشعر خير نتائج الأفكار

وقال مربيه ربه في الافتتاح (ص : 139) :

هاج الغرام فما إن للجفون كرى والدمع يجري على الخدين منفجرا

وقال في الختام :

مزن وما هزت الصبا الغصون وما هاج الغرام فما إن للجفون كرى

وقال محمد الإمام في الافتتاح (ص : 303) :

للقلــب في ســبك القريــض معــان   حســنُ المقــال وواضــح التبيــان

وقال في الختام :

مــا دامــت الدنيــا ودام بمدحكــم   للقلــبِ في ســبك القريــض معــان

2-الابتداء بالنسيب والختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

افتتح الشعراء الثلاثة مدائحهم بالنسيب، غير أنهم ربطوا نسيبهم بالمدح مباشرة دون العروج على وصف الرحلة والراحلة كما جرت عادة القدماء بذلك، وقـد افتَنُّـو في ربط النسيب بالمدح بذريعة أن المحبوبة مهما بلغ جمالها فإنها لن تبلغ شأو الممدوح :

قال أحمد الهيبة متخلصا من النسيب إلى المدح (ص : 128-129) :

لا تعجبــوا ممــا ذكــرت فــهذه   أعجوبـــة كتفتـــق الأزهـــار

نور يداه السحب تسـكب عسـجدًا   جمعــت لكــل فضيلــة وفخــار

وقال مربيه ربه متخلصا (ص : 139) :

فاقت جميع الغواني في الجمال كمــا   فاق الـورى في المعـاني سيد الكـبرا

وقال محمد الإمام متخلصا (ص : 305) :

تمــت محاســـن قدهــا فتســابقت   فصــح القريــض لحســنها بمعــان

كتسـابق الأذهـان نحـو مديـح مــن   تجــري مدائحــه بكــل لســان

أما الختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فلعله ميزة تميز بها شعر المدح عند شعراء الصحراء دون غيرهم :

يقول أحمد الهيبة (ص : 132) :

يــا وارث المختــار دمــت معافيــا   وصــلاة مولانــا علــى المختــار

ويقول مربيه ربه في قصيدته (ص : 140) :

خليفــة المصطفــى ســراج أمتــه   صلى عليــه الإلــه عــدَّ مــا قطــرا

ويقول في قصيدة أخرى (ص : 160) :

ثــم الصــلاة علــى النــبي وآلــه   خــير البريــة مــن بــني عدنــانِ

ويقول محمد الإمام (ص : 308) :

وبجدكم مد الإله حياتكم صلى عليه الله كل أوانِ

3-الاهتمام بصفات الممدوح وسجاياه الخلقية والفكرية والروحية أكثر من الاهتمام بصفاته الجسدية وملامحه.

4-الاتكاء على معجم متشابه متجانس يأخذ مصطلحاته من التصوف، مما يدل على أن المراد بالمدح هو إبراز تفوق الممدوح ووصوله إلى درجة قطب الأقطاب ونخبتهم كما ذكر محمد الإمام (ص : 198) :

والله يا نخبة الأقطاب بهجتها يا مقصد الكل معْ تخالف الوطر

وكما في قول مربيه ربه (ص : 160) :

حَبْر تفرد ما له ثانٍ فيا لله فردٌ ما له مِن ثان

5-الحديث عن الشعر والشاعرية إما في بداية القصيدة كما فعل أحمد الهيبة (ص : 126) :

الشعر خير نتائج الأفكار لا سيما في المدح والتذكار

وكما عند محمد الإمام (ص : 303) :

للقلب في سبك القريض معان حسن المقال وواضح التبيان

قد رق حتى قيل : خصرنا حف حسنًا وفاق بصحة ومعان

وإما في خاتمتها كما عند مربيه ربه (ص : 160) :

فالشعر أنتم أهله ومديحه في غيركم ضرب من الهذيان

وإليكها عذراء قلدها النسيـ ـب بلولو يزداد في اللمعانِ

الخاتمة

إذا كانت علاقة الأبناء بالآباء قد اعتراها التوتر في العهود السابقة، فإننا رأينا تلك العلاقة في صور إيجابية عند أبناء الشيخ ماء العينين ملؤها الإعزاز والإكبار والتقدير لهذا الشخص الذي تجاوز الأبوة الضيقة بالمعنى الدموي إلى أبوة شاملة أصبح

فيها كما قال أحمد الهيبة (ص : 130):

مــرآة أهــل الله ضـــوء شـــعاعهم   روح الزمـــان مشـــارق الأنـــوار

بل إن أبناءه رأوا صورة الكمال التي هي مطلب الإنسان منذ خلق إلى الآن، ولله در أحمد الهيبة الذي جمع ما تشتت في بحثنا في هذه الأبيات في مدح والده (ص :83) :

إن طلبت الخصــال فيـه تجدهــا   فيـــه فيـــه أبـــوة الأنبيـــاء
لو بفضل تعطى لصاحب فضـل   لاســـتحقّيتها عـــن الفضـــلاء
أو بعلـم تعطـى لصـاحب علـم   لاســـتحقيتها عـــن العلمـــاء
أو بحلـم تُعطـى لصـاحب حِلـم   لاســـتحقيتها عـــن الحلمـــاء
أو ببـذل تعطـى لأبـي سـخي   لاســـتحقيتها عـــن الأســـخياء
أو بتقوى تُعطى لصاحب تقوى   لاســـتحقيتها عـــن الأتقيـــاء
أو بعقــل تعطــى لأي ذكــي   لاســـتحقيتها عـــن الأذكيـــاء

المكانة الروحية للشيخ ماء العينين
من خلال مدائح مريديه فيه
نموذج: الشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز

ذ. ماء العينين المحفوظ حامني
إعدادية طارق بن زياد- كلميم

تمهيد

تنتابني هذه اللحظة سعادة غامرة وأنا أشارك في هذه الندوة التي يدور موضوعها حول علم من أعلام العلم والجهاد في هذه الربوع الغالية من وطننا الحبيب، هذا العالم المجاهد الذي شغلت سيرته أقلام الدارسين، فحبرت الصحف و لم توفه حقّه بعد، لتعدد وضخامة إنتاجه، ولسعة مساهماته في إرساء وحدتنا الترابية التي يظل خير مجسد لها رغم كيد الكائدين، فقد كان دوما مبايعا للسلاطين العلويين، معترفا بشرعيتهم وخضوع الصحراء لحكمهم، وما الوثائق التي أميط عنها اللثام إلا خير دليل على ذلك، فهذا الوطن كان منذ أن وطئ الأدارسة أرض المغرب متلاحم الأجزاء متراص البنيان، وسيظل إلى أن يشاء الله.

لا يجادل أحد في المكانة العلمية البارزة التي كانت للشيخ ماء العينين في عصره، ولعل أسطع دليل على ذلك مدرسته العلمية التي ضمت آلاف الطلبة، وخزانته الكبيرة وعدد مؤلفاته التي جاوزت الخمسمائة، بله تعدد مواضيعها، إلا أنني سأتطرق لمكانة

الشيخ الروحية وتأثيره البالغ على مريديه الذين حفلت بهم الآفاق، فشهدوا بفضله وعلو كعبه في الصوفية في قصائد لو قمنا باستقرائها لانتهينا إلى نفس الخلاصة، لذلك سأقتصر على قصائد للشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز أحد مريدي الشيخ الأقرباء وأصفيائه، نظرا لاحتكاكي الكبير بها منذ الطفولة إلى حين مغادرة رحاب الجامعة.

وتجنبا للتطويل الذي لا يسعفه المقام، فإني سأركز على مقاطع التخلص باعتبارها -في نظري- أكثر تعبيرا عن مفهوم آخر للمدح يعاكس ما ترسب في أذهاننا عن هذا الغرض، وذاك ما سنخلص إليه في هذا العرض المتواضع.

1) التخلص

إذا كانت القصيدة العربية متعددة الأغراض يتداخل فيها الغزل والوصف والمدح.. فإن ذلك يحتم على الشاعر ضرورة الاهتمام بالخيط الذي ينظم هذه المواضيع ويجعلها منسجمة، فلا يشعر القارئ بالانتقال الفج من موضوع لآخر، والشاعر المجيد هو الذي يحسن التخلص بطريقة مرنة يختلسها «اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام»[1].

وأجود التخلص في نظر النقاد ما كان من الغزل إلى المدح، نظرا لتقارب الغرضين، وقد اهتم الشاعر الشيخ سيدي محمد بالتخلص اهتماما واضحا، فاستطاع به أن يجعل المقدمة مندرجة في صميم المدح وقيمة إضافية تُحسب للممدوح، ويتنوع تخلصه بتنوع المقدمة الغزلية، فإذا كانت المقدمة وصفية، أي قائمة على وصف المحاسن، وفيها تكون ذات الشاعر خارجة عن الموضوع (محايدة)، فإن المرأة مهما بلغ جمالها سرعان ما تتبدد وتنمحي إزاء شخصية الممدوح التي تطغى على ما سواها، ونمثل لذلك بهذا النموذج:

وبُرى خرس مالها ذات ضيق ملبس سوقها جمالا مهيبا

---

(1) خزانة الأدب ونهاية الأرب، ابن حجة الحموي، ص: 149، الطبعة الثانية، نشر دار القاموس الحديث، لبنان.

ريـــها مـــن غـــدا مفارقــــه لم يُلـف وقتـا إلا حزينـا كئيبـا
غــير نــدبٍ لــه تعلــق قلــب بـالذي لم يـزل يعلـو الربيبـا
ذاك شيخي ماء العيـون الـذي لم يَخْـفَ إيـواؤه اليتيـم العتيبـا [1]

وبهذا النموذج الآخر:

ولو سمعوا أدنى سقاط حديثها لفاقوا أنـو شروان في الشر والوزر
ترى حلق الشبان حول مكانـها حيارى بما قـد ودعتهم من السحر
قـد اقتطفـوا منـها ثمـار حديثـها كمـا اقتطفـت وُرّادنـا ثمـر الحـبر
أخ النبل الأعلى أم الصيت والثنا أخ المكرمات الواكفات لدى العسر [2]

فالتخلص في هذين المقطعين ينبني على وضع المرأة في مرتبة أدنى مقاربة مع الممدوح، ففي المقطع الأول الانفصال عن المرأة، يعني الحزن والكآبة:

الذات الإنسانية U المرأة ← الحزن والكآبة.

(حالة مضمرة: الفرح والسرور) (السحر / الجمال) (الحالة النهائية)

غير أن الممدوح يخرج عن هذه القاعدة، فهو يعلو على أن يتأثر ببعد المرأة أو هجرها، لأن سحره وتأثيره في النفوس أقوى من تأثيرها، لدرجة أن تعلق القلوب به يفوق تعلق القلب بالربيب، والربيب هنا ليس بمعنى الابن الذي نشأ في كفالة مربيه، فهذا الحب لم يأت نتيجة افتتان بمظهر زائل، ولكنه حب نسجته الألفة والامتزاج الروحي بمعناه الصوفي، يؤشر على ذلك قول الشاعر: «ذاك شيخي ماء العيون»، وهنا يتحقق السمو بالحب من حب للمظاهر الزائلة الذي ينزل بالنفس إلى حد الخضوع للرغبة البشرية الجامحة، إلى حب آخر نقيض، فيه تتوحد الروح مع عالم الملكوت، وبه تسمو النفس إلى أقصى مداركها، وفي هذا الجانب تنصهر ذات الشاعر: «غير ندب له تعلق قلب».

ويتضح في المقطع الثاني انضمام الشاعر وانحيازه إلى شيخه، ومدى براعته في

---

(1) ديوان الشاعر، مخطوط، خزانة ابنه الأستاذ المحترم ماء العينين مربيه ربه حامني، وجان.
(2) المرجع نفسه.

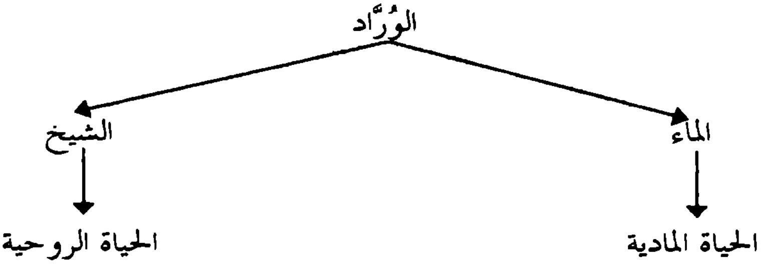
التخلص من المقدمة التي أوقفها على الوصف إلى الموضوع الرئيسي الذي هو مدح الشيخ ماء العينين، وكأنه يقول: إذا انشغل الآخرون بالجري وراء النساء والتحلق حولهن، فإني منشغل بملازمة شيخي والنهل من معارفه. ونقف في هذا المقطع على تقابل أساسي يختزل خطاب الشاعر، تقابل بين حلقة الشيخ ماء العينين وحلقة اللهو، وهما حلقتان على طرفي نقيض:

حلقة اللهو	≠	حلقة الشيخ ماء العينين
الشر-الوزر-الحيرة-السحر-الكلام الماجن-أنو شروان		الوُرَّاد-الْحَبر-العلم-الكرم-الثناء-الصيت

ويقف الشاعر في الجانب الآخر مع شيخه: «كما اقتطفت ورادنا ثمر الحبر»، في حين نجده يستعمل ضمير الغائب أو المخاطب للتأثير على أتباع مظاهر الجمال الزائلة: "ترى-حيارى-ودعتهم-سمعوا-لفاقوا-اقتطفوا". إن ذات الشاعر تقف موقفا حياديا من وصف المرأة في المقدمة الغزلية للقصيدة المدحية، وصف لا يورده الشاعر إلا لكي يوضح مدى إعراضه عن ملذات الحياة وتفانيه في الارتباط بشيخه. يقول في إحدى قصائده:

وإن تك للدنيا أو الغيد هجرة ... فإني إلى شيخي وربي هجرتي

وتحمل كلمة "وُرَّاد" التي وردت في بيت سابق: «كما اقتطفت ورادنا ثمر الْحَبْر» دلالة كبيرة، فالوراد جمع وارد، وهو طالب الماء، وفي القرآن الكريم يحتل الماء موقعا متميزا، فهو الحياة بذاتها، ومن ثم فإن كل من قصد الممدوح هو طالب لحياة أخرى تشكل نقيضا للحياة التي تسيطر فيها المادة وتعبث فيها الأهواء بالنفوس:



ويختلف تخلص الشاعر إلى مدح شيخه اختلافا كليا إذا كانت المقدمة طللية عن تخلصه من المقدمة الوصفية، فذاتية الشاعر تحضر بقوة في المقدمة الطللية، لأن الشاعر يعبر فيها عن واقع يعيشه ويحسه، لذلك فإن تخلصه إلى مدح شيخه يكون تخلصا فريدا. لنتأمل ذلك في قوله:

رسوم كأن لم تغن فيها أصارم … تطوف بها نوق هجان بعائس
تلاعب أطراف النهار رباعُها … جآذر عين أغمرتها البسابس
غنيت بها والدهر يسعف بالمنى … وقلبي فيها لم تصبه الهواجس
ربوع روت منها العيون محاسنا … كما قد روت من ما العيون المجالس[1]

إن وقوف الشاعر على الطلل مليء بالشجن والذكريات عن المكان وساكنيه، ولا يخفف من حدة الحزن والأسى في نفس الشاعر سوى وجوده بحضرة الشيخ ماء العينين، وهنا تتحقق المعادلة بين ما يعتمل في صدر الشاعر من حنين وأشجان «غنيت بها»، وبين عظمة الشيخ الذي استطاع بفضل حدبه وعطفه على الشاعر أن يسد ذلك الفراغ الذي خلفه الابتعاد عن الأهل والأحبة، وفي هذه العناية كل العزاء والسلوان.

وتتجلى جودة التخلص في كون المدح الذي يأتي بعد البيت الأخير من المقطع السالف أمرا طبيعيا وحتميا، يحتمه العرفان بالجميل لشيخ استطاع أن يكون منهلا عذبا لزائريه، ينسيهم مرارة البعد عن الأهل، ويتردد مرة أخرى لفظ الماء وإن كان

(1) ديوان الشاعر، مخطوط، م. س.

بطريقة مباشرة هذه المرة، وفي ذلك إلحاح على القيمة الروحية للشيخ ماء العينين الذي نهلت العامة والخاصة منه علومه ومعارفه، وتتضح هذه القيمة أكثر في قول شاعرنا:

وذا الشيخ ما العينين عين حقيقة لمن رام عرفانا وعين شريعة

تفجر من حدواهما كل مشرب به نهلت حاج المعالي وعلت

وما يميز هذا التخلص عن سابقه هو أن الشاعر يضعنا هنا في معادلة بين الذكرى السعيدة التي كان يحياها وسط أحبته، وبين واقعه السعيد في أحضان شيخه:

الماضي	=	الحاضر
الأهل–الأحبة–الربوع	=	المنهل–العرفان–الشيخ
المحاسن–المغنى		الكرم–الندى–مجالس العلم

وبذلك ينتفي الشعور بالنقص عند الشاعر، ويعزز المقطع التالي مدى الترابط الذي يحدثه الانتقال من الوقوف على الطلل إلى المدح:

ظللت بها والصحب حولي كأننا نشاوى خمور قتّلتها الذوارع

تطوف بنا نوق هجان كأنها مصابيح ليل أو بروق لوامع

فدع ذا ونح الهم عنك بمدح من أضاءت به للعالمين الشرائع

هو الغوث في الأكوان ماء عيوننا من انفجرت للناس منه الينابع[1]

ورغم أن الأسلوب الذي تخلص به الشاعر إلى المدح مستهجن عند بعض النقاد، لأنه لا يخرج عن أسلوب المتقدمين، إلا أنه يحمل سمة جديرة تقوي الأواصر الرابطة بين المقدمة والموضوع، فالقدماء إذا اعتمدوا هذا الأسلوب في التخلص: «فدع ذا»، فإنهم سرعان ما يفصحون عن نواياهم الحقيقية التي تتمثل في طلب العطاء، عكس الشاعر الذي يلجأ إلى مدح شيخه لينفي عنه الهم والحزن الذي أثاره تذكر الأحبة، والشاعر في ذلك صادق، فهو الفارس المغترب عن أهله وأمه في سبيل الجهادين: جهاد المستعمر، وجهاد النفس تحت راية شيخه، لذلك فالمدح عند الشاعر ليس وسيلة للاستجداء والسؤال، ولكنه غاية يطمح إليها الشاعر، تتلخص في تحقيق

(1) ديوان الشاعر، مخطوط، م. س.

الراحة النفسية إزاء ما يعترضه ويصادفه كل يوم إبان جهاده في شنقيط والصحراء من أماكن كان يعرفها آهلة، فأصبحت بلقعا غادرها أهلها بسبب قساوة المناخ أو ضغط المستعمر. وهو مشهد صعب الاحتمال إلا إذا كانت النفس مسلحة بالإيمان والتقوى، فالشاعر إذًا لا يستجدي العطاء، ولكنه يستجدي الراحة النفسية، يقول متخلصا في إحدى قصائده:

فسبحان من أخفى علي عويصة ... تنادي جهارا يا محط العويصة
فلبى نداها قطب كل عويصة ... إذا هو أو ما طاوعته ولبَّت
محط رحال المشكلات محكها ... به فتحت أقفالهن وحُلَّتِ[1]

فالشاعر حينما يمدح كأنما يتجرد من مشاكله ليلقيها في حجر شيخه الذي لا تستعصي عليه مشكلة لذلك، فإن التخلص يأتي ليضيف قيمة مدحية أخرى للممدوح، والمتأمل يدرك من خلاله مدى انسجام المقدمة مع الموضوع انسجاما بلغ حد التلازم، فكلاهما مكمل للآخر، ولا يصح في هذه الحالة أن نقول إن المقدمة على اختلافها ليست إلا وسيلة لطرق الموضوع الرئيسي، ولكنها تدخل في خضم التجربة النفسية للشاعر، فهي عنصر مندرج في البنية العامة للقصيدة، لا يمكن فصلها أو طرحها جانبا، لأن البناء سينحل، إذ إن هناك رابطا نفسيا يربطنا بالموضوع يتجلى في كون الشاعر يلجأ إلى شيخه التماسا للراحة وللعيش في دنيا مناقضة لما يلح عليه من هواجس وهموم، سواء كانت نتيجة ابتعاده عن الأهل أم الأحبة أم بسبب ما يعتمل في الدنيا من مفاتن وشهوات تجعل قدم المرء على حافة الزلل، وهنا يصبح التغني بفضائل الشيخ ماء العينين تغنيا بالنموذج الأسمى الذي يجب احتذاؤه، شيخ استطاع بفضل تفانيه في حب الله أن يحقق لذاته نوعا من الحصانة والسمو عن دنيا الشرور والذنوب.

2-المغزى التهذيبي للمدح في شعر المريدين

سيكون من الخطإ أن نسقط على مفهوم المدح عند الشاعر ما ترسب في ذاكرتنا عن هذا الغرض من أنه وسيلة للاستجداء والتكسب، فنجد شاعرا ما يرفع

(1) ديوان الشاعر، مخطوط، م. س.

ممدوحه إلى ذرى العلياء حتى لو كان وضيعا، وذلك بقلب الحقائق وإيهام المتلقي بأفضلية الممدوح مقابل حفنة مال أو خاتم[1]، ويظل هذا المدح رهينا بتلبية مطمع الشاعر، إذ هو عرضة للتحول إلى نقيضه بين لحظة وأخرى، لأنه لا ينبني على حب خالص وإعجاب بعظمة الممدوح.

في هذه الحالة يصبح المدح تملقا، والشعر ضربا من ضروب الصيانة اللغوية. مفتقدا إلى الإحساس والشعور اللازمين لنجاح أي تجربة شعرية، بعكس ما إذا توافر الإعجاب والحب، حينها يكون المدح شعرا حقيقيا يفيض حبا تتأجج فيه العواطف. ولعل أبرز مثال على ذلك قصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم[2]. قالها و لم يبال بالجزاء الذي سيلقاه على يد الأمويين، فكان أن سجن بسببها، وأوضح من ذلك قصائد عبيد الله بن قيس الرقيات في مدح آل الزبير[3] مقارنة مع قصيدته في مدح عبد الملك بن مروان الأموي التي لم ترق للخليفة حين قارنها بنظيراتها في مدح آل الزبير، لأن مدح هؤلاء كان عن اقتناع تام بموقفهم السياسي، ونتيجة حب صادق، فجاء أثر ذلك في شعره.

هذا الاتجاه الأخير هو ما ينطبق على غرض المدح عند شاعرنا، إذ تتزاوج عظمة الممدوح مع حب الشاعر وإعجابه، فالشيخ ماء العينين هو قطب الصوفية في الصحراء ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وحتى وفاته سنة 1910، وعميد مدرستها العلمية التي كانت قبلة تهفو إليها نفوس الطامحين إلى مقام الصوفية، من هؤلاء شاعرنا الذي قضى مدة في البحث عن الشيخ المربي حتى وجد بغيته في السمارة، لينشغل فيها بتقوى الله، حاذيا حذو شيخه إلى أن ذاق على يديه حلاوة التصوف والإيمان، وتطهرت نفسه من أدران الدنيا، فغدا مدح الشيخ فرضا من

(1) البحتري مثلا نظم عدة قصائد مدحية مستوجبا ممدوحيه شيئا تافها كقصيدته التي مدح بها المعتز بالله سائلا إياه خاتما. ديوان البحتري: 148/1، تحقيق: رشيد عطية، نشر المكتبة العربية، دمشق، 1911.
(2) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني: 376/21، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(3) المصدر نفسه: 79/5.

الفرائض، يقول:

ومدحك بالأشعار والنثر فرضه   أعيني عيني بكل المواقف[1]

لأنه مقام للاعتراف بأفضليته وإقرار بما حباه الله من ولاية وعلم، وتلك شهادة لا يخشى قائلها التكذيب:

كهف آمال الكون حصن ملاذ   لم يخف مدح صنعه التكذيبا

مادام ينقل لنا الحقائق كما رأتها عيناه، لا يضيف إليها شيئا. إنه بمثابة الواصف الذي يصف فضائل العظماء:

بما رأت العينان أثني عليكم   وما سمعت أذني يجل عن الحصر[2]

هنا يفقد المدح أثره المعهود، فهو لا يرفع الممدوح، لأنه مرفوع أصلا بأخلاقه وعلمه، بل يصبح ذا أثر عكسي، أي إنه يقدم الشاعر ويؤثر فيه، ولا ينصرف إلى الممدوح، يقول الشاعر:

ومديحي إن لم يفده كمالا   محسن لي التعزير والتأديبا[3]

والتأديب هو تربية النفس على الأخلاق الفاضلة والمثل العليا، وتهذيب لها، لذلك يكون وصف هذه الأخلاق والمثل المتمثلة في الشيخ (المدح) حثا لنفس الشاعر على السير قدما في الطريق بغية الفوز والفلاح والربح، وهذا ما كشف عنه الشاعر صراحة بقوله:

وما لي سوى حلي مديحك حيلة   لربح المعالي يا محط العوارف[4]

لذلك تحضر رغبة الشاعر الملحة في الخلاص من الذنوب والآثام، وهي مطلب يتردد في كل قصائده التي مدح بها الشيخ ماء العينين، وفيه تكمن الغاية من المدح، لنتأمل النموذجين الآتيين:

وهذا شريد هائم القلب خيمت   بساحته ذي الترهات البسابس

---

(1) ديوان الشاعر، مخطوط.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

ببـــاكم مقـــع لتمحـــي ذنوبـــه وأن ينتفـي عنـه اللغـا والوسـاوس(1)

* *

أيــا شـيخنا أنـهل ركيبـا أتـــاكم شـــريد لبانـــات طريـــد المناســـل

أيــا شـيخنا فكـوا أســير ذنوبـــه ببــابكم يرجــو فكــاك السلاســل

أيــا شـيخنا أنقـذ غريقـا زعاقـه إلى بحرك الطـامي اللذيـذ السلاسـل

أيــا شـيخنا لذنـا ببـابك نرتجـــي حلاء وسـاويس الصـدور الغلائـل

ومشــرب عرفــان هنيئـا سُلاســلا يقينـا بـه المـولى شـديد النــوازل

وإن تسـعف الألبـاب منـا بنفحـة تلـين مـا حـاكي صـدور المعـاول(2)

نرى في هذين النموذجين بجلال حضور الجانب الروحي وغلبته على مـا سـوا فورع الشاعر وتقاه جعلاه يبحث عن السمو وسعادة الدار الأخرى، وما يرفع النفـ عن السفاسف، وهذا أعز ما يطلبه المتصوفة، وما تكرار "أيا" إلا إلحاح على الاستغاثـ استغاثة تأتي من مكان بعيد، فـ"أيا" حرف لنداء البعيـد، واستعمالها مـن قبـل الشـا وهو القريب من شيخه، فيه دلالة تكمن في تباعد المقامات بين القطـب والمريـد الـذ لازال في بداية الطريق.

المريد ————————————◄ القطب

شريد–أسير ذنوب–غريق الشيخ–المنقذ–البحر الطامي

هائم القلب الملاذ–مشرب العرفان

يتعزز سمـو شـخصية الممـدوح أكـثر في الصفـات الـتي ينسـبها الشـاعر لنفسـ "ببابكم مقع–شراك نعالكم–شريد–جاهل"، وهي صفات لا ينسبها أحد إلى نفسه إذا كان محبا ومدركا لقيمة المخاطر ولقيمة ذاته، حاثـا إياهـا علـى مزيـد مـن المجـاه والمثابرة حتى لا تعتقد يوما أنها قد بلغت المرام، وفي استحضار النموذج مرآة يرى م خلالها ما أنجزه وما عليه أن ينجزه.

---

(1) ديوان الشاعر، مخطوط.

(2) المرجع نفسه.

بذلك يغدو المدح ذا مغزى تأديبي وتهذيبي لنفس المريد التائقة إلى الحقيقة المجسدة في الوصول إلى مقام العارفين، ذلك أمر نلمسه دون كبير عناء في قصائد الشاعر أو غيره، ولا أدل على القيمة الروحية للشيخ ماء العينين من كثرة تشبيهه بالمنهل العذب، أو بكل ما يرتبط بالماء عموما، إذ حدث مثل ذلك عشرين مرة في ستة عشر بيتا جاءت في سياق المدح في قصيد من قصائد شاعرنا الذي اتخذناه نموذجا لهذه الدراسة، ولا غرو في ذلك ما دام اسم الشيخ نفسه ينصرف إلى الدلالة نفسها.

صورة الشيخ ماء العينين
من خلال ديوان "الأبحر المعينية"

ذ. أبو بكر أولياس
ولاية الرباط سلا-الرباط

الموضوع الذي سأساهم به في هذه الندوة العلمية هو: صورة الشيخ ماء العينين من خلال ديوان الأبحر "المعينية"، وسأتناوله من خلال ما يأتي:

مقدمة: سأعرف فيها بجامع الديوان وأسباب تأليفه.

الموضوع: صورة الشيخ ماء العينين .

خاتمة.

من هو جامع ديوان الأبحر المعينية؟

هو محمد الغيث الملقب بالشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين، ولد ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان عام 1300هـ/ 1882م، وأمه الشيخة هند الملقبة أماحة[1] بنت عبد الله بن أحمد بن محمد سالم كانت حياته العلمية والفكرية حافلة بالعطاءات مما يصعب معه الحديث عنه حديثا جامعا مانعا.

لقد نشأ في كنف والده بمدينة السمارة العاصمة العلمية للصحراء المغربية آنذاك، وأجازه في القرآن الكريم الشيخ العلامة الحضرامي بن الشيخ محمد الأمين الشريف

(1) توفيت بآيت رخا عام 1948م، وهي من بيت مشهور بالعلم والتقى، جدها العلامة محمد بن محمد سالم صاحب محضرة فريدة من نوعها بتيرس بالصحراء المغربية.

الحسني، الذي كان معجبا بنجابته وذكائه، إذ كان يحفظ من قراءة واحدة مما أهله لحفظ أحاديث والده الشيخ ماء العينين عن ظهر قلب، ويظهر ذلك جليا في نمط كتاباته خاصة كتابه عن والده الموسوم بـ "الفواكه في كل حين من كلام شيخنا الشيخ ماء العينين".

وربما يكون سبب هذا العطاء الديني، هو كونه حفظ القرآن وعمره لا يتجاوز ثمان سنوات (وهذه حكاية عن ماء العينين مربيه ربه عن والدته السيدة بركة بنت أخت الشيخ النعمة).

خلفه والده عدة مرات لينوب عنه في أمور العيال، انتقل معه من السمارة إلى تيزنيت سنة 1327هـ، وعاش بعده إحدى عشر سنة.

وعلى الرغم من كون الشيخ النعمة لم يخلف أبناء، فإنه خلّفَ عدة مؤلفات كانت سبب شهرته والاهتمام به في الحياة الأدبية والعلمية، مما جعل ذكره يبقى على الدوام. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

يقولون: ذكر المرء يحيا بنَسْله	وليس له ذكر إذا لم يكن نسْل
فقلت لهم: نسلي جدائع حكمتي	فإن فاتنا نسل فإنا بها نسلو

ومن بين تآليفه:

-نور الغسق في اسم الجلالة هل هو مرتجل أو مشتق؟ تم طبعه ملحقا بكتاب النفحة الأحمدية للشيخ أحمد بن الشمس.

-ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية (جزءان).

-ديوان في مدح والده (مخطوط)، ختم به الأبحر المعينية.

-لجام المعترضين عن المادح للوالدين والأقربين (مخطوط).

-تنبيه معاشر المريدين (مخطوط).

-الفواكه في كل حين من كلام شيخنا الشيخ ماء العينين (مخطوط).

وله ديوان شعر في مختلف الأغراض خصوصا المدح والغزل، ومن قصيدة غزلية

---

(1) ديوان الأبحر المعينية: 39/2، تحقيق: محمد المختار المداح.

يقول الشيخ النعمة:

لعبت بقلبي بالغرامي حِسانٌ	في كل لحظ ضربة وطعان
خُودٌ خرائد في جفون عيونها	نفاثة أو صارم وسنان
ما أكثر القتلى وأسرى العشق إن	يلحظ لليلى طرفَها الوسنان
ما كنت أدري ما الهوى حتى رنَتْ	نحوي فهيج الوجد والأشجان

وإذا ما حاولنا أن نقارن مؤلفاته مع حياته، نجد أنه وهبها للتأليف لما له من الكتب والتصانيف والأبحاث الأدبية، علما أن الكثير منها ضاع بسبب الحروب التي كانت سائدة في تلك الفترة.

توفي رحمه الله يوم السبت قرب الظهر آخر يوم من ذي الحجة عام 1339هـ بـ"كردوس"، وهو مدفون إلى جانب صنوه الشيخ أحمد الهيبة وقد بنيت عليهما قبة بأمر من جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه.

أسباب تأليف ديوان "الأبحر المعينية"

من التقاليد الثابتة عند المؤلفين القدامى ذكر حوافز وأسباب التأليف وكأنهم بذلك يبحثون عن التبريرات والدوافع التي جعلتهم يؤلفون لكي لا تكون أعمالهم من باب الهوى أو الترويح عن النفس.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، يمكن أن نستشف سببين رئيسيين صرح بذكرهما الشيخ النعمة في المقدمة النثرية بالجزء الأول من الديوان دفعاه إلى الإقدام على هذا العمل.

-السبب الأول: أنه رأى بحور جهابذة أهل العلم والأدب ترمي بالجواهر والدرر في مدائح «قطب الأقطاب، غوث السماء والتراب، عمدة الثقلين خليفة جده سيد الكونين، نبي الصفات والأفعال وإن لم يكن نبي البعث والإرسال».

أما السبب الثاني: كثرة مدائح الشيخ ماء العينين وتهافت العلماء والشعراء للحصول عليها لجودتها لأنها طلعت «شُمُوساً في سماء المناقب ورسمت محاسنه في صحائف دفتي المشارق والمغارب»، مما جعل الأدباء يتهافتون إلى «اقتطاف تلك

الأزاهر واقتناء ثاتيك الجواهر كتهافتهم إلى إنشائها وإنشادها وتسابقهم إلى أغوارها وأنجادها».

صورة الشيخ

إذا كان هناك من الشعراء العرب من أوقف شعره على المدح قصد التملق والسعي لنيل الأموال والمنح من الممدوح، فإن الهدف الرئيسي من القصائد المدحية عند شعراء الصحراء المغربية هو المدح الذي يقصد به تبيان محاسن الممدوح على الحقيقة، ولا يرجى من ورائه استرزاق أو تكسب، وإنما وكد غاية المادح هي التعبير الصادق عن العاطفة الدينية والوطنية، وانعكاس حقيقي للأخلاق التي يريدها، والمثل التي يطمح إليها.

فالشاعر المغربي كما هو معروف، يتميز بعادات وتقاليد تطغى عليها روح الأخلاق الفاضلة، لذلك خصص ثناءه لرجل كان له حضور بارز، سواء في الميدان الديني الصوفي أو العلمي السياسي، فانصرف إلى مدحه والثناء عليه في نوع من الصدق وكثير من الواقعية التي تؤكدها حقيقة الممدوح وأخبار سيرته وحياته.

ويعد الشيخ محمد المصطفى ماء العينين، من أبرز شيوخ الصحراء المغربية ومرجع ذلك ولاشك ناتج عن تعدد المشارب المعرفية والأدبية والدينية التي تناولها بقلمه، وأدلى فيها بما أتاه الله من صفاء بديهة، ومتانة تعبير، وحسن بيان، وسديد منطق، وعنه يقول الدكتور أحمد مفدي:

«وأكاد أجزم أن جميع مثقفي المغرب وعلمائه في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، كانوا على اتصال بالشيخ ماء العينين، وكانوا يجلونه أكبر إجلال»(1).

انطلاقا من هذه الحقيقة نستطيع القول إن المدح بالصحراء صادق العاطفة وبعيد كل البعد عن المادة والتكسب.

---

(1) الشعر العربي في الصحراء، ص: 210، رسالة مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990.

ولتقريب هذه الصورة المدحية نورد للشاعر أحمد الوداني هذه الأبيات ، قصيدة مدح بها الشيخ ماء العينين[1]:

ولا هو كالأزهار حسنا ونظرة ... ولا هُو كالصَّبا إذا هب من نجد
ولا هو ذوقا مثل طعم مُدامة ... ولا هو كالحلوى ولا هو كالشَّهْدِ
ولكن يحاكي إذ توجَّهْتَ زائرًا ... وقَبَّلْت من حبٍّ ووجد على وجد
يد الشيخ ما العينين طيبا ولذة ... على قدر طول الشوق والعهد والبعد
وما هو إلا مثل ذوق لعارف ... تعلل كأس المشربات بلا كد

فإذا نحن وقفنا أمام هذه الصور التشبيهية قليلا، علمنا إلى أي حد كان الشا مغرما بشخصية الممدوح، حتى إنه لم يستقر على وصف معين أو تشبيه محدود، وم هنا اشتدت حيرته، فلم يدر أيشبِّه شيخه بالأزهار والورود في الحسن والجمال، بريح الصَّبا إذا هب من نجد، و لم يدر كذلك أيجعله مثل ذوق الخمرة التي تبعث عل النشوة والارتياح، أم كذوق الشهد والحلوى.

ولعل هذه الحيرة من شأنها أن تُوهِمنا بما يَلِف هذه الأبيات من مبالغ وتضخيم. غير أننا نقتنع أن هذه المبالغة لم تقصد عند الشاعر لذاتها، وإنما أتت تعب عن إحساس عارم لدى الشاعر وقناعة مطلقة بأن الممدوح، نظرا لمجده ورفعته يستح أن يوضع في أسمى مكان وأعلى درجة. وتلك كانت مواقف غيره من شعر الصحراء، إذ كانوا بالرغم مما يظهر على أمداحهم من مبالغة، ينطلقون من قناعتهم ب يطرحون في هذه الأمداح.

ومن قصيدة للشاعر الشيخ أحمد بن الشمس في وصف شيخه[2]:

كأنما الشمس بعد الصحو منظره ... والبدر من نوره للعالم اتَّقَدَا
والغيث من كفه قد صَبَّ منسكبا ... كأن راحته أعْرَتْ له مددا
تاه الزمان به والخلْق تاه به ... والدين شيَّده من بعدما مردَا

---

(1) الأبحر المعينية: 473/1.

(2) نفسه: 440/1.

فهذه الصور التي بناها الشاعر عن طريق التشبيه والتي تعطي لنا حقيقة الممدوح، أكسبت أسلوبه الشعري طاقات تخييلية متنوعة، ساهمت في بلورة وتشخيص تجربته الشعرية. إنها أعادت تركيب الواقع تركيبا جماليا، بحيث يظهر الممدوح أجمل وأبهى مما هو عليه في الواقع عن طريق رؤية الشاعر له؛ فنحن لم نعرف مدى جمال الشيخ وعطائه، لولا أن الشاعر شبه منظره بالشمس بعد صحوها، وبنور البدر عند اتقاده، كما شبه عطاءه بالمطر المنهمر من كفه.

من هنا يظهر الدور الفعال الذي لعبه خيال الشاعر، إنه ينظر إلى ممدوحه نظرة تخالف نظرة الإنسان العادي، فهو ينظر إليه من خلال عاطفته وإحساسه المسيطران على نفسيته.

كما أن الشاعر هنا، لا يقصد بالجمال الجمال المادي في حد ذاته، وإنما الجمال الروحي والخلقي الذي يتميز به ممدوحه. فما الشمس والبدر والغيث إلا أوصاف رمزية استغلها الشاعر للتعبير عن هذا الجمال.

ومن النماذج التي تتابعت فيها الصور التشبيهية قول الشاعر محمد مصطفى مربيه ربه في مدح والده[1]:

قل للذي يدعي إدراك رتبته	هيهات هيهات ما البزاة كالحجل
ولا الكواكب لو في أوجها كملت	كالشمس ضوءا، ولا السِّبَطْرُ كالوعل
ما أبعد الأرض من جرم السماء وكم	بين الفصول، وليس المسك كالبصل
شتان ما بين أهل الجهل والعلما	فالله جل لأهل العلم لا الجهَّل

فهذه كلها تشبيهات، استغل الشاعر عناصرها المحسوسة فأنشأ منها تشكيلا بديعا من الصور، تقوم فيه الأداة "الكاف" بدور توزيعي لافت للانتباه.

من خلال هذه الصور، يرد الشاعر على من يدَّعي مرتبة ممدوحه العلمية والجهادية، وعقد مقارنة بينهما. فجمال البزاة وبياضها يفوق جمال الحجل، وكذلك الأسد يفوق تيس الجمال في القوة والشجاعة، كما أن الشمس أكثر إضاءة من

(1) الأبحر المعينية: 276/1.

الكواكب، ورائحة المسك هي الأخرى طيبة وفواحة على عكس رائحة البصل.

إن الشاعر بهذا، أراد أن يؤكد البعد الذي يفصل ممدوحه على كل من يدعي إدراك مقامه، فالممدوح يتعالى على هؤلاء علو جرم السماء عن الأرض.

وقد اختار الشاعر لعناصر صوره التشبيهية ألفاظا مستمدة من بيئته لتقوم بوظيفة توضيح المشبه -أي الممدوح- وتأكيد علوه ومدى سمو مكانته في نفس الشاعر، مما يعطي للتشبيه قيمة متميزة.

يقول الدكتور صبحي البستاني: «التشبيه صورة شعرية، والنظر إليه يكون من خلال مفهومها فهو يقرب حقيقتين مختلفتين، فلا ينظر إليه فقط من خلال طبيعة كل حقيقة إذا كانت مجردة أو حسية، وإنما من خلال عملية التقريب والجمع بحد ذاتها، ومع موقع هذا الجمع داخل السياق العام. وما يمكن للعلاقة الجديدة المستحدثة بين طرفي التشبيه أن تولد من إيحاءات ومدلولات»[1].

وللشاعر الشيخ مربيه ربه أيضا في مدح والده[2]:

فلو كنتَ شمسا لم تُزَحْ من مكانها ... ولو كنتَ نفلا، كنت وَتْر النوافل

ولو كنت سيفا، كنت سيفا يمانيا ... ولو كنت ماء، أنت عذب الزلازل

ولو كنت بدرا، لاستقر متَمَّما ... ولو كنت بحرا، ما له من سواحل

يشكل الإعجاب بشخصية الممدوح في هذا النموذج، العنصر الأساسي الذي يحرك جميع الأبيات، إن مراد الشاعر من اعتماده على هذه الصور الفنية هو تبيان محاسن الممدوح وإظهار ما يتحلى به من الصفات كالكرم والعلم والشجاعة، وما الشمس والسيف والماء العذب والبدر والبحر إلا أوصاف تفنن الشاعر في اختيارها، لأن المديح يوجب هذا اللون من الوصف، وقد تعرض الصفدي لهذه المسألة في قوله:

---

(1) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، الأصول والفروع، ص: 115، الطبعة الأولى، 1986، دار الفكر اللبناني.

(2) الأبحر المعينية: 288/1، تحقيق: أحمد مفدي.

«مازال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده»[1].

خاتمة

لقد اتضح من خلال ما تقدم أن الشيخ ماء العينين يمثل بالنسبة لجميع المغاربة في الصحراء النموذج والمثل الأعلى في الحفاظ على الروح الإسلامية، وفي الحفاظ على منطقة الصحراء المغربية كمركز إشعاعي وثقافي وحضاري. وعنه يقول الدكتور محمد ظريف: «أعاد الشيخ تنظيم الهيكل القبلي للمجتمع الصحراوي، وذلك بما أقام عليه طريقته من أسس وحدوية إسلامية أصيلة وأنجزه من مشاريع إصلاحية»[2].

هذه النظرة للشيخ، شكلت حافزا قويا لشعراء الزاوية المعينية على قول الشعر، فتغنوا به وبجدوا بطولته، وأشادوا بزعامته في شعر غزير، استطاعت فيه هذه الصور التشبيهية أن تعبر عن واقع المرحلة وما عرفته من أحداث.

فصورة الشيخ ماء العينين هي رمز لروح العروبة والإسلام التي هيمنت على الجو الذي يتنفس فيه الشاعر المغربي في الصحراء، فهي الغاية من شعره.

يقول الشاعر البشير الغلاوي في مدح الشيخ[3]:

سخي، تقي، عابد، متضرع ... وكان لمن ضاقت به الأرض مخرجا

فهذه الخصال كلها خصال إسلامية متجذرة في كل شعراء الصحراء الذين مدحوا الشيخ، لأنهم أخذوها من ممدوحهم، فهؤلاء جميعا «قد انخرطوا في الزاوية المعينية وكانوا شيوخا كبارا، أثروا في المسار الفكري، وأغنوا الاتجاه الصوفي بما يربطه بالسنة»[4].

وإذا ما حاولنا رصد الدوافع التي كانت تحمل شعراء المغرب عموما على مدح شيخنا الشيخ ماء العينين والثناء عليه، لأمكننا الوقوف عند الجوانب الآتية:

---

(1) الغيث المسجَّم في شرح لامية العجم: 128/1، المطبعة الأزهرية، 1305هـ.
(2) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، ص: 397.
(3) الأبحر المعينية: 93/1.
(4) الشعر العربي في الصحراء المغربية، ص: 733.

1-ريادته الصوفية: فلقد تبوأ الشيخ ماء العينين مكانة دينية هامة وأصبح علما من أعلام الصوفية الذين لهم اليد العليا في هذا الميدان علما وعملا.

2-مكانته العلمية: ذلك أنه برز في ميادين شتى من العلم والمعرفة تدريسا وتأليفا، وتملك ناصية الشعر مما جعله يحظى بمكانة عالية من لدن الشعراء الذين استهوتهم شهرته في العلم، واستمالتهم مكانته في التأليف والتصنيف.

3-شجاعته الحربية: التي تجلت في العديد من المواقف والمناسبات البطولية والجهادية التي خاضها ضد المستعمر في جنوب المغرب وشماله. كما عمل كذلك على ملاحقة عملاء الاستعمار ومبشريه الذين كانوا يمهدون لاحتلال الصحراء المغربية.

قضايا وظواهر في ديوان
الشيخ ماء العينين

ذ. محمد الخاتمي
كلية الآداب-أكـادير

يقول الشيخ ماء العينين في مطلع أول قصيدة في ديوانه[1]:

أصبحت لابد لي أن أنفث الصدرا   بنفثة تبهج الأشعار للشعرا
أصبحت لابد لي من نفثة وبها   أحصحص الحق عن مكنون ما سترا

إن هذه النفثة التي نص عليها الشيخ ماء العينين هي التي سأدير حولها الكلام في هذه القراءة التي لن تكون شافية ووافية، بل حسبها أن تقف عند أهم الظواهر والقضايا اللافتة للانتباه في هذه النفثة التي نفثها هذا الشيخ الجليل والتي جمع بعضها في ديوان سماه جامعه: «هذا ما تيسر من بعض ديوان شعر... سيدنا ماء العينين... ». وهذا العنوان يدل على أن هذا الديوان لم يحو كل شعر الشيخ، وإنما حوى بعض ما تيسر جمعه. وبناء على هذا فإن حديثي سينصب على هذا البعض فقط، وإن كل الآراء والملاحظات إنما هي مستنتجة من قراءة هذا الذي تيسر جمعه في هذا الديوان المطبوع طبعة حجرية سنة 1316هـ.

لقد قلت آنفا: إن هذه القراءة ستحاول أن تقف عند أهم الظواهر والقضايا في هذا الديوان. فما هي هذه الظواهر والقضايا يا ترى؟

(1) الديوان، ص: 2.

بعد قراءة الديوان وتصفحه، لفت انتباهي ست قضايا هي:

1- طغيان النزعة الدينية الصوفية.

2- الحضور القوي للذات.

3- النفس الشعري بين الطول والقصر.

4- اللغة الشعرية بين التقريرية والإيحائية.

5- المعجم الشعري بين الغرابة والجزالة.

6- المحافظة على تقاليد القصيدة العربية القديمة.

وسأحاول فيما يأتي أن أبسط القول في هذه القضايا حسب ما سمح به الوقت والظرف.

1- طغيان النزعة الدينية والصوفية

إن أول ظاهرة بارزة ولافتة للانتباه بشكل كبير في هذا الديوان هي طغيان الجانب الديني والصوفي على كل النصوص لدرجة يمكن معها أن نصنف هذا الديوان ضمن الشعر الديني ذي المناحي المتعددة، ففيه التصوف الذي هو قطبه، وفيه مدح الرسول صلى الله عليه وسلم[1]، وفيه ثناء على الله عز وجل[2]، ونظم لأسمائه الحسنى[3]، وفيه كثير من نصوص التوسل إلى الله عز وجل بأسمائه الحسنى[4]، وبسور القرآن[5]، وبأسماء النبي صلى الله عليه وسلم[6]، وبحروف الهجاء[7]، وفيه مدح للقرآن الكريم[8]، وفيه كثير من الدعاء المبثوث في جل نصوص الديوان.

وطغيان الجانب الديني والصوفي ليس مستغربا من الشيخ ماء العينين، بل قد

(1) الديوان، ص: 5، 136.

(2) نفسه، ص: 2.

(3) نفسه، 209، 236، 243.

(4) نفسه، ص: 245.

(5) نفسه، ص: 215.

(6) نفسه، ص: 259.

(7) نفسه، ص: 262.

(8) نفسه، ص: 7.

يكون من المستغرب أن لا نجد هذا الجانب بكثافة، ذلك لأن الشيخ ولد في أسرة دينية، ونشأ نشأة دينية صوفية، وتلقى تعليما دينيا وتربى تربية صوفية فتشبعت نفسه بهذا الجانب وهيمن عليها، فأصبحت حياته كلها مصطبغة به، وشهرته قائمة عليه مما جعل الجوانب الأخرى في شخصيته لا تبرز بالمستوى ذاته، وهكذا فإن الجانب الديني يكاد يطغى على الجوانب الأخرى، أو يحتويها ويلونها بلونه. ويظهر هذا واضحا عند بعض الذين ترجموا للشيخ وذلك بتركيزهم على هذا الجانب وإيلائه نصيبا وافرا في الترجمة. يقول محمد المختار السوسي في ترجمته للشيخ: «إنه أدرك من المشاركة في العلوم إدراكا عظيما تدل عليه تآليفه التي ما غادرت علما من العلوم إلا اقتبست منه، حديثا وتفسيرا وعربية وأصولا وبيانا، **بله التصوف الذي هو عش ذلك البيت، فعليه تأسس من أول يوم، وبه اشمخر بناؤه... إنه شيخ من شيوخ الصوفية الذين هم يد عليا في ذلك الفن علما وعملا**»[1]. أما جامع هذا الديوان الشعري فيحلي الشيخ بالألقاب الآتية: «قطب الثقلين، وخليفة سيد الكونين، شمس الملوين، الأستاذ الغوث سيدنا ماء العينين»[2].

وإذا كان الجانب الديني الصوفي حاضرا في حياة الشيخ، فلا غرابة أن نجد هذا الجانب ينعكس في ديوان شعره، ولا حاجة بنا إلى التمثيل على هذه الظاهرة، إذ يكفيك أن تفتح الديوان على أي صفحة فستجد ما يصدق هذا القول.

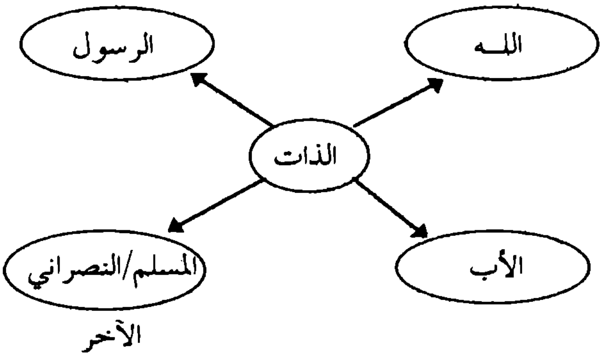
2-الحضور القوي للذات

يمكن أن نعد ديوان الشيخ ماء العينين -إلى حد ما- يعكس ذات الشيخ في همومها وآلامها وآمالها وفي تفاعلها مع مجالات أخرى تدخل معها في علاقات مختلفة كما يبين الشكل الآتي:

---

(1) المعسول: 83/4.

(2) غلاف الديوان والصفحة الأخيرة منه، ينظر في هذا الجانب أيضا: مذكر الموارد بسيرة ماء العينين ذي الفوائد، لمحمد تقي الله، طبعة حجرية.



فالذات الشاعرة في علاقتها بالذات الإلهية هي ذات مذنبة آثمة، ولهذا اتخذت من الثناء على الله عز وجل سبيلا لطلب العفو والغفران وحسن الثواب. يقول مثنيا على الله جل جلاله[1]:

الله جل جلالا في الجمال وفي	جلاله من عظيم الوصف ما غمرا

* * *

وكيف لا وهو الذي في كثرة أحد	وظاهر باطن في كل ما كثرا
فهو الذي يعلم الذي يكون وما	قد كان في أزل جمعا وما انتشرا

وبعد الثناء على الله عز وجل يتقدم بطلب المغفرة والرحمة[2]:

سأطلب في حوائج للكريم	له متوسلا باسم العظيم
يرى ضعفي وفقري وافتقاري	ويوصف بالرحيم وبالكريم
فأطلبه التفضل بالدوام	ويكسوني الغنى باسم العليم

ويقول في موضع آخر[3]:

يا رب لا أحاسَبُ	يا رب لا أعاقب

---

(1) الديوان، ص: 3.

(2) نفسه، ص: 40.

(3) نفسه، ص: 88.

يــــا رب لا أعــــــذب يــــا رب لا أنكـــــــب

يــــا ربنــــا أقـــرَّب يــــا ربنــــا أحبَّـــــبُ

نكتفي بهذه الشواهد -وإلا فالديوان مليء بنظيرها- لنخلص إلى أن علاقة الذات الشاعرة هي علاقة المدح والثناء من أجل طلب العفو والمغفرة.

تلك صورة الذات في علاقتها بالله عز وجل، أما علاقتها بالرسول صلى الله عليه وسلم فتتجلى في المدح والتوسل وطلب الشفاعة لأنه صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع والمتوسل به، يقول[1]:

حمدًا لمن أعطى لنا جاه النبي محمد سببِ نيل المطلب

وإن من سأله منا به أعطاه ما يريد من أربه

وها أنا أسأله به أريدْ جميع خيره وشكرَه أزيد

مستشفعا له بأسماء لهُ دلت عليه أنه فضَّلهُ

أما علاقة الذات بالأب فهي علاقة المريد بشيخه، ولهذا فهو يضفي عليه ألقاب المتصوفة كالقطب والغوث وغيرهما. لنستمع إليه يمدح أباه[2]:

هو الغوث للأقطاب والقطب مفردا هو الفرد في الأغواث غيبا مطلسما

غيوبُ غُيوبِ الغيب صارت بمشهد له وبه من شاء يشهد أشهما

وسرٌّ لسرِّ السرِّ أوضح عنده وأخفى شهود الشاهدين وأحكما

وبعد الثناء على أبيه -شيخه- ينتقل ليبين مكانة الشيخ لديه ويقول[3]:

حسبي به وبه كفاية مأخذي وبه أصول به أحول مُقدَّما

وبه ملاق كل لاق ظاعن أو قاطن متزَيِّما مُتَلمْلما

وبه حياتي فإن رأيت به أرى ويرى به ظفَري ودرءَ المرغما

إن هذه العلاقة بين الشيخ وتلميذه ليست بمستغربة ما دمنا في حقل التصوف.

---

(1) الديوان، ص: 162.

(2) نفسه، ص: 12.

(3) نفسه، ص: 26، وانظر أيضا: 7، 9، 15، 22...

أما علاقة الذات بالآخر فهي تختلف باختلاف هذا الآخر، فإذا كان مسلما فإن العلاقة بين الطرفين هي علاقة بذل النصيحة والوعظ والإرشاد كما في قوله(1):

أتــرك هـــواك أخـــي لِتســـلما ... وأعـرض عـن الدنيـا تفُـزْ وتغنَمـا
وإن طلبــت العـــز ردْ بالطاعــهْ ... وردْ غنًـــى تطلـــب في القناعـــهْ
والـــزم الصمـــت لِتعـــد عـــاقلا ... كـذا يعـد العقـل منـك فـاضلا

ويقول في مكان آخر(2):

إن كنـت ترغـب في النفـائس رغبـة ... فعليـك رهبـة مـن يُخـاف ويُرهـب
لا تطلبـوا علمـا بـلا عمـل يُـرى ... إن العلـوم بـلا اتبـاع تُتْعِـبُ

أما إذا كان الآخر غير مسلم ومن النصارى الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، فإن علاقة الذات الشاعرة به علاقة عداوة، ولهذا نجد الشاعر يكثر من الدعاء على هؤلاء الأعداء في مثل قوله(3):

رب بمـا رفعـت ذلـك السـما ... عـن هـذه الأرض ومـا مـن السُّـما
لك اكفنـا شـر النصـارى يـا عظيم ... وكـل ظـالم وشـيطان رجيـم

ويقول في موضع آخر(4):

وقـاصدين ضربنـا فشـتتا ... مـن قبـل ضربنـا يكونـوا بُـهَتا
وشـتتن شملـهم ومزقـا ... كـل ممـزق لهـم وفرقـا
وكيدهـم فاجعلـه في نحورهـم ... تدمـيرهم يكـون في تدبـيرهم
وقللـنْ عددهـم وضعِّفـا ... قوتـهم وبـهمُ لا تَلطُفـا
وأنزلـن عليـهمُ مـن السـماءْ ... أمـرًا سماويـا بـذُل ووبـاءْ
يُهلكـهم بسـبب ولا سـببْ ... يوليـهمُ عـن الأنـام بـالقطبْ

---

(1) الديوان، ص: 181.
(2) نفسه، ص: 51.
(3) نفسه، ص: 392-393.
(4) نفسه، ص: 330-331.

وأخرجـــــنَّ لهـــــمُ مـــــن أرضٍ   أمــرا عليــــهمُ جميعـــا يقضــــي،

مما سبق يتبين أن علاقة الذات بالآخر لا تسـير في اتجـاه واحـد، بـل في اتجـاهين متناقضين: النصح والدعاء بالخير للآخر المسلم، والكره والدعاء بكل سوء على الآخر الكافر. وهنا يظهر موقف الشيخ ماء العينين من المستعمر الذي بدأ يدب على أطـراف البلاد[1].

نخلص مما ذكر أن تجليات الذات الشاعرة في شعرها تجليـات مختلفـة، فـهي ذات مذنبة تثني على الله عز وجل وتطلب عفوه وصفحه، وهي مادحة للرسول عليه السلام طالبة شفاعته، وهي مادحة لشيخها راجية بركته، وهي ناصحة واعظة للآخر المسـلم، وناقمة كارهة للآخر النصراني.

3-النفس الشعري بين الطول والقصر

تتفاوت نصوص الديوان المعيني في الطول والقصر، فنجد نصوصـا لا تحتـوي إلا على بيتين أو ثلاثة، كمـا نجـد نصوصـا تطـول لتفـوق 150 بيـت. وهـذا التفـاوت في الطول والقصر يمكن رده إلى الظروف الملابسـة للقـول الشـعري، فعندمـا يـأتي القـول الشعري عفويا في مناسبة عابرة يقصر النفس الشعري، أما عندما يكون القول الشعري مقصودا فإن النفس الشعري يطول ويطول ولاسيما في قصائد الثناء والمدح.

4- اللغة الشعرية بين التقريرية والإيحائية

تتأرجح اللغة الشعرية بين التقرير والإيحاء أي بين النظـم والشـعر، مـع الميـل إلى النظم في كثير من الأحيان، ولهذا كان حضور الرجز[2] كثيفا سواء في المطـولات أم في النتف والمقطوعات. وقد أشار إلى هذه الظاهرة الباحث أحمد أبو القاسم بقوله: «بعض

(1) انظر موقفه بوضوح من قضية النصارى في مؤلفه: "هداية من حارا في أمر النصـارى". وانظـر كذلك عرض الأستاذين ماء العينين النعمة علي وأحمد بومزكـو بعنـوان: "قـراءة في كتـاب: هداية من حارا في أمر النصارى" ضمن أعمال هذه الندوة.

(2) يجب التفريق بين الرجز الوزن والرجز النوع، فالأخير هو الـذي يقـابل القصيـدة، وقـد كـان قديما يتكون من شـطر واحـد موحـد القـوافي، وتحـول عنـد المتـأخرين إلى شـطرين متحـدي القافية، وفيه نظمت منظومات العلوم كالألفية.

الشعراء الصحراويين يكثر من الأراجيز كالشيخ ماء العينين ونجله الشيخ مربيه ربه، ويدل هذا عندي على شيئين: أولا كثرة الإنتاج، ثانيا حب الدنيا إلى حد الرغبة في تحويل الخطاب كله إلى شعر»[1].

وكثرة الإنتاج، والرغبة في تحويل كل الكلام إلى شعر عاملان من عوامل تدني اللغة الشعرية إلى مستوى النظم كما في النماذج الآتية:

يقول[2]:

يا رب منك ذي الحياة ... ومنك ربي ذي الممات
فنجنا من كُربات ... هذي الحياة والممات
وكن لنا والوالدينْ ... وللبنات والبنينْ

ويقول في موضع آخر[3]:

وهب لي يا وهاب أنصح توبة ... لتُمحى ذنوبي في الصيام وفي الفطر
ويا مالك الملك الذي عم جوده ... لملكك ملكني على الحلو والمر
وضرَّ العِدَا يا ضارُّ قبل مضرتي ... ومنهم حمانا فاحْمِ وامنعه من ضر

ويقول في مكان آخر[4]:

فاغفر ذنوبي رب كل فجر ... واغفر ذنوبي رب كل عصر
ولتحفظني ربنا في الدهر ... ولتحفظني ربنا في القبر
ولتحفظني ربنا في الحشر ... من كل ما يكرهه ذو قدر

يتبين من النماذج السابقة -وغيرها كثير في الديوان- أنها لم تحتفظ من مقومات الشعر إلا بالوزن والقافية، فهي لا تعدو أن تكون كلاما عاديا معقودا بقواف، وقد جعلها كذلك كون الشاعر يخاطب عقل المتلقي ويقصد إلى إيصال أفكار إليه بأيسر سبيل وأسهل طريق، لهذا يلتجئ إلى التعابير الواضحة ذات الدلالة الواحدة في بعد عن

(1) من شعر المقاومة في الصحراء المغربية، مجلة المناهل، العدد: 58، مارس 1998، ص: 303.
(2) الديوان، ص: 190.
(3) نفسه، ص: 60.
(4) نفسه، ص: 394.

أي خيال أو إيحاء. وكلما كانت مقصدية الشاعر نقل الأفكار -أيا كانت- إلى القارئ تنكب خطابه عن مجال الشعر وركب سبيل النظم، ثم إن هذه الأفكار التي يريد الشاعر إيصالها إلى المتلقي هي أفكار معروفة متداولة، وهذا يفقدها الرونق والإيحاء، وقد نص ابن خلدون على هذا بقوله[1]: «وليجتنب الشاعر أيضا الحوشي من الألفاظ والمُقعَّرَ وكذلك السوقيَ المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماء فوقنا، وبمقدار ما يقرب من طبقه عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان. **ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب لا يحذق فيه إلا الفحول، وفي القليل على العشر، لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك**».

وهكذا يكون نظم أسماء الله الحسنى وقصائد التوسل بأسماء الله الحسنى، وبسور القرآن، وبحروف الهجاء... تدخل ضمن النظم وتبتعد عن روح الشعر.

وإذا كان النظم هو الغالب على ديوان الشيخ ماء العينين، فإن الشعر لم يغب كلية عن هذا الديوان، بل إننا نجد الشاعر أحيانا يوظف لغة شعرية إيحائية لنستمع إليه وهو يقول[2]:

بالواسعات أرى الأشواق تنهمر ... من واسعات صدور الشوق تنفجر

* * *

من ذكر غانية تسبي بفاترة ... تضني بارقة تشفي وتفتخر

شمس طريقتها نجم هدايتها ... لم تخلُ في أخذها عن أخذها قمر

ووصلها غُرَر وصرمها غَرَر ... ونيلها بشر مآله بُشُر

ويقول في قصيدة أخرى[3]:

---

(1) المقدمة، طبعة دار الجيل، بيروت (د. ت.)، ص: 637.

(2) الديوان، ص: 5.

(3) نفسه، ص: 32.

وبـت وأحشـائي تقطـع بـالهوى ومن حُرَق الأشـواق بـاتت صواديـا
وبـت وقلـبي مـن لظاهـا بجنـة وجنـة ذكراهـا تذكـر ناسـيا
تضـوع منـها نشـر بنـت غزالـة إذا الطيـف أبـدى نشـرها والغواليـا

إن الأبيات السابقة -وغيرها- ترتبط بالمشاعر والأحاسيس، وتبتعد عن الفكر والعقل فجاءت في لغة مشحونة بالدلالات، ولهذا ابتعدت عن مجال النظم لتحل في رحاب الشعر. ولهذا يمكن القول: إن الكلام كلما نبع من القلب وعبر عن شعور وإحساس إلا وكان أدخل في باب الشعر، وكلما نبع من العقل وعبر عن أفكار كان أدخل في باب النظم.

5-المعجم الشعري بين الجزالة والغرابة

إن قارئ ديوان الشيخ ماء العينين سيلاحظ أن المعجم الشعري في هذا الديوان يميل في غالبيته إلى استعمال الألفاظ الجزلة الواضحة المعاني التي لا تحوجنا إلى الرجوع إلى المعاجم، بيد أننا في بعض الأحيان نصادف الشاعر يمتطي صهوة الغريب الذي خرج من ساحة التداول اللغوي وبقي قابعا في بطون المعاجم فقط، كما في قوله[1]:

خَـوْد وممكـورة وغـادة مكـرت قلـبي بحـب لهـا وغيرهـا مُكِـرا
هِرْكَوْلَـةٌ وَرداحٌ طَفلـة صـدرت جسمي ورُودا بحب لا يرى صَدَرا
أملـودُ عُطْبولـةٌ رأدٌ بَرهْرَهَـةٌ غيـداء بهنانـة خريـدة خفـرا

وفي قوله[2]:

بَوْضـا بقلـبي لا يـزال يومضـه وفـاضَ منه بُـراضٌ ليـس مبترضـا
تـبرَّض الجسـمُ بعـد القلـب بارضُـه وآضَـه حَرَضـا وجـاءه دَآضَـا

إن النماذج السابقة تعد قمة الإغراب الذي لا مسوغ له إلا الرغبة في إظهار سعة المحفوظ اللغوي لدى الشاعر. وقد أشار الدكتور عباس الجراري إلى هذه الظاهرة وهو يتحدث عن مدرسة الإحياء الصحراوية جاعلا ثاني سماتها «الميل إلى الغريب...

(1) الديوان، ص: 3.
(2) نفسه، ص: 20.

وذلكم طابع بدوي صحراوي ناتج.. عن ثقافة الشاعر المعتمدة على القديم وما يتولد عن ذلك من قدرة على الاستحضار الناشئ عن كثرة الحفظ والاختزان، دون أن نغفل ملاءمة البيئة وانعكاسها على حال الوجدان والذوق»[1].

6-الحفاظ على تقاليد القصيدة العربية القديمة

لم يكن أمام الشاعر الشيخ ماء العينين، كغيره من الشعراء الصحراويين، إلا أن يترسم خطا الأقدمين في نظمهم للشعر، وذلك «بحكم الثقافة التي كانت منتشرة بينهم والتي كانت ترتكز على القديم، تعنى بدواوينه يحفظها طلاب الأدب ويستظهرونها في المجالس، ويرددون أراجيزها وقصائدها بعفوية وسهولة»[2].

ولهذه الأسباب نجد شاعرنا وفيا للشعر القديم في معجمه وصوره ومعانيه وكذلك في بناء القصيدة ولاسيما ما يتصل بالاعتناء بالمقدمات الغزلية التي افتتح بها قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح أبيه. والمقدمة الغزلية جزء من هيكل القصيدة كما نص على ذلك ابن قتيبة.

وإلى جانب الوفاء للمقدمة الغزلية نجد شاعرنا وفيا للتقاليد العربية في الإيقاع، وهكذا نجد الشاعر نظم في البحور المتداولة مع الميل الكبير والواضح إلى الرجز على نمط المتأخرين. وقد حافظ الشاعر في كل شعره على وحدة الوزن مع الحفاظ على وحدة القافية في القصائد وبعض المقطوعات، وتنويعها في الأراجيز وبعض المقطوعات الأخرى، إضافة إلى أنه التزم بتصريع المطالع سيرا على منوال القدماء.

تلك كانت أهم القضايا والظواهر التي لفتت نظري وأنا أتصفح ديوان الشيخ ماء العينين، وآمل أن أكون قد وفقت إلى بسطها في هذه العجالة حسب ما سمح به الزمان والظرف، وإلا فإن الديوان يحتاج إلى مزيد من الوقت والدراسة حتى يوقف عند كل الظواهر والقضايا المضمونية والشكلية.

---

(1) شعر الصحراء، ص: 15، منشورات كلية الآداب، أكادير، سلسلة الدروس الافتتاحية: 4.

(2) نفسه، ص: 14.

التعليم والتربية
عند الشيخ ماء العينين

ذ. محمد عيناق
محافظ الخزانة المركزية-آسفي

أود في البداية أن أعبر عن سعادتي بالمشاركة في هذا الملتقى العلمي حول الشيخ ماء العينين الذي تنظمه مشكورة بلدية تيزنيت. إنها مناسبة جليلة لصلة الرحم بين أبناء الشمال وإخوانهم في الجنوب في قلب هذه المدينة النابض بالنضال والجهاد والصمود والتحدي من أجل وحدة المغرب من أقصاه إلى أقصاه، كما أن مثل هذه اللقاءات تعد حلقة من حلقات عمل وطني واع وصادق يتغيى استكمال تحقيق الوحدة الثقافية بين مختلف جهات المملكة، خاصة بين شمالها وجنوبها بعدما تحققت الوحدة الترابية.

في هذا السياق سأدلي بمساهمة -في حدود ما يسمح به الوقت المخصص لكل عرض- وهي عبارة عن إشارات ولمع يمكن اعتبارها مقدمة أو عتبات لدراسة الفكر التربوي والتعليمي عند الشيخ ماء العينين، ومقاربة قضاياه وظواهره مقاربة معاصرة تحاول الإجابة على الأسئلة المطروحة حاليا على بساط المناقشة والتداول.

ما هو مفهوم التعليم؟ وما معنى التربية؟ وما العلاقة بينهما؟ وما هي تجليات المفهومين (التربية والتعليم) عند الشيخ ماء العينين؟ وما هي أبعادهما الدينية والوطنية؟ وما هي المؤثرات العامة والخاصة التي تدخلت في توجيههما؟ وما هي مصادر فكر الرجل التربوي والتعليمي؟... تلك الأسئلة وغيرها هي التي ستحاول هذه المساهمة تسليط الضوء على بعض جوانبها في انتظار أن يسمح الوقت بتعميق البحث فيها.

ففي لسان العرب: علمتُ الشيء أعلَمُه علما: عرفته؛ وعلم الأمر وتعلمه: أتقنه.

فلفظة العلم تدل من الناحية اللغوية على المعرفة والإتقان، وهذا المعنى اللغوي نفسه هو جوهر المعنى الاصطلاحي للكلمة.

أما لفظ التربية فمشتق في لغتنا العربية من أحد الأفعال الآتية:

1-من الفعل "رَبَا، يربو": بمعنى زاد ونما.

2-من الفعل "رَبِيَ، يَرْبَى" بوزن خفي يخفى، ومعناه: نشأ وترعرع.

3-من الفعل "رَبَّ، يَرُبُّ" بمعنى أصلحه وتولى أمره وساسه، وقام عليه ورعاه.

وهكذا يتضمن المعنى اللغوي للتربية عملية النمو والزيادة، وعملية الرعاية والإصلاح، وهذا هو المعنى الأساسي للفظة تربية من الناحية اللغوية، وهو أيضا لب معناها الاصطلاحي، هذا المعنى الذي تعدد بتعدد المدارس الفكرية والاتجاهات الفلسفية، ورغم ذلك فهناك حدود دنيا من الاتفاق على اعتبار التربية هي «المؤثرات المختلفة التي توجه وتسيطر على حياة الفرد»[1]. فمعنى التربية إذًا «يشمل كل تنمية منصبة على قوى الفرد واستعداده، وتوجيهها. أما التعليم فيقصد به نقل المعلومات من المعلم إلى المتعلم، المعلم الإيجابي إلى المتعلم المتلقي الذي ليس له إلا أن يتقبل ما يلقيه المعلم، فالتربية إذًا ذات معنى واسع شامل لكل نهوض وترقية إيجابية تقوم بقوى الفرد، بينما التعليم ذو معنى محدود يتضمن نقل المعرفة، والتربية بالمعنى العام تقع على جميع نواحي الإنسان: الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية، والتعليم يقصد به أولا وبالذات نقل المعرفة إلى الفرد كوسيلة للتربية. فهو بهذا المعنى محدود جدا بالنسبة للتربية وعامل جزئي وليس فيه من إيجابية الفرد إلا بقدر ما يتلقى به المعرفة»[2].

انطلاقا من دلالات لفظتَي التعليم والتربية، واعتمادا على المعطيات

---

(1) التربية وطرق التدريس، صالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد، دار المعارف، الطبعة 12، ص: 13.

(2) المرجع نفسه، ص: 59، وكذلك معالم التربية، فاخر عاقل، بيروت، الطبعة الخامسة، 1983، ص: 48.

السوسيوثقافية للفترة التي ظهر فيها الشيخ ماء العينين بالجنوب المغربي، يمكن حصر العوامل التي أثرت في التربية وأغراضها بهذه المنطقة إبان الفترة المدروسة (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) فيما يلي:

أولا: التغيير الاجتماعي الذي حدث إثر ظهور الشيخ ماء العينين كمصلح اجتماعي ومجدد ديني ومفكر سلفي، فمنطقة الساقية الحمراء رغم الدور الذي كانت تؤديه في تاريخها الطويل في الربط بين شمال إفريقيا وجنوبها، فقد كانت كما يقول أحمد بن الأمين الشنقيطي «خاليةلا أنيس بها لشدة الخوف ولقحولتها دائما حتى عمرها الشيخ ماء العينين... »[1].

ثانيا: التغيير الثقافي الذي أعقب هذا التغيير الاجتماعي، أو قل بعبارة أصح كان موازيا له، يقول الدكتور محمد الظريف: «لقد كان الشيخ ماء العينين -رحمه الله- يعي أهمية العلم ويدرك قيمته وخطورته في قيام الأمم وسقوطها، ودوره في رفعها وحفظها، فبنى زاويته على التربية والتهذيب، وأقامها على صقل النفوس وشحذ العقول، فتمكن عن طريق ما وفره لها من أساتذة وعلماء، وما أقامه من مدارس وخزانات من خلق نهضة ثقافية كبرى داخل الصحراء وخارجها، وإحياء ما عرفته في سالف عهودها من نشاط علمي وأدبي»[2].

ثالثا: ويمكن أن نضيف إلى العاملين السابقين عاملا آخر كان له دور كبير في التأثير في التربية وأغراضها، ليس فقط في الزاوية المعينية، ولكن أيضا في ربوع الساقية الحمراء بدءا من نهاية القرن التاسع عشر، وأعني به مكانة الشيخ ماء العينين الدينية والروحية والاجتماعية وموقعه السياسي كممثل للسلطة المركزية، فقد كان يحظى باحترام ملوك الدولة العلوية، واستخلافهم له في تدبير شؤون الصحراء، كما كان يحظى أيضا بتقدير القبائل الصحراوية، وما لذلك من علاقة بعملية تكييف مناهج الدراسة ومقرراتها وأساليبها وأهدافها.

---

(1) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، ص: 437.

(2) ندوة سوس والصحراء المغربية: تواصل ثقافي وحضاري، ص: 42، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة 1999.

انطلاقا من هذه العوامل، وانطلاقا من استقرائنا للعديد من المصادر المعينية التي تحدثت عن سيرة الشيخ ماء العينين، يمكن القول إن الشيخ ماء العينين أسس زاويته على التربية والتعليم، فقد كان كما يقول الدكتور محمد الظريف: «يدرك أهمية التربية والتعليم ودورهما في صقل القلوب وشحذ العقول»[1].

وتنحصر العملية التعليمية عند الشيخ ماء العينين في تلقين المريدين والتلاميذ المقيمين بزاويته بعض مبادئ القراءة والكتابة اعتمادا على نصوص قرآنية ميسرة، وهي المواد التي كان يلقنها لأبنائه ذكورا وإناثا في البيت عندما ينتهي من تعليم المريدين وعموم التلاميذ في الزاوية، وغير خاف أن الغرض الأول من تعليم القرآن الكريم هو إطلاع التلاميذ على المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي على اختلاف أنواعه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، حتى تتكون في نفوسهم العقيدة الإسلامية الصحيحة، وحتى يتأدبوا بأدب القراءة فتتهذب أخلاقهم ويسلكوا في حياتهم الاجتماعية المسلك الذي يرتضيه الشرع الحكيم.

ومما يستهدف أيضا من تدريس القرآن للتلاميذ السمو بمستوى تفكيرهم في الحياة، وتذوقهم لأفانين القول، وتطويع ألسنتهم على بليغ البيان القرآني، وفصيح الكلام المعجز، وإمدادهم بثروة عظيمة في الألفاظ والعبارات والتراكيب السامية البارعة، والاطلاع على تعاليم الإسلام السمحة في سجلها القرآني الخالد، والوقوف على بعض مظاهر الإعجاز العلمي والتشريعي[2].

وارتبط التعليم بالتربية عند الشيخ ماء العينين، وهي تربية روحية تمتح من التصوف الإسلامي السني السلفي الصحيح الذي يدعو إلى المؤاخاة، وينبذ الغلو والتطرف، يقول ماء العينين بن العتيق: «فبعد أن يصلي (يعني الشيخ ماء العينين) الصبح بالناس، ينصرف قليلا عن مصلاه، ويقبل على تسبيحه وتقديسه وتهليله وسائر ما أراد من أوراد قريبا من ساعة، ثم يقرأ الحزب حتى تطلع الشمس، فيصلي الضحى،

(1) ندوة سوس والصحراء، ص: 43.

(2) راجع كتاب: الأصول الإسلامية للتربية، د. سعيد إسماعيل علي، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة 1992، ص: 210-211.

ويتلو بعد ذلك ما شاء الله من أوراده، ثم يرد وجهه نحو الجماعة، فيأخذ رضي الله عنه في تعليمهم على اختلاف طبقاتهم. فمنهم من يتعلم منه التفسير والحديث والأصول، ومنهم من يتعلم التصوف والحكم إلى غير ذلك من سائر العلوم النافعة»[1].

وخلاصة القول، إن التربية في الزاوية المعينية قد اصطبغت بصبغة الاستمرارية، فالعملية التربوية مستمرة تبدأ ببداية الحياة، وتنتهي بنهايتها، والهدف دوما هو الأفضل والأمثل.

ثم إن التربية في الزاوية المعينية تجري على نهج واضح ومتميز، وتعتمد طرقا معينة وأصيلة، وتتوسل بوسائط في الوصول، ليس فقط إلى عقل المتربي، بل إلى وجدانه كذلك قصد إعادة تشكيل عواطفه وتوجيه سلوكاته.

(1) سحر البيان، مخطوط، الورقة: 85.

تقديم كتاب
"فاتق الرتق على راتق الفتق"
للشيخ ماء العينين

ذ. مصطفى الزوتان
ثانوية القاضي عياض-عين عودة-تمارة

الحمد لله وحده، ولا دوام إلا له، والصلاة والسلام على نبينا ومخرجنا من الضلالة إلى الهداية، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

السادة الأجلاء، لي عظيم الشرف أن أكون أحد المشاركين في هذه الندوة العلمية الهامة، التي تهدف إلى إغناء الساحة الثقافية المغربية من خلال التعرض بالبحث والدراسة لجوانب هامة من تراثنا المغربي الصحراوي الذي أصابه التهميش والضياع ردحا غير يسير من الزمن، بفعل الاستعمار الذي عمل على طمس معالمه، غير أن الليل مهما طال وامتد، فإن آخره الصباح، وما إن أشرقت شمس هذا الأدب وما كانت قط قد أفلت، حتى ظهرت إرادات حسنة تدفعها وظيفتها الصادقة، فكشفت عنه الغطاء، وأماطت اللثام، وخلقت فينا عشقه وسبر أغواره. وهنا لابد من التنويه بالمجهودات الجبارة التي بذلها ويبذلها الدكتور محمد الظريف في هذا الاتجاه، والذي لست إلا واحدا من تلامذته.

أيها الحضور الكرام:

إن بحثي في هذه الندوة المباركة، موضوعه تقديم كتاب "فاتق الرتق على راتق الفتق" للشيخ محمد مصطفى الشنكيطي ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين،

مؤسس مدينة السمارة وباني زاويتها، والتي كانت وستظل منارة علم ومعرفة، ومركز إشعاع حضاري وثقافي، خاصة إن تكاثفت الجهود، وخلُصت النيات.

وقبل تناول موضوع البحث، أتقدم بالشكر لكل من ساهم من قريب أو من بعيد في تنظيم هذا الملتقى، وأخص بالذكر المجلس البلدي لمدينة تيزنيت كما أتمنى أن يكون هذا اللقاء لبنة من بين لبنات أخرى في اتجاه إعادة الاعتبار لهذا الأدب، ولماذا لا يكون ذلك عن طريق تنظيم "جامعة الشيخ ماء العينين الصيفية أو الربيعية أو حتى الشتوية.

* * *

يقع المؤلف في ثلاثمائة وأربعة عشر صفحة، وأوراقه من الحجم المتوسط، تحتوي الصفحة منها على ما بين ست وعشرين وثمان وعشرين سطرا، ويضم السطر منها ما بين ست عشرة وعشرين كلمة، وقد طبع الكتاب طبعة حجرية بفاس، وهي الطبعة المتوفرة الآن. والتي اعتمدت عليها في هذه الدراسة كثيرا إضافة إلى نسخة أخرى مطبوعة مع كتاب المؤلف "نعت البدايات وتوصيف النهايات"، وتتوفر منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط.

ولقد قام الناسخ في البداية بتقديم للكتاب ولصاحبه، وهو تقديم يفيد الدارس والقارئ كثيرا من حيث التعريف بالمؤلف الشيخ ماء العينين محمد مصطفى، وذكر بعض مؤلفاته، يقول: «كتاب فاتق الرتق على راتق الفتق" للشيخ العارف وليّ الله تعالى الشريف الحسني الإدريسي سيدي محمد المصطفى الملقب ماء العينين بن ولي الله تعالى الشيخ الإمام الغوث الهمام محمد فاضل الشنكيطي نفعنا الله بهما، وأعاد علينا من صالح دعواتهما، وهو أي الشيخ ماء العينين في قيد الحياة.

وقد جمع الله له بين علم الباطن والمشاركة في علم الظاهر، وله نفعنا الله به عدة تآليف، فمنها أرجوزة في الفقه تسمى "كفاية النبيه" وشرحها، ومنها نظْم آخر في المذاهب الأربعة سماه "شمس الاتفاق"، لقوله فيه:

سميته بشمس الاتفاق مسلما من كل ذي شقاق

وشرحه في ثلاث أجزاء سماه "دليل الرفاق على شمس الاتفاق"، وأرجوزة في الأصول وشرحها.

وله قصائد كثيرة جدا في كل علم، وكتب في التصوف منها هذه المنظومة وشرحها، و"نعت البدايات وتوصيف النهايات" و"مبصر المتشوف على منتخب التصوف" و"سهل المرتقى في الحث على التقى" و"الخلاص في حقيقة الإخلاص"، و"منيل البش فيمن يظلهم الله تحت ظل العرش"، و"مبتغى الناظر والسامع على تعلم العلم النافع" و"الإيضاح في مسائل الاصطلاح"، و"مفيد الحاضرة والبادية في شرح الأبيات الثمانية"، و"ملاذ الحبيب في الصلاة على النبي الحبيب"، و"المشرب الزلال في الصلاة على أفضل الرجال"، إلى غير ذلك. وتخرج على يده جماعة وافرة من العلماء.

وله دعوات وأحزاب، وله تلامذة وأتباع يختص كل واحد منهم بمعارف وأسرار لا يوجد عند غيره، وربما اعتقد كل منهم أنه المستقل بسره، قال بعض الأئمة من تلامذة والده في كتاب ذكر فيه بعض كراماته: رأيت ماء العينين كتب من ابتداء ثمن المختصر الأخير، وهو قوله: باب إن رق إلى منتهى أحكام العتق إلى آخر الكتاب، وحفظه في يوم واحد أيضا.

وقال أيضا: رأيت ماء العينين كوشف بعلم تفسير الكتاب العزيز ومعرفة علومه من ناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله وتفسير مبهمه، وغير ذلك من موضوعاته اللغوية واشتقاقها، ومعرفة استعاراته ومجازاته المرسلة وكناياته وإيجازاته وإطنابه، وغير ذلك، حتى كأنه ما اشتغل بشيء من غير ذلك الفن، وما كان اشتغل قط به من قبل، إلى أن وهبه الله من جزيل كراماته.

وقال أيضا في والده المذكور: وقد جدد الله تعالى على يد هذا الولي أربع وظائف من الإسلام كانت مندرسة، فصارت بحمد الله مشيَّدة: ذكر الله تعالى، **والصلاة لأول وقتها، وتغيير المنكر، والحجبة، أي احتجاب النساء وصيانتهن عن** التبرج.

وقال أيضا: وقد جدد الجهاد الأكبر، وكان قبله كالكبريت الأحمر، وهو

أصعب ما يقاسيه الرجال، ففي الخبر: «رجعنا من الجهاد الأصغر»، يعني جهاد المشركين بالسيوف، وتعريض المهج للحتوف إلى "الجهاد الأكبر"، يعني جهاد النفس على فطيمها من ملذاتها، والإعراض بها عن مألوفاتها. ولقد يسر الله له في كتابه تيسيرا بليغا، سمعته يوما وقد سأله تلميذه محمد الأمين: هل يمكن أن يختم إنسان كتاب الله في ليلة؟ فقال: نعم، والله لهنا الرجال الذين يختمونه كل ليلة أربع عشرة ختمة في الليالي التي لم تخرق لهم العادة، وأما ليالي خرق العادة فلسن من هذا القبيل.

وقال بعض الإخوان: إن الشيخ سيدي محمد بن أحمد الأسود قال: المختصر جمع الصالحين، إنه يختم القرآن في ركعة، فاستغربها بعضهم، فقال الشيخ -أي سيدي محمد الفاضل المذكور للذي استغربها-: ناولني أذنك، فناوله إياها، فقال فيها: كه، فأسمعه الله القرآن كله في لفظه كه، فقال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن رجال التمكين ليسوا كغيرهم.

وقال أيضا: إنه سمع الشيخ يقول: إن ولده ماء العينين خير منه، ونقل عن بعض تلامذة الشيخ أنه سمعه يقول: رفع الله صيتي في ابني ماء العينين.

وقال أيضا: كنت أعزم على إمساك ماء العينين معي، فلما رأيته، إذا هو أجرى الله على يده من فضله ما لا تسعه فيه أرضا، فإن مخبلين لا يمدان في دولة.

وقال أيضا: ومن كرم الله تعالى لماء العينين ما صح وثبت أنه لما قدم مكة حاجا وجد بها وليا مكاشفا مشهورا لولاية، يقال له عبد الرحمن أفندي، فتلقى له ذلك الولي وقال له: أخبرني بك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلمني بقدومك، أخبرني أنك ابنه، وأن أباك هو القطب، وأمرني أن أحج عنه. وكان الشيخ عبد الرحمن المذكور مواصل الإحسان على ماء العينين إظهارا للفضيلة.

وقال أيضا: حدثني الشيخ المصطفى بن عبد الدايم أنه سمع الشيخ يقول وقد سمع المصطفى يبكي: من أبكى ولدي سيدي المصطفى؟ فقيل له: أبكاه فلان، يعنون بعض التلاميذ، فقال: ما أحسن فلان، يبكي ولدي ماء العينين، وقد رأيت الملائكة يلوون له لواء فوق السماء.

وبالجملة فهو من عباد الله الصالحين، ومن أوليائه المحبين المقربين، فنسأل المولى الكريم أن يمدنا بمدده، ويتحفنا بالنظر إلى وجهه.

آمين آمين لا أرضى بواحدة   حتى تضيف لها ألف آمينا

قاله وخطه عبد ربه تعالى المهدي بن محمد الوزاني الحسني، لطف الله به بمنه، آمين».

موضوعات الكتاب

كتاب فاتق الرتق على راتق الفتق من الكتب التي يصعب تصنيفها داخل إطار معرفي معين ومتعدد، أو نوع من الأنواع الأدبية المعروفة، أي إنه كتاب يدخل في إطار "الأدب بمفهومه العام والواسع، وهو المفهوم الذي كان سائدا قبل ظهور نظرية الأدب، والذي كان يُعرِّف الأدب على أنه الحياة، على حد تعبير الدكتور عز الدين إسماعيل.

وقد نحا المؤلف في كتابه هذا منحى القدامى في تآليفهم من اللغة إلى العروض، ومن الفقه إلى التاريخ، ومن التصوف إلى الفلسفة، ومن علم الفلك إلى سر الحروف... ولعل تنوع الموضوعات فرضته طبيعة الكتاب -كما سبقت الإشارة- الذي هو شرح لمنظومة شعرية تبرز فيها قوة امتلاك صاحبها ناصية اللغة إلى حد التحدي، وعملية الشرح، كما هو معروف، تقتضي من صاحبه التوسع في بسط الظاهرة المشروحة، وتنوع أساليب الخطاب والميل إلى التبسيط بغية تقريب الفكرة إلى المخاطب، إضافة إلى الاحتجاج بالشاهد، وشواهده تتوزع بين القرآن والحديث والشعر والحكمة، وظاهرة الاستشهاد هذه أغنت الكتاب وزادت من أهمية المعرفة، إضافة إلى أنها دلت من ناحية أخرى على أن الرجل كان على عمق في التكوين وقدرة على الاقتناع ووجاهة في إبداء الرأي.

ولعل القارئ للكتاب يقف على ما سبق من خلال تتبع مراحل الشرح، وذلك من أول بيت يقوم المؤلف بشرحه، فهو بعد أن يأتي بالبيت المراد تفسير معناه، يقوم بشرحه شرحا لغويا مدققا واقفا عند كل كلمة، موظفا لأجل هذه الغاية شواهد من

القرآن ومن الشعر القديم، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الإعراب، فيعرب كلمات البيت كذلك دون استثناء، وهو إن كان في هذا البيت لم يوظف الشاهد النحوي من ألفية ابن مالك أو من غيرها من كتب النحو القديمة، فإنه احتاج إليه في العديد من الأبيات الأخرى المشروحة، وهذا شيء محمود، يجعل القارئ يقف على اختلاف المدارس النحوية، وعلى الشاذ والعام في تفسير وشرح الظاهرة الإعرابية.

وبعد هاتين الخطوتين ينتقل إلى الحديث عن معنى البيت، فيأتي من أجل ذلك بكل ما يساعد على تقريب المعنى إلى المخاطب، فينتقل به بين القرآن والحديث النبوي والشعر العربي، وكلام كبار الفقهاء والمفسرين والفلاسفة والمتصوفين، وهو حين يذكر الحديث النبوي، يذيله بروايته، ويسنده، كما أنه لا يستشهد بالحديث الضعيف. أما بالنسبة للآيات القرآنية فإنه يأتي بالآية المستشهد بها دون ذكر اسم السورة التي اقتبس منها، ولربما كان ذلك منه على اعتبار أن القارئ من حفظة كتاب الله عز وجل، وذلك على عادة كبار المؤلفين القدامى، كما أنه ذكر مجموعة من أسماء الفقهاء والمفسرين والنحاة كالأعمش، والقشيري، وابن قيم الجوزية، إضافة إلى استشهاده بنماذج من الشعر العربي القديم.

مسألة أخرى تثير الانتباه، وهي كثرة الاستشهادات الشعرية، فالشعر إلى جانب القرآن والحديث، شكل مادة أساسية في الكتاب، إذ تتجاوز الشواهد الشعرية الموظفة مائتي بيت شعري، مما أعطى الكتاب نكهة خاصة، كما أن هذا العدد ينم من ناحية أخرى على سعة المخزون الشعري عند الشيخ ماء العينين، وهو مخزون متنوع يشمل جميع أغراض الشعر من فخر وهجاء ورثاء وغزل، إضافة إلى المنظومات الفقهية والنحوية، كألفية ابن مالك ومختصر خليل، وغيرها.

لقد كان الشيخ ماء العينين فقيها وأديبا ومتصوفا وصاحب طريقة في التصوف، ولذلك نجد الرجل يوظف مجموعة من المصطلحات التي تنتمي إلى حقل التصوف، وبالضبط إلى عالم التربية الصوفية، إذ إنه تحدث في جزء من الكتاب عن العلاقة التي تجمع الشيخ بالتلميذ وواجبات كل منهما نحو الآخر، فتحدث عن الآداب مع الشيخ

في باب سماه "الكلام في الأدب مع الأشياخ". فهذا الأدب بالنسبة للشيخ هو الطريق إلى المطلق الغاسل للأوساخ"، وقد كان المؤلف مشبعا بآراء أشياخ الصوفية في هذا المجال، وخاصة كتاب أبيه وشيخه، الشيخ محمد فاضل "سيف المجادل"، وكتاب الشيخ محمد الخليفة "جنة المريدين".

ورغم اختلاف مصادر الشيخ وتنوعها، فإنه يرجع في تحديده للمنهج الصوفي إلى أصل واحد هو الاقتداء بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، «فللمريد آداب منها ما هو شرط كمال فيه، ومنها ما هو شرط صحة في سلوكه، والأصل في ذلك الاقتداء بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم البررة العدول». وهنا يأتي دور الشيخ المربي، الذي يعتبره الشيخ ماء العينين ضروريا لكل مبتدئ في سلوك الطريق، فأول ما يجب على السالك المريد، إنقاذ مهجته من المهالك شيخ يبصره بعيوب نفسه، ويخرجه من دائرة حبسه، إذ من لم يكن له شيخ يقوده إلى طريق الهدى قاده الشيطان لا محالة إلى طريق الردى.

إن التصوف بالنسبة للمؤلف هو ما وافق الشرع، واقتبس طريقه منه، وهو طريق الملائكة والخلفاء من النبيئين والمرسلين وعباد الله الصالحين، وهؤلاء الأصناف هم أعلم الخلق بالعلوم الإلهية التي هي أشرف العلوم وأحلها، قال الغزالي رحمه الله: ما يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالذكر، وآخرها الفناء بالكلية في الله، إلى أن تكون حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من مشكاة النبوءة وليس وراء النبوءة على وجه الأرض وجه يستضاء به، والأصل في ذلك تأديب الله تعالى لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم».

إن طريقة الشيخ الصوفية كما سبقت الإشارة- طريقة تبتعد عن الغلو، فهو رغم المكانة المتميزة التي يعطيها للشيخ في منظومته التربوية ونسقه الصوفي، إذ يجله ويقدره ويأمر المريد بطاعته والامتثال لأوامره، إلى درجة العبودية، «واعلم أن من آداب التلميذ مع الشيخ أن لا يزال ناظرا إليه بعين الإجلال، ويعتقد فيه درجة الكمال، ويتواضع له، ويخضع بين يديه، ويهابه غاية المهابة، ويعلم أن خضوعه له عز، وذلته بين

يديه رفعة...».

رغم هذه المكانة -كما قلنا سابقا- فإنه ينظر للشيخ على أنه بشر عادي يمكن أن يخطئ أحيانا، ويمكن أن يصيبه السهو، أي إنه ليس معصوما من الخطإ، إذ إن الشيخ ماء العينين يحذر المريد تحذيرا شديدا من ظن العصمة بالأشياخ التي ليست إلا للأنبياء. «قال الشيخ القشيري رضي الله عنه: ولا ينبغي للمريد أن يعتقد أن للمشايخ العصمة، بل الواجب عليه أن يذرهم وأحوالهم، ويحسن الظن بهم».

إن طريقة الشيخ ماء العينين الصوفية من خلال كتابه "الفاتق" هي في الواقع منهج تربوي متكامل يقتضي الصبر ومجاهدة النفس والاعتقاد الكامل في الله تعالى، وهو كذلك منهج بدايته الإرادة، ومعنى تجرد المريد من إرادته، ونهايته الوصول، أي الوصول إلى الكشف والمعرفة الحقيقية، أما وسائل هذا المنهج فهي القرآن والسنة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، والدعوة إلى نبذ الخلاف بين الطرق الصوفية، فكان بذلك داعية من دعاة وحدة الفكر ووحدة المذهب، «ثم إن الشيخ ماء العينين قال عدة مرات: نحن أمام شريعة متكاملة يبين لنا الرسول عليه الصلاة والسلام ما يجب علينا فيها، وما يحرم وما ينبذ، فليس هناك شيء منها تنبذه الأحكام الشرعية بقي مسكوتا عنه لم يبينه لنا النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ادعى ذلك فقد كفر، وكذلك من ادعى بضرورة اتباع فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله التي أوصلها إليها السلف الصالح كما هي... أما طريقته فهي مستحسن الشرع، فمن اتبعني فعليه بمستحسن شريعة الله المبنية في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام...».

وهكذا نرى أن الحقيقة الصوفية عند الشيخ ماء العينين هي حقيقة واحدة، وهي الوصول إلى السمو بالفرد عن قشور الحياة، والارتقاء به من التدبير إلى التفويض واتباع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. لقد نادى الشيخ ماء العينين بضرورة المؤاخاة بين الطرق الصوفية، يقول في منظومته "إني مخاوي لجميع الطرق":

إني مخاوٍ لجميع الطرق أخوة الإيمان عند المتقي
ولا أفرق للأولياء كمن يفرق للأنبياء

قال تعالى: المؤمنون إخوة وعدم التفريق فيه أسوة

يقول الدكتور محمد الظريف: «وينطلق الشيخ ماء العينين في هذا الأساس الوحدوي الذي بنى عليه طريقته من روح الإسلام الوحدوية التي تستهدف توحيد الجماعة الإسلامية، ومن الواقع الاجتماعي والديني والسياسي للمغرب في نهاية القرن التاسع عشر، ففي هذه الفترة، وبينما كانت القوات الاستعمارية تحاصر المغرب من جميع الجهات، وتتحين الفرص للانقضاض عليه، كانت الصراعات القبلية تمزق كيانه الداخلي، وكان على الطرق الصوفية أن تضطلع بدورها التاريخي المعهود، وتواصل رسالة عبد الله بن ياسين والمهدي بن تومرت والشرفاء السعديين والعلويين، وتعمل على تعبئة الجماهير وإصلاح ذات البين بينها، وتهيئتها للدفاع عن البلاد، غير أن معظمها كان يتغافل عن هذا الواقع المأساوي، ويتجاهل ما يهدد المغرب من أخطار، ولا يهتم إلا بجمع الصدقات والهبات ونشر البدع والاعتقادات الساذجة والسلوكات التواكلية المثبطة للعزائم، فصار هذا الأمر يتطلب المعالجة، فبادر الشيخ ماء العينين إلى إصلاحه بما صلح به أوله، فبنى طريقته على أساس التوحيد والتربية التي تقوم على التخلي عن الشقاق والنزاع والتواكل والتحلي بالصبر والإيمان... وقد تمكن الشيخ ماء العينين بفضل هذه المبادئ الوحدوية التي بنى عليها طريقته من توحيد القبائل الصحراوية وتعبئتها لمواجهة المستعمر، وقيادتها للوقوف أمام الأطماع الأجنبية التي كانت تهدد وحدة المغرب لمدة طويلة».

وفي إطار الحديث عن طريقة الشيخ ماء العينين الصوفية، نعود إلى كتابه "الفاتق"، حيث نجده يؤكد على ضرورة التعلم والتزود بمختلف المعارف، لأن التعاطي للعلم، هو الطريق الأوحد للمعرفة الحقة بالشريعة الإسلامية، فالعلوم عند الشيخ فتح رباني، ونور إلهي يفتح به على المتعلقين بالحب الإلهي: «... اتقوا الله بصدق العبودية، وحسن التعبد يفتح عليكم خزائن العلوم».

كما كان الشيخ ماء العينين يدعو مريده إلى اتباع الأئمة والسلف الصالح، يقول:

إن العلـوم بـــلا اتبـــاع تتعـــبُ فخـذ اتباعـا كـي تفـوزَ وترغــبُ
مـــن يتَّــق الله العليــم يعلِّمْـــه وهـو العليـم بكـل شــي يُرغَــبُ
إن التقــي مـــن الأنـــام معظَّـــمٌ وعَطِيُّــها مخـذول نفْـس تُرْهــبُ
إن كنت ترغـب في النفـائس رغبـة فعليك رهبةَ من يُخـاف ويرهب
وقليـــل علـــم باتبـــاع يكـــثر وكثـــيرةُ مـــع غـــيره لمنضِــــب
لا تطلبـوا علمـا بـلا عمـل يُـرى إن العلــوم بـــلا اتبـــاع تتعـــب

لقد أكد الشيخ ماء العينين أن طريقته هي طريقة الله على محجة القرآن والسنة، «فعندما ملأت الساحة طرق شتى تحت مسميات عديدة ومختلفة، وكل واحدة يدعـي أصحابها أنها هي الطريق الموصل إلى الله عز وجـل، أراد أن يبين لهم أن طريق الإله تجمع كل المسلمين وتوحدهم، وتنبذ تفرقتهم، وأنها ليست في سلوك فلان وأصحابه، أو ذاك وأتباعه، وإنما هي بـالورع والصـدق والتصديق، والزهـد واليـأس مـن الطمـع، إضافة إلى هـذا وردت إشـارة إلى خطـورة كـون كثـير مـن المشعوذين اتخذ التظـاهر بالتصوف للتكسب، والنيل من العلماء والانغمـاس في الملـذات، ممـا جعـل الشـيخ مـاء العينين يبين أن المتصوفة منهم من على صواب عرفوا بالزهد، والتورع عـن جمـع المـال والالتجاء للناس، والرغبة في ابتزاز أموالهم».

ومن بين المواضيع التي تطرق إليها المؤلف في هذا الكتاب وأسهب الحديث فيها، موضوع الحب، فيذكر درجات الحب وألقابه: «المحبة صفاء المودة، وقيل: الميـل الدائـم بالقلب الهائم، ولها أربعة ألقاب: الأول: الحـب، الثـاني: الـود، الثـالث: العشـق، وهـو إفراط المحبة، والرابع: الشغف، وهو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلق به».

ثم ينطلق المؤلف لإعطاء مجموعة من التعاريف للمحبة، ليخلص إلى قول الفخـر الرازي: «واعلم أن الأمة وإن أنفقوا في إطلاق هذه اللفظة، لكنهم اختلفوا في معناهـا، فقال جمهور المتكلمين: إن المحبة نوع من الإرادة لا تعلق لها بالجائزات، فيستحيل تعلق المحبة بذاته تعالى وصفاته، فإذا قلنا: نحب الله، فمعناه نحب طاعة الله وخدمته، أو نحـب ثوابه وإحسانه، وأما العارفون فقد قالوا: العبد قد يحب الله لذاته، وأما حب خدمتـه أو

حب ثوابه فدرجة نازلة، واحتجوا بأن قالوا: إن وجدنا أن اللذة محبوبة لذاتها، والكمال أيضا محبوب لذاته، أما اللذة فإنه إذا قيل لنا: لم تكتسبون؟ قلنا: لنجد المال، فإذا قيل: و لم تطلبون المال؟ قلنا: لنجد المأكول والمشروب. فإذا قيل: و لم تطلبون المأكول؟ قلنا: لتحصل اللذة ويندفع الألم، فإذا قيل: و لم تطلبون اللذة وتكرهون الألم؟ قلنا: هذه غير معللة، فإنه لو كان كل شيء إنما كان مطلوبا لأجل شيء آخر، لزم إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فلابد من الانتهاء إلى ما يكون مطلوبا لذاته، وإذا ثبت ذلك فنحن نعلم أن اللذة مطلوبة الحصول لذاتها، والألم مطلوب لذاته لا لسبب آخر.

لقد كان إيمان الشيخ ماء العينين قويا بأن الحب تجربة ذاتية في جوهرها، تختلف من شخص إلى آخر حسب الظروف الاجتماعية والوضع الاقتصادي، وكذلك حسب التكوين السيكولوجي والنفسي، والذي تتداخل مجموعة من العوامل في تحديده: «... اعلم أن الناس قد كثر كلامهم في وصف الود أي الحب، ونعت العشق، فسلك كل منهم مذهبا أداه إليه نظره واجتهاده... إن أهل الطب يجعلون العشق مرضا يتولد من النظر والسماع، ويجعلون له علاجا كسائر الأمراض البدنية، وهو مراتب ودرجات بعضها فوق بعض، فأول مرتبة منه تسمى الاستحسان، وهي المتولدة عن النظر والسماع، ثم تقوى هذه المرتبة فتصير محبة، والمحبة هي الإيمان الروحاني، فإذا قويت هذه المرتبة صارت خلة، والخلة بين الأديبين هي تمكن محبة أحدهما من قلب صاحبه حتى تنشط منهما السرائر... فإذا قويت هذه المرتبة صارت هوى، والهوى هو أن المحب لا يخالطه في محبة محبوبه تغير، ولا يداخله تلون، ثم يزيد الحال فيصير عشقا، والعشق هو إفراط المحبة حتى لا يخلو المعشوق من تخيل العاشق ونكره وذكره، ولا يغيب عن ذكره وفكره وخاطره، فعند ذلك تشتغل النفس عن تنبيه القوى الشهوانية، فتمتنع عن الشراب والطعام لاشتغال النفس عن القوى الشهوانية. ويمتنع عن الفكر والذكر والتخيل والنوم لاستضرار الدماغ، فإذا قوي العشق صار مقيما. في هذه الحالة لا يجد فضلا لغير صورة المعشوق، ولا ترضى نفسه سواها، فإذا تزايد الحال صار

ولَها، ويصير موسوسا لا يدري ما يقول ولا أين يذهب، فحينئذ يعجز الأطباء عن مداواته، وتقصر آراؤهم عن معالجته لخروجه عن الحد الضابط».

ولقد أسهب المؤلف في تناول هذا الموضوع، إسهابا يفي بالغرض، معتمدا في ذلك على توظيف مجموعة من الشواهد الشعرية والنثرية من الأدب العربي القديم، ومما يدل على تمكن الشيخ من موضوعه وامتلاكه له، استشهاده بالفلسفة اليونانية في شخص جالينوس: «قال جالينوس: العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاثة مساكن: التخيلُ في مقدمه، والفكر في وسطه، والذكر في مؤخَّره، فلا يكون أحد عاشقا حتى إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره، فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال القلب وكبده، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر للمعشوق، لتكون جميع مساكن النفس اشتغلت به، ومتى لم يكن كذلك لم يكن عاشقا، فإذا وهن العاشق خلت هذه الأماكن، فرجع إلى حال الاعتداء».

لقد تعددت الموضوعات التي تناولها الشيخ ماء العينين في كتابة "الفاتق" وهو تعدد وتنوع الرصيد المعرفي الذي كان يمتلكه المؤلف، وقد تحول هذا التنوع المعرفي إلى ظاهرة الاستطراد، فالكاتب ينتقل مما هو لغوي نحوي، إلى ما هو فقهي شرعي، إلى ما هو تاريخي، فهو بذلك كشكول متنوع من الموضوعات، ففيه الحديث عن الحب والكراهية، وعن إعجاز القرآن، وعن المسائل الفقهية، وفيه الحديث عن أسرار الحروف، وفيه الحديث عن العقود الشرعية، وعن التكاليف الدينية، وفيه الحديث عن التربية وعن مراتب الصوفية، وعن الزواج والطلاق وعن الجماع...

ولعل من المواضيع التي يظهر فيها -بوضوح وجلاء- منهج الشيخ في تناوله للظاهرة التي يطرحها أمام القارئ تعرضه لمسألة الوجود، وما يتفرع عنها من مسالك كلامية، يقول: «اعلم أن الموجود إما أن يكون واجبا لذاته، وإما أن يكون ممكنا لذاته، أما الواجب لذاته فهو الله تعالى فقط، وأما الممكن لذاته فهو كل موجود سوى الله، وسبب تسمية هذا القسم بالعالم أن وجود كل شيء سوى الله يدل على وجود الله

تعالى... إذا عَرَفْتَ هذا فنقول: كل ما سوى الله تعالى يدل على وجود الله تعالى... إذا عرفت هذا، فنقول: كل ما سوى الله تعالى إما أن يكون متحيزا. وإما أن يكون صفة للمتحيز، فهذه أقسام ثلاثة: القسم الأول: المتحيز، إما أن يكون قابلا للقسمة أو لا يكون، فإنه هو الجسم، وإن لم يكن كذلك فهو الجوهر الفرد، فأما الجسم إما أن يكون من الأجسام العلوية، أو من الأجسام السفلية، أما الأجسام العلوية فهي الأفلاك والكواكب -وقد يشرع أشياء أخرى سوى هذين القسمين- مثل العرش والكرسي وسدرة المنتهى واللوح والقلم والجنة، وأما الأجسام السفلية فهي إما بسيطة أو مركبة، وأما البسيطة فهي العناصر الأربعة، وأحدها الأرض بما فيها من المفاوز والبلاد المعمورة، وثانيها كرة الماء وهي البحر المحيط، وهذه الأبحر الكبيرة الموجودة في هذا الربع المعمور وما فيه من الأودية العظيمة التي لا يعلم عددها إلا الله، وثالثها كرة الهواء، ورابعها كرة النار أقسامها وتباين أنواعها... وأما الممكن الذي يكون صفة للمتحيز فهو الأرواح العلوية إما غير متعلقة بالأجسام وهي الأرواح الفلكية، وإما غير متعلقة بالأجسام وهي الأرواح المطهرة المقدسة... إلا أنه لما ثبت أن واجب الوجود لذاته واحد، ثبت أن كل ما سواه ممكن لذاته، فيكون محتاجا في وجوده إلى إيجاد الواجب لذاته... ».

هكذا إذن يظهر منهج الشيخ في تناول قضاياه، وهو منهج يتغيى الإيضاح والتفسير وتقريب المعنى إلى المخاطب، لذلك فهو ينطلق من طرح القضية المراد شرحها، ثم يشرع في تفصيلها وتبويبها، واستقراء كل الجوانب المكونة لها بالاعتماد على المقدمات المؤدية إلى النتائج المتوخاة. إنها طريقة الشيخ المربي، والمعلم الملقن لمادته، المتمكن من أدوات التلقين والتدريس، والمالك لأسلوب الاستمالة والإقناع، هذا الأسلوب الذي يتضح أكثر حين تناول الشيخ مسألة الإعجاز القرآني، يقول في هذا الموضوع:

«واعلم أن العرب اتفقوا على أنه اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنهم اتفقوا على أنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية وراءها،

فدل ذلك على كونه معجزا، أحدها أن فصاحة العرب أكثر من وصف المشاهدات، مثل وصف حرب أو بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم، ومع ذلك حصلت.

وثانيها أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق، وتنزه عن الكذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره، و لم يكن جيدا. ألا ترى أن لبيد بن أبي ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما، و لم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة، جاء بالقرآن فصيحا كما ترى.

وثالثها أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت أو البيتين، والباقي لا يكون كذلك، وليس كذلك القرآن، لأنه كله فصيح، بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء، فإنه إذا كرر لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة، و لم يظهر التفاوت أصلا.

وخامسها: أنه اقتصر على إيجاب العبادات، وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، وترك الدنيا، واختيار الآخرة، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة، وهو لم تقل فيه.

وسادسها: أنهم قالوا: إن شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر زهير بن أبي سلمى عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن، جاء فصيحا في كل الفنون على غاية الفصاحة، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: ﴿فلا تعلم كل نفس ما أخفي من قرة أعين﴾، وقال تعالى: ﴿وفيهما ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾، وقال في الترهيب: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾، وقال: ﴿آمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا

هي تمور﴾ أو ﴿آمنتم...﴾ الآية.

وسابعها: أن القرآن أصل العلوم كلها، فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلم النحو واللغة وعلم الزهد في الدنيا، وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق».

هكذا إذًا تبرز شخصية الشيخ ماء العينين مصلحا دينيا واجتماعيا حمل لواء الدعوة إلى الإصلاح وإلى إعادة التربية على هدي القرآن والسنة، معتمدا في ذلك على ما امتلكه من صنوف المعرفة، وما امتاز به من فصاحة وبيان، وما توفر عليه من شهرة ونفوذ كبيرين، حتى أصبح المحور الأساسي لحركة إصلاحية سلفية. وقد كان الشيخ ماء العينين واعيا بدوره «كداعية توفر على شهرة ونفوذ كبيرين دعمتهما سلطات مكانته، إضافة إلى أن الله جذب إليه قلوب الناس. وشعورا منه بالخطر الذي جره الخلاف للمسلمين، حاول توظيف كل مواهبه وحيثياته في جمع الصف، ونبذ الخلافات الطرقية والمذهبية، وخصوصا بين أهل العلم والفكر، نظرا لخطورة مراكزهم، إذ لم تكرس جهودهم للتعاون، فبالمجادلة واللين والرفق واستخدام جميع وسائل الإقناع، حث مشايخ الطرق على نبذ الخلافات والتنابز بالألقاب، تلك التشددات التي سربت إلى الأمة العربية حالة الضعف والتشرذم والتطاحن الذي ينهك جسم كل عداء، وحاول إرجاع كثير من تصرفاتهم إلى الكتاب والسنة ليبين لهم وبنفس تلك النصوص أيضا أن الخلاف لا يُرضي الله ورسوله... وظل الشيخ ماء العينين داخل ذلك المجتمع الصالح صابرا على الحوار، يبين لهم بأن التمييز بين ظاهر الشريعة وباطنها ما هي إلا وسائل لتمزيق صفوف المسلمين وتكسير شوكتهم، وتهميش جماعات منهم، والنيل من بعضهم حتى لا تتوحد صفوفهم في مواجهة أعدائهم، ولذا ظل الشيخ ماء العينين رافضا أي فرقة بين أهل الحق من جماعة المسلمين، فكان يقول: إذا كانت هذه الطرق تعني ملازمة الطاعة وتعليم الناس السلوك القويم ومحاولة إصلاح القلوب بالابتعاد عن الشبهات، وملازمة الطاعات، فإن هذا هو عمل السلف الصالح... «لقد استطاع الشيخ ماء العينين من خلال استراتيجيته المعرفية الجهادية ومن خلال تحركاته ومن

خلال مؤلفاته الكثيرة ومن بينها، بالطبع، كتاب "فاتق الرتق على راتق الفتق" أن يؤسس حركة إصلاحية دينية واجتماعية تدعو إلى إعادة تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات على منهج الإسلام الصحيح، ونسبت هذه الحركة إلى مؤسسها الشيخ ماء العينين فكانت الطريقة المعينية تعمل على إصلاح المجتمع وإعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية وفق النهج الإسلامي السليم، وذلك لمواجهة التحديات الأجنبية التي صارت تهدد الكيان الوطني والقومي والديني للمغرب. وقد عبر قادة الحركة عن مواقفهم الإصلاحية بدعوة القبائل الصحراوية إلى الاتحاد تحت لواء الطريقة المعينية، بتربية المريدين ونشر القيم المثالية بينهم عن طريق الأذكار والأحزاب والرياضات الروحية والأشعار الصوفية التي تقتل فيهم مظاهر الانحراف والفساد، وتنمي في أعمالهم روح التعاون والإخاء والحب، وغيرها من القيم المثالية التي تؤدي إلى التماسك والاتحاد».

قيمة الكتاب الأدبية

ينبغي التأكيد قبل حديثنا عن قيمة الكتاب الأدبية على أن الشيخ ماء العينين كان -بالإضافة إلى ما سبق ذكره من مميزات- شاعرا فذا، وأديبا بارعا، ملك ناصية اللغة وانساقت له معانيها، وتمكن من أدواتها، وظل في شعره ونثره مبتعدا عن التكلف والتصنع، لذلك أمكن القول بأن سلفيته تتجاوز الإصلاح الديني والمجتمعي والدعوة إلى الجهاد، لتدعو إلى إصلاح اللغة وفكها من القيود التي تكبل جماح الفكر، وبهذا فإن دعوته من هذه الناحية تعانق دعوة محمد عبده الذي يقول: «وانطلق صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: أولهما تحرير الفكر من القيود، وثانيهما: تحرير اللغة... ».

وللوقوف على شاعرية الرجل وثورته على التعقيدين: اللفظي والمعنوي، نورد مقطعا شعريا يشهد على شاعريته من جهة، وعلى البعد الإصلاحي الذي ضمنه أشعاره، وفي الشاهد دلالة على الغائب، يقول من قصيدة وعظية إرشادية:

تغافل عن الإخوان في كل زلة وإياك والتبصير في زلة الأخ

وكن راحم المسكين واصل رحمه وإياك أن تبدو له بالتبلخ

وإيـــاك والتقصـــير فيمـــا أحبـــه وساو زمان العسر في ذاك والرخـي

وداوم علـى تقـوى الإلـه وعلمـــه تفـز وتنـل مـا رجـوت بـخ بـخ

لقد استطاع الشيخ ماء العينين أن تكون له اليد المثلى في تأسيس مدرسة شعرية متميزة، ظلت شامخة بأعلامها، وستبقى كذلك، لأنـها، ورغـم اعتمـاد شعرائها علـى النمط الشعري التقليـدي في بنـاء قصـائدهم مـن وقـوف علـى الأطـلال، وبكـاء علـى الرسوم والديار، ووصف التعلق والشوق للحبيبة، ووصف أيام اللـهو والوصـال معـها، ومن وصـف للراحلـة، ومـا تمتـاز بـه مـن قـوة وصلابـة وسـرعة، ومـهارة في مطـاردة الفريسة، ثم بعد ذلك الانتقال إلى المدح الذي غالبا ما يكون هو الغرض الأساسي في القصيدة، وعادة ما يختم الشاعر قصيدته بالحكمـة الـتي تعتـبر في الواقـع خلاصـة تجربـة الشاعر الحياتية، أو يختم قصيدته بالصلاة على الرسول الهـادي صلـى الله عليـه وسـلم، وهذه ميزة اختصت بها قصائد شعراء الصحراء المغربية.

قلنا: رغم هذا النمط التقليدي الجاهلي في قصائد شعراء المدرسـة المعينيـة، «فإنـه ليس تقليدا نمطيا فنيا للقصائد الجاهليـة، ولكنـه يتصـل بالحيـاة الصحراويـة في الجنـوب المغربي اتصالا وثيقا، ويعبر عنها تعبيرا صادقا، فليست الساقية الحمراء ووادي الذهـب وغيرها من المناطق التي ترعرعت فيها الحركة المعينية، جنات تجري مـن تحتـها الأنـهار، ولكنها تشبه في كثير من معالمها صحاري تهامة ونجد والحجاز، وغيرها من الصحاري العربية التي تغنى بها الشعراء الجاهليون في أشعارهم».

إن هذا التشابه النمطي الذي سبقت الإشارة إليه لا يلغي خصوصيات القصيـدة الصحراوية في شكلها ومضامينها، والـتي كـانت مـرآة عاكسـة للحيـاة الصحراويـة في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية، ثم إن أغراض الشـعر الصحـراوي قد تنوعت وتعددت تنوع هموم الإنسان الصحراوي وتوزع اهتماماته.

ولعل ما يميز الأدب الصحراوي عامة والمعيني على وجه الخصـوص شـعرا ونـثرا «أنه يرتبط بالتربية الخلقية والفكرية والروحية، إذ إنـه يجمـع بـين سـائر الوظـائف الـتي اكتسبها خلال التاريخ الإسلامي حسبما تؤكده أقوال الرسول صلى الله عليـه وسـلم،

وحسبما تشير إليه بعض الأعمال الأدبية التي وضعت لتربية الفكر والذوق، وتطهير النفس والسمو بها كالأدب الصغير والكبير، والبيان والتبيين، وغيرها من الأعمال التي وضعت أساسا لتربية أبناء الأمراء وتغذية أفكارهم بالأشعار الرقيقة والخطب البليغة والأخبار الطريفة... وينسجم هذا المفهوم التربوي للشعر في كثير من جوانبه مع طبيعة الثقافة المعينية، وما تنبني عليه أساسا من اهتمام بالجماعة الإسلامية أخلاقيا وروحيا وفكريا، كما ينسجم وخصوصيات المرحلة التاريخية وما تقتضيه من تشبث بالقيم الإسلامية، وتعلق بتراث السلف الصالح باعتباره أسلوبا أصيلا لمواجهة التحديات الاستعمارية النصرانية».

أما من حيث الأسلوب، فإن الأدب الصحراوي يمتاز بالقوة والمتانة والجزالة، وهي الظاهرة العامة التي تطبع هذا الإنتاج، ولا غرابة في ذلك، فالمعجم اللغوي في نهاية الأمر ليس إلا انعكاسا لواقع معيشي ومستوى حضاري بثقافته وعاداته ووسائله وأدواته، ومن ثمة كان الأدب المغربي الصحراوي أدبا صحراويا بما في الكلمة من معنى، من حيث تصويره لواقع العيش للقيم الأخلاقية السائدة كالكرم وعزة النفس والذود عن الحرمات والتباهي بالسلطة والنفوذ، والانتصار على الأعداء والخصوم، وكذلك تصويره للثقافة السائدة في المجتمع، ونوع التعليم الممارس فيه، وكذلك العلوم والمتون التي تلقن للمتعلمين... كما أن هذا الأدب -خاصة في الجانب الشعري منه- قد عكس بأسلوبه المتميز البعد النفسي للإنسان الصحراوي، ومن أهم سماته التحدي والقدرة على المواجهة والتكيف مع الظروف مهما صعبت.

أ-قضايا لغوية: لقد عمد المؤلف إلى شرح مفردات منظومته الشعرية شرحا لغويا، معتمدا في ذلك على قواميس اللغة العربية لتحديد المعنى الأصلي للكلمة، ومتحدثا في الآن نفسه عن المعاني المتعددة التي تحملها الكلمة في السياقات المختلفة، مستندا على اختلاف معانيها في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف، وفي أقوال العرب القدامى.

إن هذا التتبع الدقيق الذي نهجه المؤلف في التعاريف اللغوية يؤكد على عمق الرصيد اللغوي الكبير والمتميز الذي يمتلكه الرجل على نحو يمكننا من القول بأن الشيخ ماء العينين كان مدرسة لغوية تمشي على رجليها، ونتابع مع المؤلف نفس الدقة ونفس التتبع والتفسير والبحث عن العلة.

وينبغي أن نشير -ونحن نتحدث عن الكتاب كظاهرة أسلوبية- إلى أن المؤلف يقوم بشرح منظومته الشعرية انطلاقا من كونها تحديا لغويا لم يسبق إليه أحد من القدامى، ولا حاول معاصروه دخول نفس التحدي ولو على سبيل التشبيه والتقليد والمباهاة. يقول: «ولعل تحدي الناظم بهذه القصيدة التحريض على العلم الظاهر والتصوف الباطن، حتى تشاهد أيها الناظر ما هي فيه من البلاغة والجناس اللفظي والمعنوي، وغير ذلك من الفصاحة وكثرة المعاني، مع قلة المباني، وحتى تشاهد ما وضعتُ له مثلا من كون الخلق مجتمعا وهو متفرق، وكونه متفرق وهو مجتمع، وكونها جعلت على عدد شهور العام، قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا﴾، والشهور لا متلاصقة ولا متفرقة، وأيامها ولياليها، لأن فضل الله لا ينقص بالعطاء، وحتما لم أحسدك على الإدلاء، وبنيت لك ما يحسن في البدء والانتهاء، ولو تتبعت لك ما في ذلك، «أظهرت ما خفي هنالك، لَحَارتْ منك العقول، وكلّت عنه النقول، والله شهيد على ما أقول... ».

المتن المشروح إذًا في هذا الكتاب ظاهرة أسلوبية معقدة، وذلك من منظورين: الأول: تعقيد لفظي، والثاني: تعقيد معنوي، فبالإضافة إلى توظيف غريب اللفظ، غير المتداول منه والذي يحتاج من الدارس الاستئناس بمعاجم اللغة للتقرب من مفهومها، فإننا نجد الشيخ ماء العينين قد عمد إلى تكثيف استعمال المصادر وأسماء الأفعال والمفعول، وأشباه الجمل من الجار والمجرور، أو من المضاف والمضاف إليه، وأسماء الإشارة للبعيد والقريب، وهو تكثيف يشمل كل أبيات القصيدة، ونشير إلى ذلك بالاستشهاد بالبيتين الأولين، وفي الشاهد دلالة على الغائب كما يقول المثل: [بالرجز]

زُرعَ رزْقُ راع زَرْع رَوْح   وذاتُ زرع وراء روْح

وراغَ ذا وراء ذاك وإذا أم رآه رأي راض ذا أذى

أما من حيث التعقيد المعنوي، فإنه من الوضوح والجلاء، وهي غاية من غايات الشيخ من تأليفه للكتاب، الذي هو بالأساس شرح لمعاني هذه القصيدة، والتي يبدو أن معانيها أشكلت على تلامذة الشيخ وأتباعه ومريديه والمهتمين بإنتاجه بشكل عام. فاهتمامه إذًا لم يكن اهتمام بجانب على الآخر، بل إنه كان اهتماما مزدوجا يعمل على الموازاة بين المباني اللفظية والدلالات المعنوية، وقد كان هذا الاهتمام مقصودا ومعبرا عنه، «... وفيه من البلاغة والجناس اللفظي والمعنوي وغير ذلك من الفصاحة وكثرة المعاني مع قلة المباني... ».

إن طبيعة الكتاب الذي هو بالأساس شرح وتذليل لمعاني قصيدة شعرية ذات بعد صوفي تربوي تعليمي وأخلاقي كذلك، وهكذا فقد تنوعت مواضيع وأساليب الكتاب تنوع هذه الاهتمامات، وتنوع أساليب الكتاب كان ناتجا عن تنوع الأهداف التي كان الشيخ يسعى إلى تحقيقها من خلال هذا الشرح، فهناك أسلوب الفقيه المتمكن من أدواته الفقهية، والذي يسعى إلى الإقناع بالحجة الشرعية المستمدة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة وكبار الفقهاء والتابعين وأرباب المذاهب، وهناك أسلوب وتزويق بلاغي لفظي ومعنوي، وكذا معالجته لمجموعة من قضايا الأدب العربي خاصة القديم منه، واستشهادات شملت مجالي الشعر والنثر، وإن كان الشاهد الشعري أكثر حضورا.

كما أن الرجل كان لغويا وبلاغيا عالج قضايا اللغة والبلاغة والنحو بأسلوب اللغوي المتمكن الحافظ للمتون، العارف باختلاف المدارس النحوية، الممتلك لعلوم الآلة.

وللكتاب أيضا نكهته الصوفية، والتصوف أدب رفيع بلغته الإيجابية وبعده الدلالي ومصطلحاته الخاصة، والشيخ ماء العينين رجل من رجالات الصوفية الكبار، وصاحب طريقة في التصوف، له أتباعه ومريديه المتعلقين بطريقه، ينتظرون إشاراته. وكان هو يمارس هذه المهنة التربوية بامتياز، فقد تحدث عن الأدب مع الأشياخ،

«ولنصرف العنان إلى الكلام في الأدب مع الأشياخ، إذ هو الطريق المطلق الغاسل للأوساخ... والمبتدئ غير مستقل بالاختيار لأنه غير مستغن عن الشيخ في تعليم الآداب الظاهرات والشرائط المتعلقة بأعمال العبادات».

ومن اهتمام الشيخ بموضوع التصوف لغة ومعاني وأبعادا وأهدافا، فقد خص له فصلا كاملا يجد فيه القارئ بالإضافة إلى الإشباع الفكري والروحي، نمطا من أنماط الكتابة الصوفية الراقية بأبعادها وإيحاءاتها ومصطلحاتها المتخصصة، ولنقف مع الشيخ وهو يقدم بمجموعة من التعريفات لمراتب التصوف:

«...المريد من فنيت حظوظه النفسانية، وخمدت شهوته البشرية، المريد من قام برسوم الآداب بعد تصحيح المتاب، المريد ميت في حضرة أستاذه، منفذ لما يأمر به، في مقام التجريد، قائم بالتسديد، المريد ميت شهيد لا يخرج عن التحديد».

ويقول في تعريفه للتلميذ: «التلميذ من طلب الإقامة، هو باق على العادة، التلميذ يحضر ويغيب ويخطئ ويصيب، التلميذ من حصلت له النسبة ولو بالرواية، وإن لم يحصل له تحقيق الدراية، التلميذ واقف على الباب، وأحد جملة الأحباب، التلميذ له فضل الانتماء والترداد، ولو حصل له ذلك في بعض المواسم والأعياد، التلميذ النحرير من قصد التحرير، التلميذ الطبيب من يحرص على التقريب، التلميذ بين النجباء من يفوق الأولياء».

ويقول في تعريف المربي: «...المربي من كُشفتْ له طرق النجاة، فسلك عليها، ثم أذن له بالتسليك والدعاء إليها، المربي خلقه واسع وعلمه أبدا نافع، المربي مخصوص بحسب البشارة وعلم الإشارة، المربي يكشف له عن القلوب، ويحببه الرب لجميع القلوب».

ويقول في السياق نفسه معرفا بالشيخ: «الشيخ من علمك بقاله، وأنهضك بحاله، الشيخ من أفاد الطالب وفتح المطالب، الشيخ من كمل في ذاته وكمل في صفاته، الشيخ من إذا حللت حماه وجدت به الغنى عما سواه، الشيخ من يفيدك في الشهادة والغيب ويظهر سرك بسره في الغيب، الشيخ من إذا طلبت همته وجدتها،

الشيخ من يحفظ المريد بكلاءته ويريحه من العَنا بعنايته، الشيخ سر الله المحجَّب بحجاب البشرية غيرة على خاصة الخصوصية».

ويقول في تعريفه للأستاذ: «الأستاذ من وهب المواهب وأراح من تعب المكاسب، الأستاذ أكمل من الشيخ في الأحوال، وأعلى منه بالمعارف والأقوال، الأستاذ من جمع دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك، وافتقر لغنائه الملك والصعلوك، الأستاذ من كمل الدوائر، وانطوى في نشره الأوائل والأواخر، الأستاذ عالم مطلق وسند محقق، الأستاذ فتى الأخلاق يحب الخِلاق، وهذه كلها صفات للواصل، لأن الواصل هو صاحب الاتصال في حضرة الوصال، الذي خدمته المقامات، وطاوعته الحالات، فأصبح من الملوك الفاخرة في الدنيا والآخرة.

وعلى العموم، فإن أسلوب الكتاب يمتاز بالتنوع والتعدد، وهو تنوع كان استجابة من الشيخ لتعدد وتنوع المواضيع والقضايا التي تناولها، فاستطاع بذلك أن يحقق التوازن والانسجام بين المباني والمعاني. ونشير هنا ونحن نتحدث عن الأسلوب إلى أن الشيخ كان مصلحا سلفيا حتى في أسلوبه، فعلى طول الكتاب لا يلمس القارئ نزوعا نحو التصنع أو التزويق اللفظي الزائد، أو الإسفاف في المعاني، كما كان يفعل الكثير، حيث إن الكتابة السجعية كانت هي الأكثر شيوعا.

قراءة في مؤلف
"تَبيين الغموض على نعت العَروض"
للشيخ ماء العينين

ذ. محمد أبيدار
ثانوية أبو سليمان الرسموكي-تيزنيت

تقديم

يعد محمد المصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، الملقب والمشهور بالشيخ ماء العينين[1] أحد رموز منطقة الصحراء المغربية وأبرز أعلامها الذين سجلوا أسماءهم في تاريخ الإسلام الحديث في غرب إفريقيا عامة وفي التاريخ المغربي خاصة.

ويتأكد له هذا النعت انطلاقا من مجموعة أشياء يمكن رصد بعضها كالتالي:

-كونه عاصر خمسة ملوك علويين هم: المولى عبد الرحمن، وابنه سيدي محمد، والمولى الحسن، ومولاي عبد العزيز، ومولاي عبد الحفيظ، وحظي باحترامهم وتقديرهم، وناب عنهم في تدبير وتسيير شؤون الصحراء بظهائر رسمية، ومحققا بذلك الأمن والاستقرار بهذه البقاع الصحراوية.

-مساهمته الفكرية والعلمية والسياسية أهّلته لتشييد زاويته المعروفة بالسمارة،

(1) من مواليد الحوض ببلاد شنقيط سنة 1246هـ/1830م، وقد توفي سنة 1328هـ/1910م بتيزنيت، ودفن بها. (انظر ترجمته كاملة في مؤلفه: "مزيلة النكد عمن لا يحب الحسد". تحقيق: الدكتور الظريف محمد، ص: 15 وما بعدها، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى.

باعتبارها مركزا من مراكز الإشعاع الثقافي في الجنوب المغربي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من جهة، وباعتبارها محطة انطلاق الأدوار الجهادية من قبل مريدي الشيخ من جهة أخرى، سواء تعلق الأمر بدائرة التحصيل المعرفي والتربوي، أو بتنفيذ خطط مقاومة المستعمر الغاشم الذي زحف إلى المنطقة.

والعجيب في الأمر أن هذه الزاوية التي تحولت فيما بعد إلى مدرسة لم تنحصر دروسها في مجال التصوف فقط، بل شملت مختلف العلوم وفنون القول في اللغة العربية، ودروس الفقه والحديث والتفسير والأصول والمنطق والنحو والبلاغة والعروض، ناهيك عن الحساب والفلك وغيرها.

-تعدد المؤلفات والموضوعات التي تناولها الشيخ جعلته يحظى بمكانة اجتماعية وعلمية ودينية وسياسية راقية، فهو صاحب علم وعمل ووطنية صادقة. ومن دعائم هذه المكانة التي تبوّأها تضافر مجموعة عناصر نذكر منها باقتضاب:

أ-نسبه الشريف الذي ينتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

ب-ثقافته الواسعة، وهذا ليس غريبا باعتباره ابن عالم من العلماء الكبار في بلاد شنقيط.

ج-مشاركته الفعالة في تعمير الصحراء وإصلاح أحوال مَن بها، فقد بنى فيها الدور، وغرس النخيل[2].

د-مساهمته الفعالة في الجهاد ضد الأجنبي في الجنوب المغربي، مدعما بذلك سياسة السلاطين المغاربة الذين عاصرهم[3].

كل هذه الأشياء المذكورة وغيرها التي لم تذكر حول الشيخ ماء العينين جعلت منه شخصية تستحق التكريم، وينبغي الاعتراف له بجميل ما قدَّمه للأجيال التي أعقبته

(1) انظر نسب آل الشيخ ماء العينين مظهر من مظاهر اهتمام علماء المغرب بتحقيق الأنساب، ذ. مريه ربه ماء العينين، مجلة الدوحة، العدد الرابع، 1419هـ/1998م.

(2) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنجيطي، ص: 439.

(3) انظر: الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، أطروحة د. محمد الظريف، مرقونة بكلية الآداب، الرباط، ص: 131.

في كل المجالات، خصوصا منها الجانب الثقافي.

ونظرا لوفرة المادة وتنوعها لدى الشيخ، ارتـأيت أن أقـوم بقـراءة بسيطة حـول إحدى مؤلفاته الأدبية والمرتبطة بعلم العروض، التي سماها بـ"تبيين الغموض علـى نعـت العروض"، باعتبارها تشكل مادة من المواد التي كانت تدرس بمدرسته والموسومة بمـادة العروض، إذ الهدف من وراء ذلك هو تبيان الطريقة والكيفية التي كانت تلقن بها هذه المادة، والمراحل التي يمر منها المتعلمون أثناء تحصيلها، فماذا عن هذا المؤلف؟

التعريف بالكتاب

مؤلف "تبيـين الغُمـوض علـى نعـت العَـروض" ألفـه الشـيخ مـاء العينـين، وقـام بإخراجه والتعليق عليه الباحث محمد عيناق، كما ساهمت مؤسسة الشـيخ مربيـه ربـه لإحياء التراث والتبادل الثقافي بطبعه ونشره ليكون بين يدي القراء.

والمؤلف يتألف من تسعين صفحة، يتصدرها تقديم تفضّل بإنجازه الدكتور محمد الطريف، ويشمل ثمانية صفحات. أما المقدمة التي كتبها الأستاذ محمـد عينـاق فتبتدئ من الصفحة 9، وتنتهي في الصفحة 15. وفي الصفحة 17 نجد خطبة المصنف عنوانـا بارزا، أما الصفحة 18 فقد تم تخصيصها للحديث عن أركان علم العروض.

والملاحظ أن المؤلف اعتمد في دراسته لعلم العـروض علـى مـا يسـمى بترسيمة الدوائر، التي حصرها في خمسة دوائر خصَّص لكل واحـدة منـها بحـورا وأوزانـا معينـة يمكن ترقيمها كالتالي:

-الدائرة الأولى: وتحتوي على الطويـل والبسـيط والمديـد، حيـث سماهـا بدائـرة المختلف، وتبتدئ من الصفحة 25.

-الدائرة الثانية: وفيها المتقارب والمتدارك، وسماها المتفق، ص: 35.

-الدائرة الثالثة: وفيها الوافر والكامل، وسماها المؤتلف، ص: 39.

-الدائرة الرابعة: وفيها الهزج والرجز والرمل، وسماها بدائرة المشتبه، ص: 45.

-الدائـرة الخامسـة: وفيـها السـريع والمنسـرح والخفيـف والمضـارع والمقتضـب والمجتث، وسماها بدائرة المجتلب، ص: 51.

وتلت هـذه الدوائر إضافات أخرى حول حدّ القصيدة والزحافات والعلل وبعض ألقاب العروض وفصول حول بعض البحور كالمجزوءة والمشطورة والمنهوكة. وقد امتدت هذه الدراسات من الصفحة 61 إلى الصفحة 74. وفيما يتعلق بأجزاء البيت فقد خُصِّص لها فصل في الصفحة 77، كما خُصِّص فصلٌ آخر لقلب البحور في الصفحة 78. وتلا ذلك منظومة الدمنهوري لبحور الشعر العربي في الصفحة 79.

وأخيرا هناك خاتمة في الصفحة 80، تلتها لائحة المصادر والمراجع في الصفحة 85، ثم فهرست للموضوعات (ص: 89-90).

تحديد دلالة العنوان

ورد في لسان العرب: تبيَّن الشيء: ظهر، وتبيَّنتُه أنا... وقالوا: بان الشيءُ واستبان وتبيَّن وأبانَ وبيَّن بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿آيات مبيِّنات﴾ بكسر الياء وتشديدها، بمعنى مُتَبَيِّناتٍ. ومن قرأ ﴿مبيَّنات﴾ بفتح الياء فالمعنى أن الله بيَّنها. وفي المثل: قد بيَّن الصبح لذي عينين، أي تبيَّن. والتبيين: الإيضاح. والتبيين أيضا: الوضوح. قال النابغة:

إلا الأواريَّ لأْيًا ما أبيِّنها والنُّؤْيُ كالحوض بالمظلومة الجلَدِ

يعني: أتبيَّنها. والتِّبيان: مصدر، وهو شاذ، لأن المصادر إنما تجيء على التَّفعال، بفتح التاء، مثال التَّذْكار والتَّكْرار والتَّوْكاف، ولم يجئ بالكسر إلا حرفان وهما: التِّبيان والتِّلقاء. ومنه حديث آدم وموسى على نبينا محمد وعليهما الصلاة والسلام: أعطاك الله التوراةَ فيها تِبيان كل شيء، أي كشْفُه وإيضاحُه، وهو مصدر قليل، لأن مصادر أمثاله بالفتح[1].

وفي منجد اللغة والأعلام نجد: بين: بان، بيان وتَبيانا وتِبيانا: اتَّضح وظهر، فهو بيِّن وبائنٌ، جمع أَبْيناء وبُيَناء وأَبْيان. بيَّن الشيءُ: اتضح وظهر، وتبيَّن الشيءُ: اتضح،

(1) لسان العرب، ابن منظور، مادة: بين، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1414هـ/1994م.

والشيءَ: أوضحه، تأمَّله وتعرَّفه(1).

من كل ما سبق يتضح بأن التبيين يراد به الكشف والإيضاح، والملاحظ أن هذه اللفظة جيء بها في هذا السياق مضافة إلى كلمة الغموض التي اكتسبت بها التعريف عن طريق الإضافة، إذ التركيب الإضافي هنا أضاف لها معنى جديدا، وهو إزالة ما هو غير واضح وتعويضه بما سيجعل الأذهان والألباب تدرك المقصود من نظم العروض بسهولة ووضوح، وهو أمر يتفق مع الخيط الديداكتيكي الذي يرمي من ورائه الشيخ ماء العينين إلى تهذيب النفوس وجعلها تتذوق علم العروض دون النفور والابتعاد عنه.

فلفظة الغموض كما وردت في المعجم مشتقة من المادة: غمض التي تعني خفي: وفي الحديث: كان غامضا في الناس، أي مغمورا غير مشهور، والغامض من الكلام: هو خلاف الواضح(2).

وهذه اللفظة تعد من الثوابت التي تتحكم في استحضار صيغة عنوان هذا المؤلف المدروس لفظا وتركيبا، ذلك أنه لولا هذا الغموض الذي نُعِتَ به علم العروض ما تفضَّل الشيخ لإيجاد السبيل والطريق لتبديده وتبيينه للقراء.

انطلاقا من هذا الشرح بدا لنا بأن لفظة "الغموض" هي الكلمة المحورية التي تتمحور حولها باقي مفردات ومكونات العنوان موضوع المقاربة. فالغموض هو بؤرة العنوان، وهو نهج الميؤوسين من إدراك تفاصيل معاني العروض. أما أداة الجر "على" فلها دور الوسيط والإلحاق، إلحاق المكون التركيبي الأول في العنوان بالمكون التركيبي الثاني فيه، فوظيفتها هنا هي الإشارة إلى مواطن الخلل في درس العروض.

وفيما يخص لفظة "نعت" فتعني الوصف، وقد اكتسبت هي الأخرى على غرار سابقتها "تبيين" التعريف بإضافتها إلى لفظة العروض التي يقصد بها في هذا المقام العلم المستقل الذي يُعرف به صحيح الشعر من فاسده، أو سليمه من لحنه، اعتمادا على الإيقاع والوزن. فهو إذًا ميزان الشعر، لأنه يُعارض بها، وهي مؤنثة ولا تجمع لأنها

(1) المنجد في اللغة والأعلام، معلوف، لويس بن نابوك، مطبعة دار المشرق، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، 1984م.

(2) لسان العرب، ابن منظور، مادة: غمض.

اسم جنس[1].

ونعت العروض منظومة صاغها الشيخ ماء العينين لغرض تلقين مريديه المبادئ الأولية المرتبطة بهذا العلم، وهي منظومة مركزة وبسيطة يسهل حفظها وفهم إشاراتها لسهولة حفظ المنظومات عموما، ولخلوها مما أسهب القدماء في تفصيله من مصطلحات عروضية.

إن المعاني التي توحي بها صيغة العنوان المدروس يطغى عليها المنحى التوجيهي الذي يركز على الجانب التهذيبي والديداكتيكي، وهذا شيء طبيعي إذا ما نظرنا إلى مشروع الشيخ ماء العينين في مجال علم العروض، والذي يتغيّى من ورائه تحديد الوضع المعرفي والتربوي بمنطقة الصحراء (السمارة مقر زاويته) التي تدرس فيها شتى العلوم الدينية والأدبية، فكان هدفه هو تيسير طريقة تدريس مادة العروض لمريديه حتى يسهل عليهم فهمها واستيعاب مضامينها بشكل موجز وبسيط، حيث لوحظ الإبداع والتجديد في تعامله مع هذه المادة، خصوصا وأنه يسبق بوضع نظم خاص بالظاهرة الإيقاعية المدروسة، ثم يتبعها بشرح علمي دقيق يبيّن الغامض فيها ويكشف عن أسرارها انطلاقا مما وضعه علماء العروض من قواعد ومصطلحات.

المضمون العام للمؤلَّف ومنهج صاحبه في ذلك

إذا استثنينا التقديم الذي تفضل به الدكتور محمد الظريف حول هذا المؤلف والشامل للحديث حول مدرسة الشيخ بالسمارة وإشعاعها الثقافي، ثم طرق تدريس المواد بها وضمنها العروض، وإذا استثنينا كذلك مقدمة الأستاذ محمد عيناق الذي أخرج هذا العمل إلى الوجود وعلّق عليه مبرزا فيه عوامل اختياره لما قام به، فإننا سنجد الصفحة 17 من الكتاب يتصدرها عنوان في الوسط هو "خطبة المصنف" التي تدارك فيها الشيخ ماء العينين ما فاته من شروح لبعض الزحافات والعلل لَمَّا نظم نظمه في علم العروض. وقد ارتأى أن يتصدر هذه الشروح نظم يوجهها، وأول ما بدأ به الحديث عن أركان علم العروض، فقال:

---

(1) المصدر نفسه، مادة: عرض.

الحمـــد لله الـــذي قـــد جعـــلا   للشـــعر ميزانـــا تنـــال النُّبَـــلا

فبدأ بشرح الحمد لغة، إذ عدَّه الوصف بالجميل علـى جهـة التعظيـم والتبجيـل، سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل، كما حـدد معنـى الحمـد اصطلاحـا، إذ عـدَّه فعـلا يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعما.

أما الشعر فقد عرَّفه لغة بأنه العلم والفهم، وعُرفا: كـلام مرتبـط بقافيـة مـوزون قصدا، تلا ذلك كلمة الميزان التي تم تعريفها لغة بأنها آلة يعرف بها مقدار، واصطلاحا تعني أجزاء التفاعيل التي تعرض عليها كلمات الشعر، وتسمى عروضا، وهي مؤلفة من عشرة أحرف يجمعـها قولـك: "لمعـت سيوفنا"، وكلـها مؤلفـة مـن جزءيـن: خماسـي كفعولن، وسباعي كمفاعيلن. وعـدّ مـا لم يدخـل في هـذا الإطـار سـواء بالنقصـان أو الزيادة غير أصلي، والكل ينشأ من أسباب وأوتاد وفواصل يجمعها قولك: "لم أر علـى ظهر جبلٍ سمكة".

وآخر كلمة في البيت هي النبلا، جمع نبيل وهو العاقل.

وإذا أردنا نثر البيت فمعنـاه أن الشـكر لله، أي الخـالق الدائـم، الـذي قـد جعـل، أي صيَّرَ، للشعر ميزانا أي مقدارا، تناله العقلاء، بمعنى تعلمه، وهي نعمة يستحق الحمد عليها.

وعلى هذا المنوال يسير الشيخ في شرح منظومته منذ البداية إلى النهايـة، متفرعـا في شروحاته التي يسـتحضر فيـها مرجعيـات متعـددة كـالنص القرآنـي[1]، أو الحديـث النبوي الشريف[2]، أو الشعر العربي[3]، أو اللغـة[1]، أو العـروض[2]، أو المنظومـات أو

(1) مثلا استحضاره وهو يتحدث عن الصلاة والسلام في النظم، بمعنى الدعـاء لقولـه عـز وجـل: ﴿وما علمناه الشـعر ومـا ينبغـي لـه﴾، سـورة يـس، الآيـة: 69، (انظـر مؤلـف الشـيخ "تبيـين الغموض على نعت العروض"، ص: 20.

(2) انظر المصدر السابق، ص: 81-82.

(3) ومن نماذجه مثلا:

-كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر عالي الطبقة، مـن أهـل نجـد صـاحب قصيـدة "بانت سعاد" (ت. 26هـ/645م). الأعلام: 266/5.

-حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، صحـابي وشـاعر الرسـول صلـى الله عليـه وسلم، وأحد المخضرمين (ت. 54هـ/674م). انظر الأعلام للزركلي: 175/2.

الشروحات التي أقيمت حول هذا الأخير[3]، إلى غير ذلك. ويلاحظ بأن الشيخ ماء العينين قد نبه القارئ إلى أمور ترتبط بعلم العروض، ومنها:

-تحديد عدد بحور الوزن في الشعر العربي، في خمسة عشر إذا تم إسقاط المتدارك، وهو هنا لم يخالف سابقيه في هذا المجال.

-اعتماد العدد المذكور رهين بما هو مشهور لدى فصحاء العرب، وإلا فقد جاءت أشياء كثيرة مثل: الزجل[4]، والدوبيت[5]، والموشحات[6]، وغيرها... ومن أراد استيفاءها فعليه بالعودة إلى مؤلف "العاطل الحالي والمرخص الغالي"[7].

-حد علم العروض التفريق بين الأوزان الصحيحة والفاسدة في الشعر.

-إضافة وزن "فاعلات" للأوزان العشرة المعروفة في العروض.

-تشبيه الخليل بيت الشِّعْر ببيت الشَّعَر في البنية والتسمية (وجود الأسباب (الحبال) والأوتاد والفواصل.

وبعد هذه التنبيهات نجد المؤلف قد ركّز في منظومته المشروحة على خمسة دوائر:

---

(1) مثلا إيراده لشرح علة "الخزم" عند أبي إسحاق الزجاج، من مواليد بغداد 241هـ، توفي 311هـ. انظر "تبيين الغموض على نعت العروض"، ص: 65.

(2) اهتمام الشيخ مثلا بما كتبه كل من الأخفش (ت. 215هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (و.100هـ-ت.170هـ) في مجال علم العروض.

(3) مثلا مؤلف "الحاشية الكبرى على الكافي في علم العروض والقوافي"، لمحمد الدمنهوري، ص: 35.

(4) شعر منظوم بالعامية العربية، ويتبع عادة الأوزان الخليلية وبعض التشكيلات الخاصة. (انظر: "المعجم الأدبي"، جبور عبد النور، ص: 136.

(5) نظم يأتي بيتين بيتين، وقد أخذه العرب عن الفرس، ووزنه: فعلن متفاعلن فعولن × 2. المرجع السابق، ص: 112.

(6) شكل خارجي تتخذه القصيدة العربية، ويختلف باختلاف الشعراء، ويتكون من أبيات وأقفال. المرجع السابق، ص: 270.

(7) قام بتحقيقه الدكتور حسن نصار، وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1981م.

***الدائرة الأولى:** سماها بدائرة المختلف، وتشمل الطويل[1]، والبسيط[2]، والمديد[3].

فبعد تحديد أجزاء البحر المدروس وتبيان التغييرات اللاحقة بها بشكل منظوم، يتم بعد ذلك تبسيط النظم بلغة منثورة تبرز أنواع الزحافات والعلل اللاحقة بالوزن، ثم إبراز سبب تسمية الوزن طويلا أو مديدا أو بسيطا أو غير ذلك، وبعدها يتم الاستشهاد بشواهد شعرية مؤكدة لكل تغيير حصل، يلي ذلك ترسيمة الدائرة المحتضنة لأجزاء تفاعيل البحور المدروسة. وهذه الدوائر المحتوية على أسباب وأوتاد تساعدنا على استخراج أسماء البحور الشعرية المستهدفة.

فإلى جانب البحور المعروفة في علم العروض، استخرج الشيخ ماء العينين بحورا أخرى سماها البحور المهملة، كمقلوب الطويل، مثلا "مفاعيلن فعولن" الذي أهملته العرب وعمل عليه المولدون، وكذا مقلوب المديد "فاعلن فاعلاتن"، ومقلوب البسيط "فاعلن مستفعلن". وهذه الدائرة هي أول الدوائر عندهم لشرفها من وجهين:

-اشتمالها على نوعَي الخماسي والسباعي.

-كونها مثمنة، وأجزاء غيرها إما خماسية أو سباعية.

***الدائرة الثانية:** سماها بدائرة المتفق، وتشمل المتقارب[4]، والمتدارك[5]. وعلة التسمية راجعة إلى اتفاق أجزائها الخماسية، فإن بدأتَ من الوتد المجموع، خرج "فعولن"، وإن بدأتَ من السبب الخفيف خرج "فاعلن".

وقد نفى الخليل المتدارك وأثبته غيره، وسَمَّوه بالأسماء التالية: المتدارك، والمحدث، والمخترَع، والخبب، والمترادف، والغريب، وركض الخيل، ومشي البريد، والمتواني،

---

(1) وزنه: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن × 2، له عروض واحدة مقبوضة: مفاعلن، وله ثلاثة أضرب: تام (مفاعيلن)، ومقبوض (مفاعلن)، ومحذوف (مفاعي، أي فعولن). انظر: الوافي في العروض والقوافي، لعبد العزيز عتيق، ص: 37.

(2) وزنه: مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن × 2. انظر المرجع السابق، ص: 57.

(3) وزنه: فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن × 2. انظر المرجع السابق، ص: 47.

(4) وزنه: فعولن فعولن فعولن فعولن × 2. انظر الوافي في العروض والقوافي، ص: 183.

(5) وزنه: فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن × 2. المرجع السابق.

وقصر الميزاب، والعقال، والمخلوع، والشقيق.

***الدائرة الثالثة:** وسماها بدائرة المؤتلف، وتضم الوافر[1]، والكامل[2]، وسبب هذه التسمية هو تركيب أشطارها من أجزاء مؤتلفة لتماثلها بكونها سباعية، ولما كانت متماثلة حسن وضعها على جزء "مفاعلتن":

وتد مجموع //0 + سبب ثقيل // + سبب خفيف مهمل /0.

وقد لاحظ الشيخ ماء العينين أنه إذا ابتدأت من أول السبب الخفيف خرج فاعلاتن، وهو وزن أهملته العرب وعمل عليه المولدون، ولا يجوز فيه زحف، ولهذا سمي بالسالم والمعتمد لاعتماد أجزائه بعضها على بعض، ولسلامته من الزحاف. وسمي الوافر وافرا لوفور حركاته باجتماع الأوتاد، والكامل كاملا لكماله بكثرة الحركات في أجزائه، وقيل: لأنه أكمل البحور ضربا وحركًا.

***الدائرة الرابعة:** وقد أطلق عليها الشيخ اسم دائرة المشتبه، وتشتمل الهزج[3]، والرجز[4]، والرمل[5].

وسمي الأول بهذا الاسم لتهزج الصوت فيه، أي تردده فيه، والهزج لغة: هو صوت الرعد، وضرب من الأغاني فيه ترنم. قال فيه الشيخ:

هزج مفاعيلن بستة وقَدْ * يحذف ياؤه عروضي وقِدْ

أما تسمية الرجز فتعني لغة: داء يصيب الإبل في أعجازها، فإذا ثارت الناقة، أي قامت ارتعشت فخذاها ساعة، ثم تنبسط، وسمي الوزن بذلك لاضطرابه على اللسان، وقيل: لكثرة لحوق العلل بعجزه، كقطع وجزء ونهك وشطر. يقول فيه الشيخ ماء العينين ناظما:

ورجز بستة مستفعلن * والسين والفاء سقوطا اعتلن

---

(1) وزنه: مفاعلتن مفاعلتن فعولن × 2. (كتاب الوافي في العروض والقوافي).

(2) وزنه: متفاعلن متفاعلن متفاعلن × 2. (المرجع السابق).

(3) وزنه: مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن × 2. (المرجع السابق).

(4) وزنه: مستفعلن مستفعلن مستفعلن × 2. (المرجع السابق).

(5) وزنه: فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن × 2. (المرجع السابق).

وفيما يخص آخر وزن في هذه الدائرة فهو الرمل الذي يعني لغة ضرب من السير، ورمَل الحصير: ضم بعضها إلى بعض، سمي بذلك لخفته على اللسان وسرعته عليه. وتم وضع وزنه نظما كما يلي:

وفـــاعلاتن ســـــتة لرمـــــل * والليـــف بعـــد الفـــاء قلـــي

وتعود تسمية هذه الدائرة بدائرة المشتبه إلى تشابه أجزاء أشطارها المرتبطة بالبحور المندرجة تحتها، ولأنها أيضا سباعية، إلا أن سببيها يفترقان، فيقع أحدهما أول الجزء، والآخر آخره. فإذا ابتدأتَ من الوتد المجموع //0 خرج مفاعيلن، وإذا ابتدأتَ من أول السببين /0 خرج مستفعلن، وإذا ابتدأتَ من أول الثاني خرج /0 فاعلاتن.

***الدائرة الخامسة:** هي الأخيرة والمحتوية على السريع[1]، والمنسرح[2]، والخفيف[3]، والمضارع[4]، والمقتضب[5]، والمجتث[6].

وسمي الأول سريعا لسرعته على اللسان، ولاتصال الأسباب والأوتاد فيه، بينما سمي الثاني منسرحا لانسراحه وجريانه على اللسان بسهولة، في حين سمي الثالث خفيفا لخفته على اللسان، وقيل غير ذلك، أما الرابع فسمي مضارعا لدلالته على المشابه، وهو بذلك يشبه المقتضب في قلتهما عند العرب، وقيل: في كون أحد جزءيه مفروق الوتد، وأما الخامس فسمي مقتضبا لأنه اقتضب أو اقتطع من المنسرح، فكأنهم أزالوا مستفعلن الأولى من المنسرح، وبقي مفعولات مستفعلن، وهو بعينه مجزوء المقتضب، وأخيرا المجتث الذي سمي بهذا الاسم لاقتلاعه من الخفيف بالتقديم والتأخير.

ولقد سميت هذه الدائرة بدائرة المجتلب لكثرة أبحرها، إذ الجلب لغة هو الكثرة. وقيل: لأن أكثر أجزاء أبحرها مجتلبة من الطويل والمديد والبسيط.

---

(1) وزنه: مستفعلن مستفعلن فاعلن × 2.

(2) وزنه: مستفعلن مفعولات مستفعلن × 2.

(3) وزنه: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن × 2.

(4) وزنه: مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن × 2.

(5) وزنه: مفعولات مستفعلن مستفعلن × 2.

(6) وزنه: مستفعلن فاعلاتن × 2.

والملاحظ أن الناظم قد أحاط هـذه الدائرة بمجموعـة مـن البحـور الـتي تتحـدد انطلاقا من أسباب وأوتاد، كما أنه ذيل هذه الدائرة بتفاصيل تبين كيفيـة تعيـين أوزان كل بحر ينتمي إلى هذه الدائرة.

فبعد الانتهاء من رصد هذه الدوائر الخمسة وما ارتبط بـها مـن نظـم وشـروح، نجد حديث الشيخ حول حدود القصيدة، كما خصـص بابـا حـول الزحافـات والعلـل أخرجه على شكل بيتين شعريين أعقبهما شـرح لهمـا مـع رصـد تنبيـهات تخـص هـذا الباب.

وفيما يتعلق بالبحور المجزوءة، فقد حددها في خمسة، وهي:

المجتث والمقتضب والمضارع والهزج والمديد، مع ملاحظة إتبـاع كـل وزن منـها بشواهد تثبت ذلك.

ويجـوز أيضـا اسـتعمال كـل مـن البسـيط والمتقـارب والوافـر والرمـل والكـامل والخفيف والرجز مجزوءا[1]. وقد أثبت الشيخ ذلك بشواهد مـن الشـعر. وفي الصفحـة 74 مـن المؤلـف المـدروس نجـد حديـث الشـيخ مـاء العينـين عـن البحـور المشـطورة[2] والمنهوكة[3] مع الاستدلال بشواهد في الموضوع، ومنها مثلا:

استعمال الرجز مشطورا ومنهوكا، والمنسرح منهوكا. وقد أورد الشيخ في آخر مؤلفه بابا يخص نظم الدمنهوري لبحور الشعر العربي قصد تسهيل حفـظ أجـزاء كـل بحر من الأبحر المتقدمة، كما ذيله بخاتمة أورد فيـها ثلاثـة أبيـات شـعرية أشـار فيـها إلى انتهائه من عمله الذي وسمه بنعت العروض، ولكل من قصده قصدا مثل قصد الفروض طمعا في حصول الفائدة لمن نظره ورغبة في الدعاء الصالح لمـن سطَّرَه، راجيـا الله عـز وجل دوام الرحمة والأمان، ثم الصلاة على الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم

(1) الجزء معناه لغة: أخذ بعض أجزاء الشيء، واصطلاحا: إسقاط جزء من البيت، وأحدهما من صدره، والثاني من عجزه، فإن كان مثمنا بقي مسدسا، وإن كان مسدسا بقي أربعا.

(2) الشطر لغة: القطع، واصطلاحا: إسقاط لشطر البيت، ويبقى البيـت على شـطر واحـد كأنـه بيت.

(3) النهك لغة: الضعف، واصطلاحا: إسقاط ثلثين من كل شطر، ولا يكون إلا في السداسي من الأبحر لاشتماله على مخرج الثلث.

الذي فاق نثره شعر غيره بركة وجمالا وفصاحة، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش»[1]، يقول الشيخ ماء العينين:

قد انتهى وسَمِّهِ نعتَ العَروض   لكل من أمه مثل الفُروض
لعله يفيد من نَظَره   ويدعون للذي سطَّرَه
صلى إلهي مع سلام مشتهر   على الذي فاق بنثره من شعر[2]

وأود اختتام هذا المتن الذي أورده الشيخ في مؤلفه المدروس بالإشارة إلى بعض ملامح منهجيته المتبعة، إذ يبدو عمله شبيها بطرق العمل عنده في جميع المواد التي يدرسها في زاويته إن لم نقل شبيها لما هو موجود بالمدارس المغربية وقته.

فمنهجيته موسومة بالتدرج في التلقين إيمانا منه بأن ذلك وسيلة لجعل المتعلم ينتقل معرفيا من مرحلة إلى أخرى دون أن يواجهه تعثر في ذلك، مما سيجعله يستكمل ويلم بجميع قواعد المادة العروضية.

وإذا تأملنا جيدا عمل هذا الشيخ زمن وجوده، قلنا إنه يمثل لمنهجية حديثة ومفيدة، لأنها تسهل الصعاب وتيسر الفهم في حقل كثرت مصطلحاته التي تبدو فيها العلاقة أحيانا بين الاسم والمسمى اعتباطية، دون ربط مستشعر كما هو الحال في بقية علوم اللغة.

استنتاجات حول المؤلف

-انطلاقا من عنوان المؤلَّف ومحتوياته يتضح بأن مساهمة الشيخ ماء العينين بهذا العمل سبيل لتوضيح بعض الظواهر الإيقاعية الغامضة في علم العروض والموجودة في منظومته التي تفضل بشرحها تحت عنوان "نعت العروض".

-"تبيين الغموض على نعت العروض" باعتباره عنوانا مركبا بهذا الشكل الذي وُضع به، مدعاة لإثارة ظاهرتي السجع والجناس اللتين يقصد بهما في هذا السياق إثارة انتباه القارئ إلى المضمون وتحفيزه لتحقيق الغاية التعليمية التي من أجلها وُضع المؤلَّف

(1) تبيين الغموض على نعت العروض، تأليف: الشيخ ماء العينين، إخراج وتعليق: محمد عيناق، ص: 81.

(2) المرجع نفسه، ص: 80.

أصلا، كما أن هدف الشيخ هو تبسيط مادة هذا الفن الذي أقبل على دراسته وشرحه اعتمادا على نهج شراح المنظومات، محاولا الإحاطة بما هو أهم، بعيدا عن الإغراق في الجزئيات التي تخرج عن حد الاختصار.

وقد لوحظ في تصنيفه لمادة مؤلفه اعتماده على مجموعة من أمهات العلم، نذكر منها مثلا:

*الحاشية الكبرى على متن الكافي في العروض والقافية لمحمد الدمنهوري.

*العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي.

*فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية لأبي زكرياء يحيى بن زكريا.

*المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي.

*المعيار في أوزان الأشعار لابن السراج الشنتريني.

*المفاتيح المرزوقية لحل أقفال واستخراج خبايا الخزرجية لابن مرزوق.

-هذا التنوع والتعدد في المصادر المعتمدة أثناء نظم المنظومة وشرحها ينم عن توسيع دائرة المعارف لدى الشيخ ماء العينين الذي يرفض ظاهرة التخصص في المجال الواحد، فكيف لا وهو الذي طبقت شهرته الآفاق، وسَمِعَ بذكره الداني والقاصي، والحاضر والبادي على السواء، إذ تألّق اسمه في سماء العلم والمعرفة بين الناس باعتباره شيخا وعالما وفقيها ومحدثا وأديبا ومتصوفا وصاحب كرامات وقائدا في ميدان الحرب.

-وتجدر الإشارة إلى أن هناك جديدا أتى به الشيخ ماء العينين في مجال نظم العروض ودراسته، فمنه مثلا:

*كونه عدَّ ما لم يدخل في إطار التفاعيل الخماسية والسباعية غير أصلي.

*إضافة وزن "فاعلات" للأوزان العشرة المعروفة في العروض.

*التنبيه إلى سر تشبيه الخليل بن أحمد الفراهيدي بيت الشِّعْر ببيت الشَّعَر في البنية والتسمية (وجود الأسباب = الحبال والأوتاد والفواصل).

*اعتماد الشيخ على طريقة الدوائر في تحديد أوزان البحور وتبسيطها.

*تعيين سر تسميات البحور بمسمياتها.

*اعتماد الشواهد الشعرية في تبرير ما يحصل في الأوزان من زحافات وعلل.

*اكتشاف الشيخ ماء العينين لبحور أخرى سماها المهملة، كمقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن)، ومقلوب المديد (فاعلن فاعلاتن)، ومقلوب البسيط (فاعلن مستفعلن).

*تحديده البحور المجزوءة في خمسة، منها: المجتث والمقتضب والمضارع والهزج والمديد، وإثبات ذلك بشواهد شعرية.

*جوازه استعمال كل من البسيط والمتقارب والوافر والرمل والكامل والخفيف والرجز مجزوءا.

*استعمال الرجز مشطورا ومنهوكا والمنسرح منهوكا.

البنية الأسلوبية في كتاب:
"مفيد الراوي على أني مخاوي" للشيخ ماء العينين

ذ. أحمد بن المبارك أبو القاسم
ثانوية الحسن الثاني-تيزنيت

1-قبل البدء

أقصد بالبنية الأسلوبية ما تشكل منه «مفيد الراوي» من مكونات منهجية ولغوية، وتركيبية، ودلالية، غير أني أشير بإيجاز واختصار إلى الظواهر، ولا أعنى بالتفاصيل، لأن المقام ليس حلبة لعرض عضلات في علم الأسلوب، ولأن هدفي الأسمى هو أن أعرف بالكتاب لأقربه لمن رغب في الاطلاع من جهة، ولإبراز قيمته الموضوعية والمنهجية -على صغر حجمه- من جهة أخرى. فلنتفق إذًا على أن هذه العجالة كليات تنبيهية لمن رغب في البحث عن الجزئيات، والتفاصيل في الظواهر والقضايا المبثوثة في ثنايا الكتاب، وهي مشحونة بأبعاد دلالية واسعة النطاق ولا يستوعبها بحث واحد مهما طال.

2-الكتاب من حيث المضمون والهدف

للشيخ ماء العينين كتب مختلفة في مضامينها، ومتفاوتة في أحجامها، وكثيرة في أعدادها، وما " مفيد الراوي على أني مخاوي" إلا واحد منها، وقد أربَتْ على المئات، بذل فيها الشيخ جهودا علمية أو تربوية، أو مزدوجة، ولم يأل جهدا لإخراج بعضها على الطبعة الحجرية، لتعم فائدتها الشرق والغرب. ومن تآليفه التي طبعت على الحجر

في حياته[1]، هذا الذي يعنينا الحديث عنه بالإيجاز، فلنختصر فيه القول كما يلي :

أ–من حيث المضمون : هو شرح لأبيات نظمها الشيخ[2] مؤكدا بها موقفه من تعدد الطرق الصوفية، ومنبها إلى أن هذه الطرق، رغم تعددها، واحدة وموحدة، لأن هدفها واحد، وهو ذكر الله وحده، ومنبعها واحد، ألا وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى يتضح المضمون العام للشرح الذي هو موضوع الكتاب، نقدم الأرجوزة كاملة، وهي :

إنـي مخاوٍ لجميع الطـرق	أخـوة الإيمان عند المتقـي
ولا أفـرّق للأولياءِ	كمـن يفـرّق للأنبيـاء
قال تعالى : المؤمنـون إخـوة	وعدم التفريق فيه إسـوة
لأفضل الخلق بعكس التفريق	ففيه إسوة لكل زنديـق
مِنَ اليهود والنصارى لعنوا	عند الذي بربه قد يومن
وانظر لمبدًا طُرقٍ والمنتهى	تعلم ما قلت بما قد يشتهى
وذاك أن كلهم لك يقول:	عليك باتباع فعل ذا الرسول
عليه أفضل الصلاة والسلام	وهكذا تَتْبَع منه للكلام
ومستحيل أن يقول اتبعا	منه لذا وذا له لا تتبعا
وذا الذي يقول ذا أشد من	تفرقة الرسُل فافهم يا فطن
لأن ذاك بين قوم فرقا	ورامَ ذا تفريق شخص حققا
وهو عليه الله صلّى أمَرا	بالذكر والتقى وإخلاصٍ جرى
ولم يقل لك بذا الذكر اذكرا	وذلك الذكر به لا تذكرا
ولو إليه كلهم قد رفعا	طريقه ونورها قد سطعا
لكنه لم يُرْوَ أنه نهى	عن غيرها فخذ لحق قَدْ بَهَا

---

(1) طبع بفاس 1315هـ، ثم حققه الدكتور محمد الظريف، وطبعه 1999م بمطبعة النجاح، الرباط، وقد اعتمدنا الطبعة الحجرية لأن إنجازنا قد سبق الطبعة الجديدة.

(2) نظم الشيخ هذه الأرجوزة سنة 1304هـ، وفرغ من شرحها سنة 1306هـ.

وانظر لما قد قاله الشعراني | في ظاهر وهكذا يا فاني
بل باطن أشد إذ هو شهود | تفرد الله بكل ما وجود
وذاك يستحيل بالتفرقة | لدى الشريعة وفي الحقيقة
لِذا تحققنْ بأن الطرقا | طريقة النبي وحده ثِقَا
وغيرها ليس طريقا وثِق | أني مخاو لجميع الطرق

في هذه الأرجوزة أوجز الشيخ ماء العينين رحمه الله موقفه من تعدد الأوراد، فأجاز تلقينها جميعا، وتولى بنفسه مهمة التلقين، فأصبح بذلك منفردا بين مشايخ الطرق في فترته، ولذلك وصفه ابنه محمد تقي الله في منظومته: «مذكر الموارد بسيرة الشيخ ماء العينين ذي الفوائد»، إذ قال[1] :

وكم له كان من الأورادِ | مفترقات يعطي للعبادِ
يعطي لذا لورد عبد القادر | وذاك يعطيه لورد الناصري
ويعطي ذا طريقة التيجاني | وذاك يعطيه لورد ثمان
ويعطي للخلوتي والدرقاوي | وللشبنتري والعيساوي
وغير ذا من طُرْق أهل الله | يعطيه كله بلا تناهي
كقوله في نظمه المرونق: | «إني مخاو لجميع الطرق»

والذي حمل الشيخ ماء العينين على نظم تلك الأرجوزة هو ما بلغه من بعض من أنكر عليه الجمع بين الطرق، وتلقين جميع أورادها، وفي ذلك يقول: «إن سبب الفعل الذي حملني على هذه القصيدة أني لما تفضل الله علي بأوراد الأولياء المروية عن خير الأنبياء عن شيخي أبي قرة عين الأصفياء، وأعطاني الإذن في إعطائها لمن شاءها من أوليائها، صار من لم تكن له خبرة باتحاد طرق أهل الله يتعجب من ذلك (...) فتعجبت مما فيه الناس، وتعوذت مما فيه الوسواس، وقلت للمريد أنْ لا اختلاف بين

(1) من منظومة طويلة ضمنها الناظم سلوك الشيخ ماء العينين، وبعض كرامته ومنهجه في الحياة، وبرنامجه اليومي، طبعت على الحجر بفاس 1316هـ، وهي في 209 بيت.

جوانب من سيرة الشيخ ماء العينين
من خلال بعض الشعراء الحسانيين

ذ. الطالبوي لعتيكـ ماء العينين
مدير مركز الدراسات الحسانية – العيون

لقد سبقني المؤرخون والباحثون إلى الحديث عن الشيخ ماء العينين العالم الصوفي والمجاهد والسياسي والمربي، فلم يتركوا لي مجالا للحديث عن هذه الشخصية العلمية المتميزة ذات الأطوار المتعددة، فبحثت جاهدا عن جانب غامض أو يكاد يكون، لألقي عليه الضوء، يتعلق بهذا الطود الشامخ، فساعدني الحظ فيما أظن وهديت السبيل إلى الشيخ العظيم وإلى بعض الجوانب من سيرته المتميزة من خلال بعض الشعراء الحسانيين الذين صاحبوه عندما أذن له والده رضي الله عنه في السفر بعد أن صدره عالما فذا متصوفا، أو الذين وفدوا عليه وهو يتصدر مريديه وزواره وجنوده وتلاميذه وجميع علائقه، فصوروا المشاهد المختلفة الرائعة التي عاشوها منذهلين، وأبرزوا أهم ما يميز سيرة أحد العظماء الذين ما فتئ التاريخ يكشف عنه من زاوية لأخرى يوما بعد يوم، وخصوصا من الأعداء المستعمرين آنذاك، والحق ما شهدت به الأعداء.

لقد أدرك الشعراء الحسانيون أنهم أمام شخصيات في شخصية واحدة لم يسبروا أغوارها على امتداد الحقب الزمنية التي جمعتهم بها، فطفقوا يعبرون عن المشاهد بذهول وتسابق، محاولين سبقا صحفيا لم يتأتى لهم رغم ما بذلوه من جهد وما وظفوه من عبارات حسانية كاللبنات تشيد صروح القصائد الجمة التي لا تحصى، فبقيت جوانب هامة من سيرة الرجل لم يتمكنوا من الكشف عنها، وقد ساعدهم الحظ أحيانا

البيت»[1].

ج-القرابة في الصورة والمعنى معا، كالأنبياء قبله والأولياء بعده، وهي أعلى مراتب القرابة.

• الخامس : يتلخص مضمونه في أن إصلاح ذات البين أساس للأخوة في الدين وتوحيد الأمة، وأن التفرقة من النفس الأمارة بالسوء.

-السادس : أشار فيه إلى حق الأخوة في الدين، وهو أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأن تنصره ظالما أو مظلوما، فأن تنصره ظالما يعني أن تمنعه عن الظلم، «فذلك نصرك إياه»[2].

-السابع : أكد فيه أن عدم التفرقة فيه اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن التفرقة فيها اتباع اليهود والنصارى، مستدلا بقوله تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾، إلى قوله : ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا﴾[4].

فهذا ملخص ما شرح به المؤلف الأبيات الخمسة الأولى، وقبل أن أوجز القول في شرح بقية الأبيات، أقدم المبيانين التاليين لتقريب مفهوم كل من الأخوة، والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

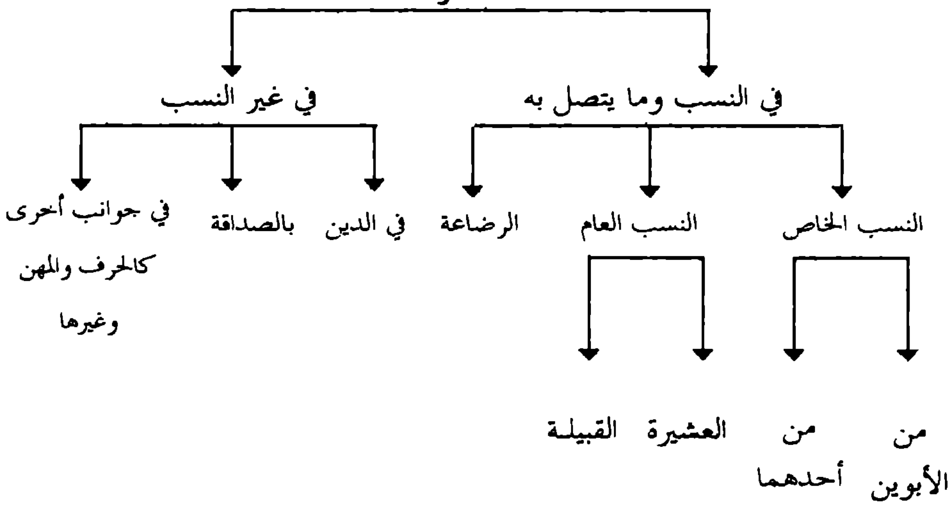
(1) حديث صحيح أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك، كلاهما عن عمرو بن عوف. (انظر: الجامع الصغير للسيوطي: 52/2، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1981.

(2) ما بين المزدوجتين عبارة المؤلف ص: 7.

(3) البقرة: 285.

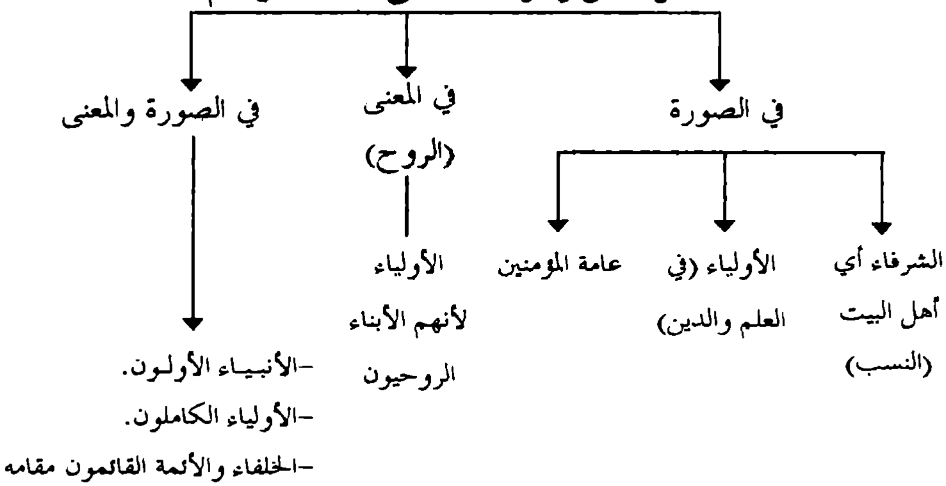
(4) النساء: 150-151.

1- الأخوة



الترجيح: الأخوة في الدين أقوى من الأخوة في النسب وغيرها، ولذلك تستوجب الإصلاح والوئام والتوحيد، لأن أصلها واحد، وهو الإيمان. قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾، وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانا»، وفيه: «المسلم أخو المسلم...».

2- **القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم**



الترجيح: أعلى مراتب القرابة هي القرابة الروحية أو المعنوية، ثم تليها القرابة الصورية الدينية (المعنوية الصورية)، ثم في الأخير الصورية (النسب).

أما مضمون الأبيات الخمسة عشر الباقية فيتلخص شرحها فيما يلي:

1-الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها، وهذه إشارة إلى جواز اتباع جميع الطرق الصوفية والاستفادة من أورادها، فبتعدد الأوراد تتعدد الاستفادة والمنافع الروحية.

2-إن الأوراد تعطى بحسب طاقة المريدين وترقيهم في الحقيقة، ومن لا قدرة له على التعدد والالتزام فعليه بورد واحد يكفيه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، أما الشيخ العارف المتمكن فله أن يلقن كل الأوراد مادام لها جميعا أصل واحد.

3-إن الأنبياء كلهم مشتركون في الدين، والعلماء ورثة الأنبياء، وللوارث ما للموروث، وهو وجوب الاشتراك في الدين والاتحاد في سبله، قال علي بن أبي طالب: «لا تتفرقوا فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[1]، والأولى بالعلماء بالله وبدينه أن يتحدوا، لأن الله تعالى أمر بإقامة الدين والاجتماع عليه، ونهى عن التفرقة. والطرق التي يأخذ بها أولياء الله، وإن تعددت، منبعها واحد، وهو طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن المستحيل عقلا وشرعا أن يخالف أولياء الله طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فمن قدر على الجمع بين الطرق كلها فقد غنم خيرا كثيرا.

ب-الهدف من تأليف الكتاب

فإذا كان الهدف من المنظومة أصلا هو أن يبين الشيخ سبب جمعه بين الطرق كلها، موضحا أصولها التي انبثقت منها، وأن يرد على من أنكر عليه فعله، فإن الهدف من شرح المنظومة أمران: فالأولى توضيحي، أعني شرح معاني الأبيات لمن طلب منه ذلك، وفي مقدمة الشرح إشارة إلى هذا الأمر، قال المؤلف: «طلب مني بعض الأحبة الصادقين أن أشرح له أبياتا صدرت مني لبعض المريدين في أن طرق القوم كلها، وإن

(1) مفيد الراوي، ص: 15.

تعددت، وفي الظاهر ربما اختلفت، شيء واحد...»[1].

والثاني: توكيدي برهاني، ذلك أن المؤلف هدف في شرحه إلى توكيد رأيه لإثباته بحجج قاطعة نقلية وعقلية، وبأدلة تفصيلية قوى بها موقفه ودحض بها رأي من أنكر عليه صنعه، ولذلك نجده يفصل القول في قضايا الأبيات، ويستشهد عن كل قضية بأكثر من شاهد، حتى لا يدع لقائل مقالا، وأخيرا حسم في الموضوع بكل صرامة، فقال[2]: «فبان لك من هذا أن التحجير الذي يفعله بعض المنتسبين للمتصوفة على الشخص من عدم أخذ ذكر على ذكر، ومن عدم إعطاء شخص لذكر مع ذكر، ليس هو في شيء من الشرع، وإنما هو رهبانية ابتدعوها، لم يجدوا قوما عن نبيهم سمعوها، وكيف لا وهو تعالى قال: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[3]...

3-بنية الكتاب

أولا: الخارجية: أخْرِجتْ الطبعة الحجرية التي اعتمدتها في حجم كبير مقياسه 21 سم عرضا و29 سم طولا، ومعدل السطر في كل صفحة ما بين 21 و23 سطرا.

ويتركب الكتاب في محتواه من ثلاثة متون: فالأول الأبيات التي هي الأساس، والثاني: شرح الأبيات، بحيث يُعرَض بيتٌ أو أكثر، ثم يأتي الشرح، وذلك كله في إطار خاص يحيط بالمتنين كالمعتاد في الطبعة الحجرية.

أما المتن الثالث فقد ورد في الحاشية مؤطرا خارج إطار المتن، وهو رد لغوي محض بعنوان: "المداوي للمعترض للفظة مخاوي"، ناقش فيه المؤلف من أنكر عليه كلمة "مخاوي" بدلا من "مؤاخي" الذي هو أصل في اللغة الفصيحة. وقد استغرق هذا الرد هوامش المتن كلها. وعدد صفحات الكتاب 24 صفحة، وبعدها صفحتان من تقريظ

---

(1) مفيد الراوي، ص: 2.

(2) ص: 14-15 من الكتاب.

(3) الشورى: 13.

أحمد بن عبد المولى العلمي اليملاحي صاحب المطبعة بفاس[1].

ثانيا: الداخلية

1)في المنهج: أقصد بالمنهج هنا طريقة عرض الشروح التي وضعها المؤلف على منظومته، وهي كما يلي:

أولا: يعرض المؤلف بيتا أو مجموعة من الأبيات، ثم يتبعها بشرحها، موضحا مضمونها أولا، ثم يستدل على ما قدم من المعاني بكل ما يناسب، وكل شرح يبدأه بقوله: «أعني»، فإذا احتاج الأمر إلى شرح لفظ يشرحه كما في قوله: «أعني إني مخاو: أي مؤاخ، لكن لظهور اللفظ الذي في النظم عند أهل الزمن، قلت: مخاو»[2]. وكقوله: «وقولي: لعنوا: أعني أن اليهود والنصارى لعنوا، أي طردوا من رحمة الله»[3].

ولفظ "مخاو" هو الذي استغرق الحديث عنه المتن الثالث في الكتاب، فقد وضح الكاتب معناه في الحاشية -كما أشرت من قبل- ردا على من عارضه وأنكره عليه، باعتباره خرقا للغة الفصيحة، ومخالفا للأصل الاشتقاقي، والمحتوى الدلالي لكلمة "مؤاخ".

ثانيا: بعد الشرح يقدم المؤلف تعليقا أو تنبيها، وهذا ما يمكن أن نسميه بالتعاليق والإيضاحات الهامشية، إلا أنها غير مفصولة عن المتن، بل هي مرتبطة به، إما بالزيادة في التوضيح، وإما بالتعليق على الشواهد والأقوال الواردة في المتن. فيقول مثلا: «تنبيهات»، للدلالة على التفاصيل، أو يقول: «قال جامعه» للدلالة على التعليق، ومناقشة الأدلة التي عرضها.

ثالثا: إذا بان له أن الشرح قد وافى بالمقصود، وحقق الهدف المنشود، ختم بقوله: «فبان لك من هذا». أو «فبان من هذا...»، تلخيصا لما سبق تفصيله.

رابعا: التوسع في بعض المفاهيم، كمفهوم الأخوة وأنواعها، ومفهوم التفرقة،

---

(1) يوهم من كلام اليملاحي أن الكتاب قد أعيد طبعه بعد أن حشاه المؤلف بـ"المداوي"، إذ قال اليملاحي في آخر الكتاب: »فقد منَّ الله سبحانه بتجديد طبع هذا الكتاب...».

(2) مفيد الراوي، ص: 4.

(3) نفسه، ص: 4.

ومفهوم القرابة من الرسول عليه السلام، ومفهوم الطريقة، ومفهوم الذكر، ومفهوم التقوى.

خامسا: الإشارة صراحة أو ضمنا إلى المصادر المعتمدة عنده، كالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وبعض كتب التفسير، وبعض المؤلفات في التصوف. فأحيانا يذكر المصدر، كقوله: «وفي الخازن»، أو كقوله: «وفي الإحياء»، وكقوله: «فلتنظر للذي قد قاله الإمام الشعراني في ميزانه الكبرى...»[1]، وكقوله: «ومن أراد الاستيفاء على الذكر فعليه بكتابنا "فاتق الرتق"، أو كتابنا "نعت البدايات وتوصيف النهايات"، أو كتابنا "المقاصد النورانية في ذكر من ذاته وصفاته متعالية"، أو كتاب شيخنا المسمى بـ"سيف المجادل"، أو غير ذلك من كتب الأفاضل»[2].

وأحيانا يذكر اسم المؤلِّف دون ذكر مؤلَّفه، كقوله: «قال شيخنا»، وهو يعني أباه، أو كقوله: «قال علي رضي الله عنه...»، أو كقوله: «قال سهل...»، وأحيانا أخرى يذكر المصدر مبهما، فيقول: «قال بعضهم...».

2)في البنية الأسلوبية

قد يتوهم البعض أن الأسلوبية علم حديد ونظريات وافدة من الغرب لا يتعامل معها إلا ذو الأقلام السحرية الخاصة، وأن هذا المصدر المفتعل "الأسلوبية" على صورة النسبة لا ينبغي ذكره إلا مع نمط خاص من الإبداع[3]. ولمن توهم ذلك نقول: إن هذا المصدر الصناعي ما هو في مدلوله ومجالاته إلا جانب من جوانب نظرية الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظم الكلام. ومع هذا فلا نعني بالبنية الأسلوبية هنا سوى نسبة البنية إلى الأسلوب[4]، كما يجوز لنا أن نقصد بها المصطلح الحديث نظريا وتطبيقا من غير أن نقحم في الموضوع ما لا نقصده ولا علاقة له به، من حيث أصله وهدفه، كالبحث في الأبعاد النفسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية... انطلاقا من ظواهر

(1) مفيد الراوي، ص: 4.

(2) نفسه، ص: 13.

(3) يرى بعض الناس أن الأسلوبية علم حديث، ولكنها في الواقع ليست إلا جزءا من البيان العربي بمفهومه العام، كما عند الجاحظ والباقلاني والعسكري وغيرهم.

(4) ينظر في هذا الشأن: الأسلوب والأسلوبية لعبد السلام المسدي، والأسلوبية والبيان العربي لمجموعة من النقاد، ومدخل إلى الأسلوبية للهادي الجطلاوي، وغيرها.

لغوية لسبر أغوار ذات الكاتب، قصد تصنيفه انطلاقا من أسلوبه. ولا يخفي ما في مثل هذا التحليل من إجحاف وإسقاط وأوهام تفسد النص، وتحول دون تذوقه كما هو. وعليه فإننا نقصد بالبنية الأسلوبية محاولة الكشف عن ظواهر لغوية ودلالية ومنهجية وتركيبية يتميز بها أسلوب الكاتب عن غيره كلا أو بعضا.

فرغم أن الكتاب ليس أدبيا محضا، إذا حصرنا الأدب في الشعر والنثر الفني، فإن القارئ المتمكن يجد نفسه، وهو يقرأ الكتاب، أمام بنية أسلوبية تتميز بالظواهر التالية:

الأول: الطابع الخطابي، وذلك ما يقتضيه المقام، لأن الكتاب موجه إلى ثلاثة أصناف من المتلقين: الصنف الأول فئة المريدين الحائرين في مسألة تعدد الأوراد، ويتشوفون إلى الحسم في الموضوع.

الصنف الثاني: الشيوخ الذين يلقنون الأوراد، فقد وجه إليهم الخطاب ليكون حجة لهم أو عليهم، قصد توحيد المنهج التربوي في الإرشاد والتوجيه.

الصنف الثالث: الذين أنكروا جمع كل الطرق في طريقة موحدة، وأنكروا أن يكون للمريد أكثر من ورد، وأن يلقن شيخ واحد أورادا مختلفة، فقد وجه إليهم الخطاب ليقتنعوا، بأدلة عقلية ونقلية، بوجوب التوحيد.

الثاني: تكرار بعض الألفاظ بعينها قصد التنبيه والتذكير، وإقرار المعاني في الأذهان، كقوله: «فبان لك من هذا»، أو للتفريق بين الآراء المنقولة والمبتكرة كما في قوله: «قال جامعه»، أو للدلالة على الشروع في التفاصيل والإيضاح، والفصل بين النظم والشرح، كقوله: «أعني»... أو لتنبيه القارئ أو المتلقي إلى ما هو أهم في الشرح، كقوله: «اعلم أني...»، أو «اعلم أن...»، كما أن هناك تكرار بعض الألفاظ التي هي أساس الموضوع وبؤره، مثل: التقوى، والذكر، والإخلاص، والإيمان. ويضاف إلى هذا أساليب الدعاء كما اقتضاها المقام عند المؤلف، ولاسيما وأنه ذو ورع وتقوى وتواضع لله عز وجل، ولذلك لا يذكر نفسه إلا ويقول: «غفر الله لي»، (بضمير مفرد).

الثالث: وضوح المعاني: يستطيع القارئ العادي أن يفهم أسلوب الكتاب فيما

عدا بعض المصطلحات الصوفية التي تقتضي معرفة سابقة ودراية بمفاهيمها، كالورد، والشيخ، والسر، والحضرة، والذوق... وما عدا هذه المصطلحات فإن الكاتب لا يوظف المعاني المعقدة، ولا التراكيب الملتوية، ولا المعجم العالي أو الغريب، ولا الإشارات الرمزية الخاصة بفئة معينة، ولذلك جاء خطابه واضح الدلالة، وافيا بالمقصود من غير التباس سوى في اللفظين التاليين:

"**مخاوي**": وهذا اللفظ هو الذي أثار جدلا بينه وبين غيره من علماء اللغة، و لم ندر من هم، لأن الكاتب لم يشر إليهم إلا بقوله: «إن بعض من ينتسب للعلم أنكر قولي في قصيدتي التي وضعت في تبيين أن طرق أهل الله واحدة إني مخاو»[1]. وقد تولى الكاتب بنفسه شرح هذا اللفظ والدفاع عنه كما أشرنا من قبل.

واللفظ الثاني الذي استوقفني، أنا والأستاذ محمد الحاتمي، هو "**المواريد**"، بمعنى المريدين، فبحثت في المصادر اللغوية عن معنى هذا اللفظ، و لم أقف له على ما قصده الكاتب. والمتداول عند الطرقيين جميعا هو: المريد، ويجمع على مريدين. أما الموارد في اللغة فهي الطرق كما في قول جرير[2]:

أمير المومنين على صراط   إذا اعوج الموارد مستقيم

ولعل ابن الكاتب، محمد تقي الله، قد تبعه في توظيف هذا اللفظ، إذ سمى أرجوزته التي تقدمت الإشارة إليها في هذا البحث: "مذكر الموارد بسيرة ماء العينين ذي الفوائد"، إذ قال:

سميته مذكر الموارد   سيرة ما العينين ذي الفوائد

إن الشيخ ماء العينين وإن خالف القياس اللغوي، لربما يشفع له القياس الأسلوبي في المجاز، غير أن هذا لا يتأتى فهمه لكل قارئ، بل لابد من التمكن في معرفة طرق الخطاب في البلاغة العربية، وخاصة المجاز والحذف والذكر. إذ من الممكن أن يقصد الكاتب بالمواريد: الطرق كما ورد في قول جرير، ثم يقصد مجي المواريد، فاكتفى بالمضاف إليه

---

(1) المداوي للمعترض للفظة مخاوي، في هامش مفيد الراوي، ص: 2.

(2) انظر صحاح الجوهري، ولسان العرب، مادة: ورد.

نيابة عن المضاف، وهذا أسلوب جرى به العمل عند النحاة والبلاغيين والشعراء.

الرابع: توظيف المصطلحات الصوفية: ذلك أن طبيعة الموضوع تقتضي أدواته، ومن أدواته المصطلحات، ولهذا نجد الشيخ ماء العينين يسوق -عَرَضًا أو قصدا- مصطلحات ذات بعد صوفي، وإن كان بعضها في الأصل ذا بعد دلالي آخر، قبل أن يستعيره المتصوفة، وأقصد أنه كان موظفا في القرآن والحديث، واللغة بحسب مقتضيات السياق. ومن المصطلحات التي وردت في الكتاب ببعدها الصوفي: الولي، الأولياء، الورد، أهل الله، الشيخ، السر، قُدِّس سره، الفناء، المقامات، الكليات، الحضرة الإلهية، الحضرة الربانية، شهود، الذوق، المحب والمحبوب، سدرة المنتهى، مقام المقام، نهاية المراتب، الأدنى، الأعلى، العروج، الاتحاد، قاب قوسين[1]. وهي كلها وردت في الشرح بدلالتها الصوفية، ومع ذلك لم تحل دون فهم المراد، لأنها متباعدة وموظفة بقدر مقتضيات السياق، و لم تحشد حشدا أو تساق عشوائيا من غير توازن أو مراعاة مقتضى المقال.

الخامس: الصعود والانحدار في المستوى التركيبي، وأخص بالذكر الجانب البديعي، لأنه هو المظهر الذي تشخص فيه الصعود والانحدار في التركيب من خلال هذا الشرح، إذ توزع بين أسلوب مسجوع، وأسلوب مرسل، في صعود وانحدار، فيقوى الجرس بالصعود، ويخفت بالانحدار، ولْنَكْتَفِ بهذين النموذجين:

أ-قال الكاتب في المقدمة: «الحمد لله الذي بالإيمان به يحصل التخاوي، وبالتخاوي الحقيقي يحصل غض البصر عن المساوي، وبالغض يحصل الود الذي هو للبغض مداوي، والصلاة والسلام على جامع المحاسن لكل راوي...». ثم انحدر بعد أن التزم توازنات صوتية، إلى الإرسال، فقال: «طلب مني بعض الأحبة الصادقين أن أشرح له أبياتا صدرت مني لبعض المريدين في أن طرق القوم كلها وإن تعددت، وفي الظاهر ربما اختلفت، شيء واحد، وأخوة في الدين...»[2].

---

(1) قال الكاتب: «ويعبرون بقاب قوسين عن مقام القرب الأسمائي باعتبار التقابل بين الأسماء». مفيد الراوي، ص: 18.

(2) مفيد الراوي، ص: 2.

ب–قال في مكان آخر بعد كلام مرسل: «... إذا بالناس كأنها أعوذ بالله أهل ملل متفرقة، وأهل طرق مختلفة، فتعجبت مما فيه الناس، وتعوذت مما فيه الوسواس، وقلت للمريد أن لا اختلاف بين هذه الأجناس، لأن الطريق طريقة واحدة لأشرف ذوي الأنفاس، لثبوت أخوة أهلها بالكتاب الذي بغيره لا يقاس...»[1]. ثم شرع في الشرح بكلام مرسل.

وهكذا يصعد كلما تعلق الأمر بالوصف، أو بالتعليق والزيادة في الإيضاح، أما إذا تعلق الأمر بالشرح والإيضاح، فإنه يرسل. ويهتم بأداء المعنى بأي عبارة ملائمة، ولا يبالي بالمستوى الجمالي، من حين للآخر، إذ يصعد بجملتين أو ثلاث، ثم ينحدر إلى نهاية الفكرة.

أما ما يمكن أن نسميه تشكيل الصور البيانية، والانزياح باللغة إلى أعماق الطيف وحدود الوهم، فلا نجده عند الكاتب في هذا الكتاب إلا في توظيف المصطلحات الصوفية التي لا يتأتى للقارئ العادي أن يرقى إلى مستواها، كمثل قوله: «... وهكذا الولي الكامل، لابد وأن يقتدي بالأولياء اقتداءً كائنا على المنهج النبوي قدَما بقدم، حتى ينتهي إلى سدرة منتهاهم من مقام لمقام، كسماء بسماء، إلى أن ينتهي إلى سدرة المنتهى التي هي البرزخية الكبرى التي ينتهي إليها سير الكُمُل وأعمالهم وعلومهم، وهي نهاية المراتب الأسمائية...»[2].

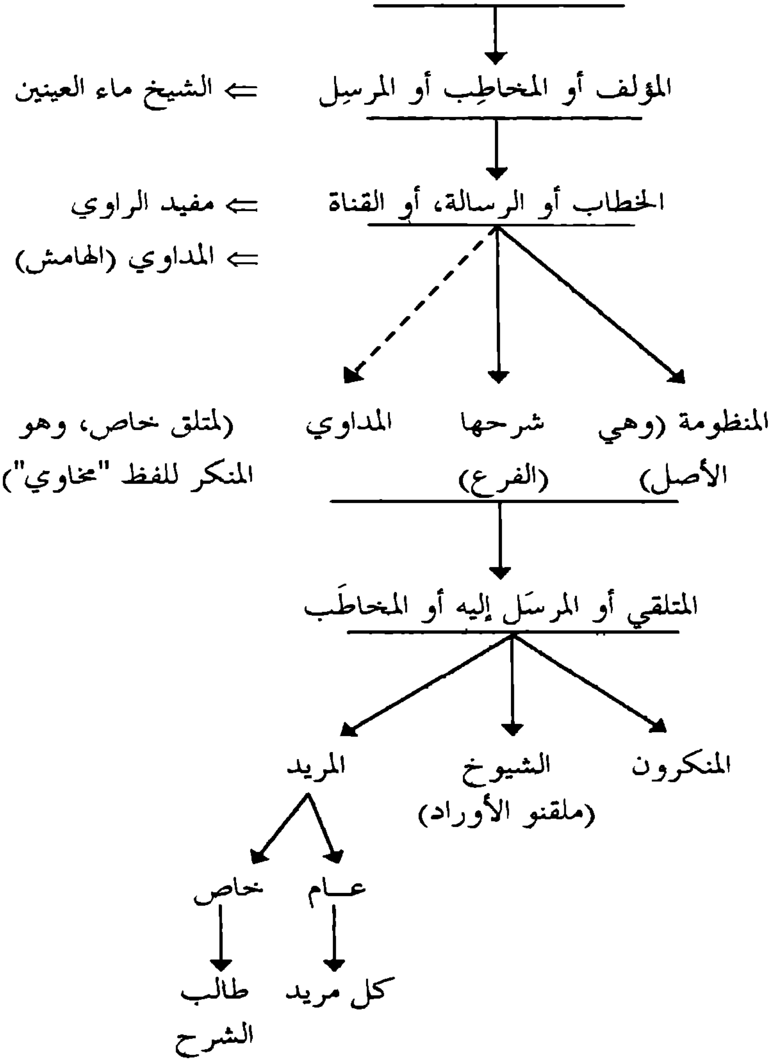
هذه صورة الولي الكامل، وهي مركبة من عناصر متكاملة، لا يدرك إطارها ولا أبعادها ولا كنهها إلا من يتذوق الأساليب الصوفية المركبة من مجازات وكنايات بعيدة عن إدراك القارئ العادي، لأن «سدرة المنتهى»، و«مقام المنتهى» و«مقام» و«سماء» و«البرزخية» خرجت من دائرة اللغة الصريحة إلى دائرة اللغة الرمزية التي لا تدرك إلا بما يسمى عند الصوفية بعلم الحقيقة، أو علم الباطن.

وقبل أن أخلص إلى الاستنتاجات الختامية، أقترح تلخيصا لبنية الكتاب فيما يلي:

(1) مفيد الراوي، ص: 3.

(2) نفسه، ص: 18.

1- **عناصر التواصل**



2- مكونات الخطاب أو "القناة"[1] أو الرسالة (الموضوع)

- مركبة
  - نظم
- مفكّكــة
  - شرح النظم
- معجمية لغوية
- معجمية دلالية
  - توظيف المصطلحات الصوفية ضمن الشروح التوضيحية أو التعليقات
  - شروح توضيحية وتعليقات
- نصوص قرآنية
- نصوص حديثية
- أقوال أخرى (ضمنية أو نصية)

3- المقاصـد

- توضيحية إرشادية
  - وهي صريحة موجهة للمريدين
- تنبيهية تحذيرية
  - (وهي التحذير من التفرقة، موجهة إلى الشيوخ ضمنا لا تصريحا)
- ردعية، صريحة تارة، وضمنية أخرى
  - (موجهة لمنكري توحيد الطرق)

4-استنتاجات ختامية

وخلاصة ما يمكن أن نستنتجه من كتاب "مفيد الراوي" وهامشه "المـداوي" مـا يلي:

1-هو دعوة صريحة إلى توحيد الأمة الإسلامية على طريق مستقيم وفق مـا أمـر به الشرع الحكيم من وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ونبذ كل ما يخـالف

(1) لا أعني بالقناة هنا الظاهرة الفيزيائية في المصطلح الإعلامي، وإنما أعني بها الموضوع أو مـا يسمى بالرسالة "message".

ما جاء به وروي عنه، وهذه الدعوة الإصلاحية منطلقة مــن الإصـلاح الخـاص -وهـو التعصب لطريقة دون أخرى، إلى حد التشاحن والتباغض، وإثارة الفتن بين المريديـن- إلى الإصلاح العام، المقصود به توحيد الأمة.

2-توكيد الشيخ صراحة وضمنا، وبأدلة عقلية ونقلية، أن الطرق الصحيحة وإن تعددت واختلفت في الظاهر (طريقة الذكر)، فليس لهـا إلا مصـدر واحـد، وهـو سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن رأى غير ذلك فهو جاهل يدعو إلى الفتنة.

3-الإلحاح على لَمِّ الشمل، وتوحيد الصف بالتـآخي، ومحاربـة التبـاغض الـذي يلاحظ عادة في المريدين المتعصبين عن جهل وضلال، لشيخ معين.

4-ربط تلقين الأوراد المتعددة، وتلقّيها، بـالتمكن في الحقيقـة، والقـدرة المطلقة على الالتزام المتواصل، وإلا فورد واحد يكفي من لا يقدر علـى غـيره، ﴿لا يكلـف الله نفسا إلا وسعها﴾.

5-يستنتج من الكتاب أنه رد فعل من الشـيخ مـاء العينـين علـى منكـري جواز تعدد الأوراد، في ظروف كانت الحاجة ماسـة إلى التوحيـد، ونبـذ الخلافـات الـتي مـن شأنها تمزيق وحـدة الأمـة، وتعميـق أزمـات التخلـف... وفتـح البـاب علـى مصراعيـه للاستعمار.

6-يلاحظ من خـلال جـهود الشـيخ في تقـاريره علـى أبياتـه أنـه متمكـن أشـد التمكن من موضوعه، وأنه في موقفه الصارم، من أجل توحيـد الطـرق، لم ينطلـق مـن الفراغ، ويدل على ذلك مـا اعتمـده مـن مصـادر متعـددة، ومـن حجـج قويـة، نقلية وعقلية.

7-يعتبر الكتاب "مفيد الراوي" مصـدرا هامـا لأسـلوب الشـيخ مـاء العينـين في تربية الأفراد والجماعات، مريدين وشيوخا، ونموذجا من نماذج كتابته، أسلوبا ومنهجا، بالإضافـة إلى أن الكتـاب مرجـع أسـاس مـن مراجـع التربيـة الروحيـة والإصلاحيـة في المغرب، ولا يستغني عنه باحث.

الوثيقة رقم: 1

وقال فيهم دينا وقال فيهم أدب | وقال فيهم [illegible]

وقال فيهم بكل أمر يحمد | ومثله [illegible]

لدينه خليفة الرسول | في الأرض [illegible]

ذكر عبادته فيما بين المغرب إلى النصف

وحينما بلغ وقت المغرب | يأتي إلى قسمين لل[illegible]

ثم يصليه وفكه لم يجز | بين العشاءين [illegible] فيها وجز

إلا إذا [illegible] | أو عادة [illegible] أمر الله [illegible]

و[illegible] الركعتين | بالقرب يركع بدون [illegible]

وربما لركعات صلى | ستين [illegible] فعلا

ويقرأ الحزب ويبين وصف | ثم [illegible]

وبين ذا مع العشاء عشرين | مع ثمان ركعة يقينا

وبين ذا كم عبد من ذكر ومن | أدعية وكل سر مستكن

ومن تلاوة ومن [illegible] | ومن [illegible]

[illegible] للأ[illegible] | والناس تأتيه على [illegible]

يفرغ لذا وذا وذاك [illegible] | وقلب ذا من عنده [illegible]

وذاك لم بجسمه [illegible] | [illegible] الله للسعادة

ثم يصلي للعشاء والحزب | يقرأ [illegible]

ثم يصلي ستة أو أربعة | وبعده من [illegible]

ثم [illegible] بعدها [illegible] | وكلها [illegible]

وربما [illegible] | من بعدها [illegible]

برنامج الشيخ ماء العينين اليومي كما عبر عنه ابنه محمد تقي الله.

الوثيقة رقم: 2

وربما يعبد له تحت السحر — من غير علم أحد من البشر

ثم يقيم الليل بالركوع — وبالتلاوة وبالخشوع

ويتهجد ويدعو بدعا — ثم يصلي الشفع والوتر معا

ثم يصلي الفجر ركعتين — في بيته المقدس الأمين

ذكر عبادته من الصبح إلى الظهر

وحينما انصدع وقت الفجر — يأتي إلى مسجده في الفجر

وللصلاة يصلي ثم — يقرأ قبل الحزب ما أهم

من كل ما أراده من تسبيح — وكل سر حسن مليح

ومع حزب يتم الزيد قرا — تعد للذي انتهى فيما ذكرا

ويعقد أهل الشغل في ابن وراد — إلى طلوع الشمس للعباد

ثم يصلي للضحى ويقرا — يصلي أيضا للركوع عند زاده

ويجلسن من بعد ذا البعض — أو زاده جعله كالفرض

ثم يدرسه وجمعه للفقه — ليأخذوا عنه جميع العلم

من الأصول الفقه والبيان — والنحو والتصريف والقرآن

ومن تصوف وعلم المنطق — وحكم كثيرة في المنطق

والنحو واللغة والعروض — ومن فروع ومن فروض

ثم يسير بعد ذا الكل — ومن نعم وقله من عمل

يعود كل أحد لحفظه وحفظه — ومن رزق العيال كلا زاده

ويجمع الزكاة من الأمير يسر — وكل من ظل له أيضا

الوثيقة رقم: 3

وكم منا يأتيه من يطلب … أمرا ويعطيه لما فيه رغب
وكم يحميه من المزلة … وكل فتنة وكل علة
وكم له من التلاوة وكم … يفيد للعباد علما وحكم
وكم يؤلف إذا من نظم … كالدر أو نثر أجل العلم
وكم يحل من عويص مشكلة … وكم أجاب بلا تمنن من سأله
ثم يقيل إلى الظهيرة … لكل لب استراحة يسيرة

ذكر عبادته من الظهر إلى غروب الشمس

ثم يصلي أول الزوال … أربع ركعات لربه ذي الجلال
في بيته ثم يجي للعصر … ثم يصلي العصر بالحواضر
ويجلس من بعد ذا للطاعة … كقدر ساعة ونصف ساعة
وما سوى الأوراد في ذا الوقت لا … يفعله إذ ذكر مولاه علا
في غالب الأمور لكن ربما … أزال إشكالا لعلوم العلما
وربما يقول للأقوام … فوائدا تروقكم للأفهام
بعضها من الكتاب المحكم … وبعضها من قول النبي الأمي
وربما يسأل عن بعض الخبر … وما كان في كل وقت ما ذكر
ثم يسير بعد ذاك إلى … مكانه الذي به كل العلى
وبعد ذا يشتغل في كل ما … يصدر من كل تآليفه سما
وربما تلا كتاب الله … وربما نهى عن الملاهي
وتارة يشتغل بالأوراد … وتارة يرشد للعباد

ثم يجي الجامع للصلاة
ويقعد بعد الحمد للزوال

وما كذا الى بلوغ العصر ... ثم يصلي فبلده كالحضر
ثم يصليه ويشتغل به ... حديث سيد الانام المجتبي
يقرأه وبعد ذين عن بعدما ... يعجب من لديه راء او سمعا
ويقرئ اللذ ثم له القراءه ... لدى الضحى الا اذا ما جاءه
وربما اقعد بعض القوم ... ذا الوقت عند شيخنا للعلم
وكان هذا الوقت للحديث ... من دهره القديم والحديث
كقوله الجمعة ثم يكثر ... في رمضان ومنه بل يقصر
وبعد ذاك كان خلوته ... يسبح يشتغل في عبادته
من التلاوة وكل ذكر ... والسر والشكر وكل فكر
وما كذا الى بلوغ المغرب ... يعبد ربه بكل القرب
وليس بعد العصر ياتيه احد ... الى الغروب لعبادة ابن هد
وربما اقتصر في النقل على ... مثل السبتي نعم ما قد فعلا

فصل

وكان لا يفعل بغلال ابن ... ذاع عليه للالاء جل
بل قال رايته تخلف عن ... هذا الذي ذكرته في الزمن
ابن اذا عرض عارض عمه ... كمرض في نفسه او ما اهم
وكل ما ذكرت من عباداته ... لشيخنا الجليل ازبادا داه
بزاده بغله على الدوام ... في مطلق الايام وانه يلام
وكان قد ذكر في ايام ... واشم لها عند السلام
كجمعة ويوم عاشوراء ... ونصف شعبان وتاسوعاء

جوانب من سيرة الشيخ ماء العينين
من خلال بعض الشعراء الحسانيين

ذ. الطالبوي لعتيگ ماء العينين
مدير مركز الدراسات الحسانية - العيون

لقد سبقني المؤرخون والباحثون إلى الحديث عن الشيخ ماء العينين العالم الصوفي والمجاهد والسياسي والمربي، فلم يتركوا لي مجالا للحديث عن هذه الشخصية العلمية المتميزة ذات الأطوار المتعددة، فبحثت جاهدا عن جانب غامض أو يكاد يكون. لألقي عليه الضوء، يتعلق بهذا الطود الشامخ، فساعدني الحظ فيما أظن وهديت السبيل إلى الشيخ العظيم وإلى بعض الجوانب من سيرته المتميزة من خلال بعض الشعراء الحسانيين الذين صاحبوه عندما أذن له والده رضي الله عنه في السفر بعد أن صدره عالما فذا متصوفا، أو الذين وفدوا عليه وهو يتصدر مريديه وزواره وجنوده وتلاميذه وجميع علائقه، فصوروا المشاهد المختلفة الرائعة التي عاشوها منذهلين، وأبرزوا أهم ما يميز سيرة أحد العظماء الذين ما فتئ التاريخ يكشف عنه من زاوية لأخرى يوما بعد يوم، وخصوصا من الأعداء المستعمرين آنذاك، والحق ما شهدت به الأعداء.

لقد أدرك الشعراء الحسانيون أنهم أمام شخصيات في شخصية واحدة لم يسبروا أغوارها على امتداد الحقب الزمنية التي جمعتهم بها، فطفقوا يعبرون عن المشاهد بذهول وتسابق، محاولين سبقا صحفيا لم يتأتى لهم رغم ما بذلوه من جهد وما وظفوه من عبارات حسانية كاللبنات تشيد صروح القصائد الجمة التي لا تحصى، فبقيت جوانب هامة من سيرة الرجل لم يتمكنوا من الكشف عنها، وقد ساعدهم الحظ أحيانا

للفت الانتباه إلى جوانب مهمة أيضا.

وعندما أقرأ بعض هذه القصائد، فإني أؤكد على شيء واحد قلما توفر للشعراء أو على الأقل لعمومهم، ألا وهو الصدق، فشعراء المنظوم الحساني الذين سأقرأ لهم بعض هذا الإنتاج في الشيخ ماء العينين رضي الله عنه، كانوا مريدين وتلاميذ أولا، الشيء الذي جعلهم يتفاعلون مع شيخهم ومربيهم الذي رسم لهم المنهج الأسمى في المعاملة مع الخالق أولا، ثم مع العبد ثانيا، ألا وهو الصدق. فكانوا صادقين امتثالا لأوامر الشيخ، وسجية جبلوا عليها منذ وفادتهم عليه، مما أهلهم للقول الصادق نظما حسانيا راقيا.

وللإشارة، فإن الشيخ ماء العينين رضي الله عنه يوم سفره عن والده، صاحبه أربعة من التلاميذ لازموه أكثر من غيرهم، يذكرهم المؤرخون وبعض الحفدة لكثير علمهم بهم، ومما يعنينا هنا أن من بينهم محمد فاضل ابن الخرفي الذي كان يسمى القائد نظرا لحظوته عند الشيخ، وما له من خبرة وإخلاص في تنفيذ كل المتطلبات بالسرعة والأمانة المطلوبتين. ومحمد فاضل هذا هو الذي يخاطبه ببيت حساني بديع من حيث التركيب والدلالة وحسن السبك، إذ يقول لشيخه:

اتْـعَـدْ النَّاسْ اتْعُودْ اجْـدَادْ مْـنْ عَنْـدْ الْجَـدْ امْنِـينْ اتْعُـدْ
يَغْـيْرْ إفَاصْلْـهَ شِ زَادْ يَطْـرَ ثَـانِ مِـنْ دُونْ الْجَـدْ

بمعنى أن الناس تستوي في الجد عندما تعد ما يفصلها عنه من آباء، لكن شيئا ما آخر يميزها من دون الجد يعتبر طارئا لا يمكن أن تستوي فيه، وهذا منتهى البلاغة في الإشادة بتميز الشيخ ماء العينين عن جميع إخوته الذين يستوون وإياه في الجد الواحد، من منظور تلميذه القائد محمد فاضل الخرفي.

والقائد هذا هو نفسه الذي جاء يوما لشيخه وقد علم بعزمه على السفر إلى "التل" المقصود شمال المملكة، والشيخ حينئذ بالسمارة، فكثرت الآراء بين محبذ لفكرة الشيخ ماء العينين في زيارة السلطة المركزية بالداخل وبين معارض خوفا من تفرق الأتباع وضياعهم، معللين أن "التل" صعب على الشيخ وأتباعه الكثر، فجاء الشاعر

المذكور وجلس بين يدي الشيخ الذي كان يستطلع الآراء حول رحلته هذه، فقال:

اتْݣدْ النَّاسْ اتْعُودْ اُݣدَادْ   مْنْ عَنْدْ الْجَدْ امْنِينْ اتْعْدْ
يَغَيْرْ إِفَاصَلْهَ شِ زَادْ   يَطْرَ تَانِ مِنْ دُونْ الْجْدْ
اسوݣاع الشور آل هون   أظهر لك فيه الخير أكمل
ما يفعل بيك ألّ يكون   مجازاتك فل تعمل
وامنادم باحر فتݣا فيك   واتݣاف ذَلّ عالق بيك
وݣول التل أصعيب أعليك   فيه امْنَتَّاس المستكحل
اثر ما يعرف دهر أمجيك   اݣلت عمارت ذا المحل
ما صايع حد أحسيف فيك   واجوارك من ما يمتل
واصلك معتقد فْ النَّاشيك   ذاك أعلاش أصلك متوكل
وأنت ما فات أطرشِ فيك   ملان ما فات اتبدل
وال من خلق بيك هداه   ماه كيف أل بيك اشقاه
أل بيك أهداه أتولاه   من عند الله اݣبيل الخير
أذاك آل بيك أشقاه الله   منع زاد امنلخير الخير
مخلاك الجدك مشاه   ملان لعبيد بشير
وأنت وارث جدك وجّاه   أل عاطيك الله أكبير
يسوݣاع الشور ال هون   أظهر لك كامل فيه الخير
ما يختر ملان يكون   الّ فيه الخير أتختير
الݣال اعلنك ما زبيت   امْنُوْلاَدْ آدم لهنا تيت
يسمع باطل ذا ال وسيت   كان تازبوت ألخير
حرشت أجدرت أفرشيت   القبايل زاد أبلكثير
وأنجاح المال أل عاديت   وأهل ورتاز بالتدمير

وسوݣاع الشور أل اهون

والمعنى أن الله سبحانه لا يفعل بك إلا خيرا فيما اخترت لنفسك، والذين يحارون لسفرك وسفر من علق بك معللين ذلك بصعوبة الشمال "التل"، ومنهم من يرجع الأمر لحاجة في نفس يعقوب، أي لغرضه الخاص، فهؤلاء لا يعرفون يوم أتيت هذا المكان، ولا أنيس به، وكيف أصبح اليوم؟ زيادة على ذلك فلا ضغينة بينك والغير، وجوارك لا يُملّ، واعتقادك في الله واعتمادك عليه، لذا فأنت لازلت أنت، والله حي لا يموت لا يفعل بك إلا خيرا. كما تفعل بالآخرين، وهو امتثال للآية الكريمة: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا﴾، صدق الله العظيم.

ومن بين الشعراء العديدين الذين استظلوا بظله ورافقوه في زمن طويل الشاعر أحمد ولد محمد لعبيْد السمسدي الذي بلغ من تطويعه للعبارة الحسانية أن قسم حياة الشيخ كما رآها إلى ست حالات أو تجليات، بدأ يعددها بقوله:

مستبد باسمك يا لجلال	والصلاة أعل كل أنواع
أعلى سيد خلقك بكمال	محمد ما فيها نزاع
كلمات أمن الشكر أكلال	أفشيخي ما لعينين أل شاع
الشيخ اللّي مالو مثال	وحال عاد أعلى ست أصراع
لول من لصراع الجمال	والذات أمع حسن الطباع
وحسن الخلوق أوسع البال	وزين التخمام أوسع الباع
ونور الوجه وبسط استقبال	ومنصور ولا فيه التنشاع
وزين الفم الجابر تقبال	الكعبه وأكبر بالتكراع
وهذا الصرع أوف بالتعدال	ولاّ متعدل من لصراع
والصرع الثاني بذل المال	بالكف اللي طايع لصباع
لصباع أعلى المعط محال	عن فيهم واحد لُ ما طاع
ويلَ جاه الخلق أبلكمال	ظمّر ما يمش كون اشباع
واللّي ما يمشِ كماع أعيال	ما يتْحَيَّدْ خوف المجاع
واللّي منو ماه وكال	ما يتعش يكون ابصاع

والخلق عليه أكـفال أكـفال بيظـان وسـودان وصنـاع
واللّي منو داير تعدال الهم أمن أخبار الطّمـاع
يجبر سن البل فزوزال اللّي متمونك فالتربـاع
ويجبرها زاد أفحول أجمال فطْر واحدع واثن واربـاع
وامَّلِ يعطيه خيَّال وابغل واحمير ولا تنبـاع
نافقها فالسبيل أكبال ولا هو دايرها للتطلاع
ذاك الصرع أفرغ بالتعدال ولاَّ متعدل من لصراع
والصرع الثالث ما يذبال للناس المنها ما يرتاع
خايف من تصريف الفعَّال وطامع فيه أعلى الاتباع
وباغض لله أهل الضلال ما يبغي منهم لنتفاع
واس قدرت لسلاه أظلال وامَّاس زين الدين أنساع
ومرابع جمعُ وزين أفعال واسْكِ بيك أمرابع وأرباع
ذاك الصرع أفرغ بالتعدال ولاَّ متعدل من لصراع
والصرع الرابع كان أنكال سَمْعُوا بانيه ابلا رتفاع
تابع سنت سيد لاَرْسال سنت حدُّ ذاك الشفاع
واكردها دايرها تسهال وامسحها خلاها منجاع
ويربِّي لكلوب الرجال بالذكر اللّي زين فلسماع
ويَطوَّعْ ما هو بالقتال وبالقتال امَّلِ طواع
ما هو بالسيف ألاَّ ذي الحال اللّي مَرَّكْ مِنُّو لصباع
أعجل من لكلام الينكال يبك فم إززٍ بكزاع
وافعالُ تحفال أفلفعال واشريف ومطيع ومطاع
والشيطان أرفد زاد أجفال منُّو ذوك أماش ينصاع
ذاك الصرع أفرغ بالتعدال ولاَّ متعدل من لصراع

والصرع الخامس عاد أمجال ... فالعلوم ألاّ لو تباع
حافظ لمذاهب كان وسال ... ما هو فالفتاوي تعتاع
ذاك الصرع أفرغ بالتعدال ... ولاّ متعدل من لصراع
والصرع السادس لا محال ... عن خالڭ كيفو فالبقاع
هو قطب الزمان الحال ... والماضي والفيه اتساع
ساكن فيه الكون وطوال ... ولكوان أحلاوه والمتاع
الدنيا يمين وشمال ... والنابت فيها من تزراع
ولشجار ألفيها والجبال ... والساكن فيها من رتاع
من بركت رسول الكمال ... سبت سكناه الشيخ أراع
هو شكرو ما فات أنڭال ... مخلاّه اللّي هو ڭاع
مَزَالْ اطْفْل شايط لَطْفالْ ... مَزال افسْغْرُ في الرِّضاع
اتفڭريش شايط لبطال ... أزين منهم جاه وتجماع
وافلكهال أورع من لكهال ... واسِلسل منهم فالتراع
ذاك الصرع أفرع فالتعدال ... ولاّ متعدل من لصراع
وأنا يشيخي لا ننظال ... فالدنيا من باس الڭطاع
داير عمري فيها يطوال ... بالطّاعة واعلى لتباع
واسلامت لولاد ولعيال ... ونلبس درع من أحسن لدراع
ولا نجبر فالموت السؤال ... ولاّ زاد أجواب يسراع
وتوّ فالبعث الاّ ننشال ... شور اجنّ مانِ مرتاع
وانعود افظل ابلا زوال ... نعيم ولا فيه انقطاع
ذاك اصّ هو حڭ الڭبال ... لوساع اللّي تبري لوجاع

ورغم طول النص ونفسه الشعري، فالشاعر يرى أنه لازال مقلا، وإن ما ذكره إنما هي كلمات شكر قليلة، أولها جمال الطلعة، وحسن الطباع والخلق، ووسع الباع،

ونور الوجه، وبشاشة الاستقبال، وعذوبة الابتسامة من فم شب على تقبيل الكعبة، وهذه هي السجية الأولى وأحسنها.

أما السجية الثانية فتتمثل في بذل المال بكف مطيع لأصابعه، والأصابع لا يوجد من بينها إلا مطيع في البذل لهذا الكف، ولا بأس أن نقف هنا لنبين متانة الأسلوب، وقوة الشاعر في تصوير طريقة البذل لدى الشيخ، وكأن العطية جمرة تتقاذفها الأصابع والكف للتعجيل برميها إلى من ستوهب له.

ثم يتابع في السجية الثانية دائما، يقول: وإن الخلق كلهم أتوه ضمرا جائعين طاوبي البطون، لا يمشون إلا وقد شبعوا، وأضعفهم أكلا غذاؤه صاع تام، وهنا يشير إلى ما قاله المؤرخون حول العناية التامة بالآلاف المحيطة به التي لا يعرفها ولا يسأل عنها، تستفيد من ماله وعلمه يوما وراء يوم، يكرم وفادتهم بأنواع العطايا إبلا على اختلاف أسنانها، وخيلا وحميرا في سبيل الله، لا مراء ولا بحثا عن الجاه، وهذه من أحسن السجايا أيضا.

أما السجية الثالثة فهي كما يقول الشاعر تتجلى في عدم خضوعه لأي كان مهما كانت عظمته إلا للخالق سبحانه الذي يخشاه ويطمع فيه، وفيه يحب ويبغض، وما أحسنها من سجية.

أما السجية الرابعة فتتجلى في سمعته التي بناها على الارتفاع والعلو باقتفاء أثر جده المصطفى صلى الله عليه وسلم بتربية القلوب بالذكر، وتطويع النفوس دون قتال، وإذا احتاج الأمر إلى قتال فلا غرو أيضا، لكن بطريقة خاصة تتجلى فيما يصيب عدوه بقدرة الله وبشكل سريع، فهو المطيع المطاع، وإبليس اللعين سارع إلى الابتعاد عنه، إنه يرى هاربا مبتعدا حيث لم يجد له ملجأ بقربه. وما أحسنها من سجية أيضا.

أما السجية الخامسة فتتجلى في حفظه لجميع العلوم، وإلمامه بها، لا يتعثر أو يتلعثم في إصدار الفتاوى لإحاطته بما يتطلبه الأمر فيها، وهذه أيضا من أعظم السجايا التي امتاز بها الشيخ.

أما السجية السادسة فتتمثل في كونه لا يوجد له شبيه في بقاع العالم، فهو قطب

زمانه الحالي والماضي والمتسع من الزمن الآتي، وهو بمثابة الحديقة الغناء بأزهارها وأشجارها ورياحينها، تزهو للعين، وتلذ للنفس، وهو كذلك منذ نعومة أظافره، ولم أقل شيئا من شكره، إنما هذه من أحسن سجاياه، وبه ختاما توسل الشاعر إلى الله لتحقيق مآربه الدنيوية والأخروية، وتلك هي النتيجة المرجوة التي تشفي كامل الأوجاع.

أما الشاعر المبارك بن اليمين، فقد بدأ ببيت حساني لا يقل جمالا وحسن سبك عن القايد الخرفي، حيث يقول:

الخلـق أخيـارُ جـدك تُـوكْ   ابـذاك اعْلَـى غَـيْرَكْ حَتَّـى

اخيـار الْخَـلاَّ جِـدَّكْ بُـوكْ   واخْيَـارْ الخـلا بـوكْ انْـتَ

والمعنى أن أفضل الخلق جدك وهو النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولك أن تتسامى على غيرك بذلك وأفضل من ولد جدك أبوك وأفضل من ولد أبوك أنت، ولك بها أعلى درجات الرفعة والسمو.

وكما تعلمون، غالبا ما تكون هناك أوقات فراغ يقضيها التلاميذ في الخوض في أحاديث شتى حتى ولو تعلق الأمر في التعليق على بعض الأشياء الجزئية التي قد تضر بهم، وليس في الأمر سوء أو نية مبيتة، وإنما النفس البشرية جبلت على التربص والخوض فيما لا يعنيها غالبا، وهو ما حدا بالتلاميذ إلى الحديث عن حريم الشيخ ماء العينين رضي الله عنه، وكانت من بين زوجاته المسماة: العزة، وربما كانت لها عنده حظوة كبيرة لسبب من الأسباب، ومن الطبيعي أن ذكرها أمام الشيخ رضي الله عنه قد يثير حفيظته، وخصوصا من قبل تلاميذته، إذ ليس لهم طريق ولا سبب لذلك، وفي حديث لهم قال أحدهم: من منكم يستطيع ذكر السيدة العزة أمام الشيخ دون أن ينتبه لذلك، فبادر الشاعر المبارك بن اليمين قائلا: أنا لها، ثم أنشأ قصيدة رائعة محكمة البناء، وتقدم لإنشائها أمام الشيخ، فلما فرغ منها شكره الشيخ ماء العينين رضي الله عنه على مدحه وحسن إنتاجه، ولكنه أمره ونهاه عن إعادة فعلته خوفا عليه من غضب شيخه الذي قد يجر له متاعب من حيث لا يدري، وهذا مما يعكس سماحته وتغاضيه

وحسن أسلوبه في التربية رحمه الله، والقصيدة طويلة سآخذ منها البداية، إذ يقول:

رب العـــزة وســـاك ابـــلاد　　فيـــها عـــت اللعبـــاد اتشـــيط
أعلـــى بحـــر المحيـــط أكـــاد　　اتشـــيط أعلـــى بحـــر المحيـــط
وســـو تســـمع ذاك الحســـاد　　ويـــط اصَّ وَلّ مـــاه ويـــط

والمعنى كما يقول الشاعر أنك من فضل رب العزة جعلك الله بلادا تغطـي بحـر المحيط وأنت قادر على ذلك، وللحساد أن تسمع ذلـك، ولْتَمُـتْ بغيظـها إن شـاءت، فذلك من فضل رب العزة. وجاء بالمورى عنـها وهـي العـزة زوجـة الشـيخ رضـي الله عنهم.

وظل الشيخ رضي الله عنـه ذات يـوم في خيمتـه لم يخرج منـها لألم في إحـدى رجليه، فعلم أحد تلاميذه بذلك وهو الشيخ المجيد محمد الإمام ولد الزين، فأنشأ يقول:

يلحكـــ يســـواي الخـــدام　　بـــالمد الجدعـــك واربـــاعك
كـــالو ل عنـــك ذو ليـــام　　مســـك مـــن لـــبرود اكراعـــك
أنـــت كرعيـــك إيـــاك اثنـــين　　فيـــهم لـــبرود إعـــود امنـــين
هـــو فكـــراع المســـاكين　　تلباســـك بيـــه أتزراعـــك
ولّ فكـــراع اعمـــود الديـــن　　مديـــت بيـــه بذراعـــك
لـــبرود ال شـــافك مقصـــود　　يشـــيخ وكريـــم أموعـــود
أكـــاسك داير عنـدك لـبرود　　حـكـــن وسبكـــ فكراعـك
غـير امنـين اتشـك وعـود　　نـابت لـك دايـر تليـاعك
تنبـت بـاط أنـت فـم اتعـود　　رحـــم واظـــلال لتبـــاعك
ومنـج مظلـم فيـك ارعـود　　امظلـــل واســـع تربـــاعك
فيك الظب أفيـك الـكـ نفـود　　افيـــك الظلمـــان الّ صـــاعك
فيـك العيـش أحلبـت لفغـود　　يجـــر اثنـــين مـــع صبـــاغْك
يلحـــك يســـواي الخـــدام

والمعنى أن الحقيقة أيها الشيخ الذي تساوي بـين خدامـك في العطـاء وتمنحـهم

الإبل المختلفة الأعمار، وهو ما دأبت عليه. إني قد سمعت أن ألما أصاب أحد رجليك، ولا أظن الألم يتحداك فيصيبك ليؤذيك، وإنما الألم رآك مقصودا، فقصدك هو الآخر يبغي المكث بجوارك كالآخرين. أما إن كان قصده لك من أجل الإذاية فأنت الذي سيؤذيه وينبت فيه، والآن وقد سبق في رجلك، فإن ظننت أن هدفه غيرُ قصد الآخرين في الإقامة تحت ظلك، فستظهر له أنك أنت الظل الذي يحتمي به، وأنت الرحمة ومكان الدفء، حيث يعيش الإنسان والحيوان، وأنت القوة والمنعة، وأنت العيش الكريم والأمان والطمأنينة.

ومحمد الإمام ولد الزين هذا هو الذي يشيد في قصيدة ثانية بكرامات شيخه، فقد كانت للشيخ ماء العينين رضي الله عنه كرامات كثيرة مشهود له بها يضيق المجال عن ذكرها لطبيعة العرض، وقد جسد إحداها الشاعر في هذه القصيدة التي تحكي القصة كما هي، وما كان من كرامة الشيخ المشاهدة بالعين، وخصوصا أنها حالة عاشها الشاعر نفسه، فدونها بنظمه الحساني الرائع، يقول:

لخـدي يسـند المحتـاج	امنركـاج التربـي
زيـن مـا شـايبه يجـلاج	يشـيخ قـرت عيـني
يوم اكـطيعك يـا الشيخ الـواد	بسـبع متلاطـم متكـاد
عنـدي عنـك عرفـت لعبـاد	عنـه مـا تطلكـلـك لي
وغـد مغدمـاه معتـاد	ول الخـرفي يعيـني
أمـر أحمـار بيـه التلـواد	والرجلـي مـرت هـي
واعـو بشـية منـذاك أبعـاد	واغركـ ول الحـاج ازكـي
والحـاج أمـل هـو زاد	محمـد فـال ألمطـي
ذوك أبلغن عن كـاع اصطـاد	الْمَربيـهم يحسـبي
امنيـن أنـت بتفاكـك جـاد	أعليـهم مـول الكتـبي
آلات نـافع يكـون أمـراد	للـوَلاَيَ الحقيـقـي
كـطع أخـف أمِنْرِيشْ ازنـاد	ول الخرفـي يعيـني

أڴطع احمار كيف ألينڴاد والرجلي ڴطعت هي

واعو يشيته ڴطعت تماد واڴطع ول الحاج ازڴي

والحاج امل هو زاد محمد فال المطبي

ڴطع يل يڴطع من عاد لاه فيك اشين ني

والمعنى كما ورد في القصيدة أن الشاعر عند طلبه لما يسمى "لخدي"، وهي الفرحة التي يقدمها الشيخ للتلاميذ بعد الغيبة، لا يريد منها الشاعر إلا التربية والنصح والتوجيه لما وجده في شيخه من كرامات صادقة واضحة، ذلك أن الشيخ ماء العينين رضي الله عنه أثناء عودته من إحدى رحلاته متجها إلى السمارة وجد واديا يسمى "بوسبع" محملا مياها غزيرة، فنزل بجواره يوما أو يومين في انتظار أن يسهل قطعه، ولما لم يتمكنوا من ذلك قال رضي الله عنه لتلاميذه ومرافقيه: لن يبقى هذا الوادي حائلا بيننا وبين أهلنا، فعليكم باتباع أثر بغلتي لنقطعه، وامتطى بغلته، وتقدم الجمع، ثم بدأت الكرامة في هبوط مستوى الماء إلى قدر معين لم يعق سير الدواب المحملة والراحلين.

إلا أن الإنكار من شيم البشر مهما بلغوا من الثقة بالشيخ، ومهما رأوا من البراهين المدهشة والكرامات النادرة، ذلك أن مجموعة من الأتباع أنكروا إمكانية قطع هذا الوادي السريع الجريان، المحمل ماء كثيرا، فقاموا بمحاولات فردية دون اتباع بغلة الشيخ، و لم يسلكوا طريقه، فأوشكوا على الغرق، وصاح القوم يريدون النجدة، وبلغ الخبر إلى الشيخ رضي الله عنه، فعاد إليهم قائلا: اسلكوا سبيل هذه البغلة، وهو ممتطيها رضي الله عنه، فاتبعوه، ونجوا كما نجا من سبقهم.

وفي ذلك كرامة حفزت الشاعر إلى تصوير المشهد كما عاشه، مظهرا إنكار هؤلاء، وما كان من غرقهم الوشيك، ثم نجاتهم بعد الوقعة.

وآخر القصيدة يبرئ نفسه ممن يشكك في كرامات الشيخ رضي الله عنه.

أما الشاعر المقتدر ولد جد أم، فلازم شيخه طويلا، ونهل من مورده العذب حتى الثمالة، ولكن تتحكم الأقدار ويحين الفراق، ويسافر الشيخ ماء العينين رضي الله

عنه، ويبقى ولد جد أم مكانه أسير حب الشيخ ومشاكل الأسرة، تشده إلى الشيخ عرى وثيقة، وإلى الأسرة عرى لا تقل أهمية عن تلك، فيعيش دوامة من التفكير والاضطراب لا يلبث أن يجد لها عزاء واحدا يتمثل في نفث مصدوره شعرا أنيقا صادقا، فيرسل به إلى الشيخ قائلا:

ڭولو للشيخ ال راه   ملعينين ان ما ننساه
نبغ ڭرب واني والله   مان داير من دون دون
وال خالڭ من شيخ إلاَهْ   وال من تلميذي ماذون
ما دورت الزايد من   دون خفت الشاري بالهون
الدون إدور إشك ان   غابن حد أهو مغبون
لمڭعدن هون قلبلاد   عنّ هك ال ماڭ ڭاد
ماه عزت هون إلَزَاد   كرهي هاك او لله يكون
عاجز هون اعزت لولاد   هون، ألا قدر مول الكون
ما دورت الزايد من

والمعنى أن الشاعر يبعث برسالة إلى شيخه يعتذر فيها عن عدم اللحاق به لأسباب عدة، منها العجز وحب الأولاد، وليس حبا لهذا البلد أو كرها لذاك، وفي جميع الأحوال يؤكد لشيخه أنه لا ينساه أبدا، ولن يبحث عن الاستزادة دونه من شيخ أو تلميذ مأذون مهما بلغ، لأن للشيخ ميزة قلما توفرت في غيره. ومن خلال القصيدة نلاحظ الحرقة والألم الذي يعاني منه التلميذ الشاعر وهو يقاسي ألم الفراق وحب الأولاد.

وتتشكل في ذاكرته شخصية شيخه التي يصفها بقوله:

ال وساك أكبر مزاك   ملشياخ الغلظ ال حاك
لخلاك اوساك مع ذاك   ملشياخ انفق في السبيل
لابن السبيل الاخلاك   عند افصال الخصمين اتميل
للمنطق والتوحيد اكملت   ڭبل اتصوم أمنكيفن صمت

اكملت ابن عاصم واكملت	نص أبو محمد واخليل
والبيان انص اطرت	للفي وامع ذيك الحيل
فعلك جميل أسترك فت	ملان بالستر الجميل
يسل عن فعلك لا تتكبت	وبط عنك عزرائيل
بركت عزرائيل أبركت	جبرئيل أبركت ميكائيل
وسرافيل أنفخ في السور	والتورات ابركت لانجيل
والناس المنص الزبور	والناس المنص التنزيل
والمسكين إلى ما كبل	بن عم ثقل ما حمل
بيه ارباه أشددت فصل	واصل مول اعيال أعليل
منيوم احيك اتسيسل	بالمال أباجاه الجزيل
لين اعود إمسح طبل	ومسح كسان اتبصيل
وفلغياب اغيب طفل	ودير الطفل وسط اجيل
حشاك أحشاك ابرجل	وقت الليل اساعت لمكيل
ما يهن وعود ابجمل	ونم افاغ والطويل
وال ما يعرف كان اصل	وابلا كان اصل افكل اكبيل
منيوم احيك اموكَنْلُ	كيف الما بينات تفصِيلْ

وفي القصيدة شيم المروءة والكرم والتقى والورع، ومساواة الوافدين مهما بلغت درجاتهم نسبا أو غنى أو فقرا، وعدم التأفف من العليل البائس، بل جعله يرقى إلى درجة الفتيان بما في كلمة الفتوة من معنى.

هذا بالإضافة إلى أشعار جمة كثيرة لم آت منها إلا بالشيء القليل نظرا لعامل الوقت، وكلها تمجد الشيخ ماء العينين رضي الله عنه، وتكشف عن ستر من سيرته المتميزة، فهو العالم الصوفي، والمؤلف الكبير، والسياسي المحنك، والوطني الغيور، رضي الله عنه وأرضاه.

الشيخ ماء العينين
من خلال الموروث الشعبي الحساني:
مقاربة سوسيو-ثقافية

ذ. محمد دحمان
معهد الدراسات الإفريقية-الرباط

تعتبر الثقافة الشعبية الحسانية مجالا خصبا بالنسبة للدراسات التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية لفهم ثوابت ومتغيرات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمجتمع "البيظاني"، وهي في حاجة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى التدوين والجمع والتحقيق نظرا للتحولات الكبيرة التي عرفتها المنطقة الصحراوية من استقرار للبدو الظاعنين، وتحول نمط العيش من الرعي والتجارة البعيدة المدى إلى المدن، والإقامة بالحواضر، وتمركز السلطة الإدارية، ونهاية نمط العيش القبلي. زد على ذلك غنى هذا الموروث الشعبي وتنوعه من حكايات شعبية واقعية وأسطورية، وأمثال حسانية سائرة، وشعر شعبي غني، وأحاجي... الخ.

إنه كم هائل من المعطيات الثرة التي تتعرض للاندثار، وتتطلب وضعها في حالة أبقى هي حالة التدوين. فإذا كانت التوجيهات الأكاديمية والاهتمامات لدى الجميع تنصب على التواريخ المدونة المكتوبعة العالمة أساسا، فإن ذلك يزيح إلى دائرة ظل الإهمال وليل الجهل، حقلا واسعا من المعطيات ذات الأهمية القصوى بالنسبة للتاريخ "غير المكتوب" (التأريخ الثقافي، "التأريخ الرمزي").

في إطار هذا الاهتمام ستنحصر دراستنا هذه في نماذج من الشعر الشعبي

الحساني التي كان موضوعها العلامة الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، وهي نصوص متواترة وقيلت في فترات في تاريخية مختلفة، وكلها تنحصر في القرن العشرين الميلادي.

إن الشعر الحساني اهتم بمختلف جوانب حياة مجتمع "البيظان" عامة، كما اهتم بقضايا معينة، ومن ذلك مثلا: الأماكن، والمشايخ، والرّكاب، والنساء، والفترات التاريخية الخاصة، وهو اهتمام كان له تأثير ملموس على حياة الأفراد والمجموعات الاجتماعية داخل هذا المجتمع الظاعن. والحالة هنا هي الشيخ ماء العينين الذي كان عالما عاملا وفاعلا اجتماعيا مؤثرا، ومحركا لدينامية القيم الدينية لدى مجتمعات شمال غرب إفريقيا، بل سار المفكر جاك بيرك[1] إلى القول بأن القارة الإفريقية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شهدت حركتين هامتين طبعتا تاريخها المعاصر، هما مهدي السودان في شرق صحراء القارة، والشيخ ماء العينين بغربها.

وبالنسبة للنصوص الحسانية المعنية هنا، سنورد نصا يتعلق بالوسط العائلي الاجتماعي الذي ظهر فيه الشيخ ماء العينين، يقول أحمد بن هدار في أمر أهل الجيه المختار[2]:

وخيْرت بيكم حگ يدْناگير ... أهل الشَّيخ محمد فاضل أنْهارْ
التَّالِ يا أهْل الخير والْغيْر ... وَلْ مامينّ ولْ الطّالبْ أخْيارْ
ولْ الطَّالب محمد النْكّيرْ ... ولْ الجيه الفاتَحْ المختَار
ولْ الطّالب لَحبيبْ الأخِيرْ ... ولْ الطالبْ اعْلِ اخْيارْ الأخْيارْ
ولْ سِيدِ عَالِ الا استخْبيرْ ... فَالجْدُودْ النَّاسْ الابْرار الاحرَارْ
ولْ شمس الدينْ يحيى الكَبير ... الگلگم لقْطابْ لكْبارْ
فَالْجدودْ الأشْرافْ الأحْرارْ ... سَلْسَلْ فَهمْ ما تُوفْ إلى تمازْ

(1) انظر تقديم بيرك لكتاب:

Caratini Sophie: Les enfants des nuages, Seuil, Paris, 1998.

(2) أورد هذا النص المتواتر محمدن بن سيدي إبراهيم، تهذيب الأفكار في أدب الشعر الحساني المختار، الجزء الثاني، 1993، نواكشوط، ص: 17/15.

الرسُولْ الشَّفيع النذِيرْ — أحْنَ أنسَوْلُ ءُگابْظينْ لخبارْ

بعْقُولنَ مَا قالْنَ أستخبيرْ — وَاخْيرَتْ بِيكُمْ كامْلينْ يكبَار

المعنَ يبَلْ الستْزَازيرْ — للْعَارْ عُبلْ امهابتْ النَّارْ

لكْبِير مَنْكَمْ أخَيْرْ امَنْ اصْغيرْ — والصّْغيرْ اشوَيْ امْنينْ تخْبَارْ

ما تَيتْ تتفگّد زادْ لكْبير — هاذاكْ لكبيرْ ما إيعُودْ لُ ظَارْ

بِيهْ الكبير إيعِينْ أصْغِيرْ — أعْلَ البُرُورْ واصْغِيرْ گاعْ بَارْ

ماه حَافِ سَالْكْ امْنْ احْذِيرْ — الدَّرْجَ كارَهْ العَارْ والنَّارْ

ذَاكْ مَعْنَ ذَاكْ عَنْ تَفْسيرْ — راظْعْ لُبَنْ جِهاتْ لَحْرارْ

جيهات أمنَاتْ بَشِيرْ نذِيرْ — مَارْ گاتْ معَدْ مارگاتْ مُضَارْ

كَلْكَمْ لِينْ أيْدُ لِينْ لحرِيرْ — كَلْكمْ وجْهُ يتگَا شَعْ أنْوارْ

ظو اتباركْ لَلّ ظوْ غندِيرْ — يَعْمِ عنْكم عينِينْ لنْظَارْ

ألاّ لا تَگلّعْ گاعْ ألاَ ادِّيرْ — گمْتُ امْدَكمِينْ اكْبيلْ مجْهَارْ

شَكْر الغَيرْ كَمْ وأخيْر منْ الْغَيرْ — مَا خلّيتُ للغَيْرْ شَكَّارْ

صَابْ لشكارْ يلتْهَا فْتدبِيرْ — ال شِ إرَاهْ مسْكِينْ بتَّجْمارْ

الحَگْ مدَّ ابَّاتْهَ ادنَا گِيرْ — ما گطْ فَعْلَتْ شِ فِيهْ مَعْيَارْ

غَالْبَ فالشْرَعْ تَورَسْ القدِيرْ — عنْ شكْرْ اجميعْ وِيْنهُ شَكارْ

ما يلحَقْ حد مَنْ الغَيره سَيْرْ — جَمْلْ أنْعَالَ الْحَد منُّ اخْبَار

عُلاَ يمينْ خَوفْ الْحنثْ لكْبِيرْ — عُلاَ قْرِينَ امصدقَتْهَ اخْبارْ

*   *   *

يا أهل العقولْ والكيدْ وعَاذْبِيرْ — يا هلْ اتْعليمْ حگْ فالخَطَّارْ

وابن السَّبيلْ ابْلاَ التَّاخِيرْ — عَن يَعطِيكمْ طُولْ لَعمارْ

يا هل الوهبْ الْجَايْ منْ القدِيرْ — يا اهْل السَّنْدْ للمسكِينْ والْجَّارْ

يا اهلْ النَّصرْ الزَّينْ والتَّفسِيرْ — يا اهْلْ الهَيْلاَلَ لْطَارْحَ النَّار

يا اهْلْ محمَّد فاضل أخَيْر   ألّ منْهَونْ للحَوْظْ لَزْبَارْ
إلَى وادْ نُونْ إلِينْ نَكْجِيرْ   لْشَنْقِيطِ لْسودَانْ لاطَارْ

في هذا النص نجد الشاعر الشعبي الحسَّاني يورد شجرة نسب الشيخ ماء العينين المنحدرة من فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكر خصال عائلة آل الشيخ محمد فاضل التي من بينها التقوى، والاحترام المتبادل ما بين الأجيال داخل الأسرة، والمميزات الْخُلقية والأخلاقية لهذا الوسط العائلي ومكانتهم العلمية وخصالهم الفكرية من صفاء ذهني، وتدبير عقلاني للعلاقات الاجتماعية خاصة تجاه الضيوف والضعاف من الناس والجيران، وميزاتهم الروحية من وهب وولاية وعبادات، وينتهي الشاعر إلى مجال شهرتهم آنذاك الممتد من الحوض في أقصى جنوب الصحراء إلى واد نون بالحافة الشمالية للصحراء الإفريقية.

إن هذه الصفات والشروط الاجتماعية الخاصة هي التي ظهر في أحضانها الشيخ ماء العينين باعتباره صاحب طريقة في التصوف، وعاملا مجاهدا، وعالما مفتيا وله رؤيا للعالم وللمجتمع من حوله. إن "المعينية" رؤية صوفية تدخل في إطار أشمل منها هو الطريقة الفاضلية. ونقول إنها كانت على خلاف الطرق الأخرى متفتحة مرنة، ومن ثم وقفت منها الطرق الصوفية على المستوى الإيديولوجي والسياسي موقف المستوعب أو المهادن على الأقل. إن "المعينية" لا تقف من الآخر موقف المتعسف انطلاقا من قاعدة: أينما وجدت المصلحة فثمة شرع الله.

أما النص الشعبي الثاني الذي نورده بخصوص هذه الشخصية فهو قول ولد جدْ أمُّ الملقب "الدمان"[1]:

ألّ وسَاكْ اكبر مَزَّاكْ   من لشْياخْ الغَلظْ الّ حَاكْ
لخلاَكْء وسَّاك امع ذَاكْ   مَنْ لَشْياخْ أنْفَقْ فالسَّبيلْ
لابنْ السبيل عُلاَ هنَّاكْ   عنْدْ افْصَالْ الْخَصْمينْ اثْمِيلْ
عنْ كُولْ الْحَكْء لا خلاك   تتْأول با ضْعَفْ لقَاويلْ

(1) محمدن ولد سيدي إبراهيم، نفس المصدر السابق، ص: 180-181.

للمنطق والتوحيدْ اكملتْ ... ڭبْلْ اتصُومْ عُمنْ كِيفَنْ صَمْتْ
اكْملتْ ابنُ عاصم واحْفظتْ ... نَصْ أبو محمَّدْ وَاخْليلْ
والبيانْ عُنَصْ ءُ طَرَّتْ ... للْفَيَّ مَعَ ذِيكْ الحِيلْ
فَعلكْ جَمِيلْ وْسَتْرِكْ فَتْ ... مُلاَنَ بالسَّتْرْ الجميلْ
يَل عنْ فَعْلكْ لا نتكَبْتْ ... وإبَطّ عنَّكْ عَزْرائيلْ
برْكَتْ عزرائِيلْ عُبركَتْ ... جَبْريلْ ءُ بركَتْ مِيكَائِيلْ
واسْرافِيلْ وُ نَفخُ فالصُّور ... والتَّوراهْ ءُ بَرْكَتْ الانْجِيلْ
والنَّازَلْ من نص الزَّبُور ... والنَّازَلْ من نَصْ التَّنزِيلْ
والمسْكِينْ الّ ما حَمْلُ ... بن عَمُّ وُ نَفْعُ ما ڭبْلُ
بِيهْ أرْباهْ أشدَّتْ فَصْلُ ... وأصْلُ مُول أعيَالْ أعَلِيلْ
مَنْ يَومْ إجِيكْ اموْكَنْلُ ... بالْجَّاهْ ءُ بَالْمَالْ الْجزِيلْ
وإعُودْ امْعَ لَصِيل اصْلُ ... كِيفْ الْمَا بيْنَاتُ تَفْصِيلْ
ليْنْ إعودْ إمسَّحْ طَبْلُ ... وإمسَّحْ كِسَانْ وُتَبْصِيلْ
فْلَغْيابْ إغيَّبْ طَفْلُ ... وإديرْ الطَّفْلَ فَوَّلْ جِيلْ
مَا يَبْطَ وَإعُودْ ابْجَمْلُ ... وإنَمْ افَّاغْ والطَّوِيلْ

في هذا النص يشير الشاعر إلى خصال الشيخ ماء العينين الأخلاقية والعلمية والاجتماعية، فهو شيخ مربي، ومنفق في سبيل الله، ومصلح لما يشجر بين المتخاصمين، ومطلع على العلوم قبل الصيام كالمنطق والتوحيد والفقه والشريعة وشروح المذهب المالكي والنحو، كما أنه كان مساعدًا للضعاف من الناس، وملجئ لذوي الحاجة والعاهة، وبذلك يكون نموذجا للمصلح الاجتماعي الفاعِل، وقدوة للتضامن الاجتماعي لتجاوز الحزازات الطبقية، والارتقاء بالمجموعات والأفراد المضطهدين داخل المجتمع البدوي الظاعن، ولقد كانت السمارة مربطا لهذا السلوك،

وحسبنا هنا ما قاله أحمد الأمين الشنقيطي[1] عنها عندما زار الشيخ ماء العينين هناك ورأى ما حوله من الناس والإمكانيات في قلب الصحراء.

إن الشاعر الحساني هنا يصف سمات شخصية منفتحة تمثل وجها من أوجه شيخ تعددت أدواره، إذ لم تكن الحركة المعينية دينية بالخصوص، بل سياسية واجتماعية وثقافية.

لقد تزامن بروز الشيخ ماء العينين مع مخاض عام شهده الغرب الإسلامي من صراع بين الطرق الصوفية وهجمة استعمارية وتحولات بيئية تمثلت في تعاقب فترات من المسغبة والجفاف. واكب كل ذلك سقوط تندوف وبناء السمارة اللتان شكلتا حدثان مدويان، فالأول يدل على أن مدا سياسيا قبليا يتنفس بقوة على أرض الصحراء، والآخر يعني قوة الشيخ ماء العينين باعتباره مؤسس قلعة، ومن ثم كان يعني وجود قوة دينية، أضف إلى هذا أن بناء المسجد في هذه القلعة يسمح بقيام إسلام جماعي بعد أن كانت ممارسة الدين فردية إلى حد كبير، ومن هنا نصل إلى أن تأسيس السمارة قد خلق مركزا حضريا في فضاء من الرحل، ووفر الاستقرار تحت قوة دينية مسلم بها مسبقا من قبل كل مستقر، وهو ما أسفر عن اتساع الولاء لهذه القوة. وهذا ما يعكسه النص الحساني التالي لمحمد الإمام ولد الزّين العلوي[2]:

أنْواليڭ أبْلد فِيه أطْلِيڭ   اللّخْلاَڭ منْ أوقاتْ الظّيڭ
ودَرُّوم أبلد ماهْ أرْڭِيڭ   و يدَرْشْ غْلَ من ذَاكْ أشوَيتْ
وڭدرْنيتْ أبلد فِيهْ ألْبيڭ   أتْزَاريڭ الفَرْڭانْ أتْهيتْ
أمَّ وَادْ اسمارة وطْرِيڭ   وادْ اسمارة كَامَلْ لَمْڭِيتْ
بَلْ عنُّ وكَرْ اتْلاَ حِيڭ   يَغَير آنَ ما ڭطْ أبْغيتْ
هَمْ إحمّنِيلُ بَلْحِيڭ   وَكْتَنْ قدَّرْ مُولاَنَ جَيْتْ
ولْحَڭتْ نْزَلْ فِيهْ أسَلُّومْ   لْوَ لَيّايْ الْقطَابْ أبْڭيتْ

---

(1) راجع الشنقيطي أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، دار الخانجي، مصر، 1958.

(2) مقتطف من مقابلة مع الشيخ سيداتي السلامي السباعي، بالدار البيضاء في أبريل 2000.

مَـنْ تَصْرِيـفْ الحـيْ القيُّـومْ أغْـلَ عَـادْ أعْلَـيَّ مـنْ مِيـتْ
أنْـوالِيـكْ أمِيـتْ أدَرُّومْ أمِيتْ إدَرْشْ وُميتْ أكْـدرْنِيتْ

إن هذا الولي الصالح هو الذي جعل الشاعر يترك موطنه الأصلي بمرابع أنواليك وادروم وإدرش وأكـدرنيت، ويقيم إلى جوار هذا الشيخ، وهنا نلاحظ علاقة الصحراوي بالمجال الناجمة عن العلاقة بالغير، وهنا نجد أن العلاقات الاجتماعية تُنتجُ المجال بالمجتمع البدوي. كما يمكن أن يرتبط الفرد بالشيخ المعين عن طريق فرد آخر كابن هذا الشيخ مثلا، وهو ما نلاحظه في النص التالي للشاعر المرحوم أحمد بن المختار السالم السباعي[1]:

جَـدَّكْ سْـرُّ مـاهُ مـدرُوكْ يَـا كْبِـير حـكْ ألاَ مملُـوكْ
سَـرْ أكـبر مـنُّ فـالملوكْ وانـتَ بيـه المـولَ ودَّك
والسَّـرج أل خلالـك بُـوكْ اركبـتُ زاد أجَ كـدَّكْ
والسـر الّ فيـهم لثنيَـنْ اكمَـلْ فيْدِيـكْ أمـع مـدَّكْ
ومْـعَ مـدَّكْ وارثْ فَلْحِـينْ ألّ خـلَّ بُـوكْ أجـدَّكْ
مـن لـزم النـاسْ اليـوم إحُـوكْ مـن بُعـد أمن كـربْ اسعوك
يـا لشَّـيخ الـولِ ألا يخْطُـوكْ بِيـكْ ال مسـند للمسـكينْ
وسْـنَد للديـن الّ محكُـوك اليَـوم أفـاصل فتشَـرْطِين
وسـند لَسْـلاَمْ الـلّ وحنُـوكْ والمـل زادْ لْـهَم عَيْنِـينْ
عنـد امنـين إحـوكْ افمصُنـوك ينسـل مَـن ذَاك الْحِـينْ
أعنْـد أمْنـينْ إجـوكْ إزُورُوكْ والْـهَمْ امنـهُمُوم الداريـنْ
يتعـدَّلْ فِيـه ءمـا مَشْـكُوكْ بـإذن الله ألاهِ مَيْـنْ
بِيـهْ اليَقِـين ألّ محنـوك بـالعلْم ألْمُـروًّ لَثْنيْـنْ
ومُلـك معلُـوم أصْـلاً مسْـلُوكْ مـن ظـهر الحسَـنْ والحُسَـيْنْ

(1) مقتطف من مقابلة مع السْلاَمَ بن المختار، بنواديبو، دجنبر 1999.

وأجـدُودُ لخريـنْ أمحبُـوك	أصلـك فَجْـدودكْ فَـل بيْـنْ
الحسَـنْ والحُسَـينْ ابُـوكْ	الشُّـيخ المـلَّ ملعَيْنـينْ

وهنا يتجلى ما ورثه الشيخ ماء العينين عن آبائه من قيم روحية عالية وممارسات أخلاقية واجتماعية نبيلة، وهذا ما يسميه علماء الاجتماع بـ"المركبات الثقافية" (CuLture Patterus) التي يستنبطها الفرد إثر عملية التربية والمحيط الاجتماعي الذي احتضنه. وفي هذا الصدد يقول الباحث الفرنسي بوردي بـ«أن العالَم الاجتماعي يتجه نحو الترسُّخ في الكائن، وهي دينامية داخلية تنغرس في نفس الآن داخل البنيات الموضوعية وكذا "الذاتية"، إن ما يستبطنه الناس يوجد دائما في احتضان ورعاية بفعل التشييد وإعادة تشييد البنيات المرتبطة مبدئيا بالموقع الذي يحتله الفاعلون داخل البنيات المعينة» [1].

ويقول محمد عبد الرحمن بن المبارك بن اليمين في نص آخر [2]:

مـزَّاكْ ءُ مسْـوَاكْ ءُ معْنَـاكْ	والسَّـرْ الَّ مكْتُـونْ ا'و ذَاكْ
الَّ يعـرفْ كـدُّ مَـولاكْ	وعَانَ يغلـبن بعـد أظْبيـط
غـيرْ الخـالكْ عنـكْ وسَّـاك	مُـول الملـك الَّ بِيـه إحِيـطْ
تغـزَل فـالدِّين الغـزلْ الْحَـاكْ	وادِّيـر الدنيـا فِيـه أشميـطْ
تـبرم فِيـهْ ءُ تَمحَـطْ عفَـاكْ	لعـدَنْ يخلـكـ فِيـه استخييـط
لاهِ تَبنيـهْ أرَ مسْـدَاكْ	لغْزِيـلْ ءُ لَـبْريم ءُ لَمحِيـطْ
ولَّ حسـدَكْ ولَّ نَصَـاكْ	ضَـامَنْلُ بَعْـد عَانَ تَسْـلِيطْ

هذا النص ينقلنا إلى جانب آخر من شخصية الشيخ ماء العينين، وهو ما يخص "المعنى" والسر وتدبير اللامرئي اليومي، وهي من خصوصيات الصلحاء، زيادة على الخبرة في مجال العلوم الدينية، وتكييف النصوص التشريعية مع معطيات الفترة من نداء

---

(1) انظر:

Bourdieu Pierre, Stratégies de reproduction et modes de domination, in: "Actes de la recherche en sciences sociales", N° 105, Décembre 1994, P. 3.

(2) محمدن بن سيدي إبراهيم، نفس المصدر السابق، ص: 182.

للجهاد وتجاوز للخلافات بروح اجتهادية مرنة، وكيف لا وهو الشيخ الذي جاب العالم الإسلامي واطلع على الكثير من المؤلفات المشرقية والمغربية، وناظر الفقهاء والمتصوفة والحكام والسلاطين. إنه رجل وضعية "homme de situation" خلق جهادا وسلطة روحية عظيمة وانفتاحا منقطع النظير أمام القبائل والطرق والجهات وإيمان بالخصوصية والتضامن والوحدة(1).

إن الشيخ ماء العينين قد حدد العلاقات الخارجية على أنها مرنة لا تستبعد أي طرف خارجي، ولا تقف منه على الأقل فكريا موقف الصراع، والداخلية بين المريد وشيخه على أنها قوية تذوب فيها شخصية المريد الذي هو في الواقع الصوفي المعيني أعمى لا يستغني عمن يقوده إلى الدرب.

لقد كان الشيخ ماء العينين قطب الرافضين للاستعمار انطلاقا من حرص ديني، حيث رفض مساعدة فرنسا لتنفيذ سياستها تجاه الإسلام، التي تتلخص في «مبدأين اثنين: أولهما التحكم فيه وتوجيهه حيث كان موجودًا، وثانيهما محاصرته ومنعه من الانتشار حيث لا يوجد أو حيث يكون سطحيا مشوبا.

إن النصوص الحسانية المتوارثة بخصوص الشيخ ماء العينين ومحيطه الاجتماعي والسياسي كثيرة وغنية، لكنها مهددة بالضياع، ومن اللازم القيام بجمعها وترتيبها، فهي تعكس الذاكرة الجماعية للمجتمع "البيظاني" حول هذا الشيخ ومحيطه ومواقفه وممارساته الداخلية والخارجية.

كما تُظهر حالة المجتمع الصحراوي في تلك الفترة، وتصورات وأوضاع الفاعلين الاجتماعيين آنذاك. لذلك لابد من مهمة الجمع الميداني لهذا التراث الشعبي الثري، وذلك قصد تحصيل مادة للمؤول والمستنبط والقارئ توسع مجال حركته من التراث الثقافي العالِم المكتوب إلى مجال التراث الشعبي الذي لم يكن مكتوبا، بما أُودِع من أبعاد سحرية الجمال، رحبة الأبعاد، مجنحة الخيال، غنية الإحالة، مثقلة بالرموز.

---

(1) راجع بهذا الخصوص:

Salvy G. (Capt.): "Les Kounta du Sud marocain" in: "Travaux de l'Institut des Recherches Sahariennes", T. 7, Alger, 1951.

إن حياة وممارسات الشيخ ماء العينين تستدعي تأملات كثيرة، من ذلك إعادة النظر في كتابة تاريخ الجنوب المغربي من حيث السياقات التاريخية والمادة المصدرية والتاريخ الداخلي والتاريخ الذي يتجاوز المنطقة إلى بقية العالم الإسلامي... الخ.

يظهر من خلال الموروث الشعبي المتعلق بشخصية الشيخ ماء العينين أن هناك نموذجا للتضامن الاجتماعي ولمحاربة الفقر والتفاوتات الاجتماعية شيده هذا الشيخ فوق أرض الواقع، إلى جانب مد الجسور بين الصحراء وبقية البلاد المغربية والعالم الإسلامي، وهذا يدحض الأطروحة الغربية القائلة بأن المجتمع الصحراوي هو مجتمع منعزل منغلق على نفسه، كما يفند طرحهم القائل بأن الصلحاء هم أناس مسالمون خاضعون، بل بينت مواقف وممارسات الشيخ ماء العينين أن الأولياء الصلحاء العاملين قاموا بأدوار جهادية وبأعمال سياسية، وكانوا في قلب المناظرات والمعارك الجهادية.. الخ.

إن الكثير من ممارسات هذا الشيخ يمكن أن يصير إلى مباحث اجتماعية وسياسية ذات دلالة ومغزى في حيوات وعقليات أبناء مجتمع البيظان. لقد استطاع تنمية قوة روحية وثقافية تحولت إلى طاقة سياسية واجتماعية كبيرة أكسبته مدا شعبيا قويا وثقة خاصة طاعة وسمعا.

وهذا كله دليل ساطع على المكانة السوسيو-ثقافية لهذا الشيخ، وعلى الدينامية الاجتماعية للمجتمع الذي أنجبه، وهو برهان على أن أبناء الجنوب المغربي لهم قدرات متعددة على التكيف مع الأوساط المختلفة وداخل العلاقات المتعددة. ومن هنا، من الهام جدا إعطاء المكانة اللائقة لقدراتهم التجديدية وثقافتهم الشعبية الموروثة ذات الخصائص الوحدوية والإبداعية المنفتحة.

مكونات الكتابة الرحلية
عند العلامة ماء العينين بن العتيق

ذ. محمد ناجي بن عمر
كلية الآداب-أكادير

قبل الشروع في رصد جانب مكونات الكتابة الرحلية عند العلامة ماء العينين بن العتيق، لابد من التصدير للموضوع بملاحظتين أساسيتين هما : من هو صاحب هذه الرحلة؟ وما موقعه من أسرة الشيخ ماء العينين، والثانية : ما موضوع هذه الرحلة؟

1-صاحب الرحلة

ولد العلامة ماء العينين بن العتيق عام 1307هـ/1887م بالساقية الحمراء، فقد أباه في سن الرضاع، فكفله جده الشيخ ماء العينين، فأحسن تربيته وتعليمه بالسمارة التي غادرها سنة 1909م بعدما اشتد الضغط الأجنبي عليها، حيث رحل إلى تيزنيت، وانخرط مع خاليه الشيخ أحمد الهيبة والشيخ مربيه ربه في مسلسل الحركة الجهادية المجيدة في سوس والحوز (حوز مراكش)، فعاش معهما مراحل كل الجهاد المسلح إلى أن توقفت حركته (أي الجهاد المسلح) سنة 1934م، فرجع إلى الصحراء، واشتغل بالقضاء في طنطان ونواحيها.

وفي سنة 1357هـ/1937م كان ضمن الوفد الصحراوي للحج إلى الديار المقدسة على نفقة المخزن، وألف بخصوصه هذه الرحلة موضوع دراستنا، وعندما عاد محمد الخامس رحمه الله تعالى من المنفى كان من ضمن أول وفد صحراوي قدم لتجديد البيعة والتهنئة بالعودة.

وفي سنة 1956 عين أستاذا بجامع ابن يوسف بمراكش، وظل بـه مدرسا إلى أن توفي سنة 1376هـ/1957م عن سبعين سنة قضاها جهادا وتعليما وتأطيرا.

وقد توافرت لابن العتيق مؤهلات خاصة لم تتوافر لبعض معاصريه من العلماء الذين ظهروا في المغرب خلال هذه الرحلة، أهمها :

-أولا : عراقة نسبه من جهة الأب والأم : أما الأم فأشهر أن يعرف بنسبها، فهي العالية بنت الشيخ ماء العينين، أما الأب فهو العتيق بن محمد فاضل الذي قال عنه صاحب « سلوة الأنفاس »[1] أنه كان من العلماء المشاركين والشعراء المفلقين والمجاهدين الصابرين (معركة الداخلة 1302هـ/1884م)، ويكفيه شرفا أنه حظي بلقاء السلطان مولاي الحسن الأول سنة 1309هـ، ومدحه بأشعار مبثوثة في كتاب الأبحر المعينية[2].

-ثانيا : تكوينه العلمي المميز : حيث أخذ مبادئ الفقه والعربية على يد «أمه العالية والتصوف وعلم الحديث والكلام على يد جده الشيخ ماء العينين، والقرآن على يد الفقيه زيني، والأدب على يد خاليه الشيخ النعمة والشيخ أحمد الهيبة، والنحو على يد الشيخ محمد بن سيدي، وعلم الأصول على يد الشيخ محمد العاقب بن مايابى الجكني»[3]. وظهرت له في طفولته وتعليمه كرامة تتداولها ألسنة أفراد العائلة الكريمة وغيرهم (قصته مع العالم ابن نبالة)، ويرجع الفضل الكبير بعد الله إلى جده الشيخ ماء العينين في تكوينه علميا وروحيا.

-ثالثا : قدرته على التصنيف والإنتاج المتنوع : حيث ألف في فنون كثيرة (فقه، تصوف، مناقب، رحلات... الخ)، وله ديوان شعر ضخم يتجاوز ثلاثة آلاف بيت.

2-موضوع الرحلة

ألّف هذا الكتاب في أدب رحلات الحج خاصة، على اعتبار أن الرحلات أنواع

---

(1) سلوة الأنفاس: 356/3.

(2) الأبحر المعينية: 535/1.

(3) الرحلة المعينية، مقدمة المحقق: 25.

مختلفة، لهذا فعندما نسمع « الرحلة المعينية »، فيجب تذييل العنوان الكبير بعنوان فرعي هو : « إلى الديار المقدسة »، لما لهذا التوضيح من تأطير للقـراءة والبحـث لكـل عاشق قراءة هذا النوع من الأدب المغربي.

والواقع أن هذه الرحلة رحلتان : تبدأ **الأولى** من انطلاق ابن العتيق من طنطان في 6 شوال 1357هـ/ دجنبر 1938م، وتنتهي عندما غادر مكة راجعا في 8 ذي الحجة 1357هـ/ فبراير 1939، وتبـدأ الثانيـة مـن دخولـه المدينـة المنـورة 18 حجـة 1357هـ/ 1939م إلى رجوعه إلى طنطان في 29 محرم 1358هـ/ مارس 1939م.

أما مقدمة الكتاب فصدَّر فيـها كلامـه بـآيتين كريمتـين مـن سـورة آل عمـران وسورة الحج، توحي على أن موضوع الكتاب في وصف أطوار رحلة حج، وهو قولـه تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك وهدى للعالمين فيـه آيـات بينـات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا، وللناس على النـاس حـج البيـت مـن اسـتطاع إليـه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿وإذ بوأنا إبراهيـم مكـان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركّـع السـجود، وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهـم ويذكروا اسم الله في أيـام معلومـات علـى مـا رزقـهم مـن بهيمـة الأنعام فكلوا منـها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾[2].

وأعتقد أن استهلال كتاب في الرحلة بآيتين قرآنيتين كريمتين دالتين يعد من أهم براعات الاستهلال في هذا النوع من الكتابة، وأوفاهـا بـالمراد، وألصقـها بالسياق. ثـم ذكر أحاديث في فضائل الحج (أربعة أحاديث) [3]، وصـدَّر في ترجمتـه لأعـلام الرحلـة بترجمة موجزة للشيخ العلامة مـاء العينـين (ت. 1328هـ)، وذكـر فضلـه عليـه تنشئة وتعليما ورعاية وتوجيها. وبعد فضل القرآن والحديث النبوي الشريف وترجمة للشيخ،

---

(1) آل عمران: 96.

(2) الحج: 24-29.

(3) الرحلة المعينية: 48.

أقفل المقدمة بقصيدتين قويتين في المديح النبوي يشرع كل بيت منها بحرف هجائي، تدليلا على أننا أمام مؤلِّف مكتمل المعارف دينا وأدبا.

ثم ذكر كيف كان ينوي الحج قبل هذا التاريخ مع الشيخ مربيه ربه ابن الشيخ ماء العينين لكنه لم يتيسر، فهيئ للخروج للرحلة بقصيدة في المديح النبوي مطلعها :

[الطويل]

ألا من لعين عزَّ وجْدًا هجودها وهان عليها بالمدامع جودها

فانطلقت الرحلة فعليا سحر يوم الجمعة 16 شوال 1357هـ/ 9 دجنبر 1938م، وأثبت فيها خطبة الشيخ مربيه ربه الوعظية في الحجَّاج، وعدد أعضاء الوفد الصحراوي المنطلقين من طرفاية (16 حاج)، ثم ذكر كيف التحق الشيخ مربيه ربه بالحجاج في الطائرة بـ"لاص بالماص"، وذكر اسم السفينة "باركويسبي"، وكيف نزلوا في ضيافة المخزن بتطوان حيث زارهم الأعيان والصلحاء والأدباء والتجار، وأشهرهم من معاصرينا عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن منصور (مؤرخ المملكة الحالي)، حيث تبادل معهم الأشعار، وصدَّر الخبر في أعمدة جريدة الوحدة المغربية، وكيف التحق بهم الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين مع ابن أخته ماء العينين يَحْجُبُ، ورفاقهم التسعة، فوصل العدد الإجمالي للحجاج الصحراويين ما يلي : أربعة من آل الشيخ، والآخرون موزعون حسب ما يلي : ستة من إزركيين، اثنين من الركيبات، واحد من توبالْتْ، واحد من آيت لحسن، واحد من لْفَيْكات، واحد من أولاد تيدرارين.

وكان من أشهر الشعراء الذين تبادلوا معهم الأشعار في تطوان المرحوم إدريس الجاي (ت. 1978)، ثم ذكر كيف أن وزير الأحباس محمد بن عبد القادر بن موسى طلب من ابن العتيق الاستجازة، وأعطاها إياه، وأورد نصها، وذكر أيضا كيف التحق بهم عبد القادر الفـكيكي، وهو من بناة مدينة السمارة في عهد مولاي الحسن الأول، وكيف استقبلوا تعيين الجنرال فرانكو الشيخ مربيه ربه رئيسا دينيا للسفينة "ماركيس دي كومياس" المنطلقة من سبتة على ألف حاج، وأظهر تمسكه بالقرآن

وتلاوته حتى على ظهر السفينة، حيث شرح طرق قراءة الحزب، ونظم قصيدة في البر بالأشياخ في 96 بيتا، ثم وصف كيف نزلوا طرابلس ليبيا، وكيف رحب بهم الناس، وكيف زاروا قبر الصحابي منيذر بن ثابت الأنصاري، وكيف التقوا ببعض علماء طرابلس، وكيف وصلوا إلى القناة وبورسعيد، وكيف وصلوا إلى جدة، وذكر بعض من وجدهم فيها، كتلميذ الشيخ أحمد بن الشمس داعية الزاوية المعينية (ت. 1923م) الذي يدل على إشعاع الزاوية إلى هذه الأرجاء، ومن مظاهر حنينه إلى أصله لعائلة الشنجيطي، فقد أورد تراجم بعض الشناجطة، وذكر كرامة الشيخ ماء العينين في مكة، كما وصف المسجد الحرام، وعدّد أبوابه الخمسة عشر، ومناراته السبع، وأسماء الكعبة، وذكر بعض فضائل الطواف.

أما الرحلة الثانية : فتبدأ من زيارة المدينة المنورة وزيارة أهل البقيع وعلى رأسهم فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم، والعباس بن عبد المطلب، وزيارة شهداء أحد، كما أورد قصيدة في مدحه صلى الله عليه وسلم للشيخ مربيه ربه مطلعها :

[البسيط]

آثار ربع أثارت عند ذكرته مكامن الشوق فاشتدت بزورته[1]

وقصيدة للشيخ محمد الإمام وهي همزية في الموضوع نفسه[2].

كما ذكر مدة إقامتهم بالمدينة المنورة (ثمانية أيام)، وكيف انطلقوا من جدة إلى السويس، وكيف التقى بالشيخ محمد حبيب الله بن مايابى الجكني، وكيف مكث بطرابلس الغرب أربعة أيام قبل أن يصلوا إلى مليلية، ومنها إلى سبتة وسط احتفالات الناس بهم، وكيف توافد الناس والعلماء على آل الشيخ للترحيب والتبرك، وكان على رأس هؤلاء قائد المشور بتطوان. ثم كيف انطلق من سبتة نحو إشبيلية، وذكر مفاتنها حيث قضى بها ثلاثة أيام، ثم كيف وصل إلى جزيرة كناري خلال ثلاثة أيام. وأورد نماذج من المخاطبات الشعرية مع مربيه ربه ومع محمد الإمام[3]. وكيف ودّع رفاقه

(1) الرحلة المعينية: 188.

(2) نفسه: 194.

(3) نفسه: 226-237.

بطرفاية، وكيف دخل إلى الطنطان وسط استقبال الأهل والأحباب، وعلى رأسهم الشيخ عبداتِ بن الشيخ ماء العينين[1].

وكان آخر ما ورد في هذه الرحلة هو عدة فوائد علمية مختلفة عبارة عن أخبار قبيلة آل الجيه المختار، وكلام ابن خلدون والسجلماسي عن أجداده الإدريسيين، كما أورد قصيدة للعلمي في سلسلة نسب الشيخ ماء العينين[2] مقتطفة من كتاب : « نعت البدايات، وتوصيف النهايات »، وقصيدة في مدح آل الجيه للشيخ محمد الإمام. وذيلها بقصيدة له في نسب الأسرة الشريفة المعينية من الشيخ مربيه ربه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد كانت هذه الإطلالة ضرورية لمعرفة صاحب وطبيعة الكتاب ومادته أولا، حتى إذا وصلنا إلى الوقوف عند مكونات الكتابة الرحلية في هذا المتن نكون على بينة من ضرورة توظيف هذه المكونات في إطار الوصف مادام أن من الركائز الأساس لأي رحلة هو الوصف والتقصي.

1-المكون الديني

أ-القرآن الكريم

سنتحدث عن هذا المكون باعتباره أس ثقافة الرجل، حيث يوظف القرآن الكريم توظيفا جيدا في مختلف السياقات، حتى إنه وصل عنده عدد الشواهد القرآنية ستا وعشرين شاهدا، يأتي بها توضيحا لموقف، أو برهنة على صحة رأي، أو شرحا لقضية فقهية أو دينية[3]، أو تذكيرا بموقف ما. وقد جاء غالبها من سورة آل عمران وسورة الحج انسجاما مع موضوع الكتاب، وكلها آيات دالة في مكانها على حسن تصرف في توظيف هذا الشاهد، وهذا ليس غريبا عنه، خاصة إذا علمنا أنه كان يتعدى ذكر هذه الآيات الكريمة إلى شرح وذكر الأماكن التي نزلت بها بعض سور القرآن الكريم، مما يدل على ثقافة دينية رصينة.

---

(1) الرحلة المعينية: 259.

(2) نفسه: 270.

(3) نفسه: 75.

ب-الحديث النبوي الشريف

لقد كان لتكوينه في مجال علم الحديث على يد جده الشيخ ماء العينين الأثر الواضح في الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف كل مرة دعاه السياق إلى ذلك. وهكذا وجدناه يوظف ثلاثا وثلاثين حديثا نبويا شريفا أغلبها في ذكر منافع الحج وضرورته لمن استطاع إليه سبيلا، وتأكيدا على قوة الثقافة الحديثية عند الشيخ مربيه ربه، حيث أورد له تسعا وعشرين حديثا مرتبا بداياتها ترتيبا ألفبائيا في مواضيع مختلفة تتراوح بين الوعظ والفقه والحكمة والتوجيه وفضل العلم والتعلم[1].

وأعتقد أن مصنف الرحلة كان مسكونا بهمّ شرعية الكتابة الهادفة عند القدماء الذين لا يرتاحون إلى رأي أو قرار أو حكم أو نظر في أمر أو موعظة أو صحة شيء، أو تدليل على مشروعية قضية أو شرعيتها إلا إذا دلت القرائن والأدلة والبراهين عليها، وأشهر هذه الأدلة والبراهين القرآن الكريم وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا وجدناه يحتفي بالحديث النبوي هذا الاحتفاء الملموس. ولا أظنه كان يقحم الأحاديث تدليلا على تمكنه من هذا العلم، لأنه لو أراد ذلك لنظم هذه الأحاديث وغيرها كما فعل في « البغية من ملخص الأحكام الشرعية على المستمد من مذهب المالكية »[2] وغيرها، ولكنه كان يتعامل مع الأحاديث النبوية الشريفة حسب السياق ومقتضى المقام.

ج) المكون الأدبي

وفيه نتحدث عن الشعر، لكن قبل ذلك تجدر الإشارة إلى أن ابن العتيق شاعر مكثار كما تدل على ذلك الأخبار، فهو صاحب ديوان ضخم يتجاوز ثلاثة آلاف بيت تتناول مختلف أغراض الشعر[3]، أشار الدكتور محمد الظريف أنه بصدد إخراجه قريبا إن شاء الله، أضف إلى ذلك ديوانا خاصا بالمديح النبوي بعنوان : « مطالع الأنوار

(1) الرحلة المعينية: 69-70.

(2) مقدمة المحقق: 27.

(3) نفسه: 27.

في مديح المختار »[1]، ومنظومتين : الأولى في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (272 بيت) بعنوان : « مسرح الأفكار بسيرة النبي المختار »[2]، ومنظومة في سيرة فقهاء المدينة وأعيان المذهب. لهذا لا نستغرب إذا وجدناه يحتفي بالشاهد الشعري احتفاء جيدا وملموسا، حيث بلغ عدد الأبيات في هذه الرحلة ثلاثة وثلاثين وخمسمائة وألف بيت شعري (1533)، بمعدل سبعة أبيات في كل صفحة، وهو معدل جيد على اعتبار أنه إذا كان الموضوع الغالب في رحلات الحج وصف الأقطار التي مرت بها، وذكر أخبار من لاقاهم المصنف من العلماء والأعيان نثرا، ومباشرة بعيدا عن الاستعانات بأساليب التخييل وعلى رأسها الشعر، فإن ابن العتيق كان مسكونا بهاجس الشعر، حيث إنه ما ترك سياقا يقتضي الاستشهاد له بالشعر إلا أورد فيه شعرا تراوح بين البيت والبيتين والنتفة والمقطوعة والقصيدة، حيث أورد في الرحلة قصائد مستقلة لغرض المديح النبوي والتهاني الإخوانية ومساجلات العلماء والأدباء (الشيخ محمد المكي الناصري، والأستاذ عبد الوهاب بن منصور، وإدريس الجاي) مع أسرة وآل الشيخ خاصة الشيخ مربيه ربه بتطوان، وقصائد في ذكر فضل الشيوخ والمدرسين، ومنظومات في مناسك الحج، وتخميسات لمدائح الشيخ أحمد الهيبة في النبي صلى الله عليه وسلم، وتقاريظ على كتاب "إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس" لعبد الرحمن بن زيدان (ت. 1946م)، ومخاطبات شعرية بين مصنف الرحلة والشيخ محمد الإمام، ورسائل أدبية شعرية خاصة إلى الشيخ مربيه ربه، وقصائد في ذكر سلسلة النسب الشريف للأسرة المعينية، ومدح قبيلة آل الجيه المختار.

وقد كان توظيف هذا الشاهد خاضعا لخطة محكمة، حيث إنه لا يتحدث بضرورة الشاهد الشعري إلا إذا رأى ذلك مناسبا ويقتضيه السياق، وهكذا فإننا لم نره يعمل هذا الشاهد عندما يتعلق الأمر في مواضع النصيحة والوعظ[3]، ولا في الخطب ذات الطابع الديني، ولا في لقاء الأعيان غير الأدباء، ولا في وصف الباخرة، ولا في

(1) الرحلة المعينية: 29.

(2) نفسه: 28.

(3) نفسه: 68.

مواضع شرح حديث نبوي شريف، ولا في حكايات كرامات الشيخ ماء العينين، ولا في ذكر الفوائد العلمية، ولا في زيارة مقابر الشهداء ومسجد قباء، ولا حين بسْط بعض الفوائد والنوازل والفتاوى الفقهية. فابن العتيق الشاعر قادر على أن يورد شاهدا شعريا له أو لغيره في أي موضع من هذه المواضع، لكنه -وهو الفقيه الأديب والمصنف- يستحضر المقام دائما قبل المقال.

ولعل اللافت للانتباه في هذه الرحلة هو كونها حافظت على نوع خاص من الشعر وهو شعر المجالس والإجازات، حيث يكون الإبداع نظما ارتجالا وبديهة بعيدا عن كل تحكيك أو صناعة أو تنميق، وبه يتفاضل الشعراء من حيث شعرهم وشاعريتهم، ثم إن حضور الشعر بهذه النسبة المرتفعة، فضلا عن دلالته على قوة ذاكرة ابن العتيق الشعرية، يدل على أن أسرة آل الشيخ أسرة أدب وشعر، فضلا عن كونها أسرة علم وصلاح، ودليل ذلك تهافت العلماء والشعراء على الاتصال بهم ومخاطبتهم شعرا، علما منهم أنهم يرتجلون الشعر سليقة وفطرة في قالب أدبي وفني رصينين، ورغبتهم في الإفادة من قوة سليقتهم. ولعل تطلع همم إبداعية شعرية زمنها مثل إدريس الجاي وعبد الوهاب بن منصور وهم شباب في مقتبل عمرهم، كان الهدف منه نيل الحظوة عند أدباء الأسرة، وأخذ التزكية لقول الشعر بطريقة ضمنية دون طلب استجازة مباشرة، وهذه طريقة ذكية غير معلن عنها. ولعل الناظر في نماذج من هذه المخاطبات الشعرية سيقف عند الاحترام المتبادل بين شعراء المغرب جنوبا وشمالا، فمن ذلك ما ارتجل بالبديهة -يقول ابن العتيق- أخونا الشاب عبد الوهاب بن منصور في مدح الشيخ مربيه ربه: [الوافر]

مربيه ربَّه حزتَ الفضائلْ	ونِلْت من العلا ما أنت نائِلْ
بعلم واقتدار فقت قوما	وسدتهم أيا حلو الشمائل
فمذ عرفوك قد عرفوا جليلا	صبورا في المكارم لا يطاولْ
ومذ عرفوك قد عرفوا عظيما	لدى سكن العلى والمجد نازلْ

فأجابه ابن العتيق قائلا : [الوافر]

ألا لله درّك خـــــير فـــــاضل بحسـن شـبابك ازدهـت المحـافلْ

بديـــهتك الظريفـــة أعجبتنـــا فوافر شـعرك المضبـوط كـامل[1]

ولعل عبارة « أخونا » عند ابن العتيق الجواب عن السائل عن طبيعة العلاقة بين هؤلاء الشعراء، وهو جواب صريح العبارة واضح الدلالة على أن المغرب كان يعرف هذا الأدب الصحراوي، ويتفاعل مع رحالاته، «وخاصة في مراكش والرباط ومكناس وفاس وتطوان، يتداوله العلماء والمهتمون تقريظا وتذييلا وتهميشا» [2]. كما تؤكد أن حبل التواصل كان دائما «بين هذه الأقاليم، فكان أهل الصحراء يترددون باستمرار على مراكش وفاس وتطوان من أجل العلم والتعلم أو البحث عن الكتب، وطلب الدعم أو تقديم الولاء والطاعة لملوك المغرب، وكان أهل الأقاليم الشمالية لا يترددون في تلبية نداء إخوانهم في الأقاليم الصحراوية... وكانوا يعتبرون أنفسهم كيانا واحدا، وذاتا واحدة تجمعهم أصول واحدة وهموم مشتركة وثوابت أصلية، أساسها البيعة، ومذهب مالك وعقيدة الأشعري، وتصوف الجنيد السالك» [3].

3-المكون العلمي (الفقهي)

لقد حرص ابن العتيق على توشيح هذا الأثر الأدبي بإشارات فقهية يكمل بها توضيح الصورة عن طبيعة ثقافته الفقهية الرصينة على اعتبار أنه صاحب مصنفات في الفقه من قبيل : "البغية في ملخص الأحكام الشرعية على المستمد من مذهب المالكية"، وهي منظومة فقهية في 980 بيت، توخى فيها تجديد الأساليب المتبعة في الإفتاء وتدبير الأمور القضائية[4]، و "تحفة الْمُكاتِب بقراءة شيخنا الشيخ ماء العينين لحزبه الراتب"[5]،

(1) الرحلة المعينية: 79.

(2) مقدمة المحقق: 13.

(3) نفسه: 13.

(4) نفسه: 27.

(5) نفسه: 27.

و "مجموعة" من الفتاوى الفقهية والرسائل والإجازات والمنظومات[1]. وهكذا وجدناه يورد بعض المسائل الفقهية ويجيب عنها من قبيل : هل يحل أكل ذبائح النصارى أم لا؟ وهل يباح لنا نكاح نسائهم أم لا؟ وهل تجوز لنا رقيا مرضاهم أم لا؟[2] فكان جوابه دائما مالكي المرجعية، خاصة أننا نجده يحيل على كتب المذهب كمختصر خليل، وشرح الدردير أو الخرشي عليه، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح أحمد النفزاوي الموسوم بـ"الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيرواني". وقد كان الغرض -فيما أظن- من إيراد نماذج من هذه النوازل أن الناظر في أدب المغاربة عليه أن يكون محيطا بروافدهم الثقافية المتنوعة المشارب والمناهل، وأن أي مقاربة لأدبهم خارج هذه النظرة الشمولية تعرض صاحبها لإصدار أحكام خاطئة، وفي أحسن الأحوال جزئية ونسبية جدا.

4)المكون الثقافي

أ-التراجم

إن من ملامح وسمات الكتابة الرحلية الحجازية هو التعريف بالملتقى بهم إن صراحة أو تلميحا، والهدف منه التأكيد والبرهنة على الالتقاء بين صاحب الرحلة والأعلام العلماء أو الأعيان. وهكذا وجدنا ابن العتيق ينص بالاسم على من لاقاهم من العلماء وقرظهم بأفضل التسميات. لكن النصيب الأوفر من التراجم كان لأفراد أسرة الشيخ وعلى رأسهم الشيخ ماء العينين[3]، حيث ذكر فضائله وخصاله وعلاقته به إلى أن توفي سنة ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف رحمه الله. كما ترجم لعبد القادر بن محمد الفكيكي[4] وبعض علماء شنجيط[5]. وأعتقد أن من مميزات تراجم أدب الرحلات أن أصحابها ينفردون بذكر أخبار أعلام وعلماء من زاوية أكثر شخصية منه

(1) الرحلة المعينية: 28.

(2) نفسه: 243.

(3) نفسه: 49.

(4) نفسه: 89.

(5) نفسه: 119-125.

في الكتب المخصصة للتراجم التي غالبا ما تركز على الصفات التي أجمع الناس توافرها في المترجم له، دون كشف الوجه الآخر الشخصي للعلم أو العالم المترجم له.

ب-نصوص الإجازات

لقد بلغ صيت علماء الجنوب الآفاق شمالا، حتى إن الناس والعلماء أصبحوا يتحينون الفرص للقائهم للتبرك أولا، ثم لطلب الإجازات منهم، وكم تعلو قيمة المجاز بقيمة المجيز، وقد أورد ابن العتيق نماذج من الإجازات أهمها نص إجازة شيخه في حفظ القرآن الكريم، وهو زين بن البكاي بن الشيخ محمد الأمين القلقمي، حيث أورد في نص الإجازة ملامح ذكاء ابن العتيق في هذا المجال، كما ذكر السند المتصل له في حفظ القرآن برواياته[1]. وقبلها أورد نص إجازته هو لوزير الأحباس آنذاك محمد بن عبد القادر بن موسى المراكشي المولد التطواني المقر[2].

والطريف في هذه الإجازات إيرادها كلها لفظا ومعنى دون تلميح أو إشارة، وهي نوع من الشهادات العلمية لا تسلم إلا بشروط التمكن والإحاطة والموسوعية والأخلاق العالية. ولا يطلبها إلا من يستأنس من نفسه أهلية لذلك وأحقية، وأعجبني منها قول ابن العتيق لابن موسى : قد أجزتك أيها الأخ الشقيق، والخل الصديق بجميع ما نظمت من دواوين شعرية، وألفت من تقاييد نثرية، بل بسائل المعقول والمنقول من فروع وأصول، وأوصيك كنفسي بتقوى الله العظيم، وأن لا تنساني في صالح دعائك الخاص والعميم»[3].

ج-التقاريظ

إن من سمات رواج كتاب ما ونفاقه في سوق التداول العلمي، هو تهافت خيرة العلماء علي تقريظه وذكر محاسنه وفضائله. وهكذا وجدنا ابن العتيق يستغل فرصة لقائه في الرباط العلامة عبد الرحمن بن زيدان (ت. 1946م)، والمكوث عنده مع باقي أفراد الأسرة أياما في توادد وترحاب كبيرين، لأنه كما قال ابن العتيق : «كل واحد

---

(1) الرحلة المعينية: 99-100.

(2) نفسه: 87.

(3) نفسه: 88.

منا كان معلق البال بلقاء الآخر»[1] ليتذاكرا ويتعارفا شخصيا وعلميا. وبعد أن كان قد أرسل ابن زيدان نسخة في خمسة أجزاء من كتابه « إتحاف أعلام الناس » طالبا منه -أي ابن العتيق- أن يعيره حصة من وقته الثمين، وينبهه على ما زاغ به القلم... ومتأسفا على عدم تيسر زيارته له لما كان بتارودانت[2].

ولما بلغ الكتاب ابن العتيق، قرظه نقدا وشعرا، فقال في مقدمة التقريظ نثرا: «فحلَّ مني محل الإنسان من السواد والسويداء من الفؤاد»[3]، وقال في مقدمته شعرا:

[الطويل]

حبا بعبير الآسِ نفسي حبيبُها فأهلا بريح لا أني أستطيبها

ولعل في هذا الاحترام المتبادل، والتقريظ لهذا الكتاب دليل على موقف واضح تجلت به طبيعة العلاقة بين عالمين في منصبين متباينين، ولكن الذي يوحد بينهما أمتن أن يناقش أو يعرف به، عملا بقاعدة النحويين في تعريف الحرف بأن ترك العلامة علامة.

القيمة العلمية للرحلة

لقد تبين من هذه المكونات أننا أمام نص متنوع المعارف من النادر أن نجدها مجتمعة في أحد الكتب المعاصرة، حيث وقفنا فيها على شواهد قرآنية وحديثية وأدبية وعلمية وثقافية متراصة فيما بينها وممتاحة من بيئات وآفاق مختلفة زمانا ومكانا ورؤية، انطلاقا من طرفاية، ثم الطنطان، مرورا بسيدي إفني وتطوان والأندلس وطرابلس ومصر ومكة والمدينة، فضلا عن كونها أكدت بالملموس على أن الأواصر العلمية والثقافية لم تنقطع بين علماء الجنوب ونظرائهم من الشمال (فاس، ومكناس، وسلا، والرباط، والدار البيضاء، ومراكش...)، بل بالعكس إن هؤلاء العلماء الأفاضل كانوا ما يتركون فرصة تمر على لقائهم إلا وطدوها مساجلة، أو إجازة، أو مناظرة، أو تقريظا، أو مدحا.

---

(1) الرحلة المعينية: 221.

(2) نفسه: 221.

(3) نفسه: 222.

وبعد هذا كله، ألا يحق لنا أن نتحدث أننا أمام جنس إبداعي جديد له موضوعه وخصائصه وأسلوبه ومكوناته تجعله يبحث عن شرعية نقدية؟ ثم إن ما قلناه عن هذه الرحلة الحجازية يمكن أن يُصطلح عليه أيضا -بنسب متفاوتة- أنه أدب مغربي بسمة خاصة في باب الرحلة. وهنا يبدو أن على الباحثين في نظرية الأدب وأجناسه أن يبحثوا عن إمكانية تجنيس هذا النوع الأدبي حتى يصبح لنا قسم ثالث من فنون القول : الشعر والنثر والرحلة، ولن يجدوا صعوبة في هذا، خاصة أن طبيعته وإمكانياته تسعف وتساعد على ذلك.

لائحة المصادر والمراجع

-الأبحر المعينية في الأمداح المعينية، تأليف : الشيخ محمد الغيث النعمة، الجزء الأول، تحقيق : أحمد مفدي، رسالة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس.

-الرحلة المعينية، تأليف : ماء العينين بن العتيق، تحقيق : محمد الظريف، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، الطبعة الأولى، 1998.

-سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، مطبعة حجرية، 1316هـ.

جهود الباحثين للتعريف بالتراث المغربي الصحراوي من خلال الدراسة والتحقيق

نموذج: الظريف محمد

د. منير البصكري
ثانوية الليمون-الرباط

بعد استكمال المغرب لوحدته الترابية، انصب اهتمام الباحثين في التراث المغربي الصحراوي نحو مختلف موضوعاته، سواء من أجل الدراسة أو من أجل التحقيق والنشر.

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا مدى غنى المكتبات في الصحراء المغربية وتعدد أماكنها، ومن هذا المنطلق، انبرى بعض الباحثين إلى الاهتمام بهذا التراث وفق معايير علمية دقيقة. وعمل كهذا يساهم بحظ وافر في إرساء دعائم التواصل على المستوى المعرفي، كما يساعد على التحسيس والوعي بتراث يعتبر هدفا في حد ذاته، بوصفه وعاء معرفيا يقصد منه اكتساب المعارف، وبما له من مميزات القوة والجودة.

ومعلوم أن إثارة الاهتمام، والكشف عن ثقافة الصحراء المغربية أمر سبق إليه أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري، لكن ثقته وإيمانه بالمساهمات الجادة لطلبته، كل ذلك جعله يؤمن بعطاءاتهم في الكشف عن المزيد من البحث في تراثنا الصحراوي تاريخا وثقافة وإبداعا.

إذًا، لن نعدد كل الأبحاث والدراسات التي قدمت في هذا النطاق، لكننا سنقف

عند نموذج من الباحثين الشباب الغيورين على التراث المغربي، خاصة الصحراوي منه، ومن بين السباقين للبحث فيه دراسة وتحقيقا وتعليقا، اكتسب تجربة أهلته ليصبح باحثا كفؤا، قادرا على النهوض بدراسة وتحقيق أكبر عدد ممكن من تراثنا في الصحراء.

ولعل المتتبع لما قام به الأستاذ الدكتور محمد الظريف في هذا النطاق، سيدرك – لا محالة– الجهد الكبير الذي اضطلع به وهو يدرس ويحقق هذا التراث ويعده للتداول بين أيدي القراء. فهذا جهد مشكور مأثور لهذا الأستاذ الباحث، يجزيه عليه بالثناء الجميل كل مستفيد، مما جاء من معارف ومعلومات في مختلف الأعمال التي قدمها خدمة لثقافتنا وتراثنا المغربي في الصحراء.

لذلك سنقف عند بعض النماذج من الكتب التي حققها وتناولها أحيانا بالبحث والدراسة، وجلها مما أنتجته المدرسة المعينية لمؤسسها الشيخ ماء العينين من مؤلفات تعددت وتنوعت موضوعاتها، ومن هذه الكتب: "الرحلة المعينية" من تأليف العلامة ماء العينين بن العتيق، و"مفيد الراوي على أني مخاوي" من تأليف الشيخ ماء العينين، ثم "ديوان الشيخ أحمد الهيبة" بن الشيخ ماء العينين.

والحقيقة أن لا أحد يمكنه أن يستسهل عملية التحقيق، وما يصادفه الباحث المحقق من صعوبات تتمثل في إشكال حدود الهوامش من ترقيم وغيره، وكذا مسألة الشروح والتخريجات، وحدود وقفات المحقق، ثم قضية المصادر والمراجع وكيفية الإشارة إليها والتعامل معها، إضافة إلى صعوبات أخرى يصادفها، كالمقابلة بين النصوص وما فيها من فراغات، ومسألة الاقتباس والتضمين والمساجلات، وغيرها مما يعترض طريق الباحث المحقق وهو بصدد إنجاز تحقيق نص معين.

فمشكل الترقيم مثلا، قضية تنظيمية تبرز المجهود العلمي المبذول من قبل الباحث، ومدى تقريب ذلك إلى المتلقي. وهامش التحقيق، منه ما يتصل بمقابلة النصوص، ومنه الذي يأتي للتعريف بالأعلام.

ولعل الغاية من هذه الهوامش تكمن في فك غامض أو شرح أمر صعب، أو تقريب مفهوم غير واضح للقارئ، مع التركيز وتقديم المعلومات الأساسية.

وفيما يتصل بالمقابلة بين النصوص، فإن النسخة اليتيمة تعتبر المشكلة الكبرى، أما إذا تعددت النسخ، فالأمر يستلزم ترتيبها، وفي طليعة ذلك نسخة المؤلف، ثم تأتي النسخ التي جاءت بعدها.

أما قضية صناعة الديوان، فذاك أمر لا يخلو أيضا من صعوبات، إذ كيف يمكن للمحقق أن يصنع ديوانا شعريا؟ فالفرق واضح بين من يصنع ديوانا وبين من يحققه. إذًا فعملية التحقيق في الأدب المغربي تنبني أساسا على النصوص من حيث قراءتها مرات ومرات لفهم وإدراك أبعادها، مما يساعد على تلمس الهفوات والأخطاء، وهذا يتطلب من الباحث أن تتوفر لديه مجموعة من العناصر اللازمة التي بدونها لا تتم عملية التحقيق.

لذلك، فالباحث المحقق لابد له من المقارنة والمقابلة والفحص والبحث والتأمل والانتقاد، وهذه هي شروط العمل في مجال البحث العلمي. إنها فعلا عملية شاقة ومتعبة، إذ لا ينبغي الاقتصار على جانب التحقيق فقط، بل لابد من إنجاز دراسة حول النص المحقق. والواقع أن الأستاذ المحقق الدكتور محمد الظريف قد توفق في كل هذه الأمور، فحقق وضبط ودقق.

إن نظرة سريعة على بعض أعماله في مجال التحقيق، كفيلة بأن تبرز لنا الجهود العلمية المتوالية التي يبذلها لمختلف الموضوعات التي تهم أقاليمنا الصحراوية، وخاصة ما أسهمت به الزاوية المعينية، فتحقيقه لكتاب "الرحلة المعينية" يكشف عن مجموعة من خصائص هذه الرحلة التي تتمثل في:

أ-القيمة الوحدوية: ومن خلالها نلمس تلكم الروابط القوية والعلاقات المتينة التي تجمع بين الأقاليم الصحراوية وباقي الأقاليم المغربية الأخرى، فقد كان حبل التواصل دائما بين هذه الأقاليم، فكان أهل الصحراء يترددون باستمرار على مراكش وفاس وتطوان من أجل العلم أو البحث.. أو تقديم الولاء والطاعة لملك المغرب. وكان أهل الأقاليم الشمالية لا يترددون في تلبية نداء إخوانهم في الأقاليم الصحراوية، فكانوا يحجون إلى الصحراء باستمرار، ويشاركون في بناء حواضرها ومدارسها، ولا

يتوانون في الدفاع عنها وحمايتها مما كان يهددها من أخطار أجنبية..

2-القيمة العلمية: وتكاد تظهر في ذلك التنوع العلمي والفكري، من أحاديث وأخبار وأشعار وبيانات جغرافية وتاريخية واجتماعية، وفتاوى فقهية وإجازات ورسائل، مما يشكل مادة دسمة يفيد منها الأديب والمؤرخ والفقيه... أضف إلى ذلك الكثير من النقول التي تتضمنها، وكلها مأخوذة من مصادر أصبحت في حكم المفقود كما يشير الأستاذ المحقق إلى ذلك.

3-مكانة صاحبها العلمية: إذ من المعروف أن العلامة ماء العينين بن العتيق يعد نموذجا حيا لعلماء الصحراء، ومثالا للمشاركة العلمية والالتزام الديني والوطني.

والحقيقة أن التعامل مع مثل هذا الكم الهائل من المعلومات الواردة في هذه الرحلة؛ وأيضا مع مثل هذا التنوع في المعارف، يقتضي جهدا كبيرا، إلا أن الأستاذ المحقق الدكتور محمد الظريف قد نجح إلى حد كبير في إخراج هذه الرحلة، رغم صعوبة إنجاز مثل هذا العمل التي تتمثل أساسا في:

أ-صعوبة التحقيق وما يتطلبه من أمانة ودقة وصبر..

ب-اختلاف الأصول المعتمدة في إخراج هذه الرحلة..

ج-خلو المتن المخطوط من علامات الترقيم، مما يجعل التمييز بين كلام المؤلف والنصوص المستشهد بها صعبا..

د-كثرة أسماء أعلام الرحلة، وما يتطلب ذلك من جهد للتعريف بهم، على الرغم من اختلاف درجاتهم ومستوياتهم وأماكنهم..

هـ-كثرة النصوص والشواهد الواردة في الرحلة، من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار ورسائل وإجازات وفوائد فقهية وتاريخية وجغرافية.. وما يتطلبه هذا العمل من الضبط والتصحيح والتصويب.

وحتى يقرب الأستاذ المحقق قارئ الكتاب من مضامين هذه الرحلة المعينية، وضع مقدمة مركزة للتعريف بصاحبها وتلخيص محتوياتها، مبرزا أن حياة العلامة ماء العينين بن العتيق، تمثل سجلا حافلا بالعطاءات، إذ إن شهرته تغني عن التعريف به.

وعلى الرغم من ذلك، لم يفت الأستاذ المحقق من أن يعدد لصاحب الرحلة عدة محطات، نذكر من بينها:

1-المحطة الأولى: وتتعلق بنسبه الشريف، وهو نسب ساهم إلى حد كبير في تشكيل ملامح شخصيته وتحديد مسار حياته..

2-المحطة الثانية: وتتصل بتربيته وتعليمه وقدرته الفائقة على التحصيل، فنبغ في مختلف علوم عصره من فقه وأصول وتاريخ وتصوف وأدب، وغير ذلك..

3-المحطة الثالثة: وتتعلق بإنتاجه العلمي والأدبي، الذي يتميز بالغنى والتنوع والعمق؛ إذ إن مؤلفاته تعتبر مصدرا أساسيا من مصادر الحركة الفكرية في الصحراء المغربية؛ وصورة حية لما تميز به علماء الصحراء من نبوغ ومشاركة علمية، على حد قول الأستاذ المحقق.

وقد ختم الأستاذ الظريف هذا الكتاب بفهارس عامة تناولت: فهرس الأعلام البشرية وفهرس القبائل والبلدان، وفهرس القوافي وفهرس المصادر، ثم فهرس المحتويات، جاءت كلها مركزة ودقيقة، أبانت عن الجهد الكبير الذي أنفقه المحقق لإخراج هذا العمل بالشكل الذي كان يرومه المؤلف، وهو عمل كفيل بأن يطلع المهتمين والباحثين على جزء من ثقافة الصحراء المغربية التي ظلت مغمورة وبعيدة عنا نتيجة وجود الاستعمار الإسباني..

ويضاف إلى هذا الكتاب المحقق كتاب آخر له قيمته ووزنه، بعنوان: "مفيد الراوي على أني مخاوي" من تأليف الشيخ ماء العينين، يرمي من ورائه الأستاذ المحقق إلى إلقاء «مزيد من الضوء على التراث الذي أبدعه أعلام أقاليمنا الجنوبية، والذي به تكتمل الرؤية الشمولية لتراثنا المغربي خاصة، والتراث العربي الإسلامي عامة».

لقد بذل الأستاذ المحقق في هذا الكتاب جهدا كبيرا لا يقل عن عمله السابق، سواء في إخراجه أو التعليق عليه؛ فقد صدره بمقدمة وجيهة أبرز فيها السياق التاريخي والاجتماعي والعلمي، مع تتبع دقيق لتطور الحركة الصوفية في المغرب منذ القرن السابع الهجري، مركزا على البعد الوحدوي للتصوف كما يبلوره كتاب "مفيد

الراوي على أني مخاوي".

لقد أوضح الأستاذ المحقق في التمهيد لهذا الكتاب أسباب تأليف الشيخ ماء العينين، فقد وجد أن «بعض المريدين وأهل الطرق الصوفية ممن ليست لهم خبرة بالتصوف ومعرفة أسراره، يتعجبون من عدم تفريقه بين الطرق الصوفية وإعطائه أوراد الشاذلية والقادرية والتيجانية وغيرها دون تمييز كما أقلقه ما وجد عليه الناس من تفرق واختلاف، فبادر إلى توضيح المعنى الحقيقي للتصوف وإزالة كل ما يمكن أن يشوش على المريدين من وساوس وشكوك حول وحدة الطرق الصوفية وعدم اختلافها في المنطلقات والمقاصد» (1).

كما أبرز الأستاذ المحقق أن قيمة هذا الكتاب تتمثل في:

1-ما يحظى به المؤلف من مكانة علمية ودينية ووطنية، فالشيخ ماء العينين يعد من أعلام المغرب المبرزين في مجالات العلم والجهاد والتربية والوطنية.

2-تناول الشيخ ماء العينين لموضوع هام جدا، يتمحور حول وحدة الطرق الصوفية، وهو موضوع قلما صنف فيه المصنفون وأولوه ما يستحق من عناية، لذلك فالوقوف عنده في هذا الكتاب أمر مفيد جدا.

3-ما لقيه هذا الكتاب من اهتمام كبير من قبل العلماء والأدباء الذين أشادوا بقيمته العلمية والتربوية والإصلاحية.

ولم يكتف المحقق بإيراد مضامين الكتاب كما هي في الأصل، بل إضافة إلى ما تتطلبه عملية التحقيق من شروح وتخريجات وتعليقات، فإنه صدره بمقدمة مهد فيها لمعرفة موضوعاته وفهم مقاصده تيسيرا على القراء والمهتمين. ولعل المتتبع لمحتويات كتاب الشيخ ماء العينين، سيلاحظ كيف تم التعامل مع متن هذا الكتاب من قبل الأستاذ المحقق، وهو يعتمد على المقارنة والمقابلة والبحث، مما أعطى للكتاب المحقق نكهة خاصة تقربه أكثر فأكثر إلى المتلقي، ليساهم ضمن غيره من كتب التراث الإسلامي في توضيح المعنى الحقيقي للتصوف والمقاصد السامية للطرقية الحقة،

(1) ص: 12.

والتعرف إلى التجربة الإصلاحية الصوفية المعينية وموقفها من التشرذم والتمزق والاختلاف»[1]، خاصة إذا علمنا «أن الدراسات السريعة والمقتضبة التي قام بها الغربيون للطرق الصوفية بالمغرب، أظهرت عجزها وعدم قدرتها على البحث الموضوعي». ولهذا جاء تناول الشيخ ماء العينين لهذا الموضوع محكوما «بمنهج إسلامي أصيل، وروح صوفي عميق»، ولعل القضايا التي يثيرها هذا الكتاب، كافية بأن تكسبه قيمته ووزنه.

فالشيخ ماء العينين يكشف من خلال كتابه على أن الطريق الصوفي هو رابطة بين أفراده أساسها الخلال الحميدة والآداب الشرعية التي تربط قلب العبد على الحضور في حضرة الحق تعالى بما ينبغي من كمال المحبة والتقديس والتنزيه.

وتأسيسا على ما سبق، تتضح أهمية قراءة هذا الكتاب بغية تصحيح بعض المواقف الداعية إلى الانتصار لهذا الطريق الصوفي أو ذاك، إذ «إن طرق الأولياء كلهم وإن تعددت إنما هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم.. أما غيرها، أي غير طريق النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ليس بطريق لنسخ طريقه لكل الطرق».

ومن هنا أوضح الشيخ ماء العينين أنه مخاو لجميع الطرق الصوفية، فالمطلوب تربية وترويض وإعداد شخصية جديدة لتدخل مجتمعا جديدا بنظرة جديدة، والطريق الصوفي هو تجربة شخصية يدخلها المريد آملا أن يصل إلى مقام عال عند ربه.

أما الكتاب الآخر، فيتعلق بديوان الشيخ أحمد الهيبة، فلقد أبرز الأستاذ محمد الظريف، وهو يمهد لهذا الديوان، مساهمة الشيخ أحمد الهيبة، في إغناء الحركة الشعرية في الصحراء المغربية، وإذكاء جذوتها.. فأبدع بذلك شعرا يفيض جمالا وعذوبة.. ولكن بحكم ظروف الاستعمار من جهة، وعدم عناية واهتمام الباحثين بأشعاره من جهة أخرى، كل ذلك، كاد يضيع معه شعر هذا الرجل، ومن هنا جاء الاهتمام بشعره نظرا للاعتبارات التالية:

1-ما لهذا الشعر من حضور متميز في التاريخ المغربي.

---

(1) ص: 31.

2-إن ما كتب حول الشيخ أحمد الهيبة من قبل الأجانب، ينطلق في معظمه من اقتناعات فكرية انقسامية، وحتى ما كتبه المغاربة لا يخلو من تمحل أهملته ظروف مختلفة.

3-إنه يمثل اتجاها شعريا متميزا في الصحراء المغربية، بما له من سمات وملامح وخصائص، وحتى يحظى تحقيق هذا الديوان بمكانه علمية موضوعية، ذكر المحقق أنه استعان بعدة مصادر ومراجع ساعدت على إخراج هذا العمل مجموعا ومحققا ومرتبا ومدروسا، وذلك من خلال:

أ-تتبع أشعار الشيخ أحمد الهيبة في مجموعة من المصادر.

ب-ترتيبها وتحديد أغراضها وبحورها ومصادرها وشرح غوامضها وأسرارها وتصحيح الأخطاء الواردة فيها.

ج-التعريف بالشاعر الشيخ أحمد الهيبة مع إبراز السمات والخصائص المميزة لشعره.

ولقد بلغ ما تيسر جمعه من شعر الشيخ أحمد الهيبة في هذا الديوان حوالي ألف ومائتي بيت تتناول أغراضا شعرية متنوعة. ويرى الدكتور محمد الظريف أن هناك انسجاما بين توزيع هذه الأغراض الشعرية ورؤية الشيخ أحمد الهيبة الشعرية ومفهومه للشعر.

ويبدو من خلال تتبع الأشعار الواردة في هذا الديوان، مدى تمكن الشيخ أحمد الهيبة من أدوات الشعر وضبط زمامه، مما أهله لنظم شعر جميل رائق، وقد ختم الأستاذ المحقق هذا الديوان بوضع بمجموعة من الفهارس تسهل الاستفادة من الكتاب، وتساعد على ضبط مواضيعه بدقة وسهولة ويسر.. وهو عمل بذل فيه الدكتور الظريف جهدا ملحوظا يتسم بالوضوح والجلاء.

والحقيقة أننا في حاجة ماسة إلى المزيد من الاطلاع الرصين على هذا التراث الصحراوي وحفظه من الضياع، ففيه ما يستوجب البحث والشرح والجمع والتحقيق للكشف عن كنوزه الفريدة.

مراجع البحث:

-الرحلة المعينية للعلامة ماء العينين بن العتيق، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1998، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي.

-ديوان الشيخ أحمد الهيبة، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1998.

-مفيد الراوي على أني مخاوي، للشيخ ماء العينين، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1999.

ٱلمِحوَرُ ٱلدِّينيُّ

انتشار الطريقة المعينية
في المغرب

ذ. أحمد الوارث
كلية الآداب-الجديدة

في شهر ربيع الأول سنة 1328هـ/1910م، حل الشيخ ماء العينين بمدينة تيزنيت، فهب الناس إلى زيارته فيها. وكان ممن زاره الشيخ الحاج علي الدرقاوي، والد المختار السوسي، على رأس طائفة كبيرة من فقراء الدرقاويين، وكانوا وهم في طريقه إليه يرددون ذكر: «الله الله الله، لا إله إلا الله» على عادتهم، بصيغة يقولونها جهرا بلسان واحد، إلى أن دخلوا «... على الشيخ ماء العينين، الذي كان في انتظارهم، وقد جلس لهم في مستظل كبير هيأوه من الطنافس والحنابل على أعمدة طويلة في براح متسع لكثرة الناس جدا، وقد احتشد إليه تلاميذه هو أيضا، فاصطف الفقراء بين يدي مجلسه، فدخل الشيخ "الحاج علي" وولده سيدي محمد، والعلامة ابن مسعود "الإفراني"، فسلموا على الشيخ، وهو مستند لكبر سنه». ولما رحب بهم، بدأ الاحتفاء بقدوم شيخ السمارة، وكان الحاج علي الدرقاوي من بين المادحين له[1].

كما استغلها الحاج علي فرصة، وخاطب آل تيزنيت، فحضهم «... على الاحتفال بهذا الشيخ النازل بين ظهرانيهم المهاجر من بلده إلى بلدهم. وكان له بين التزنيتيين آذان صاغية، فنفعت تلك الوصية في الضيف، فقوبل بكل تجلة زائدة عما

(1) المختار السوسي، المعسول، مطبعة فضالة، المحمدية، 1380هـ/1960م: 4/89-90.

كان له، فرضي الله عن الجميع» [1].

وأرى أن صدى وصية الحاج الإلغي لآل تيزنيت لازال مدويا إلى الآن، وأن الخلف في تيزنيت، لا زال على نهج السلف، في تقديره وإجلاله للشيخ ماء العينين. ومن ثم، لم نتردد في الدعاء لكم، أيها السلف، أن يرضى عنكم سبحانه وتعالى، اقتداء بدعاء المختار السوسي لآبائكم وأجدادكم، في عصره، بالدعوة نفسها، جزاء لكم على عنايتكم بهذا الشيخ.

وأود في هذا الاحتفاء أن يكون لي نصيب من هذا الرضى، وقد اخترت أن أتحدث، بالمناسبة، عن قضية مهمة، من قضايا التصوف في حياة الشيخ ماء العينين، هي انتشار طريقته الصوفية في المغرب، وقدرة تلك الطريقة على أن تفرض نفسها، في البلاد، رغم كثرة الطرق، بل وقدرتها على أن تتجاوز تلك الطرق ذات التاريخ العريق في عالم التصوف المغربي، لتحتل مكان الصدارة.

نقول الصدارة، بشهادة المعاصرين للشيخ ماء العينين أنفسهم، وكذا الجيل اللاحق منهم. وعلى سبيل المثال، يقول الكاتب السلطاني الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين في مؤلفه "التنبيه المعرب" الذي أنهى كتابته عام 1323هـ/1905م: «للشيخ ماء العينين تلامذة كثيرون من أهل مراكش، وفاس، ومدينة سلا، ومن غالب المراسي والثغور، زيادة على تلامذته الذين لا يحصون كثرة بالصحراء. وما رأيت اليوم – يضيف الكاتب– أشهر من الشيخ، ولا أكبر منه قدرا عند العلماء والكبراء وأهل الوقت والأمراء» [2].

وكتب المؤلف نفسه، في محل آخر من الكتاب عينه، ما أكد به رأيه السابق، فقال: «ولا علمت أحدا اليوم بالمغرب قاطبة في درجة "الشيخ ماء العينين"، رضي الله عنه، في الشهرة وكثرة الأتباع، وبعد الصيت، وإقبال الخلق عليه، وخضوعهم لديه،

---

(1) المختار السوسي، المعسول: 91/4.

(2) التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب، السفر الأول، تحقيق وتصحيح: محمد المنوني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1415هـ/1994م، ص: 177.

حتى السلطان ومن دونه... »[1].

أما المختار السوسي، فقد استهل حديثه عن الشيخ ماء العينين بقوله: «هذا الشيخ من الشيوخ العظام الذين تمت لهم شهرة فائقة عظيمة من نحو 1270هـ، فقد أسعده الحظ فنال ما ربما إذا سمعه من لا يعرفه يستغربه أو يعده من البهتان». ثم حدد سبب هذه الشهرة العظيمة في خمسة أسباب، جعل ثالثها في أنه «... شيخ من شيوخ الصوفية الذين لهم يد عليا في ذلك الفن علما وعملا، ولا أدل على ذلك من ذلك الجم الغفير الذين تتلمذوا له في الصحراء... »[2]، وفي غير الصحراء.

وعلى كل حال، فإن قدرة الشيخ ماء العينين على استقطاب الأتباع، ونجاحه في نشر أفكاره الصوفية على نطاق واسع جدا في بلاد المغرب، أمور لا يختلف حولها اثنان. لكن الذي نود النقاش حوله، هو سبب هذه الشعبية وذلك النجاح. وفي هذا الصدد بالذات أقترح مقاربتين اثنتين: الأولى تتعلق باحتضان المخزن العلوي للشيخ ماء العينين، وإسهام رجال المخزن في نشر الطريقة الصوفية المعينية. أما الثانية فتتعلق بخصوصية تلك الطريقة نفسها، مقارنة مع الطرق الصوفية السائدة.

احتضان المخزن العلوي للشيخ ماء العينين

لم نتردد في كتابة هذا العنوان استنادا إلى الحظوة الفائقة التي نالها الشيخ ماء العينين من لدن سلاطين المغرب، وكبار رجالات الدولة، ودور المخزن في نشر الأفكار الصوفية التي نادى بها هذا الشيخ، في سائر نواحي البلاد، حتى لقد ذهب البعض إلى تشبيه أمر هذا الشيخ وزاويته بأمر «... الزاوية التيجانية، التي منحها السلطان مولاي سليمان كل إمكانيات القوة لتقليص دور باقي الزوايا الأخرى»[3].

ومما نستهل به حديثنا في هذا الموضوع الاتصالات المكثفة بين الطرفين، والتي لم

(1) التنبيه المغرب، مصدر سابق، ص: 168.

(2) المختار السوسي، المعسول: 4/83.

(3) ماء العينين القلقمي، مجلة الأفارقة، 1977، ص: 184.

وراجع مناقشة لهذا الرأي عند: محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين من التأسيس إلى قيام المسيرة الخضراء، رسالة جامعية في الأدب العربي، 1985-1986، مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط: 1/50 وما بعدها، وذلك سنة 1274هـ.

تنقطع أبدا. وفي هذا الصدد يذكر أن أول اتصال لهذا الرجل بالسلاطين العلويين كان قبل نزوله بالسمارة، وذلك أثناء رحلته الحجية، وعمره لم يتعد سنتئذ 28 ربيعا.

وخلال تلك الرحلة تلقاه سلطان المغرب زمنئذ، مولاي عبد الرحمن بن هشام، وخليفته في مراكش الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمن، بإجلال عظيم وإكرام لا نهاية له، ومنحاه منحا ذات بال، سهلت عليه مهمة السفر إلى المشرق في الذهاب، وإلى الصحراء في الإياب(1)، علما أن الشيخ ماء العينين لم يكن، في ذلك التاريخ، مقيما في الساقية الحمراء، لأن ذلك لم يحدث إلا في عهد مولاي الحسن(2).

وعندما انتقل الشيخ ماء العينين إلى أرض الساقية، حقق شعبية واسعة في أوساط الصحراويين، واهتم به سلاطين المغرب اهتماما بالغا. وفي هذا الصدد كتب المختار السوسي قائلا: «فقد كان السلطان مولاي الحسن، منذ لفت وجهته السياسية إلى الصحراء، يوالي عليه الإعانات التي لا انقطاع لها، ويقصد بذلك ما يقصده السياسيون في أمثال تلك الاحترامات» (3).

وكان الشيخ ماء العينين، من جهته، في مستوى الثقة التي وضعها فيه السلطان مولاي الحسن، وصار من خدام العرش الأوفياء في تلك البقاع المغربية، لا يتوانى في تلبية النداء أو الأوامر. ويكفينا أن نشير هنا إلى مسارعة الشيخ ماء العينين إلى لقاء السلطان تلبية للنداء الذي وجهه إليه من وادي نون سنة 1303هـ، حتى إذا بلغه نهوض السلطان من وادي نون، لحق به تلبية لأمره، و لم يدركه إلا بمراكش.

فلما وصله «... قابله السلطان بمزيد الاعتناء والكرامة والمراعاة البالغة التي هي على حسن الاعتقاد علامة»، حسب قول الحاجب السلطاني الحسن بن الطيب بن

---

(1) راجع: المختار السوسي، المعسول: 4/96-97.

(2) انتقل الشيخ ماء العينين إلى الساقية الحمراء في ذي الحجة عام 1277هـ. ففي هذا التاريخ قدم على العروسيين بالساقية الحمراء، فأسكنوه، وشاركوه في أموالهم، وتزوج منهم، واستقر بين ظهرانيهم، يزور أهله بالحوض ثم يعود. راجع: الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين، التنبيه، مصدر سابق، ص: 27.
المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 4/93.

(3) المختار السوسي، المعسول: 4/84.

اليماني بوعشرين[1]. وقد نقل إلينا الحاجب السيد محمد بن إدريس بن يعيش صورا عن حفاوة هذا الاستقبال، وقال: «... خرج الوزراء عن إذن من الملك لملاقاته، وفي مقدمتهم... محمد الصغير الجامعي العلاف -وزير الحرب- والفقيه علي المسفيوي وزير الشكايات، وفضول غريط وزير البحر -وزير الخارجية- وابن العلام قائد المشور... خرج الكل في العسكر... يلاقون الشيخ في باب الرب، ثم... اصطف الناس أمام الشيخ يدعو معهم، ثم يمال به إلى محل النزول، والكل معه، والنفقة على خزينة الدولة... »[2].

ثم «اجتمع به "مولاي الحسن"، وشافهه، وطلب منه الدعاء في خلوة بقعر داره، وأطلعه على الحقير والجليل من أخباره.. وابتهج.. بمقدمه، وأجرى عليه وعلى أتباعه ومواريده كثيرا من نعمه»[3].

ومما نقلته الأخبار عن هذا الاجتماع قول الشيخ ماء العينين مخاطبا مولاي الحسن: «إني زرت جدك مولاي عبد الرحمن فجعلني ابنا، وأباك فجعلني أخا. فقال له مولاي الحسن: وأنا أجعلك أبا». ثم رجع، وسكن في الساقية الحمراء حيث كان قبل»[4]، وكأنه أخذ عنه إذنا رسميا بالمقام في السمارة، بل لقد «... أسند له الملك النظر في تلك الناحية، في الطرفاية والداخلة وما بينهما»[5].

---

(1) الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين، التنبيه...، مصدر سابق، ص: 28.

وكان والده الفقيه أبو عبد الله الطيب بن اليماني بوعشرين حاجبا لدى السلطان مولاي عبد الرحمن، ثم وزيرا لدى السلطان المولى محمد بن عبد الرحمن، إلى أن توفي في 14 شعبان 1286هـ، ودفن بمراكش في ضريح الشيخ عبد الله الغزواني.

راجع: أ. الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: 51/9، و122.

عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1352هـ/1928م: 419/5.

(2) المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 94/4.

(3) التنبيه...، مصدر سابق، ص: 28.

(4) المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 98/4.

(5) نفس المصدر: 98/4.

وكان الشيخ ماء العينين قد تأهب لزيارة مولاي الحسن عام 1311هـ، ثم رجع من الطريق، فظهر أن السلطان توفي. (نفس المصدر).

وفي العهد العزيزي، كان للشيخ مـاء العينين عدة أسفار إلى الحكومة، بلغت سبعة، أربعة التقى فيها بالسلطان في مراكش، ثلاثة منها في حياة الوزير أحمد بن موسى، والرابعة بعد موته، ثم ثلاث مرات، التقى فيها بالسلطان في فاس[1].

وقد وصلت درجة احترام الشيخ ماء العينين في العهد العزيزي، ولاسيما في أيام أحمد بن موسى، مقاما لا مزيد عليه... ويكفيك -يقول المختار السوسي-أن السمارة بنيت في العهد العزيزي، كما سنرى، ويكفيك أيضا -يقول المختار السوسي كذلك- توالي السفن إلى الصحراء إعانة للشيخ بالحبوب والكسى الفاخرة، وبكل ما يكتسي به كل من مع الشيخ، «حتى إنهم كلهم يتمخطون لا في الكتان فقط، بل وفي الملف أيضا، وفي الثياب العليا» [2].

«... وأما إذا توجه "الشيخ" بركابه إلى مراكش، فإن المغرب يقوم ويقعد في الاحتفالات به، بإيعاز من الحكومة، وبغير إيعاز منها. فإن للرجل مكانة مكينة في القلوب كلها، قلوب الخاصة والعامة، لدينه وعلمه وشرفه وسنه، حتى إذا أطل على الحمراء تركب الحكومة عن آخرها لملاقاته، ثم يتسابق الناس في الإهداء إليه، كما تتسابق الشريفات من دار المخزن للفوز بغسل ثوب من ثيابه تبركا.

وأما "أحمد بن موسى" الوزير، فإنه يظل قائما على رأسه اعتقادا له حسنا في الشيخ، ثم لا يرد له طلبة قدمها إليه» [3]. وفي هذا الإطار بالذات حضر الباشا إدريس منو حفلا من حفلات استقبال الشيخ المذكور في العهد العزيزي، ووصفه بقوله:

«ورد مرة الشيخ ماء العينين إلى الحمراء في الدولة العزيزية، فلقي بترحيب عظيم وإكرام نادر، وقد أهدى إليه كل من يجول في الحكومة من أصغر عون إلى السلطان الأعلى كل بمقداره، لأن الناس فيه من الاعتقاد ما لا يكيف، ومن لم يقدر إلا على الحمالة التي يتقلد بها، فإنه ينزعها من عاتقه فيزور بها منه، والأعراب أصحابه ينشرون

---

(1) راجع: التنبيه، مصدر سابق، ص: 174.
المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 93/4.
(2) المختار السوسي، نفس المصدر: 84/4، وراجع نفس المصدر: 93/4.
(3) نفس المصدر: 87/4.

بلا حد كرامات كنا إذ ذاك نصدقها كلها، فيزداد الشيخ في أعيننا تقديسا»[1].

وكانت هذه هي العادة في أيام مولاي عبد الحفيظ، إثر ما بويع في مراكش، وقد زاره أكثر من مرة، حين كان خليفة أخيه في عاصمة الجنوب[2].

ولم يقتصر اهتمام رجالات المخزن العلوي بالشيخ ماء العينين، على حفاوة الاستقبال، وكرم الضيافة، وبذل الصلة، وإنما تعدى ذلك كله إلى الانخراط في سلك الفقر، واتباع الشيخ في طريقته وأوراده. وفي هذا الإطار حدثنا الحاجب السيد محمد الحسن بن إدريس بن يعيش، الذي هو من أتباع الشيخ، قال: «... إن والدي القائد إدريس بن يعيش... أخذ عن الشيخ... في وفدته الأولى على الملك مولاي الحسن، نحو 1304هـ، وذلك في مراكش... »[3].

وذكر قائد المشور محمد بن إدريس نفسه أن والده هذا سماه محمدا الحسن اقتداء بالشيخ، حيث سمى أحد أبنائه بهذا الاسم، كما اعتبر حفظه للقرآن، دون سائر إخوته، من ثمرات هذه الصلة، وبركات الشيخ ماء العينين. وقال بأنه تبرك بدوره بالشيخ، عن إذن والده، في إحدى وفاداته على السلطان مولاي عبد العزيز بمراكش[4].

وفي الإطار نفسه يذكر أن آل القائد سعيد الجيلوليين كان لهم بدورهم اتصالَ تبرُّكٍ بالشيخ ماء العينين[5]، مثلهم في ذلك مثل الباشا إدريس منو[6]، وكذلك الوزير الأعظم أحمد بن موسى البخاري، الذي أخذ عن الشيخ إبان قدومه على مولاي الحسن[7]، وغيره من وزراء وكبراء الدولة[1]. بل يذكر عن السلطان مولاي عبد العزيز

(1) المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 85/4.
(2) نفسه: 84/4 و86 و94 و98.
(3) نفسه: 92/4-93.
(4) نفسه: 94/4.
(5) نفسه: 104/4.
(6) نفسه: 85/4.
(7) نفسه: 93/4.

العزيز أنه «... لما استقر... بمراكش، مرجعه من فاس سنة 1314هـ، وفد عليه الشيخ، فاهتبل به الملك اهتبالا عظيما، فاتخذه شيخا، فتلقن منه ورده بإيعاز من أحمد (بن موسى الوزير) »[2]. كما يذكر في هذا الصدد أن مولاي عبد الحفيظ طلب الإجازة من الشيخ ماء العينين فأجازه باستعمال ما يشاء من تآليفه وأسراره، وإعطائه ذلك لكل من يرى فيه الأهلية[3].

وتتميما لذلك، أمر السلاطين ببناء زوايا للشيخ ماء العينين، وعينوا لذلك أهم المدن المغربية وأكبرها. وفي هذا الصدد بالذات حدثنا الكاتب السلطاني الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين، مؤلف التنبيه، فقال: كان «للشيخ ماء العينين زاوية كبيرة بهية بمراكش في حومة القنارية، كان وعده بها أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله، ولم تتيسر على يده، ثم تيسرت على يد نجله أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز، بواسطة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، ومباشرته وإعانته، وتمت على أحسن ما يكون»[4].

وأقام السلطان مولاي عبد العزيز للشيخ زاوية أخرى في حومة الطالعة بمدينة فاس، أصغر من التي بمراكش، ولعله «بناها له... بواسطة ابن يعيش»[5]. كما أقام له المخزن زاوية أخرى في رياض الزيتون، بنفس المدينة، ويوجد هناك أمام دار ابن داود ضريح لأحد أولاد الشيخ شيدته الحكومة[6].

---

(1) التنبيه، ص: 168. والمقصود هنا كبراء الدولة العزيزية. ويذكر في هذا الإطار أن محمد بن الطيب الصبيحي، باشا سلا، حصل على إجازة من الشيخ ماء العينين. راجع نصها عند:
محمد الظريف، الحياة الأدبية... مرجع سابق: 1/121-122. وراجع كذلك ص: 119 من نفس المرجع.

(2) المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 4/93.

(3) راجع نص الإجازة عند:
محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين...، مرجع سابق: 1/119-120.

(4) التنبيه...، مصدر سابق، ص: 176.

(5) المختار السوسي، المعسول، مصدر سابق: 4/87.

(6) نفس المصدر، والابن المقصود هو الشيخ حسن بن الشيخ ماء العينين المتوفى عام 1334هـ. راجع:
ماء العينين بن العتيق، الرحلة المعينية، تحقيق: محمد الظريف، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، الرباط، 1998، ص: 213.

وهناك زاوية أخرى في مكناس، ردتها حكومة الاحتلال الفرنسية مركزا للبريد لسكان المدينة القديمة في "دار السمن". «وكل ذلك في أيام "الوزير" أحمد بن موسى، الذي كان له اعتقاد في الشيخ، حتى ليقال إنه نال بركته في تمائم كتبها له، بها نال ما نال من الشفوف، يقال ذلك، والله أعلم بصحته، والشيخ معروف بإتقان سر الحرف، كما يظهر من كتبه»[1].

وإلى جانب هذه الزوايا، معلوم أن مولاي عبد العزيز هو الذي بنى للشيخ ماء العينين زاويته الكبرى، مع دار كبيرة، في السمارة، لأنه لم يكن يسكن قبلئذ إلا في الخيام، فوجه العملة والمعلمين والياجور والجير والخشب، عبر الصويرة، ثم طرفاية. وقد جاء البناء على أحسن ما يكون، ثم غرس الشيخ حوله كثيرا من النخيل، وصار يحاول إجراء الماء هناك، وظهر في الناس بسبب ذلك بعض الولوع بالفلاحة والتنبه لها، وكان البناء عام 1316هـ/1898م[2].

وموازاة مع ذلك شيد أصحاب الشيخ ماء العينين زوايا أخرى عديدة في شتى نواحي المغرب، منها زاوية في سلا[3]، وأخرى في الصويرة، وثالثة في القصر الكبير، ورابعة في مليلية[4]، وخامسة في بني نصار بحوز مدينة الناضور[5]، وزوايا أخرى عديدة في غالب المراسي والثغور المغربية[6]. بل لقد قام مقدمو هذه الزوايا نفسها بدورهم، بتأسيس فروع أخرى من الزوايا، نيابة عن شيخ السمارة، في المناطق المتاخمة لزواياهم.

---

(1) ماء العينين بن العتيق، الرحلة...، مصدر سابق، ص: 213.

(2) التنبيه... مصدر سابق، ص: 176.

المعسول: 93/4. ومعلوم أن مولاي عبد العزيز هو الذي أقطع للشيخ ماء العينين دار تزنيت، وأشار عليه لما ضاقت به الصحراء أن ينتقل إليها. راجع: المعسول: 94/4.

(3) المعسول: 93/4.

(4) محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين... مرجع سابق، ص: 118.

(5) راجع: رسالة الشيخ ماء العينين إلى مقدم الزاوية المعينية في بني نصار، منشورة في مجلة المناهل، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، عدد: 49، السنة: 20، جمادى الثانية 1416هـ/نونبر 1995، ص: 398.

(6) حسب قول صاحب التنبيه...، ص: 177.

وممـا لاشـك فيـه أن جميـع هـذه العمليـات قـد لقيـت تشـجيعا ومباركــة غـير مشروطين من لدن المخزن، نسجل هذا القـول باطمئنــان كبـير، ونحـن نسـتحضر، في الوقـت نفسـه، مـا ترويـه بعـض الأخبـار الأجنبيـة عـن محاولـة الشـيخ أحمـد الشــمس (ت.1342هـ/1924م)، مقدم زاوية الشـيخ مـاء العينـين بفـاس، القيـام بتأسـيس بعـض الزوايا المعينية في شمال المغرب، بمساندة بعض رجـال المخـزن[1]، وكـذا محاولـة الشـيخ أحمد البدوي (ت. 1344هـ/1926م)، وهو من مقدمي الزاوية المعينية بفاس أيضا، بعد الشيخ أحمد الشمس، إنشاء زاوية فرعية في مدينة القصر الكبير[2].

وعلى كل حال، يبدو واضحا أن مكانة الشيخ ماء العينين عنـد المخـزن كـانت عظيمة للغاية، بل إن «... هذا الأمر، يعـني اتصالـه بملـوك المغـرب، أجـل الأمـور الـتي اشتهر بها الشيخ ماء العينين تلـك الشـهرة الغريبـة، حتـى صـار مـن انقطعـوا إليـه مـن المريدين آلافا... »، حسب تعبير المختار السوسي[3]، وصـارت «الدولـة تـهتز لـه متـى ورد إلى المغرب»[4].

وهـذا يعني أن مكانة الشيخ ماء العينين علـت في عيـون المغاربـة لمـا علـت عنـد المخـزن، لأن «... الناس أتبـاع الملـوك، وأصداء لأصواتــهم، فمـن تقـرب إليـه الملـوك شبرا تقرب إليه النـاس باعـا، ومن كانت إليه منهـم لفتـة تـرى الرعيـة تكـاد تسـجد لجهته»[5].

لكن، لماذا هذا التبجيل من لدن المخزن للشيخ ماء العينين، ثم مـن الرعيـة؟ هـذا السؤال يحيلنا إلى المقاربـة الثانيـة، الـتي نجعلـها سـببا رئيسـيا في انتشـار الطريقـة المعينيـة بالمغرب، ونعني بها الطبيعة الخاصة التي مـيزت الطريقـة المعينيـة والفكـر المعيـني بشـكل عام.

---

(1) E. Michaux- Bellaire: Conférences: Les confréries religieuses au Maroc, Archives marocaines, Vol. XXVII, Librairie Ancienne, Honoré Champion Editeur, Paris, 1927, P. 48.

(2) نفس المرجع.

(3) المعسول: 84/4.

(4) نفس المصدر.

(5) نفسه.

2-خصوصية الطريقة المعينية ودورها في انتشار طريقته

الأكيد أن الشيخ ماء العينين كان في مستوى الإعجاب والمكانة التي حظي بها من لدن أولي الأمر في البلاد، والمغاربة بشكل عام، ولست أعني هنا دوره في تمثيل السلطة المغربية بالصحراء، ودفاعه المستميت عن مغربيتها، وحرية أهلها ضد الأطماع الاستعمارية فحسب[1]، وإنما أعني كذلك أن الشيخ ماء العينين سن في التصوف طريقة صوفية تحمل من الخصائص ما جعلها قريبة من أهداف السلطة، مقبولة من لدن العلماء والصوفية، باختلاف طرقهم وتياراتهم، محبوبة من لدن المتشوفين إلى التصوف أو العامة بشكل عام. وفي مقدمة هذه الخصائص دعوته إلى المؤاخاة بين الطرق الصوفية بشتى نزعاتها، وبناؤه طريقة تحقق هذه الغاية.

ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه التجربة في ندوة سابقة بمدينة السمارة[2]، لذا نكتفي هنا بالقول إن شهرة الشيخ ماء العينين في عالم التصوف لا ترجع فقط إلى بلوغه في عالم التصوف المقام العالي، ولكن أيضا إلى اجتهاده في بناء تجربة رائدة في المؤاخاة بين منهجه في التصوف ومناهج سائر الصوفية في المغرب الأقصى خصوصا، والعالم الإسلامي عموما.

وتظهر أهمية هذه التجربة إذا استحضرنا أن التصوف المغربي كان بلغ في عهد الشيخ ماء العينين الأوج في التنوع في الفكر الصوفي، والأوج في التعصب الطائفي، وقمة التنافر بين شيوخ الطرق الصوفية وطوائفهم، بل لقد بلغ ذلك التمايز -زمن الشيخ ماء العينين- حد تبادل الصوفية للطعون والتهم والتشكيك في صلاح وديانة بعضهم البعض، كما تظهر أهمية هذه التجربة إذا استحضرنا الفترة التي جاهر فيها الشيخ ماء العينين بدعواه، وهي الفترة التي توافق اشتداد الغزو الامبريالي لديار العالم

---

(1) راجع عن هذا الدور: المختار السوسي، المعسول: 4/94-96.

محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين... مرجع سابق، ص: 80-105.

(2) كانت مشاركتنا: "التجربة المعينية في المؤاخاة بين الطرق الصوفية"، ندوة: السمارة حاضرة الصحراء الروحية والعلمية، تنظيم: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير وعمالة السمارة، في 1 و2 فبراير 1999.

الإسلامي، وما صاحب ذلك من مخططات التقسيم والفصل بين أقاليم البلد الواحد، وقبائل الشعب المغربي، ومن أهم مظاهر هذا التأسيس بناء طريقة صوفية تحمل سمات الوحدة والتآخي بين أهل الله. ويعني من ثم أن الشيخ المذكور كان يرى في التآخي بين أهل الله سبيلا لتوحيد شتى القوى الفاعلة في المجتمع، وسبيلا لمواجهة الهجمة الامبريالية التي اشتد أوارها على بلاد المغرب.

وهكذا، إذا كانت السمة المميزة في دعوة المؤاخاة هي الإلحاح على احترام كافة النزعات الصوفية، فإن القصد من تلك الدعوة لم يكن محصورا في تحقيق الأخوة بين الصوفية، بقدر ما كانت لها أبعاد وحدوية أكبر، الهدف منها تجاوز الخلافات الهامشية بين شيوخ التصوف، وهم من كبار المؤطرين للشعب زمنئذ، وتوحيد الجبهة الداخلية وراء العرش العلوي لمواجهة الخطر الامبريالي.

ويتأكد هذا وذاك من خلال التقدير الذي لقيه الشيخ ماء العينين من لدن سلاطين البلاد، بدون استثناء، كما رأينا، ويؤكده كذلك التعظيم الذي حظي به من لدن أهل التصوف والعلم عموما وأقطاب الطرق الصوفية في البلاد خصوصا، ولا أدل على ذلك -يقول صاحب المعسول- من ذلك الجم الغفير الذين تتلمذوا له من فطاحل الصوفية والعلماء الكبار من المغاربة الصحراويين وغير الصحراويين(1). ويكفي أن نضرب المثل على ذلك برجلين يعدان من أقطاب التصوف زمنئذ، وهما الحاج علي الدرقاوي الإلغي والد المختار السوسي، والشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي.

فالحاج علي الدرقاوي كبير درقاوة سوس في زمانه، كان على رأس المستقبلين والمحتفلين بالشيخ ماء العينين لما نزل في تزنيت في ربيع الأول 1328هـ. وقد استعمل بالمناسبة كل ما في وسعه كي يكون الاحتفاء في مستوى مقام شيخ السمارة ووليها الكبير، بل لم يتوان في مشاركة الشعراء المادحين له، فنظم قطعة شعرية بالمناسبة مدح

(1) المختار السوسي، المعسول: 4/83-84.

فيها ضيف تيزنيت، واعترف له بالمقام العالي في مقام التصوف[1].

أما الشريف العالم محمد بن عبد الكبير الفاسي، شيخ الطريقة الكتانية، وكان نظير الشيخ ماء العينين في علو همته وفي شهرته وشعبيته، فقد كان إجلاله للشيخ ماء العينين عظيما جدا، بشهادة بوعشرين، الذي أخبرنا قائلا: «لقد رأيته بمراكش، لما كان منفيا إليها، يقبل يد الشيخ "ماء العينين" ويلتمس منه الدعاء»[2]، تقديرا له

(1) قال فيها:

أقول نجوم بل بدور سواطع | تبصر خليلي بل شموس طوالع
بأفق خلافة الرسول محمد | فنارت بنورها النواحي الشواسع
فزالت غياهب الضلال عن الورى | بها إذ حوتها في الربيع المرابع
وذاك مجدد وغوث وقطبنا | فمن مائه جرت عيون نوابع
لكونه ما العينين عين شريعة | وعين حقيقة فليس منازع
فقد وافق اسمه المسمى فرد زلا | له فهو برزخ لبحرين جامع
فجمع وفرق والفنا والبقا معا | فعنده للكمال كله طابع
ومن هيبة له تقبل نجله | وفي شبه له أباه بدائع
علي المديح من علي إلى العلى | عال فريضة وملء الأصابع
سلام إله العرش منهمر على | سيادتكم فادعوا فربي سامع

نفس المصدر: 90/4.

(2) التنبيه، ص: 177.

ومعلوم أن الشيخ ماء العينين هو الذي تشفع فيه حتى رضي السلطان وعفا عنه وعاد إلى فاس (نفس المصدر) على غرار ما فعله مع الفقيه محمد بن إبراهيم السباعي (المعسول: 66/4).

صحيح، وقعت بين الشيخ ماء العينين وبين بعض الأقطاب مراداة، ونعني هنا ما حدث بينه وبين الشيخ الكبير الحسن بن أحمد الإفراني، قطب التجانيين في سوس، ذلك أن الشيخ ماء العينين كان يلقن أوراد عدة من جملتها التجانية، وذلك مما لا يقبل عند أصحاب هذه الطريقة، لأنهم يرونها أعلى من أن تجتمع مع طريقة أخرى، وأنها تغني عما سواها من الطرق، ولسعة صدر "الإفراني" لم يعد أن بين للشيخ ماء العينين شروط الطريقة في ذلك، و لم يتأثر أي منهما بما وقع بينهما، حتى لقد أبن الشيخ ماء العينين الصوفي التجاني أحسن تأبين لما صلى عليه يوم توفي. (راجع: المختار السوسي، المعسول: 68/4).

هذا، وقد كانت وفاة الشيخ الإفراني في رابع شوال 1328هـ (نفس المصدر). وفي حديثه عن هذا الموضوع قال صاحب المعسول: «كانت له جنازة حافلة، وكان إمام الصلاة عليه ضيف تيزنيت آنذاك الشيخ ماء العينين، ثم أبنه بخطبة ارتجالية بين يدي جنازته، مضمنها الإشادة بقدر الرجل وتنبيه التزنيتيين على هذه النعمة المعنوية المسبلة على مدينتهم الجديدة، حيث يتتابعها أعاظم

وتعظيما لعلو مقامه.

وطبيعي، فإن «... كل من أحنت له علماء قطره هاماتهم من أشياخ الصوفية، فإنه ظافر وراء ذلك -كما يقول المختار السوسي في حديثه عن الشيخ ماء العينين- باستتباع الدهماء التي لا تعرف غالبا إلا تقليد الجم الغفير من العلماء، ومتى سالت الأباطح بالخاصة والعامة إلى إنسان فإن هناك من الشهرة الطنانة ما يملأ الخافقين ويغمر المسامع»[1].

وإذا أضفنا ما قلناه سابقا حول علو مكانة الشيخ ماء العينين عند العامة لما علت في عيون المخزن، كما قلنا، نستطيع القول إن الشيخ ماء العينين قد فاز برضى جميع المغاربة في زمانه، وبعد زمانه، وسيبقى كذلك في عيون المغاربة أبدا.

العلماء ساكنين، ثم يثوون فيها مقبورين، وكأنه رحمه الله يتكلم حول نفسه، لأنه التحق بمن صلى عليه بعد أسابيع قليلة«. (المعسول: 4/41-70)، حتى لقد قال الرفاكي في المعسول: «صلى عليه الشيخ ماء العينين، ودعاه بمجرد صلاته عليه للحين، فلبث بعده إلى الثاني والعشرين من شوال، لمحضر الدعوة عند الكبير المتعال». (نفس المصدر: 4/78).

(1) المختار السوسي، المعسول: 4/83-84.

مساهمة الشيخ ماء العينين في التأليف
في المصطلح الصوفي

د. محمد الظريف
كلية الآداب-المحمدية

الموضوع الذي يسعدني أن أساهم به في هذه الندوة العلمية التي دأب المجلس البلدي لمدينة تيزنيت مشكورا على تنظيمها كل سنة، يتعلق بجانب هام من الجوانب التي برز فيها الشيخ ماء العينين، هو جانب التأليف في المصطلح الصوفي، وهو جانب أصيل في تاريخ الثقافة العربية بصفة عامة، وعلم التصوف بصفة خاصة.

فقد حظيت البحوث المعجمية باهتمام كبير عند العلماء المسلمين منذ انطلاق حركة التدوين، فصنفوا فيها مجموعة من الرسائل والمؤلفات شملت مختلف المجالات العلمية والأدبية، من فقه وحديث ولغة وغيرها، وقد بذل الصوفية جهودا طيبة في إغناء هذه البحوث، خاصة بعد أن أصبح التصوف علما قائما بذاته، له أصوله وقواعده ومناهجه، فحرروا مجموعة من الأعمال فيما يقوم عليه التصوف من قواعد، وما يتبادله أهله من مصطلحات، مثل بعض مباحث الرسالة القشيرية وكتاب "اللمع" للطوسي، و"رسالة اصطلاحات الصوفية" لابن عربي، و"قواعد التصوف" للشيخ زروق، و"الأحوال" للشيخ محمد فاضل بن مامين، و"جُنَّة المريد" للشيخ سيدي محمد الكنتي، وغيرها.

وتمثل هذه البحوث مستوى عاليا من النضج المعرفي، وذلك لأن تحديد المفاهيم

وضبطها وتوحيدها لا يتحقق إلا بعد اكتمال العلوم والمعارف وتشعب مجالاتها، فيتم صوغها في مصطلحات تختزل تشعبها، ولذلك لا يمكن الدخول في عالمها إلا بربطها بالمجال المعرفي الذي تصفه، وبالواقع الاجتماعي الذي يعكسه هذا المجال، وبالمنهج المعتمد في النظر إلى هذا الواقع[1].

وقد ساهم الشيخ ماء العينين في إغناء هذا المجال بكتابين هامين، أولهما استعرض فيه بعض المصطلحات الصوفية في سياق وصف بعض شهود أهل الله، وهو كتاب "منيل المآرب على الحمد من كفاء الواجب"، والثاني جعله خالصا للمصطلحات المتداولة عند أهل التصوف، هو كتاب "الإيضاح لبعض الاصطلاح"، وسأركز عليه في هذا العرض، باعتباره عملا اصطلاحيا خالصا.

ويرجع اهتمام الشيخ ماء العينين بالتأليف في هذا المجال إلى عاملين رئيسيين، هما:

1-تشبعه بالتصوف وإحاطته بأسراره، فقد انقدحت شرارته الأولى في عين قلبه، وهو في زاوية والده الشيخ محمد فاضل، قبل أن تنفتح بصيرته على غيره من العلوم، وتعمقت معرفته بهذا العلم، وزادت رسوخا بما حرره فيه من رسائل وصنفه من مصنفات.

و لم يقتصر في تحصيل هذا العلم على المصاحبة والمطالعة، ولكنه خاض بحاره بالمجاهدة والمكابدة، خاصة بعد تأسيسه لزاوية السمارة، وانتصابه للتربية والجهاد، فانكشفت له أسراره، وتجلت له حقائقه وأنواره، فصار فيه من كبار مشايخ عصره، ومن مشاهير أقطاب زمانه.

2-رغبته في تقريب المفاهيم الصوفية للسالكين وتسهيل الطريق أمامهم، وإن كانت المعرفة الصوفية لا تتحقق عن طريق التعليم اللفظي والتدريس القولي -كما يقرر

(1) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص: 184، محمد الظريف، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، إشراف الدكتور عباس الجراري، مرقونة بكلية الآداب، الرباط، 1986.

ذلك في إحدى إشاراته[1]- وإنما تحصل بطريق الفيض الإلهي والإلهام الرباني، «لأن جميع علوم الباطن إنما تحصل بالذوق والوجدان والشهود والعيان، لا بالدليل والبرهان، وهي ذوقيات لا نظريات، فإنها ليست بطريق التأمل السابق، ولا بسبيل التعجل اللاحق بترتيب المبادئ والمقدمات وعلى اعتبار حصولها بطريق الانتقال بالواسطة لا بطريق الذوق بغير واسطة»[2].

وقد جمع الشيخ ماء العينين في هذا الكتاب مائة وأربعة وثلاثين مصطلحا تحيط بمختلف أركان التصوف، من مجاهدات ومقامات وأحوال وحقائق، وغيرها، وصدَّره بمقدمة مركزة بيَّن فيها الأسباب التي دعتْه إلى تأليفه. أما الكتاب الأول، فقد جمع فيه ثمانية وأربعين مصطلحا[3] دون أن يخصصه للمصطلح.

وتبرز قيمة هذا النوع من التأليف فيما يلي:

1-إن مؤلفه الشيخ ماء العينين يعد من رواد التصوف في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن أقطابه البارزين.

2-إنه يقدم تصورًا دقيقًا عن فقه المصطلحات بصفة عامة والمصطلح الصوفي بصفة خاصة. فليس المصطلح -حسب ما جاء في مقدمة الإيضاح- فعلا لغويا طبيعيا يكتسبه الإنسان كما يكتسب اللغة الطبيعية، ولكنه فعل لغوي توافقي يتم بالتواطئ والتواضع بين مجموعة من العلماء داخل حقل معرفي محدد لتسهيل طلب المراد من معارفهم وفهم أسرار عوارفهم.

وهو ليس ملكا مشاعا بين سائر أفراد المجموعة البشرية، ولكنه مقصور على جماعة محدّدة تملك وحدها إمكانية استعماله وفهم دلالاته داخل مجاله المعرفي. كما أنه لا يسعى إلى احتكار المعرفة بالمعنى السلبي للاحتكار -كما قد يفهم من أقوال بعض الصوفية- ولكنه يهدف أساسا إلى تقريب المعارف، وتسهيل تحصيلها على من يريد

(1) السيف والموسى على قضية الخضر وموسى، ص: 17، الشيخ ماء العينين، ص: 17-24، طبعة فاس الحجرية.

(2) نفس المصدر، ص: 24.

(3) لا تدخل في هذا العدد الإشارات الاصطلاحية التي تتخلل المباحث الصوفية.

سلوك طريقها، وتوحيد الرؤية بين من ينشد سبيلها، والقضاء على كل مظاهر الإنكار الناتج عن الجهل بها والتشبع بالمعاني المخالفة لها.

ولذلك تجد «من لا علم له بذلك أبدا في إنكار وتشنيع لجهله بالمصطلح وغباوة الجبلة، وتشبعه بما علم، ووقوفه عند العادة الحاكمة على طبعه وعقله المعقول بعقال الخيال المسجون في سجن الوهم الذي لم ينج من قيد جنسه إلا الأفراد الآحاد، وقليل ما هم»[1].

3-إنه يقدم صورة دقيقة عن اللغة الصوفية وعلاقتها باللغة النفعية من جهة، وعن المعجم الصوفي عند الشيخ ماء العينين وعلاقته بالمعجم الصوفي الإسلامي من جهة ثانية. ويمكن أن نتبين ذلك من خلال مقارنة بعض المصطلحات الواردة في كتاب الإيضاح بما جاء في بيانها في بعض الكتب الصوفية وبعض معاجم اللغة العربية.

من هذه المصطلحات على سبيل المثال:

1-الطريقة وهي -حسبما ورد فيه- «تتبع أفعال النبي صلى الله عليه وسلم والعمل بها»[2]. وهو نفس المعنى المتداول لهذه الكلمة عند أغلب الصوفية، وهذا المعنى يختلف عن المعنى المعجمي لكلمة "طريقة"، وهو «السيرة والمذهب»، كما جاء في "لسان العرب"[3]. فالمعنى المعجمي لهذه الكلمة يشمل سير سائر البشر، أما معناها الصوفي فيقتصر على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولعل هذا الاختلاف بين المعنيين المعجمي والصوفي لهذه الكلمة يعود إلى طبيعتهما الدلالية ونوعية المجال المعرفي الذي يمثله كل واحد منهما. فالأول طبيعي، اعتباطي، يقوم على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، ويحيل على عالم الشهادة، أما الثاني فهو توافقي، يقوم على تواطؤ أهل التصوف على أن الطريقة هي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم، باعتباره مصدر التصوف ومنبعه الأول، ويحيل على عالم الغيب.

---

(1) الإيضاح لبعض الاصطلاح، ص: 2-3.

(2) نفسه، ص: 7.

(3) لسان العرب، مادة: طرق.

2-الشريعة: وهي -حسبما ورد فيه- «فعل المأمورات وترك المنهيات»[1]، وهو نفس المعنى الذي تقدمه معاجم اللغة لهذه الكلمة. ففي "لسان العرب": «الشريعة والشرعة، ما بين الله من الدين وأمر به كالصوم والحج والزكاة وسائر أعمال البر، ومثل الشرعة الدين والمنهاج والطريق، وقيل: الشرعة والمنهاج جميعا الطريق، والطريق هنا الدين»[2]. ويتكرر هذا المعنى في معظم المعاجم الصوفية.

ومثل هذا التطابق بين المعنى المعجمي والمعنى الصوفي لهذه الكلمة كثير في معاجم الصوفية، ومن نظائره في هذا الكتاب، «الإخلاص»[3]، و«الغيبة»[4]، و«النخبة»[5]، وغيرها. ولعله راجع إلى اتفاق الصوفية في المشرب والعرفان واشتراكهم مع أهل اللغة في وسائل التعبير والبيان. وقد أشار الشيخ ماء العينين إلى ذلك في كتابه "منيل المآرب على الحمد من كفاء الواجب"، حيث ذكر أن اللغة الصوفية «ربما توافق في بعضها مقتضى اللغة على وضعها الحقيقي»[6].

3-المشاهدة، وهي كما جاء فيه أيضا «وجود الحق مع فقدان الخلق»، ويقال: هي مطالعة الجلال والجمال ببصيرة القلب بوجه يقوم به العيان من حيث لا وهم ولا كيف، ويقال: هي رؤية الحق في كل ذرة من ذرات الوجود، والتنزيه عما لا يليق بعظمته، ويقال: هي وجود الحق من غير بقاء تهمه»[7].

وهذا المعنى يخالف المعنى المعجمي لكلمة "مشاهدة" كما وردت في "لسان العرب"، وهو المعاينة. فالمعنى الصوفي لهذه الكلمة يدل على رؤية خاصة لعالم خاص، لا زماني ولا مكاني، وبأدوات خاصة، هي مشاهدة الله ببصيرة القلب، مع غياب كل ما يحول دون هذه المشاهدة مما له علاقة بعالم الحس، بما في ذلك الذات المشاهدة. أما

---

(1) الإيضاح، ص: 7.
(2) لسان العرب، مادة: شرع.
(3) الإيضاح، ص: 6-40.
(4) نفسه، ص: 6-40.
(5) نفسه، ص: 6-40.
(6) منيل المآرب، ص: 81.
(7) الإيضاح لبعض الاصطلاح، ص: 23.

معناها المعجمي، فهو يفيد الرؤية الحسية التي تتم بواسطة العين.

ولعل هذا الاختلاف الدلالي بين معاني هذه الكلمة يعود بالأساس إلى طبيعة اللغتين النفعية والصوفية، فالأولى تمثل عالم المحسوسات، وترجع إلى العقل، وتحيل على الأشياء الظاهرة، أما الثانية «فلا ترجع إلى العقل وإنما ترجع إلى الذوق، وهي بذلك لا تدل على معان محددة ومضبوطة»[1].

ويمثل هذا النوع من المصطلحات نسبة هامة في هذا الكتاب، ومن نظائره: "الذوق" و"الشرب"، و"الري" و"السكر" و"الصحو" و"المكاشفة" و"المواجهة"، وغيرها.

4-"البيت الحرام"، وهو «قلب الإنسان الكامل»[2].

وهذا المعنى يختلف اختلافا كليا عما يدل عليه هذا التركيب في اللغة النفعية من دلالات ظاهرية. ففي "لسان العرب": «البيت الحرام، الكعبة». وهذا الاختلاف الدلالي بين المعنيين المعجمي والصوفي لهذا التركيب يعود إلى تعليق دال جديد على مدلوله الأصلي، وهو لا يهدف إلى الإبانة، كما هو الشأن في الاستعارة، ولكنه يؤدي إلى الغموض والتعمية. فإذ ينصرف ذهن المتلقي العادي إلى الكعبة عندما يسمع هذا التركيب، يصعب عليه فهم دلالته الباطنية دون الرجوع إلى المعاجم الصوفية.

وقد أشار الشيخ ماء العينين إلى هذا النوع من المصطلحات في حديثه عن اللغة الصوفية. فهي عنده ليست ميَسَّرة لعامة الخلق مثل اللغة الطبيعية، ولكنها «عبارات اصطلح عليها أصحابها فيما بينهم لا يعرفها إلا من كان منهم، ولا يقولونها إلا لمن يصدر عنهم»[3]. وغايتهم من ذلك «الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والتستر على من باينهم، أي خالفهم في طريقهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب عنهم غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها»[4].

---

(1) الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص: 342.
(2) الإيضاح لبعض الاصطلاح، ص: 28.
(3) منيل المآرب، ص: 80.
(4) نفسه، ص: 80.

وهذا النوع من المصطلحات قليل، ومنه "بيت الحكمة"، و"بيت العزة"، و"بيت القدس"، و"المحاضرة"، وغيرها.

فالمصطلحات الصوفية عند الشيخ ماء العينين -كما يبدو من خلال هذه النماذج الأربعة- تنقسم من حيث علاقتها بالمعاني المعجمية إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

قسم يشترك في بعض دلالاته مع اللغة المعجمية اشتراكا جزئيا، وقسم يتطابق معها تطابقا تاما، وقسم يختلف عنها اختلافا كليا.

وتميزها في كل قسم من هذه الأقسام مميزات خاصة.

ففي حالة الاشتراك الجزئي مع المعاني المعجمية، تكون أكثر خصوصية، وفي حالة الاشتراك التام معها تكون واضحة الدلالة. أما في حالة الاختلاف المطلق معها، فتتسم بالغموض والضبابية، وهي في جميع أحوالها تعبر عن معاني وجدانية ونفيسة.

وليست هذه المميزات خاصة بالمصطلح الصوفي المعيني. ولكنها، وكما يبدو من خلال مقابلتها ببعض المصطلحات الواردة في بعض الكتب الصوفية، وخاصة "الرسالة القشيرية"، وكتاب "اللمع" للسراجة الطوسي، و"الفتوحات المكية" لابن عربي، و"جنة المريد" للشيخ سيدي محمد الكنتي، تميز المصطلح الصوفي الإسلامي بكامله ولدى مختلف اتجاهاته. ولعل ذلك راجع إلى اتفاق جميع الصوفية في المشرب والمقاصد، فرغم اختلاف التصورات التربوية بينهم، فإنهم يلتقون في غايات واحدة ومقاصد واحدة هي السمو بالإنسان، وإخراجه من عبودية حسه وتحقيق أنسه بربه.

4-إن المصطلحات التي اهتم الشيخ ماء العينين ببيانها لا تتجاوز حدود الشرع، ولا تخرج في دلالتها عن الإطار السني. ويبدو ذلك واضحا في بيان بعض الحقائق التي انطلق منها أعداء الصوفية في التشهير بهم والطعن في سلامة مقاصدهم، مثل "الوجود" و"الشهود" و"الخرق" و"الفتق" وغيرها.

فالاتحاد حسب ما جاء في كتاب الإيضاح هو «شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي به الكل موجود، فيتحد الكل من حيث كون كل شيء موجودا به

معدوما بنفسه، لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به، فإنه محال»[1]. كذلك الفتق، فهو «حال يدوم بدوام الشهود، ويزول بزواله، لا كما يقول من غلط في هذا الأمر وتغالى فيه ممن يزعم أن القرب إلى الله والوصول إليه إنما يكون لعدم أوصاف بشرية وزوالها بالكلية، واتصافه بأوصاف الربوبية بدلا منها، فوقعوا من ذلك في ضلال وإضلال، أعوذ بوجه الله ذي الجلال والكمال»[2].

فرغم ما يطبع هذا الشرح من تجريد وغموض، فإنه لا يتجاوز التصور السني للكون والوجود، ولا يتعدى الحدود التي رسمها الشرع للمعرفة والشهود.

هذه بإيجاز صورة مركزة حول مساهمة الشيخ ماء العينين في التأليف الاصطلاحي الصوفي، وهي تتميز كما بين الزميل الأستاذ المصطفى عزام في التقديم الذي خص به كتاب الإيضاح الذي سيصدر قريبا -إن شاء الله- بمجموعة من الخصائص، منها:

1-المرجعية الإسلامية: وتظهر بجلاء في أن أكثر المصطلحات المعينية من القرآن الكريم، مثل: الأبد، والاسم، والأسماء، والإخلاص، والطريقة، والمقام، والقبض، والبسط، والفناء، والبقاء، والمشاهدة، والتجلي، والشرب، والبيت الحرام، وغيرها. وبعضها من الحديث القدسي أو النبي مثل: الاسم الأعظم، والمجالسة، والطوارق، والحقيقة، والذات، وغيرها، مما هو أصيل في مجال التداول الإسلامي غير دخيل.

2-الخضوع لبنية اللغة العربية، وتبرز في استثمار الإمكانات الصوفية والاشتقاقية والنحوية للغة العربية في توليد المصطلحات، نجد من ذلك الشيء الكثير الذي استمد الشيخ ماء العينين بعضه من سابقيه، وأضاف إليه، كاستعمال المصدر الصناعي، مثل الأقدمية والأحدية والواحدية، واستعمال التماثل في الصيغ، مثل القبض/البسط، والمحق/السحق، والشريعة/ الحقيقة، وغيرها.

---

(1) الإيضاح لبعض الاصطلاح، ص: 4.

(2) نفسه، ص: 51.

3-مراعاة الجانب التربوي[1].

ولا يسعني في نهاية هذا العرض إلا أن أجدد الشكر إلى المجلس البلدي على هذه المبادرة التي ستساهم في إحياء الذاكرة الثقافية المغربية في الأقاليم الجنوبية، وإبراز ما تتميز به من غنى وتنوع وأبعاد وحدوية.

(1) تقديم الأستاذ المصطفى عزام لكتاب الإيضاح لبعض الاصطلاح.

الهاجس الوحدوي في فكر الشيخ ماء العينين
نموذج: السياسية والتصوف

ذ. العالية ماء العينين
الخزانة العامة-الرباط

قبل الشروع في عرض هذه المساهمة المتواضعة، أحب أن أسجل توطئة لابد منها عن الشيخ ماء العينين.

إن شخصية الشيخ ماء العينين وتجربته في علاقتها بالتاريخ خاصة، والفكر المغربي عامة، تبقى من أكثر الموضوعات إثارة للجدل، والتعارض والتضارب، بين الكائن وما يمكن أن يكون، بين الواقع والطموح العلمي-الإنساني الذي لا حدود له.

فمن جهة يعتبر الشيخ ماء العينين من أكثر الشخصيات المغربية حضورا في الذاكرة الوطنية، كما أن صيته تجاوز حدود وطنه إلى غيره من البقاع العربية والإسلامية. هذا إضافة إلى الاهتمام الذي حظي به من قبل الدارسين والمؤرخين الغربيين والمدنيين والعسكريين. ومن جهة أخرى نقف على صورة متناقضة تتجلى في التراكم البسيط من الأبحاث التي تناولت هذه التجربة الغنية بمختلف جوانبها، رغم وجود مصادر أجنبية وعربية -من ضمنها كتب الشيخ ماء العينين نفسه- التي يمكن أن تمثل الأرضية الخصبة لدراسات عميقة تتجاوز التعامل التقليدي-الكرونولوجي، الذي يحاول رصد أهم المحطات التي مرت منها حركته. فرغم ما لهذا العمل من أهمية توثيقية، إلا أنه يهمل جوانب أخرى كثيرة تعتبر مفاتيح لهذه الحركة، كما أنها تميز شخصية الشيخ بالتنوع والغنى، وتجعل من محاولة حصرها في إطار معين سقوطا في

الاستسهال والتسطيح، بحيث لا يمكن أن نفصل العالم عن المتصوف وعن السياسي، وعن المجاهد.

فارتباط الشيخ بالأصول الدينية والروحية كابن بار للطريقة الفاضلية، لا يلغي شخصيته كرجل دولة وسياسي محنك كانت له رؤى وقناعات وثوابت استراتيجية يمكن رصدها من خلال حركته السياسية والعسكرية، وسأحاول في هذا العرض الوقوف على لبنة أعتبرها أساسية في مرتكزات فكر الشيخ ماء العينين السياسي والديني، وهي النهج الوحدوي الذي سار عليه وميز فكره.

وأبدأ بأرضية تمهد للموضوع، لا تتوخى تقديم بطاقة تعريفية للشيخ، فهذا جانب عمل على الإحاطة به الكثير من المشاركين في هذه الندوة، بل سأحاول الوقوف على ما يفتتح به كل دارس أو مؤرخ حديثه عن الشيخ ماء العينين بغض النظر عن تقييمه لهذه التجربة. وهي شهادات يمكن من خلالها أن نسجل بعض الثوابت في مسار هذه الحركة. يقول صاحب الوسيط: «هو العلامة الوحيد، له معرفة بعلوم الشرائع، من الحديث والتفسير، والفقه، وغير ذلك... ورأيت منه ما حيرني، لأنني أقدّر من معه في وادي أسمار من الساقية الحمراء، بعشرة آلاف شخص، ما بين أرملة ومزمن وصحيح البنية، وكل أصناف الناس»[1].

ويقول المختار السوسي: «هذا الشيخ من الشيوخ العظام الذين تمت لهم شهرة فائقة عظيمة، فقد أسعده الحظ فنال ما ربما إذا سمعه من لا يعرفه يستغربه أو يعدّه من البهتان» [2].

وفي اعتقاد المختار السوسي، فإن ما وصل إليه الشيخ ماء العينين يعود إلى خمسة أمور، أهمها: عصاميته، وشمولية علمه، وأنه أحد الصوفية العظام، واتصاله منذ البداية بالملوك العلويين...

وفي القاموس التاريخي للصحراء الغربية لصاحبه طوني هودجز نجد التعريف

---

(1) محمد الأمين الشنقيطي: "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، ص: 437.

(2) المعسول: 83/4.

الآتي: «كبير رواد الجهاد ضد المستعمر في الصحراء مع بداية القرن العشرين، ومؤسس السمارة، الحكيم الصوفي الأكثر تأثيرا في محيطه محمد سيدي المصطفى ماء العينين»(1).

ويعرفه أحد الأنتربولوجيين الفرنسيين "Olivier Vergniot": «رجل متميز، جدير بكونه من أكبر الشخصيات الإفريقية، الشيخ ماء العينين، جمع صفات المجاهد، والصوفي والكاتب والسياسي المحنك»(2).

ويعتبر الدكتور علي الشامي حركة الشيخ ماء العينين: أهم تجربة سياسية في المغرب الأقصى لحظة التدخل الاستعماري(3).

لو تأملنا هذه الشهادات أو التعاريف، سنلاحظ أن هناك ثوابتا في شخصية الشيخ ماء العينين، لاشك أننا سنجدها كلما فتحنا مرجعا يتناول حياته، بغض النظر عن التقييم الذي سيصل إليه المحلل أو الدارس أو المؤرخ.

ويمكن أن نلخص هذه الثوابت فيما يلي:

1-الشهرة والصيت على المستويين الداخلي والخارجي، والتميز.

2-العصامية والعمل، أي المجهود الفعلي، ويتجلى في الجهاد، والبناء، والاهتمام بالعمل الاجتماعي-الإنساني كما سبقت الإشارة إليه في تعريف صاحب الوسيط، وحديثه عما رآه في مدينة السمارة.

3-الشمولية والتوازن بين العلوم الروحية والمادية، وبين التفكير والعمل، وبين السيف والقلم.

إذا عملنا على ترتيب هذه النقاط الثلاث، سنجد أنفسنا أمام خطاطة واضحة لمعالم تبين الطريق الذي نهجه الشيخ ماء العينين.

وتبدأ نقطة الانطلاق بالعصامية، فرغم أنه تربى في كنف والده وشيخه الشيخ محمد فاضل شيخ الطريقة الفاضلية، إلا أنه استطاع أن يحقق لنفسه مكانة كبيرة وصيتا

Tony Hodges, Historical Dictionnary of western Sahara. (1)

–L'enjeu saharien. (2)

-Olivier Vergniot: "Société et Pouvoir au Sahara occidental", le cas de Maelainin.

(3) الدكتور علي الشامي: "الصحراء الغربية عقدة التجزئة في المغرب العربي"، ص: 150.

عظيما عندما صدره ليستقر في الساقية الحمراء، حيث سيؤسس زاويته التي كانت لها الكلمة الأولى في العلم والجهاد والتصوف.

ونسجل هنا أن هذه المكانة المتميزة والصيت الذي حققه الشيخ والذي تؤكده الشهادات السابقة، تجلى في الاهتمام الذي أحاطه به الدارسون والمؤرخون، وخصوصا الأجانب ما بين الانطلاقة والنهاية.

تتركز النقطة الثالثة في هذه الخطاطة، وهي الشمولية والتوحيد الذي ميز مسيرة الشيخ، والتوازن الذي نهجه بين الدور الديني-الصوفي-الروحي، وبين الدور السياسي-العسكري، وكل ما يرتبط به من إعداد وتحركات استراتيجية.

هذه الخطاطة تحتاج لدراسات كثيرة لتفكيك الآليات التي تحكمت فيها، وسمات المنهج الذي اعتمده الشيخ في المسار الذي قطعه. وما يهمنا في هذه المشاركة المتواضعة، هو الهاجس الوحدوي في فكره، وسنحاول رصده في جانبين يعتبران من أهم أسس هذه التجربة: الفكر السياسي والفكر الصوفي.

الفكر السياسي

ويمكن رصده في مسارين وحد بينهما الشيخ ماء العينين: الأول في اتجاه أفقي يتجلى في علاقة الشيخ بالسلاطين العلويين، والثاني في اتجاه عمودي، أي في علاقته مع محيطه المتمثل في القبائل الصحراوية والزعامات التي تتعايش في المنطقة.

في الاتجاه الأول: بالرجوع إلى المسار الذي قطعه الشيخ ماء العينين في حركته الجهادية، سنلاحظ أنه حرص على أن يعمل في إطار من الشرعية السياسية والدينية، تترجمها البيعة التي التزم بها في علاقته مع الملوك العلويين، رغم أن الاضطرابات التي كان يعيشها المغرب في تلك الظروف ضاعفت من الصعوبات والعوائق التي كان يصادفها المخزن في ضبط أمور البلاد، ناهيك عن المناطق النائية-الشاسعة كما هو الحال بالنسبة للمنطقة الجنوبية.

فكان أول لقاء للشيخ مع السلاطين العلويين، ذاك الذي تم وهو في طريقه إلى الحج سنة 1857م مع السلطان مولاي عبد الرحمن، وتوالت بعد ذلك زياراته للحضرة

الشريفة، وكان يستقبل بكل أنواع التبجيل والاحترام، وقد ولاه السلطان الحسن الأول تولية شاملة على المناطق الواردة في الظهير الذي عينه به. وهذا نصه:

«يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز قدره، وجعل في الصالحات طيه ونشره، أننا استولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحامله الفقيه السيد محمد بن فاضل ماء العينين السوسي-الصحراوي تولية شاملة على بلاد بني باعمران سوس الأقصى، ومن ورائهم بني جرار، ومن فوقهم من الجزوليين قبيلة بعد قبيلة من الأعرابيين بالصحراء، كلهم من بني باعمران إلى وادي نون إلى الساقية الحمراء لطرفاية إلى منتهى العمارة من إيالتنا لتلكم البلاد نائبها»[1].

وقد ساهمت هذه العلاقة الواضحة مع الحكم المركزي على تدعيم جيوب المقاومة المسلحة في الجنوب، وأشعرت العدو بقوة الوطنيين، وكانت سببا في تكبيده خسائر لم يكن يظنها وهو يعرف الإمكانيات البسيطة التي يعملون بها. وقد ازدادت خطورة الوضع عندما بدأت القبائل تتوصل بالسلاح والمؤونة والعتاد. ويمكن في هذا الاتجاه أن نسرد الكثير من الوقائع ونعرض لمجموعة من الرسائل المتبادلة بين الشيخ والسلاطين العلويين.

الاتجاه الثاني: علاقته بالقبائل الصحراوية، بحسه السياسي وتجربته؛ كان الشيخ ماء العينين متأكدا أن مواجهة التحدي الاستعماري لا يمكن أن يتم بدون توحيد القبائل ولَمِّ شملها، خصوصا وأن المنطقة عرفت صراعات قبلية عنيفة، وقد تعرض للكثير منها بتفصيل صاحب الوسيط.

فكان من الطبيعي أن يستغل المستعمر هذه الخلافات -إيمانا منه بالحكمة الاستعمارية التقليدية: فرّق تسد- في تثبيت كيانه داخل المناطق الجنوبية، وقد كان بناء السمارة تتويجا لهذا الهاجس الوحدوي، فمثلت رباطا جمعويا-وحدويا كبيرا قدرت ساكنته بعشرة آلاف شخص، وبتنوعها لا يفرق فيها الشيخ بين ولده والمحسوب عليه

(1) نور الدين بلحداد: "التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية": 1860-1934، دبلوم الدراسات العليا لسنة 1994، ملحق الوثائق، ص: 268، نسخة مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط.

كما يؤكد صاحب الوسيط، كما اعتمد الشيخ استراتيجية التشاور والتواصل الدائم بالقبائل الفاعلة والقوية في الصحراء لمواجهة المستعمر. وقد وثق الباحث الأستاذ نور الدين بلحداد الكثير من الرسائل المتبادلة بين الشيخ ومختلف هذه القبائل يحثهم فيها على الجهاد تارة، ويشاورهم، أو يؤاخذهم إذا تجاوزوا تارة أخرى.

وقد أدرك المستعمر خطر ما يحدث على سياسته التوسعية، ويمكن أن نستشعر هذا الخوف في هذه الرسالة التي بعثها "اليوتنان كولونيل مونتاني كاب ذي بوكس" إلى حكومته: «... لقد أصبح الشيخ ماء العينين بعد حصوله من السلطان على كميات هامة من السلاح، يحرض القبائل على مهاجمة مراكزنا، ولم يكتف بذلك، بل بعث عدة رسائل إلى شيوخ القبائل الذين استسلموا لسلطاتنا، يدعوهم فيها إلى قطع علاقاتهم معنا والانضمام إلى باقي القبائل التي استجابت لدعوته»[1].

والحقيقة أن ما قام به الشيخ من مجهودات لتوحيد كلمة القبائل لا يمكن تصور صعوبته إلا إذا وضعناه في إطاره، أي المناخ الصعب الذي تحكمه العصبية، واختلاف *المصالح، صعوبة إرضاء جميع الأطراف. وهذا هو الرهان الصعب الذي خاضه، مؤكدا* على نهجه الوحدوي.

ويمكن أن نختم هذه النقطة بخلاصة للأستاذ محمد الظريف يشير فيها إلى أن الزاوية المعينية لم تعتمد على عصبية قبلية معينة، أو سند احتماعي خاص، بل اتخذت من كل القبائل سندا لها، دون مراعاة لأي اعتبار سلالي أو عرقي[2]. وقد أورد الشيخ النعمة في الفواكه بعض الأحداث التي صادفت الشيخ والكيفية التي تعامل بها، ووقْعُها في نفوس شيوخ القبائل[3].

خلاصة هذه الوقفة المتواضعة أن الشيخ سلكا منهجا سياسيا يعتمد التوازن ويهدف إلى الوحدة.

---

(1) "الساقية الحمراء ووادي الذهب"، محمد الغربي، ص: 195.

(2) "الحياة الأدبية في الزاوية المعينية"، محمد الظريف: 58/1.

(3) "الفواكه في كل حين من أفواه شيخنا الشيخ ماء العينين"، الشيخ محمد الغيث النعمة، الورقة: 40.

الفكري الديني–الصوفي

وجه آخر لهذا الهاجس أو المنهج الوحدوي الذي اختطه الشيخ ماء العينين، وهو جانب بالغ الأهمية في النسيج الاجتماعي–السياسي المغربي، ومظهر من المظاهر التي التصقت بشدة بالأحداث والتطورات التي مر منها المغرب. فقد عرف عدة زوايا وطرق ساهم الكثير منها في الإصلاح وإعلاء كلمة الدين. إلا أنها وفي أحيان أخرى كانت تؤدي إلى إذكاء الفتن والاختلاف لجهل الكثيرين باتحاد طرق أهل الله كما يقول الشيخ في شرح نظمه: "إني مخاو لجميع الطرق" الذي حققه وأخرجه الأستاذ محمد الظريف، مقدما بذلك عملا جليلا للفكر الصوفي المغربي، بتقديمه لهذا النظم الذي يوثق لتجربة من أهم التجارب الصوفية المغربية.

ورغم أن الشيخ ماء العينين، وكما نفهم من هذا التقديم، فطن إلى الكثير من الالتباس في فهم الناس لروح التصوف والطرق الإلهية، إلا أن معالجته لهذا الأمر تمت بروية، ليضمن رد الفعل عند الناس. فالقول بوحدة الطرق قول صادق في مجتمع بني على تعددها، وهذا ما عبر عنه بقوله: «ولبثت برهة من الزمان، وأنا متعام عن هذا ومتغافل، لأني كثيرا ما كنت أسمع شيخنا رضي الله عنه وأرضاه يقول: التغافل من شأن التعاقل» [(1)].

وقد كان سكوت الشيخ حكمة جعلت الناس يبادرون بالسؤال عندما لاحظوا أن الشيخ لا يفرق بين الطرق فيما يعطيه من أوراد، ولا يمنع أحدا عن أخذ ورد طريقة معينة، يقول لأحد مواردده في مراكش: «فوالله ما كنت أظن إلا أن طرق أهل الله شيء واحد، لأن شيخي –رضي الله عنه وأرضاه– ما ذكر لي تفرقة بينهم حتى خرجت من عنده» [(2)]. وبعد أن ألح عليه الناس في طلب مستند لهم في هذا الأمر، كتب رضي الله عنه نظمه المسمى: "إني مخاو لجميع الطرق"، يقول:

إنـــي مخـــاو لجميـــع الطـــرقِ   أخـــوّة الإيمـــان عنـــد المتقـــي

(1) "مفيد الراوي على أني مخاوي"، الشيخ ماء العينين، تحقيق: الدكتور محمد الظريف، ص: 42، الطبعة الأولى، 1999، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

(2) المرجع نفسه، ص: 43.

ولا أفــــــــرّق للأوليـــــــــاء كمــــــن يفـــــرّق للأنبيـــــاءِ
قــال تعــالى: المؤمنـــون إخـــوةٌ وعـــدمُ التفريـــق فيـــه أســـوةٌ[1]

وبقوله هذا: "إني مخاو لجميع الطرق" يضع الشيخ لبنة من أهم لبنات بنائه الوحدوي الذي أؤكد دائما أن وضعه في إطاره العام (تفكك-تمزق-استعمار) هو الذي يكشف صعوبة هذا الهدف الذي كان الشيخ يطمح إليه في شرحه لهذه المنظومة، يؤكد أنه لا يستوعب كيف يمكن أن نفرق بين الطرق التي تنتسب إلى الله مادام منطلقها واحد، وغايتها واحدة: «الفناء في مشاهدة الله، والنظر إليه عن كل ما سواه»[2].

-وانظـــر لمبـــدإ طُـــرُقِ المنتـــهى تعلـــم لمـــا قلـــتُ بمـــا قـــد يشـــتهى
-وذاك أنَّ كلـــهم لـــك يقـــولْ عليـــك باتبـــاع فعـــل ذا الرســـولْ
-ومســـتحيل أن يقـــولَ اتَّبَـــعَا منـــه لـــذا وذا لا تَتْبَعـــا[3]

نلاحظ أن الشيخ اعتمد جدالا بسيطا في ظاهره، ولكنه ناجع على اعتبار أنه يعتمد على فكرة أن أهل الله هم استمرار للأنبياء وورثتهم، ولئن كانت النبوة المحمدية خاتمة النبوات، فإنها خاتمة الظاهر، ذلك أن لها ما يتممها في الباطن، وهو الإمامة أو الولاية[4]، فلذلك فمن يفرق بين الأولياء كمن يفرق بين الأنبياء، كما أن التجربة الصوفية في شكلها الأعمق والأكمل هي بحث عن الحقيقة، ولذلك يمكن أن تتعدد الطرق. ولكن في اتجاه الحقيقة الواحدة، «فالإمامة هي الحضور الإلهي المستمر الذي يحول دون تشيؤ الحقيقة في مؤسسات وتقاليد وتشريفات، وتحولها بالتالي إلى حرف ميت»[5].

سأقتصر على ما قدمت لأفسح المجال للأستاذة خديجة كماسين التي خصصت

(1) "مفيد الراوي على أني مخاوي"، ص: 44.
(2) "نعت البدايات وتوصيف النهايات"، الشيخ ماء العينين، ص: 11، دار الفكر، بيروت-لبنان.
(3) "مفيد الراوي"، م. س.، ص: 54.
(4) "الثابت والمتحول"، أدونيس، ص: 91.
(5) المرجع نفسه، ص: 91.

عرضها لوحدة الطرق في فكر الشيخ ماء العينين، ولكن ما أريد أن أخلص إليه مما سبق، هو أن التاريخ حين يقدم لنا الشيخ ماء العينين كشخصية غير عادية متنوعة الاهتمامات، وشاملة، شخصية العالم والصوفي والمجاهد والمصلح الاجتماعي والمفكر السياسي... إنما يقدم لنا ملامح متنوعة لوجه واحد يطمح لحقيقة واحدة، لعالم مثالي تتوحد فيه الرؤى، وتنصهر داخله الاختلافات. لذلك فوحدة الطرق هي وحدة القبائل، ووحدة الخليفة والرعية، والشيخ والمريد، ويمكن اعتبار مدينة السمارة التي تعايش بين جنباتها الضعيف والقوي، والفقير والغني، والقريب والبعيد.. غنية لما طمحت إليه هذه الرؤيا.

الجمع بين الطرق في فكر الشيخ ماء العينين

ذ. خديجة كـمايسين
باحثة–تيزنيت

ولد الشيخ ماء العينين بالحوض سنة 1246هـ، فأخذ عن والده الشيخ محمد فاضل بن مامين (المتوفى 1286هـ/1869م) (1) جميع العلوم العقلية والنقلية. ولما استكملها تاقت نفسه إلى الدخول في الطريقة الصوفية، وبما أن والده هو مؤسس الطريقة الفاضلية، فقد أسلم له الابن نفسه، فاشتغل بتهذيب النفس ومجاهدتها من صيام وسهر، وعزلة(2). ومما قوى همته على ذلك –مع علوها في صغر سنه– هو قول والدته له: «يا بني، إن الأولياء ليس لهم أولاد ولا أقارب إلا في الله، فأسلم نفسك لأبيك ظاهرا وباطنا، وكن عند أمره ونهيه، واجعله محل سرك ونجواك، ولا يكن حائل بينك وبينه» (3). فلازم والده ملازمة المريد لشيخه، لا ملازمة الولد لأبيه، ولا التلميذ لأستاذه.

وما كاد الفتى يبلغ الثامنة والعشرين من عمره حتى أتم تكوينه العلمي والروحي، الشيء الذي دفع بوالده إلى فك الحجر عنه على طريق الصوفية، فأرسله

(1) الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، محمد الظريف، رسالة مرقونة، كلية الآداب، الرباط، ص: 78.

(2) سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان، مكروفيلم بخزانة الوثائق بالرباط، يحمل رقم: 76، ماء العينين بن العتيق، ص: 9أ. صاحب الجأش الربيط، الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، تأليف ماء العينين ماء العينين، دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء، ص: 17.

(3) سحر البيان: 9.

قائلا له: يا بني، لم يبق لك علي حق، فاذهب إلى بلاد يحييها الله تعالى بك وينفعها على يدك[1].

ففارق والده وهو شيخه الوحيد في العلوم وفي التربية يوم الخميس 12 جمادى الأولى سنة 1274هـ، قاصدا الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وأثناء هذه الرحلة زار العديد من المدن المغربية الكبرى، فحز في نفسه ما لاحظه من تنافر واختلاف بين الطرق الصوفية السنية، هذا لكونه أثناء تلقيه للطريقة الفاضلية عن والده لم يكن يرى عيبا في تعدد الأدعية وتنوع الأوراد والعبادات التي تقوم عليها الطرق ما دام مصدرها الكتاب والسنة، بل وكان يعتقد أن هذه الطرق واحدة، ولا غرابة في هذا ما دام هذا المعتقد من بين المبادئ الأساسية التي تنبني عليها الطريقة الفاضلية، ولهذا لم يدرك خلاف ذلك إلا بعد مفارقته لشيخه، وفي هذا يقول: «فوالله ما كنت أظن إلا أن طرق أهل الله شيء واحد... حتى خرجت من عنده، وأتيت البلاد غير بلده، إذا بالناس كأنها -أعوذ بالله- أهل ملل متفرقة، وأهل طرق مختلفة»[2].

وشعورا منه بالخطر الذي يجره هذا الخلاف الموجود بين الطرق الصوفية السنية، لأن كل واحدة منها يدعي أصحابها أنها هي الطريق الموصل إلى الله جل جلاله، أراد أن يوضح لهم موقفه الديني من الطرق بصفة عامة، وأن الطريق إلى الله تجمع كل المسلمين وتوحدهم، وتنبذ تفرقتهم، وأنها ليست في سلوك فلان وأصحابه، أو ذاك وأتباعه، وإنما هي بالورع والصدق والتصديق والزهد في الدنيا وترك الاشتغال بها حتى لا تصده عن عبادة الله[3].

فاستغل الشيخ ماء العينين جميع وسائل الإقناع في حث مشايخ الطرق على نبذ الخلافات التي أنهكت جسم المجتمع الإسلامي آنذاك، وأثناء هذه المحاولات ما ناصب

(1) صاحب الجأش الربيط، ص: 17.

(2) مفيد الراوي على أني مخاوي، تأليف الشيخ ماء العينين، تحقيق: محمد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط: 43-44.

(3) الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني، شبيهنا حمداتي ماء العينين، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي: 98-99.

أحدهم عداء، ولا وجه إليه لوما، بل حاول إرجاع كثير من تصرفاتهم للكتاب والسنة ليبين لهم وبنفس تلك النصوص أيضا أن الاختلاف لا يرضي الله ولا رسوله، فإذا كان هدف هذه الطرق هو تطبيق شرع الله على عباده، فأول واجبات ذلك هو توحيد جماعة المسلمين في كل مكان، وأن يتركوا عنهم التعصب لشيخ دون شيخ، ثم إذا كانت الطرق ستجر إلى خلاف شريعة الله، وتفريق صف المسلمين، فحربها عندئذ آكد من اتباعها[1].

أما عن المنهج الذي سلكه الشيخ ماء العينين في معالجة هذا المشكل -أي مشكل الخلافات بين الطرق- فقد استطاع أن يصل إليه بفضل التربية الروحية والعلمية التي تلقاها عن والده مؤسس الطريقة الفاضلية، والتي انخرط فيها منذ صباه، والتي أثرت في تكوينه الفكري والروحي تأثيرا كبيرا جعلت منه مصلحا ذو مميزات خاصة، ولهذا فمبادئه الوحدوية مستوحاة من هذه الطريقة، وهذه المبادئ يمكن إجمالها فيما يلي:

1-عدم جواز التفريق بين الطرق الصوفية السنية

لم يكن شيخ هذه الطريقة -أي محمد فاضل بن مامين- يفرق بين الطرق الصوفية السنية، فلم يُنْسَبْ إلى طائفته أي تعصب مذهبي، أو تحجر طرقي، ولم يشع عنها أي عداء لغيرها من الطوائف المزامنة لها، بل تميزت بالتسامح والمرونة الصوفية، فكان شيوخها يعترفون بفضل جميع الطرق، ويحترمون شيوخها وآدابها وطقوسها، ويعتمدونها في تربية أتباعهم وتكوين مريديهم[2].

ولهذا تربى الشيخ ماء العينين في حجر والده تربية صوفية، وهو يعتقد أن الطرق الصوفية واحدة، ولا تناقض ولا اختلاف بينها، وفي هذا يقول: «فوالله ما كنت أظن إلا أن طرق أهل الله شيء واحد، لأن شيخي -رضي الله عنه وأرضاه- ما ذكر لي تفرقة بينهم، بل قصارى خبره في ذلك أن يقول هذا الورد من الأوراد التي كان فلان ملازما لها، من غير أن يقول لي: لا ورد لي غيره، أو لم يعط غيره، أو من أخذه لا

---

(1) الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني: 82.

(2) الحركة الصوفية: 118.

يأخذ غيره، فيصير عندي ذلك كأنه مدح لذلك الورد أو لذلك الولي لا غير[1].

2-إعطاء أوراد جميع الطرق السنية

إذا كانت الفاضلية تجمع بين طرق الأولياء، فإن شيوخها كانوا يمنحون مريديهم كل ما يطلبون من أوراد، ويرغبون فيه من أذكار، دون أن يلزموهم باتباع طريقة محددة، أو يفرضوا عليهم التقوقع داخل طائفة معينة، وهم ينطلقون في ذلك من تصورات تربوية واضحة، ووعي صوفي شامل يقوم على الإلمام بأصول جميع الطرق، ومعرفة أسانيدها وآدابها، وأورادها وشيوخها وكيفية التربية بواسطتها، وغير ذلك مما يساعدهم في إصلاح المجتمع وتهذيب أفراده كيفما كانت ميولهم الصوفية وتوجهاتهم الطرقية[2].

ولهذا نجد الشيخ ماء العينين يضع من بين شروط الولي الكامل قبل أن يتولى إرشاد الخلق، أن يكون جامعا بين الحقيقة والشريعة، ثم لا يصح له أن يكون مرشدا إلا بعد «أن يعلم الطرق الموصلة إلى الله كلها، ويكون عارفا بأصولها وقواعدها المبنية عليها الفروع، ليكون كلما جاءه فرع عرف منشأه من الأصل، ورده إليه ليعلم ما يصلح بصاحبه وما يصلحه، وإلا فهو ناقص... إذ الكامل حقيقة هو النائب عنه صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يكون إلا إذا كان نائبا عنه في جميع أحوال الأمة وأقوالها وأفعالها بعلمه ما عند أوليائها وعلمائها واقتدائه بمن يُقتدى به من رجالها»[3].

ثم يقرر الشيخ ماء العينين بعد ذلك أن على الولي أن يقتدي بجميع الأولياء فيما كانوا فيه من الأوصاف والأذكار وأنواع العبادات حتى يصير نائبا عنهم جميعا. فمن وحده يستغني به عن غيره، ولن يتأتى له ذلك حتى تكون عنده أورادهم جميعا «أما الاقتصار على ورد واحد مثلا، أو خاصية واحدة لا تكون أبدا»[4].

ونلمس تطبيق هذا المبدأ -أي إعطاءهم لأوراد طرق مختلفة لمريدهم في قول

---

(1) مفيد الراوي: 43.
(2) الحركة الصوفية: 117.
(3) مفيد الراوي: 66.
(4) نفسه: 67.

الشيخ ماء العينين: «إني لما تفضل الله علي بأوراد الأولياء المروية عن خير الأنبياء، عن شيخي أبي قرة عين الأصفياء، وأعطاني الإذن في إعطائها لمن شاءها من أوليائها، صار من لم تكن له خبرة باتحاد طرق أهل الله يتعجب من ذلك ويقول: سبحان الله، فلان يعطي الطريقة الفلانية ويعطي الطريقة الفلانية، أهذا يمكن؟ مستفهما. وبعضهم يقول: هذا لا يمكن، منكرا»[1].

والأوراد التي يلقنونها هي الأوراد القادرية والناصرية والشاذلية والتجانية، ثم إن كل الطرق ينتهي سندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، و لم يثبت عنه رضي الله عنه أن قال: علينا أن نذكر بذكر معين ونتحاشى غيره، أو قال: خذ عن فلان ولا تأخذ عن فلان[2]. وهذا يبين أن لا تحجير شرعي على أحد في أن يأخذ أي ذكر شاء من أي شخص شاء، والتحجير الذي يمارسه بعض شيوخ التصوف في منعهم أخذ ذكر على ذكر آخر، أو إعطاء شخص لأوراد مختلفة لا أساس له من الشرع، لأنه لو أعطى الله لشخص قوة على استعمال جميع الأوراد، فلا دليل شرعي لأحد على منعه منها[3].

فمادام الأمر هكذا، فالشيخ ماء العينين يرى أن الجمع بين هذه الطرق، أو لنقل توحيدها، واجب لأسباب عدة من بينها:

1)أن هدف هذه الطرق وكذا أصلها واحد

يرى الشيخ ماء العينين أن الطرق الصوفية واحدة، وليس فيها طريقة أولى من طريقة، أو شيخ أفضل من شيخ، أو ذكر أفضل من ذكر، مادام منطلقها واحد، وهدفها واحد، وفي هذا يقول[4]:

وانظر لمبدا طُرُقِ والمنتهى   تعلمْ لِما قلت بما قد يُشْتهى

وقال أيضا: «الطرق وإن تعددت واختلفت مرجعها كلها لأمر واحد: هو الفناء

---

(1) مفيد الراوي، ص: 42.

(2) الشيخ ماء العينين وجهاده، ص: 106، مفيد الراوي، ص: 60-63.

(3) مفيد الراوي، ص: 60-63.

(4) نفسه، ص: 75.

في مشاهدة الله، والنظر إليه عن كل ما سواه»[1]. وفي هذا يقول صاحب الضياء المستبين في معرض حديثه عن الصوفية: «ولهذه الطائفة طرق مختلفة كلها موصلة إلى الله تعالى، وإنما الاتحاد بينهم في المقصد والمبدإ والمنتهى، فالقصد الوصلة إلى الله تعالى لا غير، والمبدأ التوجه إليه بالعزم التام والهمة النافذة، والصدق في الطلب، بأن يكون مقصده أعزُّ عليه من الدنيا والآخرة وأهليهما، يبيد في جنب مقصده نفسه وماله وأهله. وأما المنتهى فهو الفناء في شهود ذات الله تعالى عن شهود غيرها. وبعبارة: هو الاطمئنان المعبر عنه بترك النفس لطبعها الشهواني، ونسيانها لحكم أصلها، مع عمارة الباطن بالشهود الإلهي»[2].

2-اختلاف النفوس في طبائعها ووسائل تربيتها

إن ما يبدو من خلاف بين الطرق فمرجعه إلى اجتهاد المربين، وطريقة كل واحد منهم في التربية، واختلاف نفوس المريدين وتعدد مستوياتهم ومراتبهم في السير والسلوك[3]. وقد بين الشيخ ماء العينين ذلك في قوله: «الأوراد منها ما هو كثير ومنها ما هو قليل، ومنها ما هو متوسط، بين الكثرة والقلة، إلا أنه ربما كان كثيرا في حق شخص، قليلا في حق آخر، ومنها ما هو في وقت واحد. ومنها ما هو في وقتين، ومنها ما هو في الأوقات كلها، والأشياخ رضي الله عنهم كل واحد منهم عمل على ما اقتضاه رأيه وما سنح له مما يليق بمن تبعه، وربما أعطى الواحد منهم للمريد أولا قليلا من الأوراد، ثم بعد ذلك يصير يزيده شيئا فشيئا حتى يعطيه أكثر كثير بحسب قوته، و لم يبلغنا أن أحدا منهم قال لمريده: خذ هذا الذكر، أو هذا العدد، ولا تزد عليه غيره من العبادات، بل كانوا يأمرونهم بكثرة ذكر الله وكثرة نوافل الخير»[4].

---

(1) نعت البدايات وتوصيف النهايات، الشيخ ماء العينين، دار الكتب العلمية، لبنان، خرج أحاديثه وضبطه وصححه: خليل المنصوري، ص: 12.

(2) الضياء المستبين بكرامات الشيخ محمد فاضل بن مامين، الشيخ محمد فاضل بن الحبيب اليعقوب، مخطوط توجد نسخة منه بقسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط، يحمل رقم: 1067، ص: 125-126.

(3) مفيد الراوي، مقدمة المحقق، ص: 13-14.

(4) نفسه، ص: 61-62.

3-اتفاق شيوخ الطرق على الطاعات التي أمر بها صلى الله عليه وسلم

قال الشيخ ماء العينين:

وهـو عليـه اللـهُ صلـى أمـرا | بـالذكر والتُّقى وإخلاصٍ جرى

يشير الشيخ رحمه الله هنا إلى كـون النبي صلى الله عليه وسلم في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة أمر بذكر الله والتقوى والإخلاص في جميع الطاعات، إلا أنه عليه السلام لم يأمر بأن يكون الذكر بطريقة معينة، أو اتباع شخص معين في طريقته، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن هذه الأمور الثلاثة -الذكر، الإخلاص، التقوى- أمور تتفق عليها جميع الطرق، فمادام الأمر كذلك، فهذا دليل على أن الطرق واحدة، ولهذا أضاف الشيخ قائلا: «فبان لك من هذا أن الطرق في الحقيقة ليست إلا طريقا واحدة لما بان لك من اتحادهما في هذه الأشياء، لأنك لا تجد شيئا منها خارجا عنها، وإذًا فهي شيء واحد، ولا مانع لأحد من أخذ شيء منها من أحد»[1].

4-كمال الولاية في اتباع الشريعة الإسلامية

جميع الأولياء بدون استثناء يأمرون مريديهم باتباع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعاله وتقريراته، وفي هذا يقول ماء العينين بن العتيق: «واعلم أن طرق الأولياء كلها لا تخرج عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما خرج عنها فهو ضلالة وزندقة»[2]. وهذا يبين -كما يقول الشيخ ماء العينين- أن طريقهم طريق واحدة في المبدإ والمنتهى، ومن قال إنهم يقولون غير ذلك، فقد افترى عليهم الكذب، ونسبهم لغير ما تكون به الولاية، وهو الطاعة، والطاعة لا تكون إلا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، لأن الولي من والى الطاعات، و لم يخللها بمعصية»[3].

فإذا ثبت أن طريق الأولياء لا تخرج عن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه من المستحيل وجود ولي يحاول تجزيء أقوال النبي صلى الله عليه وسلم أو أفعاله أو تقريراته، فيأمر مريديه باتباع البعض منها، وينهاهم عن اتباع البعض الآخر، لأن حال

(1) مفيد الراوي: 56.

(2) سحر البيان: 86 ب.

(3) مفيد الراوي: 55.

من يفعل ذلك أشد ممن يفرق بين الرسل، وفي هذا قال الشيخ ماء العينين[1]:

ومستحيل أن يقول اتبعا … مِنه لذا وذا له لا تتبعا

وذا الذي يقول ذا أشدُّ مِن … تفرقة الرسُل فافهم يا فَطِنْ

لأنَّ ذاك بين قومٍ فرَّقا … ورام ذا تفْريقِ شخصٍ حقَّقَا

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن الشيخ ماء العينين حاول جهده الجمع بين الطرق بعد أن بين أن طرق الأولياء كلها وإن تعددت إنما هي في الأصل طريقة واحدة، وهي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فطريقته هي كما يقول صاحب سحر البيان: «اعلم أن طريق شيخنا رضي الله عنه في التصوف هي طريقة أبيه الشيخ محمد فاضل بن مامين، وتلك هي طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ورد بها كتاب الله»[2].

* * *

المصادر والمراجع

-الضياء المستبين بكرامات الشيخ محمد فاضل بن مامين، الشيخ محمد فاضل بن الحبيب اليعقوبي، مخطوط توجد نسخة منه بقسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط يحمل رقم: 1067د.

-سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان، ماء العينين بن العتيق، ميكروفيلم بخزانة الوثائق، الرباط، رقمه: 76.

-نعت البدايات وتوصيف النهايات، الشيخ ماء العينين، دار الكتب العلمية، لبنان، خرج أحاديثه وضبطه وصححه: خليل المنصوري.

-مفيد الراوي على أني مخاوي، الشيخ ماء العينين، تحقيق: محمد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

---

(1) مفيد الراوي: 55.

(2) سحر البيان: 84 أ.

-الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني، شبيهنا حمداتي ماء العينين، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي.

-الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، محمد الظريف، رسالة مرقونة، كلية الآداب، الرباط.

-صاحب الجأش الربيط، الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، تأليف: ماء العينين ماء العينين، دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء.

الشيخ ماء العينين[1]
وإسهامه في علم الأصول

ذ. إحيا الطالبي
المحكمة التجارية–أكـادير

عناصر العرض

مقدمة.

المبحث الأول: المدرسة الأصولية بالصحراء، الخصائص و المميزات.

المبحث الثاني: دراسة لبعض آثار الشيخ ماء العينين الأصولية.

المبحث الثالث: منهجه العام في الاستنباط.

المبحث الرابع: اجتهادات الشيخ ماء العينين.

مقدمة توطئة تاريخية

دلتنا عمليات الاستقراء لكتب التراجم والأعلام التي تحدثت عن القرون المتقدمة بالصحراء أن علم الأصول لم يكن معروفا في الصحراء إلا في وقت متأخر.

---

(1) ترجمته في:
- –معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، محمد ولد بو زيد، ص: 61 وما بعدها.
- –بلاد شنقيط: المنارة والرباط، الخليل النحوي، ص: 517.
- –شجرة النور الزكية، مخلوف، ص: 433.
- –المعسول: 83/4 وما بعدها.
- –الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي: 163/3.
- –أصول الفقه، تاريخه ورجاله، ص: 554.

وهكذا لم يتناول صاحب "نيل الابتهاج" أحمد بابا التنبوكتي المتوفى سنة 1032هـ إلا قلة من علماء الأصول بالمنطقة.

فحين تحدث عن جده أحمد بن محمد أقيت لم يذكر أنه كان من أهل الأصول مع أنه أخذ العلم عن جده وحج سنة 840هـ ولقي السيوطي والأزهري، فهل يعني ذلك أن دراسة الأصول لم تكن معروفة حينها؟

ويتابع البرتلي الولاتي في كتابه الرائد "فتح الشكور في ذكر علماء التكرور" الذي ألفه سنة 1215هـ أن الشيخ أحمد بابا ذكر جملة من علماء الصحراء ممن كانت لهم يد في العلوم العقلية، إلا أن الذين وصفهم بما يدل على اهتمامهم بأصول الفقه كانوا قلة لا يتجاوزون العشرين من بين حوالي 200 مترجم حوالي 10% .

وابتداء من القرن الثاني عشر الهجري سيلاحظ انتشار كبير لعلم الأصول في أنحاء البلاد الصحراوية مع ارتباطه بعلم أصول الدين أو العقائد[1].

على أن أهم المصادر التي أمدتنا بمساهمات الصحراويين في مجال علم الأصول هي موسوعة المختار ولد حامد المعروفة بـ "حياة موريتانيا".

فهذا المؤرخ الذي لقبه بعضهم بابن خلدون الثاني أورد قائمة بأسماء بعض المؤلفات الأصولية وإن كان لم يتعرض لتاريخها أو مصادرها، لكنه أورد لمحات هامة عن تطور المدارس بالمنطقة وفروعها في البلاد الصحراوية بشكل عام كمدرسة شنقيط، ووادان، وتنبكتو، وولاتة وغيرها وقد اضطلعت هذه المدارس بدور رائد في نشر الدراسات الأصولية بالصحراء.

وفي كتاب "بلاد شنقيط: المنارة والرباط" لخليل النحوي ذيل للمؤلفين الأصوليين بشنقيط أوصلهم إلى ستين مؤلفا.

والواقع أن العلماء الصحراويين المتأخرين في القرن الثالث عشر الهجري والرابع عشر الهجري بالرغم من غلبة الفروع الفقهية على أفكارهم وأعمالهم العلمية ألفوا

---

(1) مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية، محمد محفوظ بن أحمد، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م، ص: 103 وما بعدها.

كثيرا من المصنفات الأصولية من منظومات وشروح، كما أن نوازلهم وفتاويهم وأبحاثهم العلمية تحتوي على مباحث أصولية مهمة ومفيدة.

المبحث الأول: المدرسة الأصولية بالصحراء: الخصائص والمميزات

1- الرحلة في طلب علم الأصول

عززت الرحلات التي كان يقوم بها علماء المغرب إلى المشرق من تثبيت دعائم النهضة الأصولية بهذه الربوع، وتمكنوا خلالها من الالتقاء بمشايخ المشرق.

وتذكر المصادر أن علماء الصحراء مولعون بالرحلة لطلب علم الأصول وهكذا رحل الفقيه الأصولي سيدي عبد الله الحاج ابراهيم العلوي صاحب "مراقي السعود" إلى فاس ولقي الشيخ محمد بناني صاحب الحاشية على المحلى على جمع الجوامع بعد عودته من الحج، فأخذ عنه بعض العلوم الأصولية(1).

كما أن سيدي أحمد بن حبت الغلاوي ت 1371هـ رحل إلى الساقية الحمراء فأخذ عن الشيخ ماء العينين سنة 1326هـ وهو الذي شرح كتابه "شمس الاتفاق" في الفقه والأصول(2).

وتضمنت كتب الرحلات مباحث وفوائد أصولية ذات قيمة علمية ثمينة كالرحلة الحجازية لمحمد يحيى الولاتي، والرحلة إلى بيت الله الحرام لمحمد الأمين الشنقيطي.

2- المناقشة أو المذاكرة الأصولية

تبين لي بعد استقراء ما كتب في هذا الموضوع أن ثمة ثلاثة مستويات للمذاكرة الأصولية بالصحراء على النحو الآتي:

- المستوى الأول: توجيه الصحراويين الألغاز والأسئلة اللغوية والأصولية إلى غيرهم من علماء المغرب في فاس وسوس وغيرها كما جاء في جواب الفقيه محمد

---

(1) معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، محمد ولد بوزيد، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 1996، ص: 35.

(2) المصدر نفسه.

البدالي على لغز[1] ابن رازكـة الذي قال أصلا إنه موجه إلى علماء فاس[2]:

سؤال غريب دون شنقيط أرضه ... من البعد تيه يتصلن بتيه

أسائلكم ما سر إظهار ربنا ... تبارك مجدا "من وعاء أخيه"

فأجابه اليدالي بقصيدة منها قوله:

فقلت وبالله الصواب مجاوبا ... له بقياس في الأصول وجيه

ومن المعلوم أن ابن رازكـة هذا كان على صلة بسلطان المغرب، وقد قرأ علم الأصول هناك على أبي حفص عمر الفاسي ت 1188هـ والبناني والتودي[3].

وفي الرحلة الحجازية للشيخ الولاتي ت 1330هـ مناقشات بينه وبين علماء المغرب حول قضايا أصولية[4].

- المستوى الثاني: مذاكرات ومناقشات أصولية بين علماء شنقيط أنفسهم ونذكر من هؤلاء الشيخ محمد المامي الذي غلب عليه الاحتجاج بالفن الأصولي بأسلوب جدلي في كل كتبه وكتاباته ورسائله وقصائده[5].

وفي الرحلة لمحمد الأمين الشنقيطي مناقشة دارت بينه وبين الشيخ المحفوظ ابن بية حول مسألة "هل سيجوز النسخ بالإجماع" والحكمة من النسخ هل هي التخفيف أم لا؟ وغيرهما[6].

---

(1) اللغز حول سبب إظهار "أخيه" بدل الضمير في قوله تعالى: ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ بعد أن قال تعالى: ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾، سورة يوسف، الآية: 76. راجع: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، نسخة محققة مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، تحقيق: محمد بن ماء العينين، ص: 8.

(2) المصدر نفسه.

(3) مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية، محمد محفوظ، ص: 124-125.

(4) الرحلة الحجازية، محمد يحيى الولاتي، تخريج: د. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص: 104-201

(5) الفكر الأصولي لدى علماء شنقيط، أبو المعالي، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص: 230-231.

(6) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، محمد الأمين الشنقيطي، دار ابن تيمية للطباعة والنشر بالقاهرة، دون ذكر تاريخ الطبع، ص: 50-54.

- المستوى الثالث: مناقشة أصولي شنقيط للظاهرية، وفي الرحلة المذكورة رد محمد الأمين الشنقيطي على الظاهرية حول مبدإ التعارض والترجيح عند الأصوليين وبعض تطبيقاته على النصوص القرآنية[1].

3- استثمار القواعد الأصولية في كتب النوازل والمؤلفات الفقهية:

إن طبيعة الفقه النوازلي في مراحله المتقدمة بالصحراء يغلب عليها الطابع الفروعي المحض، و لم يكن استعمال القواعد الأصولية في المستوى المطلوب إما لكون علم الأصول لم ينتشر كثيرا بالصحراء مما حال دون استعماله في الاستنباط الفقهي وفي تكييف العمليات النوازلية وإما لكونه لم ينزل بعد إلى الساحة التطبيقية.

وعلى كل فالمصادر دلتنا على أن هناك علماء وفقهاء يستندون كثيرا إلى القواعد الأصولية والفقهية في نوازلهم ويحتكمون إليها في الاستدلال والتأصيل، ومن هؤلاء الفقيه عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن الشيخ الولاتي ت 1172هـ الذي كان عارفا بأصول الفقه ويميل في فتواه إلى القواعد قل أن ترى له في الفتوى نقلا من الفروع[2].

أما سيدي عبد الله بن إبراهيم العلوي فإنه كان يقتصر في الفتوى على حمل الحاجة ولا يطلبها وكثيرا ما يبنيها على الأصول[3].

وذكر صاحب "المعسول" أن الشيخ سيديا الصحراوي (ت. نحو 1373هـ) أخذ عن الشيخ ماء العينين علوما منها علم الأصول ثم هاجر معه إلى تيزنيت، فلم يزد يأخذ إلى أن توفي الشيخ في تيزنيت سنة 1328هـ[4].

التعريف بالشيخ ماء العينين

ومن أهم الملامح التي ميزت حياة الشيخ ماء العينين:

---

(1) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص: 50-54..

(2) فتح الشكور في أعيان علماء التكرور، البرتلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1981، ص: 167.

(3) المصدر نفسه، ص: 173-174.

(4) المعسول: 26/3.

1- انتماؤه إلى أسرة تسلسل فيها العلم والصلاح أبا عن جد منذ أجيال متعددة(1).

2- أدرك من المشاركة في كافة العلوم المتداولة في عصره إدراكا تاما تدل عليه تآليفه المتعددة في الحديث والتفسير واللغة العربية والأصول والبيان والتصوف وغيرها.

3- إنه شيخ من شيوخ الصوفية وله في التصوف يد طولى علما وعملا مما مكنه من استقطاب عدد كبير من الشيوخ والعلماء في كل من سوس والصحراء.

4- اتصالاته ووفاداته على ملوك المغرب مما عزز مكانته الدينية والسياسية والعلمية.

5- طول سنه وتعميره عقودا كثيرة من الزمن حتى اتصل بخمس ملوك من الدولة العلوية الشريفة.

6- رحلاته المتعددة والمتكررة إلى سوس والحواضر المغربية امتدت إلى البقاع المقدسة سنة 1274هـ، وقد عززت هذه الرحلات مكانته العلمية والصوفية.

7- خصص جزءا من حياته للجهاد في سبيل الله لما اعتزم الاستعمار الفرنسي احتلال الصحراء المغربية فصار يدعو القبائل إلى مقاومة التغلغل الاستعماري، وله رسالة فقهية سماها "هداية من حارا في أمر النصارى"(2) كتبها في الرد على ولد عايدة بسبب تحالفه مع الإسبان إثر معركة الداخلة سنة 1302هـ.

وله مؤلفات كثيرة منها المطبوع والمخطوط وسنقتصر منها على المؤلفات الأصولية:

1- "المرافق على الموافق في الأصول": شرح به "الموافقات" للشاطبي سنة 1323، مطبوع في مجلد واحد.

2- "الأقلس على الأنفس": وهو عبارة عن شرح على منظومته التي سماها "الأنفس في الأنظام لورقات علم الأعلام" نظم به الورقات لإمام الحرمين، وعدد أبياته

---

(1) المعسول: 4/83-84.

(2) مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق تحت عدد: د 1477.

اثنان وستون بيتا، وهو مطبوع طبعة حجرية.

3- "تنوير السعيد في العام والخاص": وهو أيضا شرح لنظمه "المفيد" مطبوع على هامش "الأقدس على الأنفس".

4- "أحكام التقليد"[1]، وهو نظم رد فيه على من أنكر وجوب التقليد وجلب فيه الأدلة على وجوب التقليد من لدن الصحابة رضوان الله عليهم[2].

5- نظم في الإجماعيات: اختصره العلامة الموريتاني محمد يحيى بن سليمة اليونسي[3].

6- نظم قواعد أبي حنيفة[4].

7- "دليل الرفاق على شمس الاتفاق": وهو شرح لنظمه المسمى "شمس الاتفاق" وهو ثلاثة أجزاء في ثلاث مجلدات قام بتحقيق الجزء الأول منه البلعمشي أحمد يكن.

المبحث الثاني: دراسة تحليلية لبعض آثاره الأصولية

1- الأقدس على الأنفس

-التعريف بالكتاب ومنهجه

وهو شرح لنظم المؤلف لورقات إمام الحرمين المسمى بـ"الأنفس" ومما جاء في مقدمة هذا النظم:

فالورقات اشتملت على فصول	هي أصول الفقه في علم الأصول
وائتلفت من هذين الجزءين	أعني أصول الفقه مفردين
فالأصل ما ينبى عليه غيره	والفرع عكسه عداك ضَيْره

(1) معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، محمد ولد بوزيد، ص: 62.

(2) في الأدب والمقاومة: نماذج من زاوية السمارة المعينية في الصحراء: ماء العينين ماء العينين، منشورات مركز البحث والتواصل الثقافي، تقديم: رشيد اليحياوي، الطبعة الأولى، 1996، ص: 160.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، تقديم دليل الرفاق، ص: هـ.

إلى أن قال:

والفقه من علم أخص ذا ادره ... بعلم معلوم على ما هو به

والجهل ضده وعلم قد قسم ... إلى ضروري أو المكسب سم

إلى أن قال:

والنظر الفكر المؤدي إلى ... علم أو الظن عن الحس اعدلا

والاستدلال طلب الدليل ... ثم الدليل آلة التوصيل

وجاء في مقدمة شرحه للأقدس على الأنفس:

«فهذا شرح وجيز مبين لمعنى نظم الورقات المسمى بالأنفس واسمه الأقدس وضعه صاحب النظم عبيد ربه وأسير ذنبه ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين بعدما طلبه بعض الإخوان الصادقين»[1].

وذكر المؤلف في مقدمة الكتاب أنه عدل عن كثير من التفسيرات والبيانات ولكن هذا العدول عنده نسبي فقط أي إنه يورد مسائل توضيحية عند اقتضاء الأمر يقول في ذلك «ولذلك تجدني كثيرا ما أتركه في كثير من تواليفي إلا أن الأمور نسبية فكثيرا ما يكون الشيء ضروريا عند أحد نظريا عند آخر ولذلك تجدني أيضا كثيرا ما أبينه»[2].

ومن نماذج هذا الكتاب في معرض حديثه عن الأحكام الشرعية وعددها في "الورقات" لإمام الحرمين «اعلم أن جعل الأحكام سبعة اصطلاح لإمام الحرمين، والذي عليه الجمهور أنها خمسة إيجاب وندب وإباحة وكراهة وتحريم وجعلها بعضهم تسعة وزاد الرخصة والعزيمة، وهما راجعان إلى الأحكام الخمسة، وكذلك الصحيح والباطل، فالصحيح إما واجب أو غيره، والباطل دخل في المحظور... »[3].

ومن اعتراضاته على الأصول قوله: «العلم في الاصطلاح: معرفة معلوم أي ما

---

(1) الأقدس على الأنفس، الشيخ ماء العينين، طبعة حجرية، ص: 2.

(2) المصدر نفسه، ص: 3.

(3) المصدر نفسه، ص: 7.

من شأنه أن يعلم موجودا كان أو معدوما، قال في "قرة العين": وهذا الحد للقاضي أبي بكر الباقلاني وتبعه المصنف، وفيه دور لأن المعلوم مشتق من العلم فلا يعرف المعلوم إلا بعد معرفة العلم لأن المشتق مشتمل على معنى المشتق منه مع زيادة، وبأنه غير شامل لعلم الله تعالى لأنه لا يسمى معرفة إجماعا لا لغة ولا اصطلاحا[1].

على أن أهمية هذا الكتاب وقيمته تبدو من خلال استدراكاته على صاحب "الورقات" كما في تعريفه للعام عند الأصوليين والذي جاء فيه: «وهو اللفظ الذي شمل شيئين أي أمرين فصاعدا من غير حصر في اللفظ، وعبارة غير صاحب الورقات "العام لفظ يستغرق أي يتناول الصالح له من غير حصر»[2].

كما استدرك المؤلف أيضا على الأصل في باب المخصصات بقوله: «بقي على صاحب الورقات من المخصصات اثنان، إحداهما: الغاية نحو: أكرم بني تميم إلى أن يعصوك، وكقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾.

الثاني: بدل البعض من الكل نحو: أكرم الناس العلماء، ونحو قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾، وقال شيخ الإسلام: نقل أبو حيان عن الشافعي أن بدل الاشتمال مثله كـ "أعجبني زيد علمه وإلى ذلك أشار الشيخ ماء العينين نظما بقوله[3]:

وخصصوا بغاية وبدل بعض ولاشتمال أيضا فانقل

ولكتاب "الأقدس على الأنفس" للشيخ ماء العينين منهج توضيحي وتمثيلي يميزه عن كتاب "الورقات" لإمام الحرمين كما في النص الآتي: «لا يجوز ادعاء العموم في سوى اللفظ من الفعل وما يجري مجرى الفعل كجمعه عليه الصلاة والسلام الصلاتين في السفر نهارا، رواه البخاري، فلا يدل على عموم الجمع في السفر الطويل والقصير

(1) الأقدس على الأنفس، ص: 8.
(2) المصدر نفسه، ص: 17.
(3) المصدر السابق.

فإنه إنما وقع في واحد منها. والذي يجري مجرى الفعل كالقضايا المعينة مثل قضائه صلى الله عليه وسلم بالشفعة للجار، رواه النسائي عن الحسن مرسلا فلا يعم على كل جار لاحتمال خصوصيته في ذلك الجار»[1].

2-المرافق على الموافق

وهو شرح على نظمه "الموافق" نظم به "الموافقات" لأبي إسحاق الشاطبي فرغ المؤلف من تأليفه سنة 1324هـ، وقد ذكر في المقدمة أن كتاب "الموافقات" لم يكن معروفا بالصحراء قبل سنة 1306هـ.

وعن سبب تأليفه وتسميته يقول: «شرعت في استخراجي منه نظما لعل الله ييسر حفظه وفهمه». بعد ذلك تطرق للمقدمات والموضوعات الرئيسية التي يحتوي عليها كتاب "الموافقات" للشاطبي ثم تدرج إلى شرح تلك الأبيات وبيان معانيها بما يقابلها في الكتاب بـ"الأم".

أما طريقة تأليفه ومنهج شرحه فإن الشيخ رحمه الله أشار في المقدمة بأنه اكتفى بشرح النص فقط دون الدخول في تفاصيل كثيرة حيث قال: «وأنا إنما أخذت ما أخذت منه نصا وكذلك إن شاء الله شرحا»[2].

نعم إن الشارح لم يجل في المصنفات الأصولية وخصوصا المقاصدية منها و لم يغادر كتاب "الموافقات" إلا نادرا وربما تخفيفا على القارئ ورحمة به وفي هذا يقول: «وقد قلت إن هذا الشرح لا يعد في المطولات ولذلك أترك غير الأصل ما أمكنني»[3].

إن كتاب "الموافقات" لأبي إسحاق الشاطبي على جانب كبير من الأهمية العلمية وعلى هذا لايمكن الاعتقاد بأن نظمه وحفظه سييسر معانيه أو يبين كثيرا من مبانيه التي ينتابها الغموض والصعوبة وهذا ما اعترف به الشيخ عبد الله دراز الذي وضع عليه تقريرات مهمة ومفيدة[4]. وقد أفضى به اختصار الأصل إلى عدم مراعاته

(1) الأقلس على الأنفس، ص: 18.
(2) المرافق على الموافق، ص: 29.
(3) المصدر نفسه.
(4) الموافقات للشاطبي: 12/1.

بعض جزئيات الكتاب وتفاصيله.

3- دليل الرفاق على شمس الاتفاق

يعد كتاب "دليل الرفاق على شمس الاتفاق" من مصادر الفقه المالكي التي تؤصل للخلاف المذهبي كـ"بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد الحفيد، و"رحمة الأمة" للصفدي، و"الميزان الكبرى" للشعراني، وقد استند الشيخ ماء العينين في بنائه المنهجي والعلمي إلى هذه المصادر الثلاثة[1]، فاقتفى أثرها ونهجها في عرض المسائل الفقهية وتأصيلها وإيراد ما وقع فيها من خلاف بين المالكيين وغيرهم، فكان بذلك "دليل الرفاق على شمس الاتفاق" كتابا مقارنا مؤصلا تأصيلا فقهيا.

يقول محقق الكتاب البلعمشي أحمد يكن «فالكتاب بحق يتناول في شتى موضوعاته فهما فقهيا دقيقا لكثير من المسائل الفقهية التي أحاطت إحاطة كلية بالأقوال والأفعال والتقريرات الشرعية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدونة في كثير من كتب السنة المطهرة، عرضت بوضوح وجلاء ويسر وسهولة واستيعاب في سائر أبواب الكتاب وفصوله مكونة بذلك معلمة فكرية من المعالم الفقهية الإسلامية لا يستغنى عن معرفتها في عصرنا الحاضر لما اشتملت عليه من الأحكام مكتملة ومتكاملة في الأجزاء الأربعة التي ستتكون منها أسفار الكتاب في طبعته الجديدة معطية بذلك صورة مشرقة واضحة الجوانب والمعالم للفقه الإسلامي في الصحراء المغربية»[2].

ولعل وفرة المعلومات وتنوعها خير دليل على أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية وهذا ما صرح به المؤلف نفسه في المقدمة بقوله «وقد أودعت فيه من الأصول والفروع والطب وفوائد الأسرار والأطعمة والأدب والتصوف ما يسر أهل كل

---

(1) راجع دليل الرفاق على شمس الاتفاق، محمد مصطفى ماء العينين، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر وإحياء التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات العربية المتحدة، تحقيق: البلعمشي أحمد يكن: 2/1.

(2) مقدمة محقق دليل الرفاق، ص: ن.

مجال... »[1].

على أن أهم انشغالات المؤلف في هذا الكتاب -على ما يبدو- هو نبذ التعصب المذهبي والقفز على الحواجز المذهبية رغم مالكيته معتبرا أن الفقه الإسلامي برواياته المتشعبة وأقواله المتفرعة منظومة كاملة ومتكاملة مسايرا بذلك ما نقله عن الإمام الشعراني في "الميزان" أن الشرعية لا خلاف فيها البتة[2].

أما المسلك المنهجي الذي اتبعه الشيخ ماء العينين في "دليل الرفاق" فلم يختلف عن مسلك ابن رشد في "البداية" وهو تقرير المسائل الفقهية وما يعتريها من الخلاف مع ذكر أصله وسببه وهو مبدأ تأصيلي مهم ومفيد في تفعيل الدراسات الفقهية الفروعية وتطويرها.

ومن الخصائص المنهجية لهذا الكتاب أنه يعتمد على مصادر فقهية لها أهميتها في الخلاف العالي منها "بداية المجتهد" الذي يحيل عليه كثيرا وقد يتعرض لكلامه بالاختصار وفي ذلك يقول معللا: «هذا وليعلم الواقف هنا أني إن تتبعت وجوه الخلاف والاستطرادات في هذه الكتاب لاحتجت إلى مجلدات، وأهل الزمن مقصرون عن ذلك، واشتغال البال أولى مما هنالك، وقد أردت أن أقتصر على معاني الأبيات وما قل من التنبيهات أو الإفادات... »[3].

ومن السمات المنهجية في "دليل الرفاق" ربط الفروع بالأصول أو ما يسمى عند العلماء بتخريج الفروع على الأصول، وقد ألف فيه كثيرون كالشريف التلمساني الذي ألف كتاب "بناء الفروع على الأصول" وابن رشد الحفيد في "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" وغيرهما.

ولعل الهدف من ذلك هو أن يتمكن الفقيه من الأصول ليحيط بالفروع إحاطة منهجية من ناحية ولكي يتمكن بدوره من إعمال النصوص والاجتهاد فيها.

ويمكن أن نتساءل هنا عن جدوى هذا العمل المنهجي وأثره في تطوير علم

(1) دليل الرفاق على شمس الاتفاق، ص: 3.
(2) المصدر نفسه: 3/1.
(3) المصدر نفسه، ص: 95.

الأصول؟

إن الشيخ ماء العينين سلك في هذا التأليف الأصولي مسلكا عمليا تطبيقيا مسايرا في ذلك ابن رشد في "بداية المجتهد" الذي مزج بين الفقه والأصول مزجا قد يعزز مكانة هذين العلمين، وينأى بالفقيه عن السعي وراء الفروع وحفظها وعن الاجترار والتقليد إلى النظر والاستنباط واتباع مناهج الفقهاء المجتهدين الذين لم يفرقوا بين الفقه وأصوله(1).

أما المصادر التشريعية في دليل الرفاق، فإنها لم تختلف عن مصادر ابن رشد في "بداية المجتهد" وهكذا نجده يعتمد على النصوص القرآنية ونصوص السنة النبوية والإجماع والقياس، و لم يتعرض للمصادر التشريعية المختلف فيها عند الأصوليين كالمصلحة المرسلة والاستحسان والاستصحاب والعرف وقول الصحابي وشرع من قبلنا، ولعله لم يأخذ بها لكونه نهج منهج ابن رشد في عدم الاعتداد بها في "البداية" أو لكون الفقهاء قد اختلفوا حولها.

وإذا رجعنا إلى المستوى الإبداعي في الكتاب فإنه شبه خال من اجتهادات المؤلف وترجيحاته بل يعمد إلى تقليد وحكاية آراء الفقهاء المتقدمين وترجيحاتهم من غير رجحان ولا انتقاد.

4- كتاب "تنوير السعيد في العام والخاص"

عبارة عن رسالة في حجم صغير مطبوعة طبعة حجرية على هامش "الأقدس على الأنفس" للمؤلف نفسه، يشرح فيها نظمه "المفيد" في العام والخاص عند الأصوليين.

تناول فيه مؤلفه ألفاظ العموم نظما وشرحا مع التمثيل لها بالأمثلة من القرآن الكريم والحديث وغيرهما.

أما الفصل الثاني فخصصه لأقسام العام وهو ثلاثة أقسام:

---

(1) راجع: ابن رشد وعلوم الشريعة الإسلامية، الدكتور حمادي العبيدي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1991، ص: 131.

الأول: وهو الباقي على عمومه.

الثاني: العام المراد به الخصوص.

الثالث: العام المخصوص.

وخصص الفصل الثالث للمخصصات المتصلة والمنفصلة وأنواعها وأمثلتها، وتحدث في الفصل الرابع عن تخصيص القرآن للسنة وبعض المسائل المتعلقة بالعموم والخصوص وختمها بخاتمة أشار فيها إلى أن الكتاب المنظوم هو "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي بقوله:

بذا الذي نظمته فهو المفيد — يفيد للقريب كلا والبعيد

وانظر لما به أتى الإتقانا — وكن بذي الأمور مستعانا

وقد عد من صيغ العموم كما أوردها السيوطي في "الإتقان" من غير زيادة ولا نقصان الألفاظ الآتية: كل، وأجمعون، والذي، والتي، وتثنيتها وجمعها، وأي، وما، ومن شرطا واستفهاما وموصولا، والجمع المضاف. والمعرف بأل، واسم الجنس المضاف والمعرف بأل، والنكرة في سياق النفي والنهي وفي سياق الامتنان[1].

وذكر القرافي أنه لم يجد في كتب الأصول وغيرها من صيغ العموم إلا نحو العشرين صيغة ومقتضى ذلك أن يكون أكثر حسب تعبيره[2].

المبحث الثالث: منهجه العام في الاستنباط

1- الدليل من القرآن والسنة

اهتم الشيخ ماء العينين بالدليل واعتبره الركيزة الأساسية في بناء مشروعه الفقهي والأصولي، وتعد نوازله ومؤلفاته الفقهية عموما مجالا خصبا لاستثمار الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة.

وفي هذه المرجعية التأصيلية إشارة إلى مقام الكتاب والسنة في الحفاظ على كيان الدولة المغربية والدفاع عن هويتها لدحض مخططات الاستعمار وأساليبه، وهكذا نقرأ

---

(1) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، طبعة 1973: 16/2.

(2) *الإمام القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ص: 154-155.*

في كتابه "هداية من حارا في أمر النصارى"[1] حينما سئل عن حكم مال استولى عليه قوم من النصارى، فقام المسلمون باسترجاعه غنيمة فقال:

إن هذا المال ليس إلا لأربابه الذين أخذوه من أيدي النصارى لعنهم الله، غنيمة حلالا، قال تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾[2].

أما القرآن فاعلم أنه جاء أن الله تعالى أول ما أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ الرسالة ثم أذن له في قتال من قاتله ثم أمره بقتال من يليه من الكفار سواء قاتلوه أو لم يقاتلوه ثم أمره بقتال المشركين كافة.

-فالأول: قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدا...﴾[3]، وقال تعالى أيضا: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[4].

-والثاني: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾[5].

-والثالث: قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾[6]، إلى أن قال: فهذا كله معنى واحد وإن اختلفت أيضا فكلها أمر بالقتال ومجاهدة الكفار، والآي كلها محكمة لم ينسخ منها شيء».

أما الحديث فهو أيضا أشهر من أن ينكر وأكثر من أن يحتاج أن يشهر ويكفي من ذلك ما أتى به "موطأ" مالك، و"صحيح" البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود.

وفي كشف الغمة: «من مات و لم يحدث نفسه بالجهاد مات ميتة جاهلية» وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أردية الغزاة السيوف».

وترتبط مسألة الاجتهاد عند الشيخ ماء العينين بمعرفة الحديث النبوي أكثر من غيره من الأدوات الأخرى التي يحتاج إليها المجتهد، ومما يؤكد هذا الكلام ما ذكره في

---

(1) هداية من حارا في أمر النصارى، رقم: D 1479، الورقة: 3 و4 و5.
(2) سورة الأنفال، الآية: 70.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 45.
(4) سورة النحل، الآية: 125.
(5) سورة التوبة، الآية: 124.
(6) سورة التوبة، الآية: 36.

كتابه "الأقدس على الأنفس" من أن معرفة الحديث ضروري في إدراك الأحكام الفقهية واستنباطها من القرآن الكريم دون معرفة ما يرد في القصص ولا آيات الأحكام منه ولا محيطا بالأحاديث والآثار الواردة في الأحكام.

ولا يشترط الشيخ ماء العينين أن يكون المجتهد عالما بالأحاديث الغريبة ولا تفسير غريب الحديث وإن كان معرفة ذلك يزيد تمكنا(1).

2-مراعاة المصالح والأعراف

للمنهج الاستنباطي عند الشيخ ماء العينين مجال واسع يتسع ليشمل الأدلة العقلية والمختلف فيها عند الأصوليين كالمصالح المرسلة والأعراف، وهو ما يفسر التزامه بأصول المذهب المالكي في الاستنباط.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اقتداءه بهذا المذهب لم يفقده مكانته الفقهية المتميزة التي اصطبغت بواقع الحياة الصحراوية وخصوصيات المرحلة التاريخية ومقتضيات التطور التاريخي الذي عرفه المغرب منذ بداية القرن العشرين الميلادي. وقد اعتمد في تحليلاته الفقهية على أسس اجتهادية ومراعاة المصالح المرسلة، وهذا ما يتضح بجلاء في النصوص الفقهية المعينية التي تؤكد على ضرورة احترام عادات الشعوب وأحوالها وأهمية مراعاة الاختلافات البيئية في الأحكام الفقهية(2).

وما يعكس هذا التوجه لدى الفقيه الشيخ ماء العينين بعض مؤلفاته الفقهية التي عالجت قضايا المجتمع الصحراوي في عصره كتأليفه "أجوبة في ماهو العرف في بلادنا في معاملة الفتيات الصغار لأزواجهن" مخطوط وله أيضا رسالة "مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسبب" وفيها وظف قاعدة "مراعاة اختلاف أحوال الناس، وتغير الأزمنة والأمكنة في الأحكام الفقهية" فيرى أن تطليق الزوجة بسبب السب يختلف باختلاف الناس والزمن والبلدان، فربما كان شيء ما عند قوم دون قوم وفي بلد دون بلد وفي زمن دون زمن، ولذلك اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز لقاض ولا

---

(1) الأقدس على الأنفس، ص: 46.

(2) راجع: الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، محمد الظريف، بحث مرقون لنيل دبلوم الدراسات العليا بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص: 292.

لمفت أن يقضي لقوم أو يفتي لقوم حتى يلم بعرفهم وعاداتهم، فالقاعدة المجمع عليها أن كل حكم مبني على عادة إذا تغيرت تغير الحكم»[1].

ويقرر في كتابه "تبيان الحق الذي للباطل سحق" أن الله جعل أئمة المسلمين مجددين لأنهم ينظرون في مصالح الأمة نظره صلى الله عليه وسلم لها، ويفعلون لهم من سنته ما هو موافق لحالهم في ذلك الزمن ولذلك من لم يعرف أن انتقال العرف كانتقال الزمن فهو في العلم كالزمن ومن حكم في حكم جديد بعرف قديم فهو في العلماء كالعديم»[2].

ومن الناحية السياسية كان لنظرية المصالح عنده تطبيقات عملية عالج خلالها مسألة الاحتلال الأجنبي للبلدان الصحراوية، وهكذا تحدث عن الموالاة للنصارى وحدودها وأن الصداقة مع النصارى جائزة ما لم يكن هناك اعتداء على المسلمين لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة عند التعارض كما هو عند الأصوليين[3].

كما أن المصلحة عند الشيخ ماء العينين قد تكون واجبة أو جائزة أو راجحة جاء في كتابه "هداية من حارا في أمر النصارى":

«ثم لتعلم أيها الناظر أن الحاصل في الجزية أصلا على الإمام الجواز، وقد تترجح المصلحة وقد تتعين، والذي يظهر -كما في العدوي- أن يقال إن تعينت المصلحة في الجزية وجبت وإن ترجحت المصلحة فيها ترجحت، وإن استوى الأمران أي المصلحة أو عدمها جازت جواز مستوى الطرفين وإن تعينت المصلحة في عدمها حرمت وإن ترجحت المصلحة في عدمها ترجيح عدمها.

فبان لك أيها الناظر أن إخراج النصارى في هذه البلدة ولو بأخذ الجزية حرام لتعيين المصلحة في عدمها لعدم الإمام[4].

---

(1) "مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسبب"، الشيخ ماء العينين، مخطوط، ورقة: 4.
(2) "تبيان الحق الذي للباطل سحق"، الشيخ ماء العينين، مخطوط، ورقة: 14.
(3) "هداية من حارا في أمر النصارى"، الشيخ ماء العينين، الورقة: 10.
(4) المرجع نفسه، ورقة: 8.

المبحث الرابع: اجتهادات الشيخ ماء العينين

شكلت المدرسة المعينية بتوجهاتها الصوفية والفقهية والعلمية منعطفا خاصا في تاريخ الحركة العلمية بالمغرب بشكل عام، ويظهر ذلك من خلال ما خلفه رواد هذه المدرسة من منجزات علمية وتاريخية رائدة استوعبت واقع المجتمع الصحراوي بكل تجلياته السياسية وخصوصياته الفقهية.

وفي هذا السياق يمكن الحديث عن دور الشيخ ماء العينين في تطوير الفقه المالكي من خلال ما أثاره من اجتهادات عكست في بعض جوانبها ملامح المجتمع الصحراوي وظروف المرحلة التاريخية التي اجتازها المغرب في عصر هذا الشيخ.

لكن البحث سيركز على مسألتين فقط أوردهما الشيخ أحمد بن الشمس -من تلاميذ الشيخ ماء العينين- في كتابه "النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية"[1]، وهما:

- تعجيل المعينيين لصلاة العشاء قبل الوقت المعهود.
- تعجيل المعينيين لصلاة الجمعة.

أما المسألة الأولى فقد خصص الفقيه الشيخ أحمد بن الشمس بابا خاصا للحديث عن وقت العشاء وضمنه أقوالا كثيرة عن أئمة المذهب المالكي التي تفيد التعجيل بصلاة العشاء وأن وقته هو مغيب الشفق وهكذا نقل عن "التمهيد" لابن عبد البر إجماع العلماء على أن وقت العشاء الأخيرة للمقيم هو مغيب الشفق ونسب هذا القول لمالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأكثر العلماء، وروي ذلك عن جماعة من الصحابة[2].

ونقل مثل هذا الكلام عن أعلام كثيرين من فقهاء المالكية كابن العربي والباجي المالكي وغيرهما، بل نقل عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: «من خشي أن ينام قبل صلاة العشاء فلا بأس أن يصلي قبل أن يغيب الشفق»[3].

---

(1) مخطوط بخزانة خاصة ببونعمان.
(2) النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية، الشيخ أحمد بن الشمس، مخطوط غير مرقم.
(3) المصدر نفسه.

تبقى الإشارة إلى أن هناك آراء أخرى في المسألة منها ما نقله عن ابن رشد أن مالكا استحب أن تؤخر الصلاة قليلا ليستيقن دخول الوقت معللا هذا بأن المبادرة في أول الوقت من فعل الخوارج الذين يعتقدون أن تأخير الصلاة عن وقتها لا يجوز[1].

ونقل الرهوني أيضا أنه يستحب تأخيرها قليلا حتى يتأهبوا ويجتمعوا[2]. وقد وردت الإشارة في هذا الكتاب عن سبب هذه الواقعة التي أثارت نقاشات فقهية عميقة بين الشيخ ماء العينين وتلاميذه وبين فقهاء فاس والرباط وسوس وهو أن سكان هذه المناطق كانوا يتهيأون للنوم وتناول العشاء مما حملهم على التعجيل بصلاة العشاء بعد غياب الشفق الأحمر[3].

وقد تعرض المختار السوسي لهذه المسألة وذكر الخلاف الوارد فيها عن الفقهاء معلقا على ذلك بقوله: «هذه أدلة المذكور في ذلك المؤلف النفيس -يقصد "النفحة الأحمدية" لأحمد بن الشمس- ولكن ينبغي أن يبحث بحثا جديدا في موقع المغرب، وفي موقع مسكن الشيخ ماء العينين الأصلي بأقصى الصحراء حيث كان قبل أن يأتي إلى الساقية الحمراء لأنه ثبت أن الشفق يغيب بسرعة عند خط الاستواء بخلاف غيره، وأيا كان فالمغاربة مذهبهم في ذلك واضح»[4].

أما وقت صلاة الجمعة فقد أورد الشيخ أحمد بن الشمس في "النفحة الأحمدية" نقولا كثيرة عن المحدثين والفقهاء على حد سواء، ومجمل ما في المذهب المعيني في هذه المسألة ما ذكره المؤلف المذكور بقوله مجيبا عن سؤال:

«يقال: هذا الذي ذكرت كله من كتب الفقه ما فيه نص على تعجيل الجمعة أما في الحديث فنعم، ونحن لا نقنع إلا بما في المختصر وشراحه ...

الجواب أنه نص على تعجيلها بقوله: «وللجماعة تقديم غير الظهر»، وقال ميارة

---

(1) النفحة الأحمدية في بيان الأوقات المحمدية.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) خلال جزولة: 2/74-75.

راجع أيضا: المعسول: 4/86.

شارحا: «الأفضل للجماعة تقديم العصر والمغرب والعشاء والصبح والجمعة... »[1].

وما يهمنا في هاتين المسألتين هو الوقوف على اجتهادات الشيخ ماء العينين وتلاميذه وأن عدم تقيدهم بالمذهب المالكي أحيانا لا يعني خروجهم عنه أو نفورهم منه.

ويذكر الأستاذ محمد الظريف: «أن هذه المرونة التي يتسم بها الفقه المعيني، لم تبعده عن روح الفقه المالكي الذي ظل وفيا لمبادئه العامة وإنما زادته غنى وقوة وعمقا»[2].

(1) النفحة الأحمدية، أحمد الشمس، غير مرقم.

(2) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، محمد الظريف، ص: 296.

إشارات قرآنية عند الشيخ ماء العينين
نموذج: الأخوة

د. نور الدين الدنياجي
كلية الآداب-ابن مسيك-الدار البيضاء

علم الإشارة علم قائم ضمن العلوم الإسلامية، وقد ارتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية، كما ارتبط بأقوال الصحابة. وله شروط وعناصر لابد منها لمن يريد الخوض فيه، وقد لازمت إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة وعلماء الأمة نصوص القرآن، وجاءت على هامش كثير من التفاسير.

واختلف في فحوى الإشارة والمراد منها، واعتبرها البعض ضرورية، فعن علي رضي الله عنه قال: «ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبدا فهما في كتابه».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها».

وقال الكلاباذي في التعرف: «وإنما قيل علم الإشارة، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفه إلا من نازل تلك الأحوال، وحل تلك المقامات».

وعندنا أن أحسن الإشارة هي ما لم تتضمن ما يعارض الشرع من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، قال السيوطي في الإتقان: «ومن ادعى منهم أسرار

القرآن، و لم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت، قبل أن يجاوز الباب».

فلابد إذًا للإشارة أن تتضمن شاهدا شرعيا أو لغويا أو عقليا يعززها، واشترط آخرون أن تساق الإشارة لكلمة لا على سبيل التفسير للنصوص، بل على سبيل الخاطر والتنظير. وهذا النوع من الإشارة هو الذي يجده المتصفح لكتاب الشيخ الفاضل ماء العينين ابن الشيخ محمد فاضل بن مامين "نعت البدايات وتوصيف النهايات"، والذي اخترنا منه نموذجا واحدا هو "مفهوم الأخوة"، وهو مطلب أساسي من بين المطالب التي اعتبرها الشيخ ماء العينين واجبة في سلوك الطريق، ويهمنا من هذا المفهوم الكيفية التي وظف بها الشيخ هذا الجانب على مستوى التصور العام لمفهوم التصوف والغرض منه من جهة، وعلى مستوى الثقافة الخاصة التي يتميز بها هذا الرجل.

أما فيما يخص الجانب الأول، فإن الشيخ ماء العينين كان في طليعة أبناء الشيخ العالم المؤدب المربي محمد فاضل بن مامين الذين كرسوا حياتهم للتوعية والتربية والتعليم في كل المناطق الصحراوية والبلدان المجاورة لها جنوبا وعلى ضفاف نهر السينغال كما يقول الجراري في كتابه "ثقافة الصحراء"، وقد كانت منطلقات الشيخ ماء العينين وإخوته قائمة أساسا على مبدإ الأخوة الذي يقوم كما سنرى على تجاوز الجنس والثقافة والحدود، ومن هذا المنطلق كانت له جهود علمية ووطنية، وكانت له صلات وثيقة بملوك الدولة العلوية، وزيارات متعددة إلى مدن المغرب خاصة مدينة فاس ومدينة مراكش، وكانت له مراسلات مع ملوك الدولة العلوية بدءا من المولى عبد الرحمن إلى المولى عبد الحفيظ، وكان سندا حقيقيا للدولة ضدا على العدوان الأجنبي كما يذكر الجراري...

وهكذا اعتبر الشيخ ماء العينين رابطة الدين أقوى روابط الأخوة، كما جعل هذه الرابطة خادمة لميثاق البيعة القائم على سند ديني قوي. وقد ذهب الشيخ إلى العمل على توحيد الطرق الصوفية التي كانت تقوم بدور التوعية والتعليم والدفاع عن الوطن أيام ضعف السلطة المركزية، ومن هنا كان الرجل -انطلاقا من مفهوم الأخوة

كما ذكرنا- حريصا على توحيد الطرق الصوفية من خلال نبذ الخلاف والتعصب للمناهج والتفريق بين الظاهر والباطن، وأنه لا فرق بين الأوراد والمشايخ، كما أنه لا فرق بين الأولياء ولا فرق بين الأنبياء، يقول:

إني مخاوٍ لجميع الطرق — أخوة الإيمان عند المتقي

ويقول:

ولا أفرق للأولياء — كمن يفرق للأنبياء

ويقول:

قال تعالى: المؤمنون إخوة — وعدم التفريق فيه أسوة

ويقول أيضا:

وهو عليه الله صلى أمرا — بالذكر والتقى وإخلاص جرى

ولم يقل لك: بذا الذكر اذكرا — وذلك الذكر به لا تذكرا

وهكذا كان الشيخ حريصا على توحيد القبائل سياسيا، وتوحيد الطرق تربويا، وقد قال في المستوى الثاني الذي اعتبرناه آنفا خاصا بمستوى الثقافة التي يتميز بها هذا الرجل أنه لابد لإدراك مستوى الأخوة الحقيقي، من الإخلاص وترك الاعتراض والأدب وعدم الإنكار إلا بدليل شرعي، لأنه لا فرق في الحقيقة بين الظاهر والباطن.

وقد أورد أقوالا مختلفة لتحديد مفهوم الأخوة، منها: «سئل الجنيد عن الأخ، فقال: هو أنت في الحقيقة، إلا أنه غيرك في الشخص». ثم ركز على قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾. واعتبر هذه القاعدة ميثاقا ومصدرا مهما لخلق الانسجام والتقدم الإنساني قائما على بعد فياض بالمشاعر النبيلة التي تتجاوز الجنس واللغة والحدود والمصلحة الفردية إلى روابط أعمق وأنبل.

وقد جاءت إشارات الشيخ في هذه الآية متميزة في العرض والفهم والإدراك الذوقي، فلو وقفنا عند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن مثلا، وجدناه لا يتجاوز في تفسير هذه الآية المعنى المباشر، قال: «أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة

الدين لا تنقطع بمخالفة النسب». ثم أورد القرطبي بعض الأحاديث التي تحث على الأخوة.

وهكذا، فلو قمنا بمقارنة إشارات الشيخ مع أغلب التفاسير، وجدنا تمييزا، اللهم ما يجده القارئ في كتاب الألوسي "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" من تشابه ظاهر وواضح بين الرجلين في تفسير هذه الآية، هذا التشابه يصل إلى درجة النقل والأخذ المباشر، حيث قال الألوسي: «﴿إنما المؤمنون إخوة﴾: استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح وإطلاق الأخوة على المؤمنين من باب التشبيه البليغ، وشبهوا بالأخوة من حيث انتسابهم إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، وجوز أن يكون استعارة، وشبه المشاركة في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد، لأن كلا منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان.

بينما قال الشيخ ماء العينين: «إنما المؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية... فالآية من قبيل التشبيه المبني على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب. ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾: الفاء للإيذان، أي الإعلام بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح، ووضع المصدر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية».

وفيما عدا ما ذكرناه من تشابه، نلاحظ أن الشيخ ماء العينين قد حاول الإحاطة بمعنى هذه الآية إحاطة شاملة، حيث ذكر كثيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة وغيرهم. وقد ركز بقوة على أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، قال: «لا تعتبر أخوة النسب إذا دخلت أخوة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم وله أخ كافر، يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر، وكذلك إذا مات أخوه الكافر، وذلك لأن الجامع الفاسد لا يفيد، وأن المعتبر الأصل الشرعي، ألا ترى أن ولدي الزنى من رجل واحد لا يتوارثان، وهذا المعنى يستفاد من الآية».

وقد عزز الشيخ إشارته في هذا الباب عبر تتبع المعنى اللغوي، قال: الأخ في اللغة: «المشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في غير ذلك». كما قدم معناه الاصطلاحي عند الصوفية، قال: «ثم إنه حيث أطلق عند القوم، فالمراد به إخوان المريد الطالبون ما طلب، وهم المواريد الذين هم قاصدون ما قصده من الوصول إلى الله، وهم له بمنزلة الرفيق في السفر الحسي».

وقد ذكر شروط صحة الأخوة، وجعلها من أخلاق المخلصين، وهو بذلك يتفق مع أغلب المقعدين للتصوف، من ذلك شرط الوفاء في الأخوة كما ذكر الشعراني أيضا في لواقح الأنوار القدسية، وترك معاداة الناس، وكثرة مداراتهم، وغير ذلك.

ويهمنا من كل ما سبق أن الشيخ ماء العينين يسير في أغلب إشاراته القرآنية سواء في كتابه "نعت البدايات، أو غيره من منطلقات خاصة ومنهجية متميزة، نذكرها كالتالي:

1-بيان الصلة بين الظاهر والباطن أو بين الشريعة والحقيقة، قال نقلا عن سيدي أبي عبد الله بن عباد: «كل باطن مجرد عن الظاهر باطل، والحقيقة ما عقد بالشريعة، فافهم».

2-بيان قواعد الفقه وقواعد أصول الدين وقواعد التصوف: فقد أورد أن «الفقه مقصود لإثبات الحكم في العموم بمرادك إثبات ما يسقط الحرج والتصوف مرصده طلب الكمال، فمرجعه لتحقيق الأكمل حكما أو حكمة، والأصول شرط في النفي والإثبات، فمدارها على التحقيق المجرد، وقد دل كل أناس مشربهم، وقابل كل قوم بالأدب معهم في فنهم».

3-انطلاقا من بيان ما سبق، يمكن أن نفهم إشارات الشيخ في تفسير الآية: ﴿إنما المومنون إخوة﴾، فهي تتضمن قاعدة فقهية: هي الإصلاح بين الأخوين، وقاعدة أصولية هي إصلاح الجزئي (الاثنين) متضمن لأمر عام، وهو إصلاح الكلي (جماعة المسلمين).

أما القاعدة الصوفية وهي التي اعتبرها تحقيقا للأكمل حكما أو حكمة، فقد

جاءت كالآتي: رابطة الإسلام أقوى من رابطة الدم، ورابطة الإيمان أقوى من رابطة الإسلام.

4-استنادا إلى الفكرة الأخيرة جعل الأخوة بين الصوفية الذين يسعون إلى مرتبة الإيمان، ثم الإحسان أعلى مقاصد التصوف.

5-لبيان جميع هذه العناصر انطلق من بحث الأصل الاصطلاحي، ثم الأصل اللغوي، وجعله في مفهوم المشاركة، ثم جعل المشاركة عامة وخاصة. فأما المشاركة العامة فهي وحدة القبائل والشعوب الإسلامية، وأما المشاركة الخاصة فهي المشاركة القلبية.

6-اعتبر ورود "إنما" في الآية دليلا لتأكيد حقيقة الأخوة.

7-دقق في بيان أشكال وصور القرابة، ولاحظ أن القرابة قد تتنوع بحسب القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فهي:

أ-قرابة صورة: وهي قرابة دم أو قرابة دين وعلم.

ب-قرابة معنى: وهي قرابة الأولياء، واعتبر الولي ولده الروحاني القائم بما تهيأ لقبوله من معناه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «سلمان منا أهل البيت»، إشارة إلى القرابة المعنوية.

ج-قرابة في الصورة والمعنى: فهم الخلفاء والأئمة القائمون مقامه، وهم الأنبياء والأولياء الكاملون، وهي أعلى مراتب القرابة.

د-القرابة الطينية: وهي قرابة الدم.

وقد ذهب الشيخ أيضا إلى بيان أخوة النسب، فجعل هذه الأخوة قائمة إما على نطف الصلب الواحد، أو على نطف النبوة، واعتبر حقيقة نطفها نور الله، ولهذا لاحظ أن الإصلاح بين الأخوين يؤدي إلى «رفع أستار البشرية عن وجوه القلب ليتصل النور بالنور من رَوزنة القلب ليصيروا كنفس واحدة»، بحيث تكون الأخوة أعلى مقامات الجنة، قال: «وقد وصف الله نعيم الجنة وما أعده لأوليائه من الكرامة، إذ جعلهم إخوانا على سرر متقابلين».

الأبعاد الروحية والمعرفية للتجربة الصوفية بالمغرب
نموذج: الشيخ ماء العينين والشيخ حمزة القادري البودشيشي

ذ. حكيم الفضيل الإدريسي
كلية الآداب-ابن مسيك-الدار البيضاء

إن الحديث عن التجربة الصوفية بالمغرب من أهم القضايا التي يجب أن تعطى لها العناية الفائقة، لأنها تصف أسمى علاقة في الوجود، علاقة العبد بربه، وأبعادها على كل مستويات الحياة.

وتأتي هذه المحاولة لتسلط الضوء على تجربتين صوفيتين كبيرتين: تجربة الشيخ ماء العينين الذي عاش إلى بداية القرن الحالي، وتجربة الشيخ حمزة القادري البودشيشي التي تلقي أشعتها القدسية على مغربنا الحبيب في هذا الوقت.

وليس هدفي من هذا الموضوع المقارنة بينهما، ولا بيان تميز الواحدة عن الأخرى، وإنما هو تنويع الرؤيا حول الشيخ ماء العينين، ووقوفا بموازاة رجل التاريخ، ورجل السياسة، ورجل الاجتماع، وذلك بإثبات نظرة المنتسب للصوفية إلى الموضوع.

وبالإضافة إلى هذا العامل الرئيسي، فإن بين التجربتين أو الطريقتين عدة وشائج وعلاقات:

أولاها: اجتماعهما في الأصل، وذلك بالانتساب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ثانيا: العلاقة الطيبة بين أحفاد الشيخ ماء العينين والشيخ حمزة القادري

البودشيشي، وذلك بزيارتهم المتكررة لمكان إقامته بمداغ المحروسة بمدينة بركان، واستضافته بمدينة أكادير أثناء زيارته لمريديه بها.

ثالثا: دأبه رضي الله عنه في الدفاع على أهل الله من الأولياء والصالحين، وذلك بالدعوة إلى محبتهم، والدفاع عنهم، والدعاء لهم، وإقامة الصدقات وإهداء آلاف السلك القرآنية، والصلوات المحمدية إلى أرواحهم الطيبة؛ وفي هذا الإطار فقد نشرت مجلة المريد المتخصصة في التصوف والتي يصدرها خيرة أبناء هذه الطريقة مقالا للأستاذ ماء العينين ماء العينين تحت عنوان: "الشيخ ماء العينين بين مطرقة الإهمال والتهميش وسندان تحريف التاريخ"[1]، كما شاركت بموضوع "الثابت والمتغير في التجربة الصوفية للشيخ ماء العينين" في الملتقى الوطني الأول لثقافة الصحراء المغربية، الذي نظمته شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك الدار البيضاء[2].

رابعا: صفة العالمية التي يتميز بها التصوف، لذلك آخى الشيخ ماء العينين بين الطرق الصوفية في عصره، وأذن في تلقين أوراد خارج طريقته كالشاذلية، والناصرية، والتيجانية، وهو في هذا له مقام النيابة عن المشايخ في وقته، وهو مقام لا يصله إلا أفراد الرجال كما هو الشأن بالنسبة للشيخ حمزة القادري البودشيشي الذي أكرمه الحق تعالى بتلقين كل الأوراد المعروفة والمنتشرة.

خامسا: يتميز التصوف بقاعدة الوراثة المحمدية المتنقلة من شيخ لآخر، ومن دار إلى دار، ولقد أثبت الشيخ ماء العينين هذه الحقيقة فقال: «وكل من مات شيخه قبل كماله، ولم يستخلف ممن تخرج على يديه من يقوم مقامه في إقامة طريقه وسياسة مريديه على تحقيقه، تعين عليه الانتقال إلى من يربيه، ويكمل له بقية ترقيه»[3].

سادسا: بيان وحدة المغاربة التشريعية والسلوكية التي عبر عنها الإمام ابن عاشر

(1) انظر مجلة المريد، العدد: 6-7، السنة: 1994.

(2) نظم هذا الملتقى أيام: 12 و13 و14 أبريل 2000 بتعاون مع عمالة مولاي رشيد سيدي عثمان.

(3) نعت البدايات وتوصيف النهايات، ص: 10-11، دار الفكر.

بقوله في منظومته المشهورة "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين".

وبعـد فـالعون مـن الله المجيـد لنظـم أبيـات للأمـي تفيـد

في عقد الأشعري وفقـه مـالك وفي طريقـة الجنيـد السـالك[1]

أي التصوف في إطار قوي للوحدة والالتحام.

الأبعاد الروحية

إذا كان هدف الصوفية تصفية الروح وإعادتها إلى أصلها، فإن لتوحيد الأرواح إذًا أصل واحد، لأنها عن الحق صادرة، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾[2]، ولقوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[3].

ولتحقيق هذا البعد حدد الصوفية طريقا معلوما تتجسد في التحقق بالخلق الحميد الذي وصف به الحق تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[4].

ولقد ركز الشيخ ماء العينين على ترسيخ هذه الأخلاق عبر مرحلتين: الأولى تتمثل في الآداب مع الشيخ[5]، وذلك وصولا به إلى معرفة الآداب التي تليق بالحق تعالى، فالشيخ ليس إلا وسيلة للإرشاد والتعليم، وغايته أن يجلسك مع الحق تعالى على بساط الأدب، فقد أجمع الصوفية على أنه من حرم الأدب، حرم الوصول، قال أبو علي الدقاق: «ترك الأدب موجب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، رُدَّ إلى سياسة الدواب»[6].

---

(1) متن ابن عاشر المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين، ص: 3، صححه وراجعه الأستاذ: محمد جميل، دار الرشاد الحديثة، البيضاء.

(2) النساء: 1.

(3) سورة ص: 72.

(4) القلم: 4.

(5) انظر: نعت البدايات، ص: 8-9.

(6) الرسالة القشرية، للإمام القشيري، ص: 285، تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطحي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1990.

أما المرحلة الثانية فتتمثل في الأدب مع المريدين(1)، وذلك بتعظيمهم وخدمتهم، وخفض الجناح لهم، وستر عوراتهم، وأداء الحقوق لهم، وعدم مطالبتهم بحقوقك عليهم، وصولا إلى التأدب مع المسلمين كافة، ثم مع خلق الله جميعا.

فالشيخ المربي، العارف بحظوظ النفس، الخبير بتلوناتها وشهواتها، يندرج مع المريد إلى أن يوصله إلى مقام القدوة، فيقتدي الناس به في التسامح، والخلق الجميل.

وهذا ما يخضع له مريدو الشيخ حمزة القادري البودشيشي، ويسمعونه من توجيهاته وإرشاداته ووصاياه.

يقول مشيرا إلى البعد التوحيدي للحياة الروحية: «الأسماء أحمد، ومحمد... متفرقة بالشريعة، أما الحقيقة فتعجنهم عجينة واحدة، والروح ترجع روحا واحدة، وهذا هو التوحيد»(2). ثم قال: «الروح خلقت حرة»(3).

وفي هذا يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾(4).

ويقول رضي الله عنه مشيرا إلى المؤاخاة التي يجب أن تجمع بين الناس، بأسلوب العبد المتواضع لجلال ربه: «أنا لا أدعي المشيخة، ولا أدعي السر، وإنما هي رحمة الله، فمن أراد المؤاخاة في الله، والاجتماع على ربي، فليزين نيته، ثم لنسأل الله تعالى أنه من كان منا مرحوما نرحم معه، وأنا معكم»(5).

ويتوج الشيخ حمزة هذا البعد الروحي بقوله: «الطريق للجميع، الطريق لا تتبع زيدا ولا عمرا، وإنما نذكر الله تبارك وتعالى، ونطلب الصلاح للجميع، وهذا هو هدفنا الوحيد»(6).

---

(1) نعت البدايات، ص: 10.

(2) انظر: الدرر الغوالِ من كلام الشيخ حمزة البودشيشي، أشرطة مسجلة من كلامه، وكلام مكتوب بإذنه رضي الله عنه.

(3) المرجع نفسه.

(4) الأعراف: 172.

(5) الدرر الغوالي من كلام الشيخ حمزة رضي الله عنه.

(6) المرجع نفسه.

ويكثر رضي الله عنه من قوله: «اللهم ربح من رآنا ومن سمع بنا»[1].

وقد نشرت إحدى الجرائد صورته بدون إذن، وفي مقال مغرض، فاسترشد في ذلك فقال: «جزاكم الله خيرا، فعسى أن يرانا من كان يسمع بنا فقط و لم يرانا»[2].

ويقول كثيرا: «كل منكر مذكر»[3]، ويوصي بألا يرد علماء الطريقة على الذين يريدون أن يجروا الطريقة إلى معترك الصراعات التي لا تخدم قضية المغاربة، وقضية الأمة. إن الروح إذا سمت، عانقت كل جميل، وأعرضت عن كل قبيح، ذلك هدف أهل الله من شيوخ التربية.

الأبعاد المعرفية

إن معرفة الله عند الصوفية أجل غاية، وأسمى قصد يمكن أن يصل إليه العبد، ولكن الذي يميز المعرفة عند الصوفية أنها تقوم على الذوق الباطني، والشهود القلبي، إنها تحقيق مقام الإحسان، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4].

ولا تتم هذه المعرفة إلا بتطهير النفس من الشوائب، وتصفية القلب من الحجب، وذلك بسلوك طريق المجاهدة، ومخالفة العوائد، وصحبة العارفين بهذا الشأن ﴿الرحمن فاسأل به خبيرا﴾[5]، قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[6]. وقال أيضا: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[7]، وقال أيضا: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾[8].

---

(1) الدرر الغوالي من كلام الشيخ حمزة رضي الله عنه.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه.
(4) من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام وعلم الساعة.
(5) الفرقان: 59.
(6) العنكبوت: 69.
(7) البقرة: 282.
(8) الأنفال: 29.

لهذا تميزت المعرفة الصوفية، بأنها اختارت طريق التصفية، والطهارة القلبيـة، لأن القلب هو أقوى جهاز لإدراك الحقائق العلوية، فقـد وضعـه الله تعـالى بصفـات غطـت كل الخصائص البشرية، وأعطاه صفة الفقه، والتعقل، والتدبر، والتذكر، والإبصار، قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بـها﴾[1]، وقـال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بـها﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿أفـلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلـب﴾[4]، وقـال تعـالى: ﴿فإنـها لا تعمـى الأبصـار ولكـن تعمـى القلـوب الـتي في الصدور﴾[5].

إن القلب المخاطب في هذه الآيات هـو القلـب الصـافي، الطـاهر الـذي تجوهـر، فأصبح مرآة ناصعة تظهر عليها لوائح الحقائق العلويـة، مصداقـا لقولـه صلـى الله عليـه وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلـح الجسـد كلـه، وإذا فسـدت فسـد الجسد كله، ألا وهي القلب» [6].

ولقد أكد الشيخ ماء العينـين هـذه الحقيقـة فقـال: «إن جميـع علـوم البـاطن إنمـا تحصل بالذوق، والوجدان، والشهود، والعيان، لا بالدليل والبرهـان، وهـي ذوقيـات لا نظريات، فإنـها ليسـت بطريـق التـأمل السـابق، ولا بسـبيل التعجـل اللاحـق، بـترتيب المبادئ والمقدمات، وعلى اعتبار حصولها بطريق الانتقال بالواسـطة، لا بطريـق الـذوق بغير الواسطة» [7].

إن البعد المعرفي الذي يريد الشيخ ماء العينين أن يؤكده هو تشغيل حاسة الذوق

---

(1) الأعراف: 179.
(2) الحج: 46.
(3) محمد: 24.
(4) ق: 37.
(5) الحج: 46.
(6) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.
(7) السيف والموسى على قضية الخضر وموسـى، ص: 24، طبعـة فـاس الحجريـة، سنة 1309هـ، نقلا عن الدكتور محمد الظريف.

الباطني، وذلك بالمجاهدة والصحبة أو ما سماها بالواسطة -أي واسطة الإرشاد والتوجيه فقط- لأن انتقال هذه المعارف وراثة محمدية من قلب إلى قلب، يقول الشيخ ماء العينين:

«فمتى دخل المريد الصادق تحت حكم شيخ، وتأدب بآدابه، وطر على يقين بما خصه الله به سرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كما يقتبس السراج من السراج، إذ كلام الشيخ يلقح باطن المريد؛ إن نفائس الأحوال مستودعة في باطن الشيخ، فينتقل الحال منه إلى المريد بواسطة الصحبة والمقال، وهذا في مريد حضر بنفسه مع الشيخ، وانسلخ من إرادة نفسه، وبقي مع الشيخ بترك اختياراته، فيصير بين الشيخ والمريد امتزاج، وتأليف حتى يرتقي بترك الاختيار معه إلى ترك الاختيار مع الله، ويفهم من الله كما يفهم من الشيخ»(1).

ويؤكد الشيخ حمزة البودشيشي هذا الحكم فيقول: «الحكمة في الصحبة»، «الحكمة في الذي يقوي القلوب»(2)، «الإنسان حين يصحب الأخيار ينسلخ من شهوات النفس»(3).

وإذا كان تحريك الباطن من أسمى أبعاد التجربة الصوفية، فلاعتقادهم الجازم بأن معرفة الله اليقينية لا تكون إلا بهذه الطريقة.

ويأتي بعد هذا البعد بعد آخر تابع للبعد الأول، وذلك أنه إذا تمت معرفة الله تلاشت جميع الحظوظ، وأصبح العبد لا يرى لنفسه فعلا إلا من الله وبالله، وهذه هي درجة الفناء التي نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الولي، فقال مخبرا عن رب العزة: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله

---

(1) نعت البدايات، ص: 7.
(2) الدرر الغوالي من كلام الشيخ حمزة البوتشيشي.
(3) المرجع نفسه.

ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءلته»[1].

ومن أصبح على هذه الدرجة من الإيمان، لم يعد له قصد إلا وجه الله تعالى، و لم يعدله شيء يصده عن حبيبه ومهجته.

قال الشيخ حمزة: «جنة المعارف أفضل من جنة الزخارف، وهي التي يعيشها العارفون، إنها جنة المعاني والتنزل والتجلي الإلهي، والتجلي المحمدي، فيعرفون أسرار الذات، وصفات الجلال، وذلك لأن الله تبارك وتعالى يكشف لهم الحجاب عن هذه الأسرار»[2].

ثم أضاف قائلا: «والعارفون يكونون عبيدا لله، ولا يريدون عوضا عنه»، ثم أضاف متمثلا بالبيت الشعري الذي يؤصل لهذا الشعور:

أنا ليس لي في الجنان والنار رأي   أنا لا أبتغي بحبي بديلا

ثم أضاف قائلا: «هذا هو هدف الأولياء»[3].

إن هذا السلوك يجسد أسمى غايات الإخلاص لله في الأعمال، فيشهدها بارزة من الله إليه، لا منه إلى الله، إنه أدب رفيع مع الحق تعالى.

يقول الشيخ حمزة: «إن العمل في الحقيقة ليس لك، بل هو لمولاك، وأنت ليس لك شيء، أنت لمولاك، وعملك لمولاك، قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[4]»[5].

إنها العبودية لله تعالى في أسمى صفاتها، وأبهى تجلياتها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض﴾[6].

إن هذه الأبعاد وأبعادا أخرى، تدل على أن شيوخ التربية في بلادنا المغرب –بلد

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
(2) الدرر الغوالي.
(3) المرجع نفسه.
(4) الصافات: 96.
(5) الدرر الغوالي.
(6) يونس: 96.

الأولياء- على درجة كبيرة من النضج المعرفي، والقوة الروحية، ويملكون كيمياء السعادة التي بحث عنها أفراد الرجال كالغزالي، وأبي الحسن الشاذلي، والتي تربط العبد بمولاه، وتجعله صالحا للبلاد والعباد، إنها سلسلة متصلة من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم إلى صحابته المأذونين في هذا الشأن، إلى التابعين، إلى تابعيهم، إلى الشيخ ماء العينين، إلى الشيخ حمزة القادري البودشيشي، إلى آخر طرف تقوم عليه الساعة.



صورة لإحدى الجلسات العلمية



صورة للجلسة الختامية

اَلقَصَائِدُ

إليك سلاما

خديجة أبي بكر ماء العينين

إليكَ سلاما والأماني تلازمُهْ ... كما لازمتْ أيْكَ الرياض حمائمُهْ
فما زالتِ الأشواق ترسل بيننا ... رسولا نُصافيه الهوى ونُناغِمُهْ
تُهَدْهِدُنَا الأسحارُ طَوْرًا وتارةً ... ونُسْقَى رحيقَ الفجر تُرْوى هوائمُهْ
وثالثنا تقوى الإله يدُلُّنا ... على خير ما يُرْضي فلسنا نخاصمُهْ
إذا قلتَ أصْغَينا ولستَ مفنَّدًا ... وإن أنت لم تَنْطِقْ فطَرْفُكَ عازمِهْ
وكان لسان الحال ينطق بالذي ... له القلبُ إن أخفى لأنك فاهِمُهْ
أكَتِّمُ سِرًّا والقوافي تنُوشُهُ ... فوالله ما أبديه ما أنتَ كاتِمُهْ
ولكنْ أسَلِّي بالطُّيوف مَحاجِري ... فحسبيَ طيْفٌ للحبيب أنادِمُهْ
هو الْحُبُّ يستدعي الأناةَ ليرتقي ... فأيَّامُهُ تحلو وتحلو مَغانمُهْ
وحُبُّكَ أهلَ اللهِ في اللهِ طاعةٌ ... وصلْتُ بقلبي حبَّهُمْ وأداومُهْ
وللشيخ ما العينين قُطْبِ زمانِهِ ... مقاماتُ أهلِ البرِّ، تلكُمْ معالِمُهْ
كما أنَّهُ رَمْزُ الجهادِ الذي بِهِ ... رُبَى المغربِ الأقصى زَهَتْ وتَهائِمُهْ
فلم يُثْنِهِ أمْرٌ عنِ العِلْم والعُلى ... وكمْ في سبيلِ الحقِّ شِيمَتْ صوارمُهْ
لإعْلاءِ دينِ الله لم يَخْشَ لائِمًا ... ولكنه لاحِي الْجَحُودَ ولائِمُهْ
تآليفُهُ تَرْبو على الْعَدِّ كاتِبًا ... وكُلٌّ مُفيدٌ في العلومِ فناظِمُهْ
توسَّلَ نظْمًا بالحبيب مُحَمَّدٍ ... فمَنْ يتْلُ أوْ يسْمَعْ دُعَاهُ فعاصِمُهْ
به أضحتِ الصحراءُ للعلم مَوْردا ... فمَجْدُ الصِّمَارَا باقياتٌ علائمُهْ

تَغَنَّتْ بِه فاسٌ وتطوانُ، إنَّما تَرَنُّمُ سوسٍ لا تُجارى نَواغِمُهْ

لقد أحْرَزَتْ فخْرًا بضمٍّ رياضِهِ فما زال فيها الفضْلُ تَتْرى نسائِمُهْ

قَفا سُنَّةِ المختار قولا ومَنهجا وكم طُرُقٍ في الدين آخى تُلائمه

فلَمْ يكُ يستثني تجاني مذهبٍ ولا قادريا بالحنيف دعائمه

إذا أنت لم تدرك مراما لغاية فحسبك شيخي نهجه ومكارمه

هو الشيخ ما العينين إني بذكره بلغت مرادا أذهلتني عزائمه

فيا قطب من يأتي وقطب الذي مضى لك المجد والعرفان تلوى عمائمه

وكنت صفِيَّ الله قلبا وقالبا فأدركت سِرَّ الكون، والليل قائمه

بكم تدرك الغايات رغم ابتعادها بكم يجمع الشمل الشتيت عوالمه

فلم تنجب الأيام مثلك مطلقا هو القول، لا تثريب، والصِّدق داعمه

عليك سلام الله ما ذَرَّ شارق وما بات دمع الصّب تهمي سواجِمُهْ

أصلي على خير الأنام محمد صلاة سلاما لا يضل ملازمه

حبذا ذكره...

أحمد بن المبارك أبو القاسم

كل نفس أبية مشتهاها ... أن يحل السَّراة ضيفا ذَراها
فتديرَ عليهم من كؤوس ... مترعات معتقات هواها
إن رضوا بالوداد محضا فهذا ... غاية الوصل وهْو كلٌّ مناها
فكذا مبتغى مدينة تزنيـ ... ـتَ إذا الضيف طارقون حماها
يا وفود الهدى حللتم أهلا ... فالمضيف اشتياقه لا يضاهى
فلكم ما اشتهت نفوسكم من ... خالص الود أو نَنَالَ رضاها
فتحايا من عمق كل فؤاد ... يعشق المجد، فاح صدقا شذاها
برح الوجد والوفاء وفاضت ... ذي العواطفُ لا يحد مداها
إن **تزنيت** كلها في انتظار ... شاقها وصلكم والشوق براها
طال عهدها باللقاء **وهذا** ... **يوم عيدها** فلْتَبُثَّ جواها
إن سعدتم -ضيوفَها- بمقام ... ستجود بما حوته يداها
فامكثوا في الرحاب أهلا وسهلا ... فبكم نورت وزادَ بَهَاها
فانشَقوا الود والوفاء متى ما ... صافحتكم نسيمها أو صبَاهَا
وانصتوا لقصيدِها فهْو للضيـ ... ـف تحايا التَّرحاب قبل قراها
وَلْنجدد عهودنا بوصال ... ووئام موثقين عراها
كعهود **قطب المشايخ** طرا ... **شمسِ تزنيتَ** من به تتباهى
هو ماء العينين نور البوادي ... والحواضر ذو كمال ثناها
من به "الحوض" و"العيون" ترقرقـ ... ـن ضياء أحيا مواتَ ثراها

فرأتـه الطغـاة نـارا تلظـى … إذ دهاها من بأسه ما دهاها
ناوشـت جنـدَه فذاقـت وبـالا … أينما دارت للحروب رحاها
حشـدت عُـدَّةً لهـا وعتـادا … فـرَدَى الشيخُ جمعها وقِواها
مـا رماها بما بـه قـد رمته … بـل **رمى عنه الله** حين رماها
فالولي، كمثله إن رمى يُصـ … ـمِي بلا قوس أو سهام نراها
كيف لا وهْو في **الحقيقة شمس** … ومقامها في البروج علاها
أدركت نفسه **مقاما** فما أد … رك مثلَه أيُّ نفس سواها
نال ما نال بالعلوم وزكى … نفسه بالإخلاص خيرِ تُقاها
جمع الدين والدُّنا رغم هذا … ألجم النفس بالتقى وزكاها
ولِنُسْكٍ بنى "سمارة" بجد … وجهاد مقدس إذ بناها
فغدت معقل الكفاح وحصنا … لشعاع الهدى بما قد حباها
من **وُفور العلوم والدين والدنـ** … **ـيا** فنال الفلاح من قد أتاها
واهتدى أن "**الغرب**" جِدٌّ قمين … أن ينال النهوض علما وجاها
فأتى قائدا جحافل أنوا … ر الهدى بدَّدَ الظلام سناها
لم يزل يتخير المثوى في الأ … رض فجاب سهولها ورباها
فرأى من تزنيتَ خير مقام … وأناخ بها بحيرا قُراها
فبدت روضةً لعلمٍ وحلمٍ … وجهاد، فزانها وحماها
كم بها قرت أعين الناس لما … وضع العصا وسطها وارتضاها
فهنيئا لها بخير مُقيم … أبد الدهر في رحاب فِناها
ليس بالبدع أن تُقيم له **الذكـ** … **ـرى** يرن مدى الزمان صداها
وهْو باعثٌ نهضةَ الشعر فيها … منشئا ومسددا لخطاها
لَمَّ فيها شملَ "**الطّرائق**" جَمْعًا … وعزى للرسول أصلَ هداها
ذي كراماته يرددها الدهـ … ـر فكم منصف صدوق رواها

إنمـــا صغتـــها شـــعورا بجـــرس وقــوافٍ كمــا الْمَقــام اقتضاهــا

كيف نذكر **مـا العينـين بـلا شعـ** ـــر، وشــعره للعــلا قــد تناهــا؟

بذكـــاء وحكمـــــة وبيـــــان ورؤى حــل في القــوافي ذُراهــا

معجز القرن موجَــز في ســطور **وبذكــراه** يــهتدي مــن وعاهــا

حبذا ذكـره بالشـعر مـدى الدهــ ـــر، فالشـــعر بذكـــره يتبـــاهى

فعليــــه مــــن العلــــي صــــلاة في جنــان الخلــود يجــني جناهــا

نعرف عنيان تيزنيت

الطالبوي لعتيكـ ماء العينين

نَعْرَفْ عَنْيَانَ تِيزْنِيتْ　　　الاَّ نبْغِيهَ وُانْجِيهَ
وُامْنَيْنْ امَّلٌ مَاثْلَيْتْ　　　انْكْدْ انْجِيهَ نبْغِيهَ
وَانَ وَبَّاتِي كَامْلِينْ　　　وخوتِي جَيْنَ شَاكْرِينْ
ذَا الْمَجْلِسْ وُلّ قَايْمِينْ　　　بِالنَّدْوَ ذِيكْ الْفِيهَ
اَلسَاتِيذَ بَاحْثِينْ　　　ذِيكْ الْفِيء حَيِّهَ
وَهْلْ اقْتِصَادْ اَفَاعْلِينْ　　　فَعْمَالْ اَخْرَ نَزِيهَ
وُالّ شَرْبُ مِنْ مَا الْعَيْنْ　　　وُالْعَيْنْ الّ اتْحَاذِيهَ
ذَا الشَّيْخْ الْكَانْ ألاَّ مْتِينْ　　　وَاعْمَالُ مَا نْخْصِيهَ
لَجَيْتْ اِنْعْدْ الاَّ الدِّينْ　　　ذَاكْ اِعَمْرْ كَاعْ اِفْجِيهَ
وَلّ حَرْبُ للضَّالِّينْ　　　ذِيكْ اِسْنِينْ اَسْكِ بِيهَ
وَالتَّآلِيفْ امْكَاثْفِينْ　　　اَعْمَالْ الْحَرْبْ اتْحَاذِيهَ
كُلُولِ كَاعْ الاَّ امْنَيْنْ　　　ذِي السِّيرَ نَبْدَ فِيهَ
ذَاكْ أطَيْمُومْ الاَّ إِلَيْنْ　　　نَخْبَرْ سَفِينَ نشْرِيهَ

نَعْرَفْ عَنْيَانَ تِيزْنِيتْ

تَوْصِيَاتُ النَّدْوَةِ

نظرا للفراغ الثقافي الذي أصبحت تعاني منه مدينة تيزنيت في السنوات الأخيرة، ارتأت مجموعة من الغيورين على الثقافة داخل المجلس البلدي تكسير هذا الجمود، بإقدامها على تنظيم هذه الندوة المباركة حول شخصية "العالم المجاهد الشيخ ماء العينين"، احتضنها المجلس البلدي بمدينة تيزنيت إشرافا وتنظيما وتأطيرا.

وقد شملت هذه الندوة، التي استغرقت يومين، مجموعة من المحاور الأساسية يمكن تلخيصها في:

1-**المحور التاريخي**: تناولت العروض المقدمة في إطاره الدور النضالي والجهادي عند الشيخ من خلال وثائق محلية وأجنبية، مبرزة مساهمته في نشر الوعي السياسي بمنطقة الجنوب، ومؤكدة على إجماع القبائل الصحراوية حول شخصه من جهة، وعلى الثقة التي كان يحظى بها من لدن سلاطين المغرب آنذاك، باعتباره صلة وصل بين الجنوب والشمال، بل خليفة لهم على منطقة الجنوب.

2-**المحور الأدبي**: أكدت فيه مختلف القراءات المقدمة على غزارة إنتاجات الشيخ كَمًّا وكيفا، وتنوعها إبداعا وتنظيرا، مما يدل على إلمامه وموسوعيته، وعلى خصوبة تراثه، مما يجعله مادة دسمة تغري بالبحث والدراسة والتنقيب.

3-**المحور الديني**: أجمعت مختلف العروض على غنى عطاء الشيخ في هذا المجال وتنوعه وتعدده، وتشعب جوانبه، وهو عطاء يجمع بين التصوف والفقه والأصول وعلم الحديث وغيرها من العلوم الدينية، ويجعله رائدا من رواد الحركة السلفية الوحدوية في المغرب، ورمزا من رموزه التاريخية.

التوصيات:

انطلاقا من هذه المعطيات تظهر أهمية هذه الندوة وقيمتها العلمية والوحدوية، ولاستكمال وحدتنا الثقافية وتأصيلها، تقترح الفعاليات المشاركة ما يلي:

1-إقامة جامعة صيفية بتيزنيت تحمل اسم العلامة المجاهد الشيخ ماء العينين.

2-طبع أعمال هذه الندوة من أجل الفائدة والتعميم، وذلك في أقرب الآجال.

3-مواصلة النبش في الذاكرة المنسية بالجنوب من أجل إبراز العلاقة الوطيدة بين سوس والصحراء المغربية.

4-المساهمة في طبع النصوص التراثية المحلية ونفض الغبار عنها.

5-إنشاء جائزة محلية تحمل اسم علم من أعلام المنطقة، حول أهم المخطوطات المرتبطة بتراثها.

6-مواصلة البحث والتنقيب في التراث الشعبي للمنطقة بمختلف تجلياته حسانيا أو أمازيغيا...

نص البرقية

الموجهة إلى صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إلى السيد: مستشار صاحب الجلالة
الديوان الملكي
الرباط

سلام تام بوجود مولانا الإمام

أما بعد:

فيشرفنا سيدي المستشار أن نلتمس من جنابكم الكريم رفع البرقية التالية إلى مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين.

السلام على المقام العالي بالله ورحمة الله تعالى وبركاته.

بعد تقديم ما يليق بالسدة العالية بالله من فروض الطاعة والولاء، يتشرف رعاياكم الأوفياء من أساتذة باحثين، وأعضاء المجلس البلدي، وأعيان المدينة، وآل الشيخ ماء العينين، والفعاليات الثقافية المنتمية للأقاليم الجنوبية المغربية المشاركين في ندوة: "العالم المجاهد الشيخ ماء العينين" بمدينة تيزنيت السلطانية يومي 28 و29 أبريل من سنة 2000 بأن يتقدموا إلى السدة العالية بالله بأسمى آيات الولاء والوفاء والإخلاص والتعلق بأهداب العرش العلوي المجيد، داعين لجلالتكم بالنصر والتأييد.

وإننا لنعاهدكم يا مولاي على أن نظل دوما جنودا مجندين خلف جلالتكم، وأن نبقى أوفياء لروح قسم المسيرة الخضراء، مدافعين عن الوحدة الترابية لمملكتكم السعيدة من طنجة إلى الكويرة، متشبثين بأهداب عرشكم الوفي رمز عزتنا وكرامتنا، متفانين في خدمته وطاعته والإخلاص له.

حفظكم الله يا مولاي بما حفظ به الذكر الحكيم، وأقر عينكم بشقيقكم سمو الأمير الجليل مولاي رشيد وسائل أفراد الأسرة الملكية الشريفة.

والسلام على المقام العالي بالله.

وحرر بتيزنيت يوم 24 محرم من سنة 1421هـ.

الموافق لـ: 29 أبريل 2000م.

إمضاء: خديم الأعتاب الشريفة

أحمد إديعز

رئيس المجلس البلدي

لمدينة تيزنيت

مُلْحَقُ ٱلْوَثَائِقِ

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد النبي الكريم

الحمد لله وحده صلى الله على من لا نبي بعده

وبعد فمن كاتبه سلام لا يفنى وتحية لا تبلى كلاهما لا تتناهى
سلام ابهى وتحية اسنى كلاهما بلا منتهى سلام تنفح عنه [illegible]
وما نخبر عنده الانام لكونه على قدر من ارسل اليه السلام لانه سيدنا ومولانا [illegible]
من لا يأخذه على امر ربه [illegible] مولانا وابن مولانا مولاي الحسن جعله الله سيدا من الخير كل [illegible]
من قبله الى مولانا ان العلامة بان قوما من النصارى لعنهم الله يرجوا على هذه المسلمين [illegible]
يضيع هذه البلاد السائبة التي لا فيها من يبلغ للجنود لان اهلها برزوا بلا قبيلة لهم وعرب
كالوحوش [illegible] بالاسود فارسلنا لهم من يستخبرهم هل خرجوا عن اذن من سيدنا
ام لا فان كان من سيدنا فالسمع والطاعة الا انه لابد ان نخبر سيدنا باحوال اهل البلاد
ليرسل لهم من يفقههم شوكة العدو ويريهم السياسة فيه والحذر منه وان لم يكن عن
اذن سيدنا فلا يقبلوا لهم ذلك لكي يستحيلوا لهم او لا يطلب [illegible] الجزية [illegible]
عن البلاد ويكتب [illegible] ان لا يقبلوا ذلك ويفعلوا معهم ما [illegible] عند القادمين عليكم [illegible] الخروج
نصركم وحفظكم فيما ولاكم [illegible] يرفع عنه هذه المسلمين وبلاد [illegible]
التي ليس فيها غير المساكين او الضعفاء وليرسل لنا من كلمته ومعونته ما [illegible]
به ان شاء الله [illegible] وصيته [illegible] العامة من [illegible]
المسلمين بانهم لا يقبلوا لهم بناء ولا خروجا في هذه البلاد ولتغلظوا القول على من فعل
ذلك لهم ولتامروا من يجيب لنا السؤال الذي بيد الفقير عن امر [illegible] بما شاء فيما ومن
[illegible] فيها والله يجازيكم بما تعاملونه بالتمام وعن [illegible] والسلام
كاتبه محبكم وخديمكم والداعي لكم رحمكما الله ونصركم وحفظكم فيما ولاكم عبيد ربه وابن [illegible]
ماء العينين [illegible] الشيخ محمد فاضل بن مامين [illegible] والمسلمين [illegible] شهر [illegible]
عام 1305

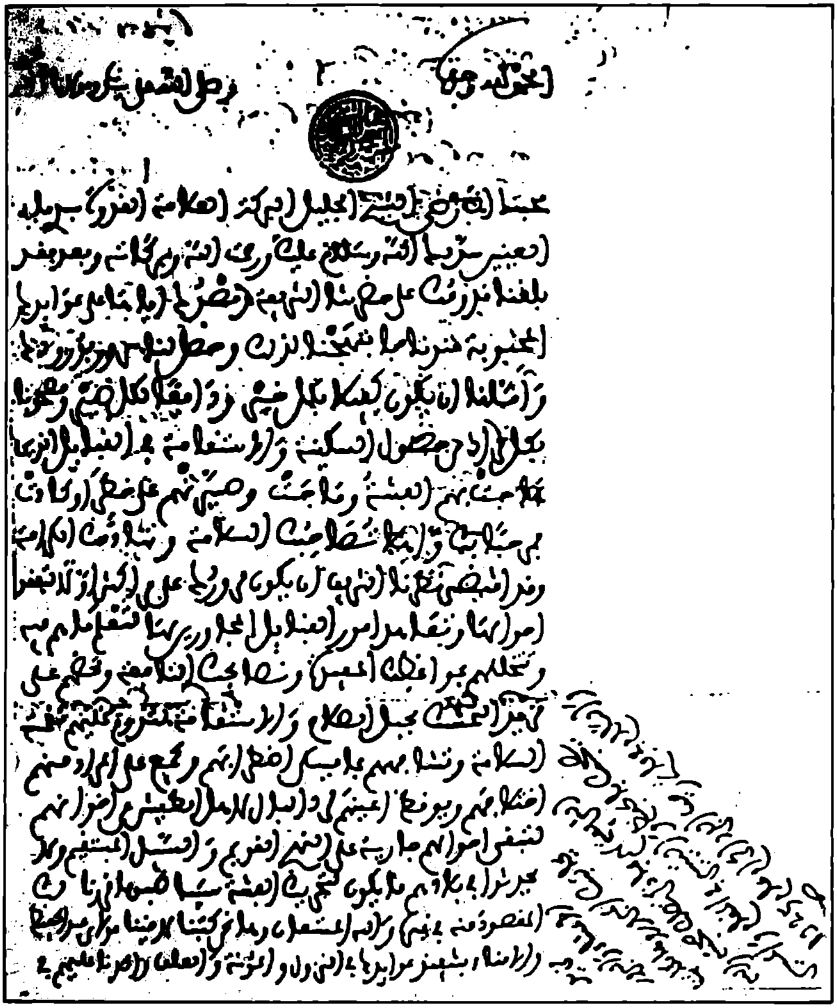
[illegible]

[illegible]

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي الحسن الأول



رسالة من السلطان المولى عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين

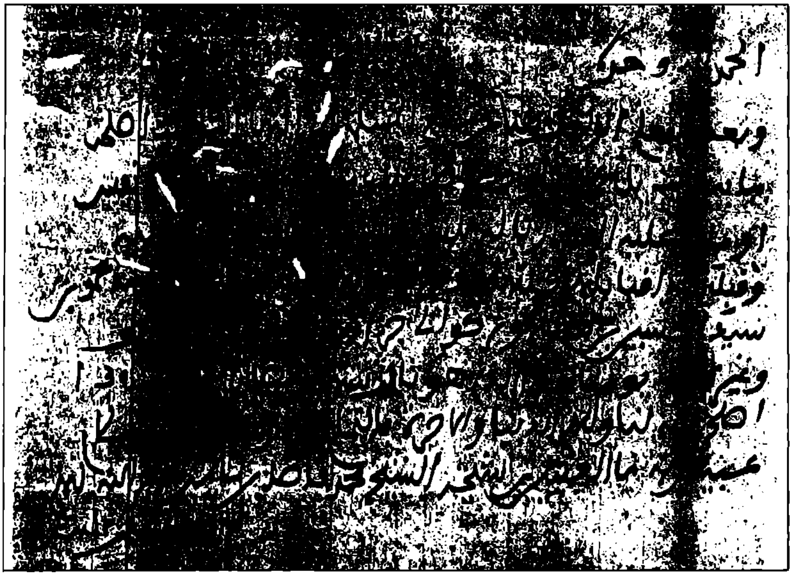


رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى الشيخ ماء العينين

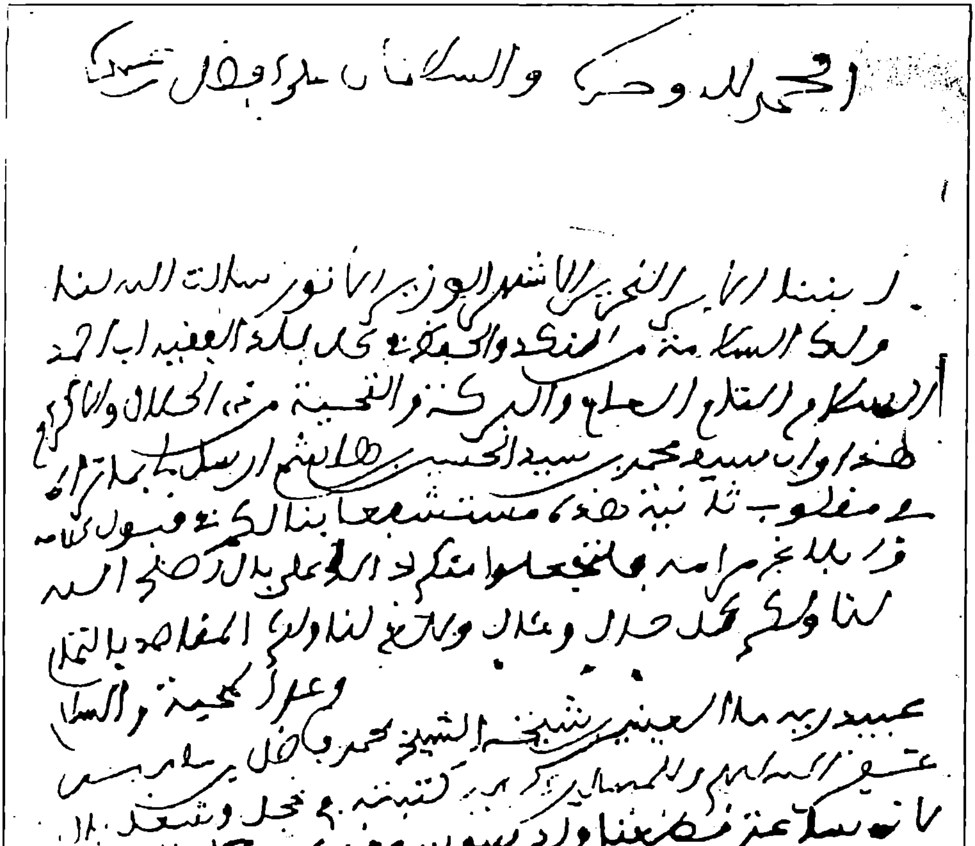

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

[illegible] الله على العالمين أمير المؤمنين أيد الله بما أيد به [illegible] وأمد
بنظرها كتبه المغربين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما دام الكون وحركاته
وسكناته هذا وإنا قدمنا على الأهل ولله الحمد وظلكم علينا مسبول لا زال [illegible]
يزداد وعملكم مقبول ووجدناهم سالمين ولله الحمد والبابور قدم علينا ببعض ما تفضلتم
به والبعض منتظر بفضلكم والله أن يجازيكم عنا بأحسن جزائه ولم يطرأ في هذه
الناحية من شيء يخفى عليكم حفظكم الله غير أنا بلغنا أن بعض النصارى أغاروا على [illegible]
ووقع بينهم مع أهله من [illegible] ما جاء [illegible] أن المسلمين قتلوا منهم ثلاثة عشر وهم قتلوا من المسلمين
نحو العشرة ولما قدموا على أهلهم وقد أسر المسلمون منهم ستة [illegible] الغضب وقالوا
لهم إنا ما أرسلناكم لهذا وأرسلوا [illegible] أنه [illegible] على أن يعطوا شيئا من المال
ويبعثوا عن بلادهم وأنه فعل هكذا بلغنا ولم ندر هل هو [illegible] والله المرجو أن يمد
[illegible] المسلمين ونواحيها ويجازيكم عنا بالجنة [illegible] وعليكم التحية والسلام
عبيد ربه ماء العينين [illegible] الشيخ محمد فاضل بن مامين عفا الله عنهم وللمسلمين آمين
في [illegible] من جمادى الآخرة عام [illegible]

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان المولى عبد العزيز



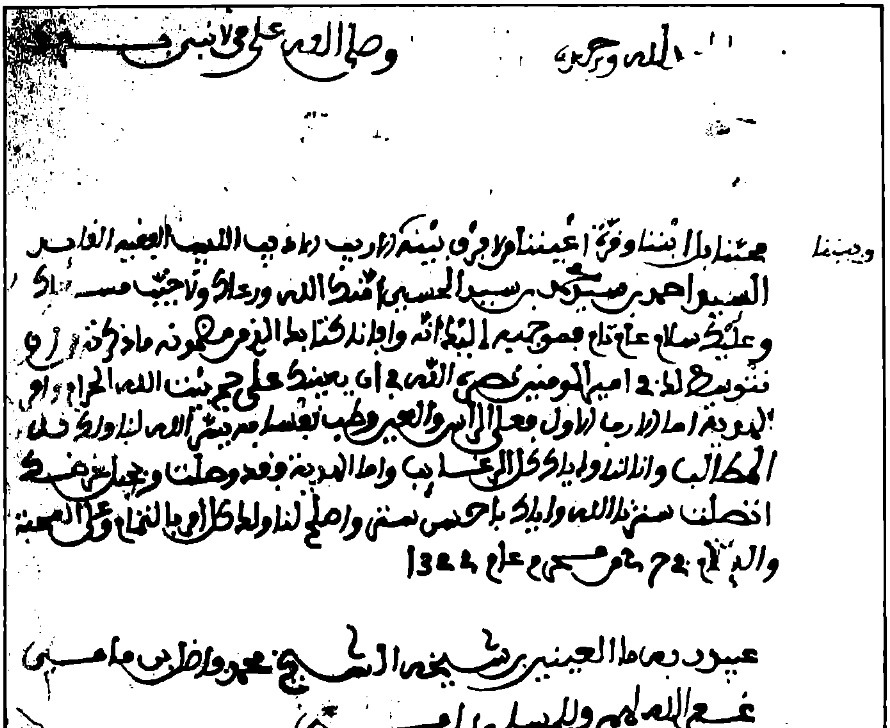
وثيقة بخط الشيخ ماء العينين يثبت فيها دوره في الصلح ما بين قبائل ايت بل



الحمد لله وحده والسلام على [illegible]

إلى محبنا الأديب النحرير الأشهر الوزير الأنور سلالة [illegible] سيدنا
ولد السلامة من [illegible] بلدة الفقيه أبا حماد
أزكى السلام الشامل الجامع والبركة والتحية من ذي الجلال والإكرام
هذا وإن سيدي محمد بن سيدي الحسين [illegible] أرسل بها [illegible]
في مطلوب [illegible] مستشفعا بنا الكرم في قبول كلامه
[illegible]
لنا ولكم [illegible]
عبد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل [illegible] وعليكم التحية والسلام
[illegible]
[illegible]
وحبسنا ثلاثة [illegible]
[illegible] الله علينا [illegible]
[illegible] وهو تاسع عشر شعبان الأبرك عام [illegible]

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى الوزير الفقيه أبا حماد



الحمد لله وحده ... وصلى الله على من لا نبي بعده

محبنا وابننا وقرة أعيننا والأعز في بيته [illegible] الأديب اللبيب الفقيه الفاضل
السيد احمد بن سيدي محمد بن سيدي الحسين امنك الله ورعاك و[illegible]
وعليك سلام [illegible] تام بعموم جميع البركات واما بعد فكتابك الذي [illegible] مضمونه ماذكرته [illegible]
[illegible] امير المومنين نصره الله في ان يعينك على حج بيت الله الحرام [illegible]
[illegible] والعبر [illegible] بيت الله لنا ولكم [illegible]
المطالب وانا لنا ولياكم [illegible] واما المدينة فقد وصلت [illegible]
[illegible] الله واياك باحسن [illegible] واصلح لنا ولك [illegible] والعافية
والسلام في 24 من محرم عام 1324

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين
غفر الله لهم وللمسلمين آمين

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى القائد السيد
احمد بن سيدي محمد بن سيدي الحسين أهاشم

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

إلى سيدنا ونبيهنا أخينا في الله حبيبنا أحمد بن الشمس جعلك الله من ذوي
الشمس وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ما دامت محبتي من ربنا
رحمانه وبعد فقد وصلنا كتابكم وما تضمن فيها من الخير فالله
يجازيكم بالخير ويزيدكم خيرا وقد أتانا ابن الفايد ومن معه ومرحبا وأهلا
وسهلا والله يجازيكم ويجازي الفايد ويجازيه هو بما تحبونه ويحبه
والحمد لله على ما وقع من حيز الزاوية وتعميرها بالتلامذة والحمد لله
على ما وقع مما يسر الأصدقاء ويكبت الأعداء وقد أرسلنا بالسلطان
بخبر النصارى دمرهم الله وما وقع فيهم ولله الحمد وحاصله أنهم
بعد أن استولوا [illegible] أهلك الله كثيرا منهم وانهزم جيشهم
الذي [illegible] هزيمة عظيمة وهذه الوقعة التي جاءتنا ولله الحمد
على [illegible] نرجو الله أن [illegible] صلاح الدنيا والآخرة
وهو قد جاء [illegible] هذا من الخبر [illegible] من العدة والناس
[illegible] العدة [illegible] ثم [illegible] فيهم
موجود [illegible] ولما لم [illegible] نقول لهم [illegible]
[illegible] أن [illegible] وإنما
إن شاء الله لا بد أن يأتي منها ما يشفي [illegible] إن شاء الله وأيضا فإنهم
إن [illegible] البلاد [illegible]
[illegible] جميع الخير والنعم [illegible]
في الوقت [illegible] في هذا الزمن والله الموفق
والمستعان [illegible] وعليكم [illegible] والسلام

في 2 جمادى الأولى [illegible]

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل [illegible]
[illegible]

والفايد [illegible] ونرجو [illegible]
الله أن [illegible] وهذا علينا [illegible]
[illegible] أبدا [illegible] على [illegible]
[illegible] الله نرجو الله أن يقضيه [illegible]
وقد [illegible] رضي الله عنه [illegible] أن نستعين بهذه الكلمات لقضيه
[illegible] والسلام

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى الشيخ أحمد بن الشمس.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المومنين

الحمد لله الحمد لله الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده [illegible]

لا سيما بنعمته علينا [illegible] القائد ادريس

[illegible]

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى القائد ادريس بن يعيش

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

حفظ الله على الكائنين خليفة رب العالمين مولانا أمير المؤمنين عبد العزيز
أدام الله عزكم ودوام أخا يبلغ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما دام الكون
وحركاته وسكناته وبعد فقد أشرق علينا شمس كتابكم المبشر بالإذن
في القدوم على الأعتاب الشريفة يوم السبت عند قدومكم من خوبان وها أنا
نريد القدوم على تلك الطلعة المشرقة يوم الخميس إن شاء الله تعالى منة الله
منه ونلتجي إلى الله بجاه نبيه وكتابه أن يجعله قدوم خير ويمن وبركة وجازاكم
عنا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من كل ما تحبونه بالتمام والكمال
في 2 جمادى الآخرة عام 1316   المحبة والسلام

عبيد ربه ماء العينين شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان المولى عبد العزيز.

فِهرِسُ المُحتَوَيَاتْ

III- المحور الأدبي

مطبعة النجاح الجديدة
الـدار البيضـاء

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب شخصية الشيخ ماء العينين الذي ميز مرحلة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، بإسهاماته الفكرية وجهاده المتميز.

وكان لفكره وجهاده بالغ الأثر، في المجتمع المغربي وصدى كبير في أوساط المخزن وعموم المهتمين بالعلاقات المغربية آنذاك.

وكانت السمارة بالصحراء المغربية، منطلقا لجهاده العلمي والديني والسياسي، الذي التحمت فيه جهود أبناء الصحراء وأبناء سوس لأكثر من ثلاثين سنة، مما عزز وحدة المغرب في إطار حركة امتزجت فيها تلك النفحة الدينية، والسلفية السمحة، بالعطاء الفكري والسياسي، فكانت درعا واقيا لصد الهجمات الاستعمارية والأطماع الأجنبية عن ربوع هذا الوطن.

وتأتي فصول هذا الكتاب، لتسهم في إحياء هذا الجانب، من الذاكرة المغربية المرتبط بهذه الشخصية الفذة.